

يوسف جاد الحق

قبل الرحيل

رواية

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

1997

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

تصميم الغلاف للفنان : أنور رجا

اهداء

إليكما :

أمي وأبي
تنعمان بالرفق وتحت ثراها
أشواقي تنادينني ..
بأن آوي إلى جواركما ..
فثراها مُنيتي ..

إليكم :

أبنائي
وائل، هنادي، زياد
ريم، ثناء، أحمد، نور
ليكن يقينكم على المدى
بأنكم عائدون إليها ..
ولسوف تعرفون يوماً
كيف الطريق إليها ..
يوسف

تقع قرينتا فوق رابية تتوسط سهلاً فسيح الأرجاء، يحيط بها من كل جانب، يكتظ بالكروم وبيارات البرتقال، كما تنتشر في بعض جنباته حقول القمح وبساتين الفاكهة من كل نوع ولون.

وقد اختلفت فيها آراء أهلها قبل غيرهم. فمنهم من يقول إنها ليست سوى هضبة عادية، أوجدتها الطبيعة، فيما يقول آخرون أنها تقوم على أنقاض مدينة رومانية غابرة. أما من زارها من اليهود القاطنين في مستعمرة (رخبوت) القريبة، أو (ريشون)، عيون قارة، الأبعد قليلاً، فقد زعموا أنها بنيت فوق أنقاض بلدة يهودية من عهد داوود وسليمان.

تشغل المباني، متباعدة الأشكال، سفوح الرابية، فتبدو للرائي، عن بعد، كأنها أهرامات الفراعنة القدماء. وعند القمة يقوم مسجد القرية الأثري، الذي يرجع تاريخ بنائه إلى أوائل الفتح الإسلامي لهذه الديار، قبل نيف وثلاثة عشر قرناً. وتكتنف المسجد ساحة فسيحة يتجمع فيها، معظم النهار وشطراً من الليل، لفيف من الباعة الذين لا يفتأون يعلنون عن بضاعتهم بأصوات تملأ المكان ضجيجاً : عرقسوس.. فلافل.. ملابس.. كراييج حلبيّة... مع أن هذه لم تكن (كراييج) ولا هي من حلب، كما تبين لي فيما بعد، الأمر الذي أكد لي كم يخدع الكبار الصغار دون أن يرف لهم جفن..!

تتشعب أزقة القرية الضيقة المتعرجة بين بيوت عتيقة، شيد بعضها من القش واللين، وبعضها الآخر من الحجارة المقامة على غير انتظام، تكاد تتلاصق شرفاتها ونوافذها. عدد قليل منها بدا أكثر حداثة، وتلك هي منازل العائلات الثرية القليلة التي تمتلك الأراضي وبساتين البرتقال. من بين هذه المنازل دار فخمة ذات طابقين فسيحين، تملكها عائلة (الجمال)، تقع بجوار منزلنا الصغير الذي حاولوا شراءه من والدي مراراً دون أن يفلحوا، مع أنهم كانوا يملكون أكبر بيارات القرية، فضلاً عن أراضي شاسعة. وهم التجار الوحيدون للحمضيات فيها. حيث كانوا يتعهدون ببيارات قرينتا والقرى المجاورة، بالضمنان، ويستخدمون الكثير من أهلها طوال فصل الشتاء في موسم

البرتقال، لقطفه وتغليفه، ثم نقله إلى مرفأ يافا، لكي يشحن، من ثم، إلى مرفأ أوروبا، وقد رسمت على صناديقه العلامة التجارية التي طبقت شهرتها الأفاق : "Jaffa oranges".

على الرغم من كل شيء كانت (بيننا) تبدو لوحة فنية، ارتجلتها الطبيعة على غير نسق أو نظام، فصنعت من ذلك المزيج المتناثر جمالاً أخاذاً.

ولئن كانت قريتنا صغيرة تكاد تتعدم فيها الخدمات العامة، لإهمال السلطات لها - ولم يكن ذلك استثناء لها على أية حال - إلا أن الحياة فيها لم تكن على قدر كبير من السوء، فهي ذات مناخ جميل، وطقس معتدل ومناظر طبيعية خلابة. كما أنها تتمتع، بسبب موقعها، بعدد من المزايا التي لا يستهان بها، إذ يمر عبر أطرافها الشرقية خط السكة الحديدية القادم من محطة اللد شمالاً، والمتجه جنوباً نحو غزة ورفح، ثم العريش فالقنطرة في الأراضي المصرية. وتقوم على جانبيه أشجار الكينا الباسقة، ملقاة بظلالها الوارفة على امتداده، باعثة مع تملوج الرياح، أنساماً عذبة ينفيوها المارة من فلاحين وعمال، في غدوهم ورواحهم. كما يمتد عبر الأطراف الغربية للقرية طريق عريض معبد يتجه شمالاً إلى يافا، ماراً بقرى عربية عديدة، غرست بينها بعض المستعمرات اليهودية، بمعرفة حكومة الانتداب البريطاني وحمايتها. وبمحاذاة هذا الطريق، غرباً، تقع الساحة الرئيسية للقرية والتي تقام فيها، عادة، سوق الثلاثاء الشهيرة، التي يؤمها العديد من أهالي القرى المجاورة، حيث تتوافر فيها كل الأشياء، بدءاً من الخضار والفواكه، حتى الدواب والدواجن والغلل.

وعند الزاوية الشمالية لهذه الساحة شيدت المدرسة الابتدائية الوحيدة فيها، من حجر أبيض يميزها عما حولها. وجوارها تماماً تقع المقبرة التي لم تكن توحى بالوحشة، بل كانت أشبه بمنزلة عام لما يتخللها من أشجار ظليلة تحتضن رمالها الذهبية، يخترقها طريق يفضي إلى البحر عبر الكتبان الرملية، الحافلة بكروم العنب وأشجار النين والجميز، تتماوج على سفوحها وبين جنباتها في اتساق رائع بفوضاه وعدم انتظامه. وعلى مرتفع يحف بهذا الطريق ينتصب مقام - سيدنا أبي هريرة - كما كانوا يطلقون عليه، في غير قليل من الاجلال والتعظيم، والذي اعتاد الناس أن يتخذوه مزاراً، ومكاناً للوفاء بنذورهم. كما ألفوا أن يقيموا هنالك، وتحت ظلال أشجار الكينا العتيقة التي تكتنفه، سباق الخيل في مناسبات الأعياد والأعراس مع عزف الأرغول ودفقات الطبول، وحلقات الدبكة .

جو قريتنا أخذ ساحر. ففي الصيف تنساب النسائم الرقيقة، القادمة من البحر خلال البساتين والكروم، فتربط أجواء أزقتها الضيقة ومنازلها الوادعة. وفي الشتاء تكسو سماءها الغيوم، وتهطل الأمطار بوفرة مبشرة بقدم الخير والخصب. يحلو لنا، عندئذ، أن ندلف خارج منازلنا تحت وابل المطر الغزير، على الرغم من تقريع أمهاتنا لنا، كيما نستمتع بمرأى الماء المتدفق منحدرًا من أعالي القرية، خلال قنواتها الصخرية المتعرجة، مرسلًا خريرًا صاخبًا، بلونه القرميدي الداكن، الذي اكتسبه في رحلته عبر أسطح المنازل وجدرانها الطينية، ومن تربة الأرض الحمراء. نخوض وسط مجرى مائي، كثيرًا ما نسيء تقدير قوته، فلا تلبث المياه أن تسحب أحناءنا، فنهرع إليه صائحين مهللين، في مزيج من الفرع والفرح. وكلما لاح لنا أن الخطر الذي يهدد زميلنا أكبر كانت بهجتنا أوفر..!

يقع منزلنا على الطريق الرئيسي، عند منتصف السفح صعودًا وهذا الطريق هو صلة الوصل بين أعلى القرية وأدناها. كما أنه يشرف على البيوت الواقعة أسفل بيتنا، والمقاهي والدكاكين البادية عن بعد بمعروضاتها متباينة الألوان والأنواع، والمضاعة ليلاً بمصابيح الغاز.

ولقد كنا نحظى، ونحن جلوس على الشرفة (الليوان) وبفضل موقعنا هذا، بسماع الأغاني ونشرات الأخبار المنطلقة من جهاز الراديو في مقهى (حامد القاضي) عن كثب، فيما تتماوج أمام أبصارنا أشجار البرتقال، مترامية حتى الأفق.

لم يكن الراديو شيئاً مألوفاً بعد في تلك الأيام. لم يكن في القرية كلها سوى عدد منها لا يبلغ أصابع اليد الواحدة، يملكها سراة القوم، وفي طليعتهم المختار، وقد كان هذا خالاً لأمي. كان الناس يحارون في تفسير تلك الظاهرة العجيبة. حسب بعضهم أن ذلك الجهاز يحتوي رجلاً بداخله يصدر بالغناء، وهو نفسه يتلو القرآن، ويأتيهم بأنباء المشرق والمغرب أيضاً، وأخبار الأولين وآخرين. كل أولئك وهو قاعد في مكانه لا يريم. إذن هذه إحدى علامات الساعة واقترب يوم القيامة بلا ريب..!

عزز هذا اليقين، حجم الجهاز الذي كان يقارب المتر مربعاً أو مكعباً على أقل تقدير، مما يتيح للرجل الجلوس داخله في راحة تامة...!

في أمسيات الصيف، كنا نمضي سهرتنا في تلك الشرفة، أبواي، وأخوأي، الأكبر والأصغر سعيد وأحمد. وكانت أمسياتنا أكثر ما تكون بهجة، وجمالاً أيام

الانحصاف من الشهر القمري، حين يطل البدر قرصاً مستديراً ناصعاً من وراء الأفق، نرقبه فيما هو يمضي صعداً نحو قبة السماء، مضيفاً على الكون والأشياء نوراً وبهاء، يغمر نفوسنا بالطمأنينة والسلام. ثم لا نلبث أن نعلم إلى اختراع الحكايا، وترديد ما يختلقه أو يرويهِ الوالدان من أساطير عنه، فيما تتناهى إلى أسماعنا أغنية من بعيد. وتبلغ سعادة أمي أوجها إذا كانت (أم كلثوم) تردد أغنيها الأثيرية لديها :

.... على بلدي المحبوب وديني ... زاد وجدي والبعد كاويني.

تتجاوب أصداؤها في كل الأرجاء برنينها الساحر، تنير الشجن والحنين إلى شيء غامض مجهول.

كان أبي سيد البيت المطاع. كلمته نافذة، ورأيه لا يناقش. شأنه في ذلك شأن سائر الرجال. وكانت أمي، بدورها، كغالبية النساء الريفيات، تجل أبي وتوقره. لا تجادله في أمر، ولا ترد له مطلباً، إيماناً منها بالحكمة المأثورة القائلة بأن الزوج هو "الرب الأصغر" وأن غضبه "من غضب الخالق" جل شأنه.

ولم يغير من هذا الوضع عشرينهما الطويلة الأمد تحت سقف واحد. فهي لم تكن تجد في نفسها الشجاعة الكافية لمفاتحته في شأن من الشؤون العامة أو الخاصة، دون أن تقدم لذلك بشيء من التسويغ أو الاعتذار المسبق.

من هنا كانت مهمتها حرجة في ذلك الصباح، مما جعلها تقدم طعام الإفطار وهي في حالة من الاضطراب، مع أن المسألة لم تكن على تلك الدرجة من الخطورة. كان عليها أن تطلب إليه - أو على الأصح أن ترحوه - بأن يصطحبني إلى المدرسة، إذ كنت قد تأخرت في اليوم السابق بضع دقائق عن بدء الدرس الأول، وطلب إلي الأستاذ (عبد الخالق) أن أحضر في اليوم التالي بصحبة ولي أمري. ترددت والدتي قليلاً قبل أن تخبره بذلك، خشية أن يصب جام غضبه علينا جميعاً، ممثلين في شخصها. أو أن يوجه لها عاصفة من اللوم على تقصيرها في رعاية شؤون أولادها..!

كنت إذًا في أواخر السنة الثامنة من عمري. وفي الصف الثالث الابتدائي على وجه التحديد. ولم أكن قد مررت بالصفين الأول والثاني شأن من هم في مثل سني. إذ كنت قد أمضيت عامين في كتاب الشيخ (عبد الكريم كريمة) قبل أن أنتقل إلى المدرسة الأميرية، وفي أواخر السنة الدراسية أيضاً. وكان ذلك بسبب مشاجرة وقعت بيني وبين طفل آخر من أترابي، لطمني على أثرها معاونه الشيخ أسعد - وهو كهل ضريع - على وجهي، فخرجت للتو مهرولاً إلى دارنا القريبة، حتى دون أن أنتظر ساعة الانصراف.

لم تكن الدراسة في ذلك الكتاب تنتظم التلاميذ صفوفاً أو فصولاً، بل كنا نجلس، كيفما اتفق، في فناء الدار المظلمة بعريش من العنب. ثم نأخذ في ترديد آيات من القرآن الكريم، وراء الشيخ بأصواتنا الرنانة، التي كثيراً ما أفلقت راحة سكان الحي بأكمله. أو نعد إلى كتابة وظيفة (الخط) طوال النهار حتى

يصيبنا الملل بالدوار. وكان ذلك الدرس مجرد نسخ للصور الصغيرة على ألواح من الأجر، دون أن نفقه لما نكتب أو نقرأ معنى. أما في فصل الشتاء فكنا نقبع على حصير في قاعة فسيحة الأرجاء، ارتفع سقفها أمتاراً عديدة كي يزيد من برودتها. ليس لها سوى نافذة واحدة تطل على فناء الدار. وتردد بيننا أنها كانت تستخدم من قبل مخزناً للخبز و الغلال، وفي فترة من الفترات كانت اسطبلًا يؤوي عددًا من البغال كان يملكها أصحاب الدار فيما سلف..!

كان أبي - كغيره من الناس في ذلك الوقت - يؤمن بما كان سائدًا من نظريات وأفكار بين أهل القرى، تجمع في مجملها على أن التعليم الحق وقف على الكتاب دون غيره. وأن المدارس الحكومية التي أنشأها الإنكليز لا تعلم غير البدع والضلال.. عن القط والفار والتعلب.. ورأس روس.. هذا بدلاً عن تحفيظهم القرآن الكريم..! لهذا كان عسيراً إقناعه بجدوى دخولي المدرسة الحكومية لولا تلك الحادثة. من هنا يمكنك أن تدرك مدى حرج والدتي وهي تحاول مفاتحته في ذلك الشأن.

بيد أن والدي - وهذه كانت مفاجأة لأمي لم تتوقعها - استشاط غضباً. لعن الكتاب وأصحابه. أمسك بيدي، وانطلق بي إلى دار الشيخ عبد الكريم، ليصب هنالك، وعلى رأس الشيخ أسعد (معاونته) سيلاً من عبارات التأييد والتنديد. بل وليعلن على الملأ بأن ولده هذا لن يبقى في ذلك الكتاب بعد ذلك اليوم. وأن هذا الولد "خسارة فيكم بالله العظيم..". فأمثاله من النابهين لا ينبغي لمثل هذا المكان أن يحظى بهم. وهكذا خسر الشيخ عبد الكريم، بسبب الشيخ أسعد، أرغفة الخبز، وأعداداً من البيض المسلوق، ومواد غذائية أخرى كان يتقاضاها أجراً، بمثابة رسوم تعليم..!

لم يكن أبي قاسياً تماماً، لكنه كان حازماً، فما أن غادرنا الكتاب، في ذلك الصباح، ثم يمنا شطر المدرسة الحكومية، استجابة لرجاء أمي، حتى أخذ يحدثني، لكأنما يحاول الترسية عني، أو إشعاري برضاه علي، لا أدري. مررنا بـدكان البقالة لصاحبها (أبو العبد الرملاوي) الذي سرعان ما هب واقفاً، ليرد تحية الصباح بحفاوة واضحة، داعياً أبي لمشاركته تناول القهوة. ثم مررنا أمام دكان الحلاق (أحمد الجمل). وكان هذا منهمكاً برش الرصيف أمام دكانه بالماء، وذلك على الرغم من مطر الليلة المنصرمة. انعطفنا يمينا لنطل على الطريق العام. سألتني عن موعد الامتحانات المقبلة في المدرسة. ثم ربت على كتفي، وهو يشدني بيده من كتفي البعيد عنه، كي التصق به، وهو يقول:

-إذا كان ترتيبك جيداً فلسوف أشتري لك حذاءً جديداً..!

لم تكن فرحتي، عند ذاك بالهدية الموعودة بقدر ما كانت من أجل انفراج أسارير أبي.

واصلنا سيرنا المتعرج تبعاً لانعطافات الطريق. رائحة التربة المبللة بمطر الليلة الماضية تنبعث نفية نفاذة، وهدير البحر خافتاً يأتي من بعيد، وغيوم تباينت ألوانها ما بين بنفسجي رقيق، ورمادي داكن تتراكم عند الأفق الغربي. كنت أقرب السحب وهي تسبح من فوقنا، فأشغل بها لحظات، عن الطريق والمدرسة. أتصورها أشكالاً خرافية عجيبة كنتك التي تتراءى لنا في الأحلام.

تنبهت إلى جلبة وصياح، سرعان ما تبينت مصدرهما. كنا قد بلغنا الطريق العام، نوشك أن نقطعه إلى الطرف الآخر، حيث السوق ثم المدرسة. الناس يتحركون في دعر. سيارات عسكرية تعبر الطريق بسرعة، ثم تنتشر في اتجاهات مختلفة. بعضها يتوقف، وبعض يتابع السير فيما الجنود يقفزون منها في كل اتجاه. انطلقوا يصيحون بالمارة وبمن هم في المقاهي مشرعين بنادقهم وحراباً لأمعة في مقدماتها تثير الرعب. توقف أبي عن السير. بدا عليه القلق. تتم بصوت خفيض:

-الانكليز.. يفتح يا عليم.. نعود يا بني إلى البيت.. لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم..!

وعلى حين غرة أخذوا يطلقون الرصاص في مختلف الأنحاء. اجتاحني الذعر. اقتربت من أبي ألوذ به.. سمعت عنهم في المدرسة، وفي كل مكان لكني لم أراه رأي العين في مثل هذه الحال قبل ذلك.

صرخت في فزع:

-نعود يا أبي ..

وفي ذات اللحظة رأيته يضع يده على صدره، تجحظ عيناه.. يرتجف.. الدماء تنبثق من صدره.. تفلت يدي من قبضته.. يترنح.. يتهوى.. يسقط.. يعقد الذهول لساني.. يا إلهي.. هذه اللحظة كنت أسمع صوته.. ارتميت فوق صدره.. أضمه.. ألصق به - أغمره بالدموع.. أصرخ بجنون:

.. يابا.. يابا ..

وجرس المدرسة يدق وسط زخات الرصاص آتياً من مكان سحيق.

وقفت أُمِّي قُرب باب الدار مع من تجمع من الجارات إثر سماعهن أصوات الرصاص، وصياح الصبية الذين اندفعوا يترامضون خلال الأزقة. أدركن للتو أنها عملية إنكليزية أخرى. استوقفن واحدا من الغلمان، فأنبأهن بأن الإنكليز قد أطلقوا الرصاص على الناس في المقاهي والطرقات والسوق.. إنهم يطلقون الرصاص في كل مكان.. أخذن يتساعلن في توجس وقلق عن السبب الذي دعا هؤلاء إلى افتراء جرائم جديدة في قريتهم في هذا اليوم، خمنت إحداهن قائلة: -ربما كان ذلك بسبب نفث الثوار للخط الحديدي بالأمس على مقربة من القرية .

عقبت أخرى بسخرية:

-ومتى كان هؤلاء ينتظرون سبباً يبرر ارتكاب الجريمة التي يريدون يا حبيبتي ..

تدخلت ثالثة :

-إذا كان الأمر كذلك يا أم مريم فلسوف تأتي اليوم الانذارات بالعقوبات الجماعية التي ابتكروها.. سيفرضون علينا عقوبات فادحة هذه المرة غرامات وجزاءات أيضاً..

قالت أم مريم باستنكار :

-وهل بقي لدينا ما نقدمه يا فاطمة ؟

-من قال لك، يا حبيبتي أن (إنسانيتهم) سوف تجعلهم يقدرون ظروفنا ..؟
-ولكن أليس هذا هو الظلم بعينه؟ الفاعل واحد أو اثنان أو ثلاثة، فما معنى أن يؤاخذ الجميع..؟ هذا إن كان ما فعلوه جريمة حقاً ..!

قالت (أم سعيد) وقد ظلت صامتة طوال الوقت :

-تتحدثن عن الظلم والظالمين، يا نور عيني، ووجودهم هنا، هو منتهى الظلم. بأي حق هم هنا أصلاً ..؟

سادت لحظات صمت. مضت كل واحدة منهن تضرب أخماساً في أسداس،

بينها وبين نفسها، إلى أن عبرت أم مريم عما كان يساورها من قلق:

ترى من هي المسكينة التي حلت بها المصيبة في هذا النهار ؟

ردت أم عدنان في صوت خافت تشويه نغمة حزن طال بها العهد:

-كما ترين. نربي أبناعنا الأيام والسنين.. نفني أعمارنا في تنشئهم يوماً بيوم، ساعة بساعة.. نبنّي عليهم آمالنا العريضة.. نود لو نفديهم بأرواحنا إذا أصابهم مكروه.. ثم نفقدهم في طرفة عين.. يد غريبة تجيئ من أقصى الأرض، تضغط على الزناد، وينتهي كل ما بيننا..! أطرقت النسوة إجلالاً لأم عدنان التي سبق لها أن فقدت ولدها عدنان في ظرف مماثل منذ شهور قليلة وما برحت تتشجح بالسواد .

-إنهم.. هكذا.. ببساطة متناهية يسلبوننا حق الحياة، ولا يحاسبهم أحد.

-من أجل ذلك قامت الثورة يا عزيزتي. هي التي ستأخذ على عاتقها أمر حسابهم .

قالت أم سعيد، لنفسها وهي تستمع إلى رفيقاتها، أنها سوف تطلب إلى (أبو سعيد) فور عودته، أن يقلل من خروجه منذ اليوم، ما دامت الاستهانة بأرواح الناس قد بلغت هذا الحد.

لكن خوفاً غامضاً يسري في أعماقها. بل إنها تحس بذلك الشيء المبهم يلم بها منذ أيام، دون أن تعرف كنهه أو تجد له تفسيراً. حتى أحلامها كانت في الأيام الأخيرة كوابيس مرعبة. وهي من ثم، تلعن الشيطان تارة، وتعود بالرحمن، تارة أخرى، مؤملة ألا يكون مبعث ذلك الانقباض سوى كآبة عارضة لن تلبث أن تزول، أو بسبب مرض خفي يلم بها لم تتبين ما هيته. آه ليت الأمر يكون كذلك..! أو هي تلك الأحداث التي تسود البلاد فتقبض النفس.

تحاول التخلص من ذلك الشعور الممض بالجنوح إلى التفكير في المستقبل، وبما يمكنها أن تتخذ من أسباب الحيلة - في نطاق صلاحياتها المحدودة - بما يضمن سلامة أبنائها، وأبيهم .

أصوات هادرة تترامى عن بعد. تقترب رويداً.. تتعالى.. تتضح معالمها أكثر فأكثر، إلى أن تتحول إلى هدير مرعد. جمهور غفير تبدو طلائعه عند ناصية الشارع. يهرع الأطفال من البيوت المجاورة على جانبي الطريق، يرفدون الموكب بانضمامهم إليه، فيكبر، ثم يكبر، حتى يضيق بهم الزقاق. همت عائشة (أم سعيد) بأن تتادي أحدهم كي تسأله عن ذلك الشهيد المحمول على الأكتاف. غير أنها أمسكت حين رأت غلاماً يهرول نحوهم، وهو

يصيح بأعلى صوته، وكأنه يعلن بشارة سوف ينال عليها مكافأة :

-الانكليز.. قتلوا عم سليم.. أبو سعيد ..!

شق الفضاء صراخها المروع فيما هي تندفع نحو الجموع، والنسوة اللاتي ذهبن للحظة، أمسكن بها لمنعها من اقتحام الموكب، وهي في حالة تشبه فقدان الوعي. يخرج من بين الجمهور شقيقها (رمضان) متصدياً لها، محيطاً إياها بذراعيه، زاجراً ومناشداً :

-قضاء الله الذي لا مفر منه.. إنه شهيد يا أختاه.. هنيئاً له.. كفى.. كفى بالله عليك.. أنت عاقلة ياعائشة.. إنه قدره.. !

تصرخ في النياح :

-المجرمون.. قتلوك المجرمون.. ويلهم من الله.. أين ولدي.. أين أمين ؟

هتف رمضان كي يسمعها.. وربما ليسكتها :

-أمين بخير.. أقسم لك أنه بخير..

كنت في تلك اللحظة أهرع إليها.. أرتمي في حضنها.. يهزني النشيج هزاً، كأني ألتمس في حضنها عودة أبي للحياة.. شعرت كأني غبت عنها دهرًا.. وها أنذا أعود. طفقت تضميني إليها بعنف.. تقبلني بجنون، كأنها لا تصدق أنني بين يديها. غمرت وجهي دموعها.. اختلطت دموعنا معاً، وهي تغمغم بكلمات تضيع بصوتها المبحوح بين البكاء وأصوات الجموع الغاضبة .

تبين أن عدد قتلى ذلك الصباح خمسة، والجرحى ضعف هذا العدد. شيعوا جميعاً في جنازة واحدة، تحولت إلى مظاهرة تندد بالجناة، وتطالب بالاستقلال وسقوط بلفور..! حال بعضهم بيني وبين مشاهدة القبر ساعة الدفن. دعينا مع حشد من الناس إلى الغداء في بيارة أبو جبريل النجار، حيث ذبحت الخراف، وقدم طعام كثير للجميع. في (بواطي) ملأى بالأرز واللحم والرجال لا يكفون عن الحديث حول الحادث وحواادث أخرى كثيرة سبقته في قريتنا، كما في غيرها.

في دارنا واصلت النساء إحضار الطعام، ومواد أخرى كالسكر والقهوة والأرز. ولا يزيد ذلك أُمي إلا حزناً وألماً وبكاءً. طفقت يعزينها بكلام كثير. يضرين الأمثال، ويرددن الحكايا من حوادث الأيام الغابرة والراهنة .

صبيحة اليوم التالي لتشييع جثمان أبي، وضعت لنا أُمي على (الطبلية) فطوراً من البيض المسلوق والزيتون وخبز الطابون، وصحناً من العسل. هذا

الأخير كان مما جاءت به الجارات. لم يكن العسل طعاماً مألوفاً لدينا في وجباتنا المعتادة. دار الجمل يتناولونه، ودار ابو عون وغيرهم من اثرياء القرية، أما نحن..؟

أحسُّ بفراغٍ يحلُّ مكان أبي، حيث كان يجلس بيننا، ونحن من حوله.. لكن ها هو ذا أمامي في مكانه المعتاد. صغيرتنا علياء تقبع في حجره. يضحك لها.. يضمها إليه.. يمسدُّ شعرها.. يضع اللقمة في فمها بعد أن يغمسها بالعسل.. تسمرت يدي في مكانها قبل أن تبلغ الطبق. انفجرت بغتة باكياً، بصوت ارتفعت له أمي الجالسة قريباً منا مع جاراتها، فأقبلت مسرعة، تاركة النسوة اللواتي ملأن المكان صخباً. تبعنها سراعاً. واحتضنتني أمي وبصوت مبجوح : " مالك يمة.. " انفجرت علياء أيضاً تنسج بصوت عالٍ. بادرت خالتي الى حملها.. تلصقها بصدرها.. تهددها.. تقبلها وهي تردد بصوت يخنقه البكاء .

".. مالك يا حبيبتي.. اسم الله عليك.. الله يجازي أولاد الحرام.. أبوك مسافر بكره يجي يا حبيبتي ...

أبي يرمقنا بعينين حزينتين.. يمضي بعيداً يتلاشى في الغمام المائل مابين عينيَّ والسماء..

ران على المنزل سكون حزين. أقيم فيه الحداد. ارتدت أمي ملابس سوداء أضفت عليها مزيداً من الجلال والمهابة. أنظر إليها فأكاد لا أعرفها لفرط تغيرها. فقد علا وجهها شحوب ينم عن حزن كظيم. ذبلت عيناها، وفارقتها ابتسامتها العذبة، وتوارث خصلات شعرها الفاحم التي كانت تزيد من نضارة محياها، تحت منديل أسود، قلما تزيحه عن رأسها .

اعتكفت في بيتها لا ترحه. وبدت منطوية على نفسها تبتها الحزن والشجن. زاهدة في لقاء الناس أو التحدث إلى أحد. لقد أمست أرملة، وهي لما تزل في ريعان صباها.

" أرملة..! يا لها من كلمة كئيبة. لم تحسب يوماً أنها سوف تحملها لقباً أبدياً. ولكن ها هي ذي منذ اليوم سوف تحمل من هموم الحياة وأعبائها ما لم يكن يخطر لها على بال. كان سليم يملأ عليها حياتها، بشخصيته القوية الأسرة. تشعر في كنفه بالحماية والأمن. لقد ذهب الآن، تاركاً إياها منكسرة القلب والجناح، مع أطفالها الأربعة، لكان الأرض لم تعد ثابتة تحت قدميها كعهدها بها فيما سلف. بل إن الكون كله يبدو الآن موحشاً مخيفاً، وكأنه قد خلا من كل شيء".

لم يترك لنا الشيء الكثير، اللهم إلا هذا المنزل العتيق. لم يكن سيئاً، على أية حال. غرفتان تمتد أمامهما شرفة. هي في الواقع مصطبة مرتفعة مدت بالأسمنت الأسود. وقد بني البيت من الحجر الرملي، المتوافر في محاجر القرية مجاناً لمن يشاء. أما السقف فمن القرميد الرمادي. وقد ارتفعت أرضها جميعاً عن سائر فناء الدار، فبدت منها أزقة القرية المنخفضة عن مستواها، والمنازل القديمة المفضية إلى البيادر، التي تبدو عن بعد وسط نطاق أخضر من بيارات البرتقال. وقد اعتاد الفلاحون جمع محاصيلهم من القمح والذرة في تلك البيادر، حيث يدرسونها بواسطة الدواب، فيما تتردد أصواتهم بأهازيجهم ومواويلهم، يقطعونها بين آونة وأخرى، لينتهروا دوابهم ويحثونها على مواصلة السعي.

فضلاً عن هذا كان بيتنا ينطوي على شيء غير قليل من العلل. من ذلك أن

بعض قرميده قد تشقق أو تكسر منذ زمن، مما يتيح لقطرات المطر التسرب إلى داخله. أما جدرانها فمتآكلة، ذهب طلاؤها وبعض طينها. كما أن فناءه حافل بالحفر. صحيح أن أبي كان يزمع ترميمه منذ سنين، إلا أنه كان يرجئ ذلك من الشتاء إلى الصيف، عاماً بعد عام، منتظراً أن يأتيه الله برزق يوسع عليه بعض الشيء، يمكنه من إصلاحه مرة واحدة. بيد أن توقيت الأجل كان الأسبق. كما نملك أيضاً قطعة أرض صغيرة، في منطقة (أم الذهب) وقد أسموها كذلك - فيما يروى - لخصوبتها ووفرة محصولها. كانت تزرع قمحاً في عام وذرة في العام الذي يليه، تبعاً لتقاليد الفلاحين المرعية في هذا الشأن.

ليس معنى هذا أننا كنا نحسب في عداد الفلاحين أو الملاكين الموسرين. بيد أنها كانت تقينا الحاجة و العوز. ولم يكن أمر تعهد الأرض بالأمر الهين، لا سيما أن والذي لم يكن يمارس مهنة الفلاحة بنفسه. كان يعهد بها إلى (مربع) هو العم عبد الغني، لقاء حصة من نتاجها. أما عمل أبي فقد كان موسمياً، شأنه شأن الكثيرين، في فصل الشتاء، موسم قطاف البرتقال .

كانت أمي في ذلك الصباح منشغلة البال. فلقد خلت إلى نفسها تماماً، لأول مرة، عقب انقضاء أيام العزاء بضجتها و زحمتها. أحست كمن يهبط من قطار بعد رحلة طويلة مضنية، والطنين لا يزال يصم أذنيه. انصرف الناس - بمن فيهم الأقارب - كل إلى شأنه. لا ريب أنهم سوف يذكرون محاسن الفقيد من أن لآخر، لاسيما في المناسبات العامة، كالأعياد مثلاً، إلا أنهم سوف ينسونه، بالتأكيد، على مر الأيام. أما هي فاليوم تبدأ مأساتها الحقيقية. وهي التي لن تنسى قط. بل إن مرور الأيام لن يزيد لها إلا حنيناً وشجى لذكريات عزيزة خلت، امتزجت بدمها وروحها، وأضحت جزءاً من حياتها وكيانها. من ثم، فهي سوف تتمثلها بحجمها الحقيقي في كل لحظة منذ الآن، وتعيشها في أحلام يقظتها على الدوام. أفاقت من هذه الدوامة على واقعها المرير، الذي لا علاج له، حتى ولا بالصبر الذي كانت الجارات يتخذن فيوصينها به. على الرغم من ذلك حاولت أن تصرف نفسها عن أحزانها - ولو إلى حين - كيما تفكر فيما سوف يوول إليه أمر بنيتها من بعد. قفزت إلى ذهنها صورة أكبرهم (سعيد) لكنها ما أن تذكرته حتى أصابها القنوط. قطبت جبينها، واكفهر وجهها، وألمت بها مشاعر الأسي من جديد :

".. صحيح أنه قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، وأنه يمكن أن يعمل عند بقال، أو حلاق، أو فران - لكنني لا أنتظر منه خيراً كثيراً.. ولد شقي منذ طفولته.. أدخلناه المدرسة فهرب منها وأذاقنا الويل.. أجل كان يهرب من

المدرسة، ليقضي سحابة نهاره بين الحقول مع مثيل له من رفاقه الملاحين.. يكسر أغصان الأشجار.. يسرق البرتقال من بيارة العطار لكي يتخذ من حباته كرة يلعب بها.. يتسلل عبر السياج فيأْتيني بثيابه ممزقة.. يتعلق بالسيارات العابرة التي أو شكت إحداها أن تدوسه ذات مرة في طريقها من يافا إلى غزة..!

".. تصورنا أول الأمر انها مجرد نزوة عابرة.. (ولدنة).. وأن الأيام كفيلة بإصلاحه.. لكن الأيام لم تزده إلا شقوة كلما شب ونما..". أخرجناه من المدرسة ليعمل عند (ابو درويش) الوافد من يافا، ليفتح دكاناً للحلوى عند السوق، قائلين أن (الصنعة) خير وأبقى له من دراسة لا يرغب فيها ومن أجل مستقبله فلنا (صنعة في اليد أمان من الفقر). ولكن شكاوي الرجل بدأت تصلنا تباعاً. كان آخرها قبل أيام، وهي بمثابة إنذار بالفصل، إذا ما وجده يعود للعب الورق مع بعض أترابه، في عقر حانوته أثناء غيابه عن الدكان.. "فإذا كان هذا شأن سعيد، يوم كان الأب الصارم فوق رأسه، فكيف به اليوم وقد غدا بغير حسيب ولا رقيب..! خطر لها ثاني أبنائها أمين. الولد العاقل المتزن - كما كانت تدعوه - هادئ وديع. حتى ليبدو أكبر من سنه التي لم تتجاوز الثامنة. وهي راضية عن سلوكه. إذ هو على النقيض من أخيه الأكبر تماماً. ولربما كان الفضل في هذا لذلك الأخ نفسه - وإن يكن عن غير قصد - كان يؤلم أمين أن يرى ما يحيق بأبويه من كدر بسبب أخيه، فجاءت تصرفاته مختلفة عنه. وكان في ثناء أبويه الدائم عليه، فضلاً عن إطراء الجيران له ما يدفعه إلى العمل على إرضائهما.

لم يكن هذا - على أية حال - مدعاة لتخفيف آلام عائشة، وإنما كان سبباً آخر يضيف إلى أحزانها الشيء الكثير. إنها حزينة من أجله لأنه كذلك. ولما يعنيه فقد أبيه في سنه المبكرة هذه من تغيير في مسار حياته المقبلة، في اتجاه مستقبله برمته. لقد خطت الرصاصات المجرمة بالدم النازف طريق مستقبلهم جميعاً.

"أما أحمد فما الذي ينتظره هو الآخر..! كان ممكناً أن يشب في أحضان أبويه، شأنه شأن أي طفل في هذا العالم. كان ذلك ممكناً تماماً، لو لم تبتلنا الأقدار بهؤلاء الانكليز.. ولكن ما ذنبه هو؟ وأي يد أو خيار له في هذا الذي يجري من حولنا..؟

".. وعلياء الأثيرة عند أبيها، ربما لأنها الوحيدة بينهم، فضلاً عن أنها

أصغرهم. من يأتيها، بعد اليوم (بحلاوة) أبو درويش، (وملبس) أبو العبد
الرملاوي في المساء؟ تهرول عندما تراه قادماً عند ناصية الزقاق، فتتقي بنفسها
بين أحضانها، وهو يجلس القرفصاء في انتظار وصولها إليه. تتأغيه بكلمات
غير مفهومة.. لكنها حلوة.. كالعسل.. كما يقول ...!

"وهي تعرف دالتها عليه، فتصر على الجلوس في حجره، تعبت بأطراف
عباءته، أو تخطف مسبحته، وتدخلها كالقلادة في رأسها، وعندما تعلق بشعرها
الكستائي الغزير تشرع في الصراخ، فيما هو يضحك جذلاً، لأنها تكرر ذلك
كل يوم دون أن ترعوي ...!

دلف أمين إلى المنزل في تلك اللحظة، متأبطاً كتبه ودفاتره. تجللت.
أمسكت دموعها التي أوشكت أن تنهمر. وتكلفت ابتسامة تواري بها مشاعرها.
لكن مسحة الحزن على وجهها الممتقع، وفي عينيها الذابلتين، لم تفلح في إخفاء
مكنونات صدرها. قالت أخيراً بصوت خافت مبحوح :

- وكُنت أمري إليك يارب.. على رأي الحاجة : العبد في التفكير والرب
في التدبير.. وكُنت أمري إليك.. أنت حسبي ونعم الوكيل .

السابعة صباحاً. والشمس قد ارتفعت في الأفق تنبئ عن نهار قائف. تحلق أفراد الأسرة الصغيرة حول (الطبلية) يفطرون. أرغفة الطابون، جبن وزيتون وزعتر في (زيادي) من الفخار. وإبريق صيني أزرق يتعالى بخاره، حاملاً رائحة الشاي والميرمية.

بدت والدتي عابسة الوجه مقطبة الجبين، وإن كان واضحاً أنها تتصنع التجهم، في محاولة منها لتهيئة جو ملائم من أجل إيداء ملاحظات زاجرة، المقصود بها - قطعاً - أخي سعيد. ولما كان ذلك يتكرر منها بين حين وآخر، فقد بنتا قادرين تماماً على التمييز بين جدّها المصطنع، وجدّها الحقيقي، حينما ترى هي ضرورة لذلك .

وفيما نحن ينظر أحداً إلى الآخر، نحاول جاهدين أن نكتم ضحكائنا التي توشك أن تتفجر، وقبل أن تبدأ تقريعها، طرق باب الدار على نحو يوحي بأن الطارق في عجلة من أمره. ذهب سعيد ليرى من بالباب، ثم عاد ومعه فوزي ابن خالنتا، ورفيقي في المدرسة. بدا فوزي على غير ما اعتدنا أن نراه : محتقن الوجه، منكوش الشعر، في عينيه آثار بكاء، تشير ثيابه إلى أنه ارتداها على عجل. بادرت والدتي بالسؤال ملهوفة وقد توجست، بحسها الفطري، لهذه الزيارة في هذا الوقت المبكر :

-ماذا يا فوزي؟ خير إن شا الله يا خالتي ..؟

أطرق هذا إلى الأرض. وبدا كأنه يوشك أن يجهش بالبكاء. ولما لم يحر جواباً، نهضت إليه، واقتربت منه، تحتضنه في حنو قائلة وقد ألم بها الوجع :

-ماذا هناك يا فوزي.. لماذا لا تتكلم يا خالتي ؟. هل حدث شيء عنكم؟

رد فوزي بكلمات منقطعة يخنقها البكاء الخافت :

-محمد.. خطيب أختي فاطمة.. أحضروه الآن مقتولاً ..!

-مقتولاً؟ نقول مقتولاً؟ ومن قتله؟

-يقولون انه كان في الليلة الماضية مع الثوار الذين هاجموا محطة رخبوت.

انطلقت أمي مسرعة إلى الغرفة المجاورة تبحث عن شالها وجواربها، فيما هي تصب اللعنت، على الانكليز، ويوم الانكليز. فيما اسألته المرتبكة تتلاحق بغير انقطاع دون أن تنتظر رداً عليها. ذهبت مع فوزي بعد أن أوصتنا بعدم الخروج من المنزل أثناء غيبتها .

تحالفت على سعيد ومضيت في إثرهما. وحين رأتي لم تقل شيئاً. تسالت بين جمع غفير من النساء اللواتي انتظمتن حلقات في منزل خالتي (نعمه). انخرطن في البكاء، ولكن في حذر واضح، خشية أن ترتفع أصواتهن فتبلغ الشارع. وقد أغلقت نوافذ المنزل وبوابته، حتى تلك المفضية إلى الحاكورة، كيلا ينكشف أمر الشهيد، وانتماؤه لهذه الأسرة، من قبل الدوريات الانكليزية التي ما فتئت تجوب الطرقات منذ الصباح الباكر. ذلك أن آثار الدماء والكلاب البوليسية قادتهم إلى مشارف "بيننا"، ثم ما لبثت أن اختفت قبل التعرف إلى مستقر صاحبها، من ثم لم يعرفوا هويته. وما من أحد يعلم، ما هي الاجراءات الانتقامية التي سوف يعمدون إليها هذه المرة. انتقلت إليّ عدوى الشعور بالحزن.

تذكرت (محمد المغاري) ذلك الشاب الذي كان يداعبني، بل ويمنحني قرشاً كلما التقيته في منزل خالتي. كان طويل القامة، مهيباً، أسمر الوجه، له شاربان دقيقان، وقد عققا إلى أعلى، كذيل العقرب، عند طرفيهما. عيناه حانتان كعيني صقر. يرتدي كوفية بيضاء يطوقها عقال أسود. يمشي منتصب القامة شامخ الرأس، وهو يضم أطراف عباءته السوداء، فيبدو كأمر شرقي في حكايا ألف ليلة وليلة. هل مات هو الآخر ؟.. إنهم يقتلون أحباءنا وأهلنا دائماً !..

الدار نغص بالنساء. لغط يختلط بالبكاء هنا والعيول هناك. كلام كثير غير مفهوم تتبادله النسوة. وعديد من الأطفال والغلمان ينسل بينهن كالسهم في إثر بعضهم بعضاً. فرصة لا بأس بها للعب..! صبية بيضاء، مكتنزة الجسم ترتدي ثوباً أسود مطرزاً بخيوط حريرية ملونة على الصدر، يغلب عليها اللون الأحمر. وعلى رأسها شال أبيض ينسدل حتى منتصف ظهرها. قالت رداً على تساؤل رفيقتها النحيلة السمراء، التي تختلف عنها في كل شيء تقريباً، عدا ثوبها :

-... في مستعمرة رخيوت ..

ردت الأخرى، مصححة :

-يقولون في المحطة، وليس في المستعمرة ذاتها .

-لا أدري.. ولكن ما الفرق؟ المهم أنه استشهد.. رحمة الله عليه ..
يقولون ان شاباً آخر من القبية استشهد معه.. تنهدت الفتاة وهي تضرب
كفاً بكف، مرددة بلهجة يمتزج فيها الاستنكار بالأسى:
-يا خسارتك يا محمد المغاري ..!
-لم يفرح بشبابه بعد ..
-وهل ترك لنا الانكليز أفرأحاً ؟
-والمسكينة فاطمة. انظري إليها هناك.. يا لحظها التعس ..
-ألا تعلمين أنها مجنونة بحبه ..؟
-أعرف ذلك. لقد سبق أن خطبها كثيرون قبله، لكنها رفضتهم جميعاً.
-تعنين أنها كانت تحبه حتى قبل أن يقرأوا فاتحتها ..؟
-هل هذا وقته يا سهام ؟
-أنا لا أقصد، لكن صدق من قال (أجت الحزينة تفرح ما لقيت لها
مطرح) ..!

-ماذا تقصدين إذن ..؟ ثم لم لا تحبه؟ إنه شاب ممتاز في كل شيء.. وهو
شجاع لدرجة المخاطرة بحياته.. وها أنت ترين ..
-كان الله في عون أمه ..
-وفاطمة ..؟
-فاطمة تنسى مع الأيام. وهي جميلة لن تعدم من يتقدم لطلب يدها غداً
!..

تعاليت في الخارج أصوات، وقامت جلبة. توجهت نحو باب الدار مستظلاً.
كان هناك عدد من الجنود الانكليز يدفعون برجال من أهل القرية أمامهم، وقد
سددوا بنادقهم إلى ظهورهم، يصيحون برطانتهم العجيبة، وكان واضحاً أنهم
يكيلون الشتائم ويطلقون التهديد والوعيد ..!

ذلك (أبو حسين الشرفاوي) بينهم. وهذا (أحمد الجمل)، وذاك (أبو داود)
صاحب مقهى (الاستقلال الوطني). ولأن هذا الأخير يمت لوالدتي بصلة قريبة،
كنت أعرف أنه من الثوار. لقد كانت لهؤلاء الرجال صورة مثالية من البطولة
والهبة في مخيلتي. أحس أن شراً أصابها ..! تساءلت في حيرة :

.. لم لا ينقضون على أولئك الجنود الذين لا تبدو عليهم امارات شجاعة
خارقة؟ بل إن مظهرهم لا يوحي بالبطولة و لا بالشجاعة أو حتى بالرجولة.
الخوف باد على وجوههم بجلاء، على الرغم من البنادق التي في أيديهم. لا

أعرف أسباب هذا الذي يجري ودواعيه. لماذا يجب أن يعاني الناس هكذا؟ أن يموتوا؟ أن يهانوا؟ أن يفقد الأطفال آباءهم ...؟

أولئك هم يبلغون الطريق العام، حيث وقف رتل من السيارات العسكرية على جانبي الطريق. يأمرهم بالصعود إليها في خشونة وعنف فيصعدون. ترى إلى أين يمضون ..؟ بل ماذا سيصنعون بهم؟ ولأنني كنت أفكر بصوت مسموع، فسرعان ما سمعت الرد يأتيني من رفيق لي كان قريباً مني:
- سينقلونهم إلى المحطة.. وهناك يقتلونهم ..! يوقفونهم على الجدار ويطلقون عليهم الرصاص ..!

-كيف؟ ولماذا؟

لا أدري.. ولكنهم هكذا فعلوا منذ أيام في قرية "عافر". هذا ما سمعته من أبي وهو يتحدث إلى جارنا (أبو شاك).

-وهل يقتلون، كل هؤلاء الناس ..؟ هكذا ببساطة ..؟

لم يجر رفيقي جواباً. ولكنه عاد بعد قليل ليقول، وكأنه يزف بشرى سارة :
- أسمعت؟ قيل انهم وضعوا علامات على بعض المنازل والدكاكين والمقاهي لكي يقوموا بنسفها بعد أيام.. ربما غداً.. لا تدع تلك الفرجة تفوتك ..! دوت أصوات المحركات في هدير مخيف زاد الجو المكهر كآبة، شعرت بالحزن والأسى والمهانة معاً، فيما كانت السيارات تنطلق، إلى أن اختفت وراء سحابة من الدخان الكثيف .

مرضت علياء في ذلك المساء. عزت (الحاجة خضرة) سبب مرضها إلى افتقادها لأبيها .

قالت أم مريم بعد أن وضعت كفها على جبين علياء :

-البنت (سخنانة) يا جماعة.. حرام عليكم خذوها للحكيم .

غمغمت أمي كمن يتحدث عن مستحيل :

-حكيم ..؟ أي حكيم ..؟

أنفقنا أياماً ثلاثة، كما لو كنا في حالة طوارئ. وحالة علياء تزداد سوءاً. تصف كل من الجارات، شيئاً مختلفاً، مؤكدة أن وصفتها هي (الشافية) بإذن الله. تنفذ أمي نصائحهن جميعاً أملاً في وقوع معجزة. وهي لا تكف عن الدعاء وتلاوة ما تحفظ من آيات القرآن الكريم .

أمضيت معظم أيام العطلة الصيفية، في ذلك العام، في اللهو مع أترابي حيث نقضي سحابة نهارنا نلعب في ساحة (سيدنا وهب) الكرة، و النحل، و الاستغماية. أو نصنع طائرات الورق الملونة، أو في تلبية طلبات أمي التي لا تنتهي. ولقد عجبت كيف كانت تؤديها كلها بنفسها أثناء وجودنا في المدرسة. فهي توفدني إلى الجارة " أم ماهر" لأحضر لها مقلاة، أو إلى "أم علي" كيما أنقل إليها رسالة شفوية، أو إلى دكان " ابو العبد" لشراء رطل ملح أو علية كبريت أو استعارة قدر من بيت الحاجة خضرة ... ظل الحال هكذا إلى أن وقع لي حادث غير مجرى تلك الحياة الرتيبة .

لا بد لي - بهذه المناسبة - أن أسجل أن ترتيبي في المدرسة كان الثاني، قريباً مما أراد أبي. فملأني الزهو، وأحسست أنه (أي أبي) يتسم لي من عالم الأبدية. وزادت نسبة مشاجراتي مع أبناء الحي بعد أن شعرت - أو شعروا هم - بنفوقي عليهم ...! وحين تذكرت أبي ذلك المساء وفرحه بنجاحي لو كان حيا. بكيت بحرقة، وغطيت رأسي بالفراش كيلا تلحظ ذلك أمي جاعني من بعيد، وثيد الخطا مشرق المحيا، ابتسم لي وهو يضمنني إلى صدره. ربت على ظهري، مسح رأسي بكلتا يديه، أمعن النظر في وجهي. قبلني. ثم استدار ليمضي عني، أصبح بصوت لا يخرج من حنجرتي ضارعا إليه أن يعود. لكنه يمضي متواريا بين أشجار كثيفة عالية تلامس صفحة السماء ... !

خرجت يومئذ لقضاء شأن من تلك الشؤون التي كانت تكلفني بها والدتي. وبدلاً من أن أعود في غضون خمس دقائق، هي الوقت الذي يقتضيه ذلك الشأن، عدت بعد انقضاء خمس ساعات كاملة. لم تدع مكاناً دون أن تبحث عني فيه. سألت كل الجارات، والمارة. أرسلت في أثري رفيقي "صالح" الذي لم يمنعه من القيام بذلك الواجب مشاجرتي معه البارحة. ذهبت بنفسها إلى محل "ابو درويش" الحلواني. لعل سعيداً يعرف شيئاً عني. بل أوشكت - حين بلغ بها القلق مداه - أن تبحث عن (المنادي) كيما يعلن في الحارات القريبة والبعيدة عن (الولد الضائع). غير أنها فكرت - كآخر سهم في جعبتها - بأن تذهب إلى منزل خالتي نعمة عند " سوق الجميزة". وما أن رأتها شقيقتها حتى أقسمت

عليها أن تتناول الغداء عندها، مطمئنة إياها بأن " الولد " لن يلبث طويلاً حتى يعود من تلقاء نفسه. ولكن أمي الملتاعة ردت بحق ظاهر :

(بالك فاضي وعيشك راضي يا نعمة.. أفعد عندك أتغدى والولد ضايع؟)
ردت خالتي بصوت ممطوط، لا يوحى بعظيم أكرائها - كما ينبغي -
لغياب ابن شقيقتها الأثير، مما أثار المزيد من حق أمي حين قالت :

-لا بد أنه يلعب الآن مع أمثاله الشياطين، وأنت هنا تتقلبين على جمر !..
استهدي بالله يا شيخه !.. صدق من قال قلبي على ولدي وقلب ولدي على حجر!..

- لا إله إلا الله. يا حبيبتي يمكن يغيب الولد ساعة زمن أما خمس ساعات.. تصوري يا نعمة خمس ساعات. لا بد أنه صار له شي...!).

استبد بها القلق إلى حد أنها لم تتمالك نفسها من البكاء، ثم راحت تغلظ الأيمان بأنها سوف (تأكلني بأسنانها) حين أعود -كان هذا هو قسمها المفضل -
ولكن المهم أن يعود أولاً!..

كانت المهمة التي خرجت من أجلها صبيحة ذلك اليوم ولم أعد حتى العشاء، هي شراء بطيخة أولاً. ثم أمر ببيت خالتي أطلب إليها موافاة أمي في الغد، كي تساعدني على صنع ((المفتول)). رأيت الباعة وراء أكياس البصل، واكداس من سلال العنب، وسلال التين، (وسحاحير) البندورة والفلفل والبادنجان، وأكوام البطيخ الأخضر، والأصفر .

وعلى الرغم من أن بضاعتهم جميعاً كانت بادية للعيان، ملفنة لكل الأنظار، وبوضوح تام، إلا أنهم كانوا يملأون المكان صياحاً بنداءاتهم، التي بدا لي أنه يغلب عليها طابع التضليل، فالكوسا تتحول - بقدرة قادر - إلى أصابع موز ربحاوي !.. و العنب إلى حبات ماس نادر، والبندورة إلى تفاح أمريكي أو شامي. مع أن أحداً لم يقل أن التفاح أكثر ضرورة من البندورة أو الخيار البلدي!..

جمهور كبير يتجمع تحت الجميزة العتيقة التي قيل أنها عاصرت (سيدنا عيسى) عليه السلام. كان ظلها يمتد على مساحة شاسعة من الأرض، أتخذ منها الباعة مكاناً لسوقهم. اقتربت من ذلك الجمع. أحدهم يتحدث منفعل. أخذ صوته يعلو ثم يعلو حتى تحول إلى صراخ، ما لبث أن أعقبه هياج بين الحاضرين، الذين انطلقوا بغتة متجهين جنوباً على طريق الاسفلت، وهم يرددون هتافات وشعارات تندد بالاستعمار، والانداب، واليهود، والهجرة اليهودية، ووعد بلفور،

والمستر (دل)، ولجنة (بل) ...! لم أشعر إلا وقد وجدّنتي بينهم، وسط سهل فسيح يمتدّ حتى الأفق. عندئذ فقط أدركت أننا مشينا طويلاً حتى بلغنا هذا المكان .

بدأ الخوف بنتابني. بيد أنني أنشغلت عن خوفي حين رأيتهم يتعرضون لقافلة من الجمال، يوقفونها، ثم ينزلون حمولتها من سلال العنب، فيما صيحاتهم الغاضبة تتردد في جنبات السهل، أخذوا يدوسون محتويات السلال بالأقدام، في حين عمدت أنا وأمّالي من الغلمان إلى تخاطف عناقيد العنب الماسية، كحبات الكهرمان في السبحة التي كان يداعب جدي حباتها كلما أتى لزيارتنا...!

طفق أصحاب الجمال يتوسلون، مقسمين بانهم كانوا في طريقهم إلى قرية (اسدود)، وليس إلى مستعمرة يهودية كما حسبوا. ولكن الجمهور الغاضب واصل تحطيم السلال، دون أن يلقى بالاً إلى توسلاتهم. بل إن بعضهم راح يكيل لهم اللكمات والصفعات، مندداً بهم، متهماً إياهم بخيانة الوطن والقضية، ما داموا لم ينصاعوا لقرارات اللجنة الوطنية القاضية بالامتناع عن التعامل مع اليهود، منذ أوائل الثورة عام 1936. مذكّرين إياهم بالإضراب العظيم الذي امتدّ شهوراً ستة آنذاك، وأن إنهاء الإضراب لا يعني العودة الآن إلى التعامل مع اليهود .

استغرق ذلك بعض الوقت. ولم أنتبه إلى حقيقة وضعي، وإلى مدى ابتعادي عن القرية، وأمّي التي لا بد أنها أقامت الدنيا وأقعدتها إلا حين انتهت المعركة. أخذت أجيل بصري فيما حولي فلا أرى إلا سهولاً شاسعة ممتدة حتى الأفق في كل اتجاه، والشمس تسطع مرسلة شواظاً من نار، بعد أن انحدرت نحو المغيب، وطبوراً تحوم فوق رؤوسنا فرادى ورفوفاً، أو فوق عناقيد العنب المتناثرة على رقعة واسعة من الأرض، تنقض عليها ثم تطير محلقة في البعيد. خوف شديد يعتريني.. أين أنا ؟ أين القرية؟ ما من أثر يبدو لها على مرمى البصر. وحشة قاتلة نكتنفني تماماً. وفجأة انتابني البكاء، لمحني أحدهم. اقترب مني. كان شاباً طويل القامة، مهدل الشعر، محتقن الوجه إثر الجهد الذي بذله مشاركاً في العملية التي تمت للنو. توسمت في عينيه عطفاً، وهو يربّت على كتفي برفق قبل أن يسألني :

—مالك يا شاطر ؟..

قلت بلهفة ووجل :

أين نحن يا عم ؟

لا تخف.. نحن لسنا بعيدين جداً عن البلد. ولكن قل لي لماذا أتيت إلى هنا؟

- لا أعرف ..!

- لا بأس .. لا بأس .. سوف أوصلك إلى أهلك .. ابن من أنت ؟

- ابن سليم جابر .

- سليم جابر .. ؟ رحمة الله عليه .. أعرف المرحوم والدك .. قتله
الملاحين .. الله يجازيهم ..

شعرت باطمئنان لذلك الشاب، وكأنني نجوت من الهلاك .. بدت الشمس من
بعد أكثر اصفراراً فيما هي تتحدر نحو المغرب، حتى لامست أطراف الرمال
الممتدة تلالاً وكتباناً في شريط يحاذي الأفق .. ثم انكسرت حافة قرصها وهي
تغوص إلى الأعماق، وبسرعة متلاحقة راحت تختفي إلى أن توارت تماماً،
مخلفة في السماء شفقاً وردياً ما لبث أن استحال إلى دكنة خفيفة، ثم إلى ظلام
يزحف على الكون، فيما كان صدري يزداد انقباضاً كلما تكاثف الظلام .

مضينا نغذ السير في جماعات متفرقة، والشاب لا يني يحاول التسلية عني،
إلى أن لاحت عن بعد أضواء خافتة، فبشرني صاحبي بأنها أضواء القرية.

كغريق تلامس الشاطئ قدماه، غمرني إحساس بالارتياح. رائحة أشجار
البرتقال الأليفة، تعبق الجو من حولنا، في طريق خلال البيارات، وسياج أشجار
الغيلان الذي بدا في الظلمة فاحماً .

الأضواء تكبر، رغم خفوتها، فيما نحن نقترّب. معالم القرية تتبدى أكثر
وضوحاً. بلغنا مشارفها حين تنأى إلينا صوت المؤذن لصلاة العشاء يتردد في
الأرجاء جميعاً، موحياً إليّ بالطمأنينة والسكينة .. ومشجعاً في نفسي السلام .

رأت أمي - إثر تلك الحادثة التاريخية - أن تجد لي عملاً مناسباً، أقضي فيه ما تبقى من عطلة الصيف. وبعد جهد غير يسير، تمكنت من أن توفر لي ذلك العمل، بتوسط من الحاجة سكينه، لدى زوج شقيقتها أحمد الجمل، صاحب دكان الحلاقة قريباً من ساحة سوق الثلاثاء .

ابتهجت والدتي لنجاح مسعاها إذ كانت تأمل أن يتحقق لها، من وراء ذلك، هدف آخر، هو أن أكتسب (صنعة في اليد) تكون لي وللأسرة جميعاً (أماناً من الفقر) في مقلب الأيام ...! ولربما حالفتني الحظ فغدوت حلاقاً مرموقاً. (وما ذلك على الله بكثر..!)

كان عملاً شيقاً لصبي مثلي. فعلي أن أكنس الدكان، وأرشف الرصيف، ومساحة لأبأس بها من الشارع أمام المحل، كل صباح وعند العصر، كيما يلطف الجو إذا ما هبت النسمات الغربية الآتية من البحر، عبر الكروم والرمال وبساتين البرتقال. ولا شيء - عدا ذلك - سوى مراقبة (العم أحمد) وهو منهمك في قص شعر زبون، أو تلميح وجه آخر بالصابون، فيما هو لا يكف عن الكلام أثناء ذلك. ولربما كلفني بطلب فنجان من القهوة أو كوب من الشاي الثقيل، للمعلم - وللزبون أحياناً إذا كان يستحق ذلك - من مقهى عم ياسين (أبو داود) المجاور. وحين لا يكون لدي ما أعمله أجلس فوق ذلك الكرسي العتيق، ذي الصرير المثير، على الرصيف، أمام الدكان أرقب السابلة، والسيارات العابرة، مفاضلاً بين ألوانها، أو محاولاً تخمين ماركاتها، وهي تتجه جنوباً إلى المسجد، وغزة، أو شمالاً نحو يافا واللد والرملة، فيما يساورني شعور بالحسد إزاء ركابها الذين سوف يرون تلك البلاد. كان العم أحمد الجمل يباهي بأنه الأمهر وأنه لذلك يجمع ما يزيد على القنطار من القمح والذرة في كل موسم. إذ يتقاضى صاعاً أو أكثر حسب اريحية الزبون لقاء قيامه بالحلاقة للرجل الواحد وأولاده في العام هذا فضلاً عما يتقاضاه لقاء خلع ضرس لزبون، أو فصدجيين، أو أخذ (كاسات هوا) لآخر...! حتى الدواب يأتونه بها لكي يعالجها من أمراضها ...!

لم ألبث طويلاً حتى أكتسبت ثقة عم أحمد الجمل الحلاق الذي أخذ بكل إليّ مهمة وضع الصابون على وجه الزبون، مؤكداً لي أن هذا الامتياز لم يمنح لصبي قبلي من أولئك الذين عملوا عنده، الأمر الذي كان يفعم قلبي - فضلاً عن قلب والدتي - غبطة وحبوراً. ابتهج لمرأى الصابون، وهو يشكل فقاعات شفافة أرقبها في شغف وهي تتنفخ ثم تتطفئ تماماً هنا وهناك على سطح وجه الرجل. بل إن طموحي أخذ يمتد إلى أبعد من ذلك. أن أغدو قادراً، في وقت ليس ببعيد، على القيام بتلك الحركات العديدة، التي أجمل ما فيها أنها لا لزوم لها البتة، فأطقطق بالمقص حول الرأس والعنق، وأجري النصل اللامع على وجه الرجل، دون أن أئخذنه بالجراح تماماً كما يفعل العم أحمد الجمل، حتى دون أن يعيقه ذلك عن مواصلة الكلام طوال الوقت عن الانكليز والأفراح والمآتم وموسم البرتقال .

كان العم أحمد الحلاق يمنحني (شلتناً) كاملاً كل أسبوع. وهو أمر آخر أعلن إزاءه أن أحداً غيري لم يحظ به من قبل. وفي يوم الثلاثاء تحديداً - وهو يوم السوق الأسبوعي لقريتنا وما جاورها - يدفع لي أجري، فأبادر للتو، وقبل عمل أي شيء آخر إلى شراء (شوكولاته بحليب) بتعريفة من دكان عثمان أبو حسين المجاورة. انصرفت في ذلك المساء قبل الغروب بقليل، نزولاً عند إرادة والدتي التي أوصت العم أحمد ألا يعمل على تأخيرني إلى ما بعد حلول الظلام. عرجت في طريقي على ساحة سيدنا وهب المفضلة للعب في حيناً، والتي يقع في زاويتها الجنوبية ضريح ولي الله، محوطاً بسور من الحجارة المزينة بزخارف عربية قديمة. وتكتف الساحة بيوت عتيقة ذات أقواس مشرعة. وأمام الأبواب مصاطب مرتفعة يتخذ منها أصحابها مجالس لهم منذ العصر إلى ما قبيل أذان العشاء. حيث يتبادلون الحديث عن شؤونهم من زواج، ومواليد، ومواسم زرع، غزارة الأمطار أو شحها في ذلك العام، الحصاد وخصب المواسم، البرتقال وأوان قطفه، الثورة، والمهاجرين اليهود، وعود الانكليز بحل القضية، الكتاب الأبيض واللجان البريطانية، والراديو ذلك الاختراع العجيب ..! إبان ذلك تدور عليهم فناجين القهوة المرة، وأكواب الشاي بالقرفة والزنجبيل، فيما صخب الصبية يرافق ذلك كله كإيقاع موسيقي لا ينقطع. لم يكن في الساحة غير عدد قليل من الغلمان، من بينهم (نعيم أبو جلالة) الذي ما إن رأيته حتى انطلق يعدو نحوي هاتفاً:

-أين أنت يا أمين ..؟ حمداً لله على السلامة ..

فرحت ببقائه إذ اعتزمت أن أنقل إليه أنباء عملي لدى أحمد الحلاق، فقلت متباهياً :

-ها أنذا عائد للتو من الدكان ..

-وهل أصبحت حلاقاً ماهراً ؟

-طبعاً ..

-وتحلق للرجل ذقنه بالموس دون أن تجرحه ؟

-حتى دون أن أخدشه ..

-وهل تستطيع أن نقص لي شعري ..؟

-ولسانك أيضاً ..!

ضحك، وانقض علي يضربني على صدري، ثم يجذبني من يدي، فنعدو معاً، وهو يقول :

-تعال، انظر ماذا صنعنا.. لقد أصبحنا من كبار المخترعين ..!

وحين اقتربنا من الرفاق، ألفيتهم متحلقين حول شيء وضعوه على الأرض والدخان يتصاعد من حوله. لقد قاموا فعلاً بصنع القاطرة البخارية، التي قررنا ذات مرة، أن نقوم بصنعها - على غرار ما قرأه أولئك الرفاق الذين يسبقوننا بصفين أو ثلاثة عن كيفية اكتشاف البخار - قائلين : ولماذا يكون هذا ال (جيمس واط) أذكى أو أبرع منا..؟! خامرني شعور بالأسف، إذ لم أشارك، منذ البداية، في هذا العمل الجليل ..! ساد الصمت حين رأينا العلبة المعدنية التي ملأوها ماء، وأحكموا إغلاقها، وثبتوا بها عدداً من العجلات الصغيرة، تأخذ في الاهتزاز، ثم تتحرك قليلاً، إلى الخلف وقليلاً إلى الأمام، وصوت الماء يغلي بداخلها، بفعل النار المتأججة من حولها. ارتسمت الفرحة على وجوه الأطفال والغلمان وتبادلت أعينهم النظرات الفلقة المتسائلة، ولكن في سعادة طاغية. وفي اللحظة التي انطلقنا نهتف احتفالاً بالنجاح الذي تحقق، فها نحن قد تمكنا من صنع قاطرة حقيقية - تماماً كذلك الانكليزي اللعين - في تلك اللحظة تماماً دوى انفجار، وتطاير في الجو رذاذ الماء، ثم تساقط ليغمر وجوهنا، فيما تحول الهتاف إلى صيحات فزع واستكار، ولعنات تنصب على رأس (جيمس واط) وآله أجمعين ..!

كنت أشعر بالحرّج أمام رفاقي، إذ لم أكن قادراً على مجاراتهم. أولاد الهمص، اسماعيل العطار، أولاد الجمل، أهلهم أغنياء، يلبون لهم حاجاتهم. يرتدون ملابس جديدة في المناسبات، ولديهم أحذية جديدة أيضاً، وثياب مختلفة في ألوانها وأنواعها. كما أنهم لا يفتأون يشترون الشوكلاته والملبس من الدكاكين، أو يحضرونها معهم. كانوا يعرضون عليّ شيئاً منها فأمتنع، حين أتذكر وصايا أمي. كانت تدعوني إلى الظهور أمامهم مكتفياً لا أفتر إلى شيء، رغم أن ملابسني لا تكاد تتغير من بداية العام الدراسي حتى نهايته. وحين يبلى حذائي أصلحه عند الكندرجي (أبو مصطفى) بقرش. (بركب) للحذاء نصف نعل، ثم يلمعه قبل أن يناولنيّه مؤكداً لي أنه قد عاد جديداً..!

في طريقنا إلى البيت التقيت مريم عائدة من دكان البقال. تنحنينا عن الطريق قليلاً، حيث وقفنا تحت شجرة النخيل القائمة عند ناصية الشارع. نسمات خريفية تداعب شعرها الأشقر، المرسل على كتفيها، يتموج على جانبي وجهها الدقيق التقاطيع، فتعيده إلى الوراء بحركة رشيقة من جيدها، لا تكلف فيها، تضيف عليها مزيداً من الفتنة. أخذت تتلفت حولها في قلق ظاهر، فيما تضرع محياها الأبيض حمرة وردية، تثير في النفس حنيناً مبهماً نود معه عناق الكون. وحين سألتها لماذا لم أرها خلال الأيام القليلة الماضية، أجابت وابتسامتها الحلوة ترف على شفتيها، وتطل من عينيها الزرقاوين، قائلة بأن والدتها أخذت تضيق عليها الخناق مؤخراً، بحجة أنها لم تعد صغيرة، وأن عليها منذ الآن أن تكون أكثر تحفظاً مع أولاد الحي، كي لا تلتوك الألسنة سمعتها..!

لم يدر بخلدي حتى تلك اللحظة سوى أننا أصدقاء.. أبناء جيران. للمرة الأولى تخطر لي أفكار حول الذكر والأنثى، في شخصي وشخصها. والفرق بين الولد و البنت، لم يكن سهلاً أن أقنعها باللقاء خلسة من حين لآخر. بل إنني لم أكن أرغب في ذلك. لم التخفي وكأننا نقترف خطيئة أو نرتكب ذنباً ؟.. ولكنني أريد أن أراها، فلا تتقطع عني.. أن أتحدث إليها بغير موانع أو تحفظات. ومن ذا الذي له الحق في أن يحرمانا لقاء اتنا البريئة.. بل لماذا تفكر الأم بهذه الطريقة السخيفة ؟..

ودّعت مريم وانصرفت واجماً، أفكر فيما سمعت منها .

دخلت المنزل فألفيت جدي و أحد أحوالي وابن عم لأمي يجلسون على مراتب فوق حصير من القش، مما يوحي بقدر من الحفاوة أبدته أُمي حباليهم. وإبريق من الشاي أمامهم وأكواب فارغة، وصحن امتلأ بأعقاب السجائر، فيما كان جدي يلف واحدة جديدة منها ببراعة كنت دوماً أعبطه عليها. ما إن لمحت وجه والدتي الممتنع حتى أدركت لفوري أن هناك أمراً غير سار، وغير عادي أيضاً، يجتمعون من أجله. ازداد شعوري بالانقباض. ساد الصمت لحظات، ريثما سلمت عليهم، فيما هم يرددون واحداً إثر الآخر :

الله يرضى عليك.. ما شاء الله.. أصبحت شاباً.. من خلف ما مات..
ثم استأنفوا حديثهم دون أن يكثرثوا كثيراً لحضوري بعد ذلك .
صعقتني، بادئ الأمر، قول الخال مواصلاً حديثاً كان قطعه دخولي غير
المنتظر :

-صبية ترملت، لا بد لها أن تتزوج.. حتى لو كان لديها أولاد.. ليس
الأولاد بالشيء المهم. وإنما المهم هو الشرف.. السمعة.. القيل و القال.. كلام
الناس يا أختي !!

وسرعان ما أمّن على قوله هذا ابن عمها بحماس :

-صبية لم تبلغ الثلاثين.. لا يصح ولا يجوز أن تظل بغير زواج !!
أضاف الخال :

-بل ماذا سيحدث للأولاد؟ ليبقوا مع أمهم أو ليتكفل بهم أي واحد من
أهلهم!!

تذكرت مريم وما نقلته إلي عن أمها.. ازددت أسى.. قال جدي بوقاره
المعهود :

-الستر هو المهم يا ابنتي !!

أعقب ذلك صمت ثقيل، مبعثه كلمات جدي التي لا بد من شيء من
الصمت إثرها كي يتم استيعابها. إلى أن قطع ذلك الصمت خالي الذي بدا
متحمساً للفكرة، مصرراً عليها فقال في زهو من يلقي بحكمة نادرة، موجهاً كلامه
إليها :

-حتى لو كنت في طهارة بنات النبي، فالناس سوف يتكلمون يا أم
سعيد!!

ردت أُمي على الفور بحقن وألم واضحين، إذ هي تستطيع الرد عليه هو..
أما والدها فلا، احتراماً له وتوقيراً ..

-يتكلمون عن ماذا يا رمضان ؟

قال خالي وقد أربكنه المفاجأة بعض الشيء :

-عن أي شيء.. ليس ضرورياً أن يكون هناك ما يتكلم عنه الناس
بالفعل.. هم يتكلمون والسلام!!

-إن فيم يهمننا كلامهم (مادام كلام والسلام ؟).

-ما شاء الله.. ما شاء الله.. ما الذي يهمنى إذن ؟-

تدخل جدي :

-يا ابنتي.. هداك الله.. نحن لا نحب لك إلا الخير.. ولا نعرض عليك إلا ما هو في مصلحتك !..

ردت ساخطة :

-هل مصلحتي هي أن أدع أولادي يعيشون يتماً مزدوجاً ؟

حاول الجد أن يحافظ على هدوئه، وهو يعود للقول ؟

- الأولاد يا ابنتي يعيشون كما يعيش غيرهم. الأولاد، شأنهم شأن المخلوقات الأخرى، من الحشرة حتى الإنسان، كلها تعيش بفضل الله وعونه !.. ها نحن قد زوجنا شقيقتك نعمة بعد مقتل زوجها، هي الأخرى، على أيدي هؤلاء الأوغاد، فماذا جرى لأولادها؟ هل ماتوا مثلاً !.. أولئك هم يعيشون في أمان الله !..

هزت أمي رأسها وأطرقت تهمس في ألم، كمن تحدث نفسها :

-ماذا جرى لهم؟ لم يموتوا حقاً.. وهكذا يكفي !..

وتدخل ابن عمها مشجعاً :

-ونحن، سوف نعمل على أن يبقى الأولاد معك يا ابنة العم، فماذا بربك تريد من ذلك !..؟ ويساعدك ذلك أيضاً على هذا الحمل الثقيل. يقول المثل (الحمل اذا توزع بينشال) !..

استبدت بي مشاعر الأسى والضياع. لو كان سعيد حاضراً لتمكنا معاً أن نقول شيئاً، أي شيء نشد به أزر المسكينة، التي بدا عليها من الجزع والألم ما لم اشهد عليها مثله إلا يوم مصرع أبي. أحسست بغير قليل من الحقد على جدي، و أخوالي جميعاً، لاسيما ابن عمها هذا. إنهم يعملون على انتزاعها منا؟ لماذا يريدون أن يدمروا حياتنا.. لم لا يتركونا وشأننا.. ما لهم ومالنا ألا يكفيننا ما أصابنا !.. تنبهت إلى حركة جدي وهو ينهض متثاقلاً ممسكاً بعصاه التي يتوكأ عليها - ولكم سرنى ذلك - فيما يهم الأخران بالوقوف :

-سوف نتركك يا ابنتي تفكرين في الأمر الليلة ونهار الغد.. وعلى بركة الله ..

قال الأخران معاً، وهما يحنينان لالتقاط حذاءيهما :

-الله يجيب اللي فيه الخير.. آمين ..

لم تذق طعم النوم في تلك الليلة. حاولت جاهدة أن تتمالك نفسها، أول الأمر، وأن تتظاهر بالهدوء وعدم الاكتراث، كيلا تثير فزعنا، إلا انها أخفقت في اخفاء مشاعرها كل الوقت .

كان الذي عرض عليها يعني شيئاً واحداً. كارثة محققة تحيق بهذا البيت. فاذا ما تم الزواج المقترح، فما الذي سيحدث لهم. هل يبقون معها كما يقولون ..؟ وفي هذه الحال كيف ستكون معاملة (العم) لهم : هل سيعاملهم بالمودّة والحسنى؟ ومن ناحيتهم هم، هل سيبادلونه المودة، اللهم إن وجدت لديه؟ وإذا ما حدث العكس، فلم يرتح إليهم ولا هم اطمأنوا إليه، بل ربما كان قاسياً عليهم. فماذا سيكون الحال عندئذ، وهي لا تملك من أمرها شيئاً ..؟ أين يذهبون إذا ما ساءت العلاقات بين الزوج والأبناء؟ ومن يقوم على تربيتهم ورعايتهم؟ الضياع مصيرهم. وأهلي هؤلاء ماذا سيفعلون؟ .. ينسونهم.. وهذه هي الدنيا (كل مين يارب أسألك نفسي) ...!

تلوذ بالبكاء في صمت.. والليل يمضي بطيئاً رتيباً. ترنو إليهم، ينامون في وداعة الواحد إلى جوار الآخر (لا يدركون ماذا تخبئ لهم الأيام).. تتراقص على أجسادهم الغضة، وعلى جدران الغرفة الشاحبة ظلال ضوء السراج المتأرجحة التي تزيدها وحشة وحزناً. تذكرته.. الرصاصات الغادرة.. والأيام الخالية في رعايته وتحت جناحه. غمغت والدموع تنساب على وجنتيها :
.. إلهي.. ألم يكف الأقدار ما صنعت بنا حتى الآن ...؟

لأن الانكليز لم يعلنوا عن موعد بعينه من أجل تنفيذ عملية النسف للمباني التي وضعوا عليها علامات (X) يوم مقتل محمد المغاري، ولأن بعض الوقت انقضى منذ ذلك الحين دون أن تقع حوادث ذات شأن في قرية بينا وما جاورها، فقد بدا للكثيرين أنهم ربما ضربوا صفحاً عن هذه العملية، أو صرفوا النظر عنها لسبب ما. بل حدا هذا الاعتقاد بأحد المخاتير أن يزعم بأن العملية ألغيت نتيجة لتوسطه لدى السلطة، هادفاً من وراء هذا الزعم كسب المزيد من الشعبية لدى أهل القرية. ولم يكن ذلك في الواقع إلا منزلقاً أوقع نفسه فيه بيده، استغله مختار آخر للغمز من قناته، بدعوى أن من تقبل شفاعته لدى الانكليز لا بد أنه موالٍ لهم. ولم يستطع الأول (الحاج عوض الله) أن يدفع التهمة عن نفسه إلا يوم جاء الانكليز عصر ذلك اليوم ليطلبوا دعواه عملياً، وبالتالي تبرئة ساحته، وإن يكن على حساب تسجيل موقف كاذب عليه. وهذا خير له على أية حال، كما رأى هو في نهاية المطاف .

في العصري من كل يوم، أسراب الصبايا تتوافد على (حاووز) بيارة المختار (الحاج علي الهمص)، الواقع خلف مقهى مجاور لسوق الجميزة، يملأن جرارهن، ثم يمضين في الطريق الترابي المحاذي لمقهى (أبو سالم) فيقطعن الطريق العام المعبد إلى بيوتهن عبر الأزقة المتفرعة، وقد ارتدين ثياباً سوداء، مطرزة على الصدر والجانبين، وتوشحن بملاءات بيضاء، والجرار فوق رؤوسهن لها وضع خاص، يعتبر في حد ذاته، مقياساً لبراعة واحدهن وتفوقها على لاداتها، فالأكثر مهارة هي التي تميل الجرة بمقدار أكبر، بحيث يخل للرائي أنها توشك على السقوط، لكنها تظل ثابتة، لا تتأثر بمشية الفتاة أياً كان نصيبها من الثقة بالنفس و الاعتداد بالذات .

كان مقهى (أبو سالم) هو الأكثر رواداً بسبب موقعه هذا. فالشباب يجلسون هناك عصراً كي يتمتعوا أبصارهم بالغاديات الرائحات على مقربة منهم، وقد رش عمال المقهى الأرض الترايبية الحمراء بالماء من أمامه وحوله، تحت الكراسي والمناضد، فتطايرت مع الغبار رائحة التراب الرطبة تحملها نسيمات الصيف الرقيقة، فيما تتعالى النداءات ... شاي ثقيل.. قهوة سكر قليل.. سكر

زيادة.. فيما يصدح صوت المذيع بأغاني أم كلثوم أو عبد الوهاب الجديدة..
افرح يا قلبي لك نصيب تبلغ منك ويا الحبيب ..

يا واپور قل لي رايح على فين ...يا واپور قل لي وسافرت منين ..
يادنيا يا غرامي.. يادمعي يا ابتسامي.. قلبي يحبك يادنيا ..!
يا جارة الوادي طربت..! ..وعادني مايشبه الأحلام من ذكراك ..

ولربما كان هذا هو المكان الأمثل لانتقاء عروس، حيث يمكن للشباب هنا أن يرى، بغير وساطة الأمهات والأخوات والعَمَّات، من يمكن أن يقع اختياره عليها شكلاً ومظهراً. أما عن الأسرة و السمعة والسلوك، فتلك أمور يعرفها الجميع عن الجميع. مجتمع صغير.. كتاب مفتوح.. وليس في وسعك، من ثم، أن تظهر بغير ما أنت عليه. ويأتي بعد ذلك دور الأم والأخوات لاستقصاء (الموضوع) من جوانبه الأخرى، قبل أن يلتقي الرجال لقراءة الفاتحة، والبت في أمر الخطبة وعقد القران. والخطبة لا تعني لقاءات ولا زيارات، هي ارتباط ليس إلا، حتى يحين أو ان الزواج .

اسراب الصبايا تعبر الطريق. الشبان على المقهى يمرحون ويتبادلون الأحاديث.. السيارات العابرة من حين لحين يقطع دويها حديثهم.. أصوات الباعة، تحت ظلال الجميزة الهرمة تتردد بغير انقطاع.. جرس المدرسة يدق مؤذناً بالانصراف. صخب التلاميذ متجهين إلى بيوتهم سوف يملأ الطرقات عما قليل ..

على غير توقع أو انتظار أطلت قافلة المصفحات الخضراء، التي لم يعد مرآها غريباً على أهل القرية، وقد علت أبراجها رشاشات (متراليوز). توزعت بسرعة فائقة في انحاء الساحة، وعند مداخل الطرقات .

-إذن لقد جاؤوا أخيراً. لقد بروا بوعدهم ..! لم يخيبوا الظن ولم ينسوا واجبهم المقدس في تدميرنا وتخريب بيوتنا ..!

قال ذلك شاب غاضب. عقب آخر :

-والحاج عوض الله لم يثتهم عن قرارهم.. كاذب؟ نعم.. لكنه ليس موالياً لهم .

أحاطوا بالمنطقة تماماً. ترجل عدد منهم بتقدمهم كبيرهم، ومن حوله ضباط تلمع النجوم على أكتافهم والنياشين على صدورهم، راحوا يصدرون أوامره لمن في المقهى، ومن في السوق والطرقات، بالاتجاه إلى باحة ضريح أبي

هريرة القريبة، مهددين من يتباطأ بسوء المصير. يلوحون بالمسدسات، وإشارات الأيدي مصحوبة بالصراخ والصياح. يستجيب بعض، ويتكأ بعض، والحد في نظراتهم صوب أولئك، مما يثير حنق الضابط الكبير فيرغي ويزيد، ويكيل الشتائم بكلمات سوقية عربية مكسرة، مكرراً أوامره بالتحرك سريعاً إلى حيث يشير .

خلت الحوانيت والمقاهي من روادها وأصحابها. بعض التلاميذ في هذه الأثناء استطاع تجاوز نطاق الجنود و التوجه إلى دورهم، فيما كان نصيبنا نحن - عدد من الصبية - أن تعرض لنا عدد منهم، ودفعوا بنا إلى حيث تجمع الآخرون، قرب الضريح وبين القبور .

بدأ الرصاص يتر فوق رؤوسنا ومن حولنا في كل اتجاه. جندي ضخيم الجثة، أحمر الوجه يتحرك أمامنا جيئةً وذهاباً، رشاشه في يده مسدد، تمنطق بأمشاط الرصاص حول خصره، دائرة كاملة إلا من مطرة ماء على الجانب الأيمن، وعلى رأسه خوذة حديدية. أقول الحق أعجبني مظهره، وتمنيت لو كنت مكانه، و جمهور من الانكليز أو اليهود أمامي في مكاننا. وجهه محتقن يطفح عرقاً. عيناه الزرقاوان تقذفان بنظرات يصعب تحديد كنهها : حقد.. قلق.. كراهية.. ريبة.. أو كل ذلك معاً، ولكنهما تتبثان بأنه على استعداد للإجهاز علينا جميعاً إذا لزم الأمر. وكلما تحرك غلام، أو تحدث رجل، أو همست امرأة استشاط غضباً، وصاح بنا (Shutup) فضلاً عن سيل دافق من الكلمات الغاضبة، غير المفهومة، وإن يكن واضحاً أنها ليست تحيات موجّهة إلينا. هذا فيما سيمفونية الرصاص ما برحت تعزف ألحانها المخيفة !.

لم يمض وقت طويل قبل أن يدوي أول انفجار هز أرجاء القرية، ثم يتبعه ثان، فثالث. ومع كل منها تتوالى أصوات انهيار، وتتصاعد سحب غبار تملأ الفضاء، أخذنا نرقبها وهي تسبح باتجاهنا مع الريح. امتنعت الوجوه، وتبادل الحضور نظرات ملؤها الغيظ والألم، فيما لمحت انفراج أسارير ذلك الجندي المكلف بحراستنا، إذ راح هذا يتبخر مزهواً بمشيته العسكرية العنيفة، كأنما يقول: (انظروا كم نحن أقوياء..!) غمغت امرأة بصوت مسموع :

(الله أقوى منكم يا شيخ.. روحوا الله لا يكسبكم).

ولكي تكون الحملة ذات أثر مهيب لا ينسى، وتبقى نتائجها المأساوية إلى أن يشاء الله بعد ذلك في الأفراد، بل وفي حياة أهل القرية جميعاً، وليس في المباني وحدها، تعمدوا أن يصيب رصاصهم عدداً من الناس. أن يقتلوا بغير

تعيين.. أي ناس و السلام. المهم أن يصنعوا المآسي في هذا اليوم لكي يصبح تاريخاً..!

كانت محصلة ذلك اليوم أحد عشر شهيداً. من بينهم رفيقنا (إسماعيل الحملاوي) الذي اخترع قطاراً منذ أيام. كان عائداً من الفرن ساعة وصول الحملة، وعلى رأسه طبق الخبز. ولم تكن رصاصات طائشة تلك التي أردته قتيلاً، بل هادفة متعمدة، فقد انتهره أحد الجنود وهو على قيد خطوات من باب منزلهم. ولكنه بسبب خوفه انطلق يحدو والأرغفة تتطاير من فوق رأسه، فبادره ذاك برصاصة اخترقت ظهره. تدهرج بضعة أمتار حتى استقر جسده عند عتبة الدار تماماً.

خالته، زوجة أبيه، كانت هي التي أرسلته إلى الفرن. طلقها الرجل بعدئذ ناسياً إليها سبب موت إسماعيل. و أه يا صديقنا المخترع إسماعيل.. تضع حياتك أنت أيضاً حتى قبل أن تتفتح عيناك عليها برصاصة جبان أحرق ممن ابتلنا بهم المقادير.. أصابك ما أصاب أبي.. وقافلة الشهداء المجهولين بلا عدد

كما أصيبت فتاتان عند حاووز الماء، حملهما شابان إلى دار قريبة، بترت ساق إحدهما فيما بعد، وتوفيت الثانية بسبب النزيف الذي لم ينقطع طوال ساعات الحملة. التجول ممنوع. وليس في القرية طبيب أيضاً الأطباء في يافا والرملة والمدن فقط.. أنت أيضاً تذهبين رغماً عنك.. وكان لك أن تعيش حياة مديدة لولا الدخلاء الغرباء هؤلاء ..!

قبل الغروب بدأت القوة البريطانية في الانسحاب، بعد أن أمرت الجمهور المرتهن بعدم التحرك قبل أن تبرح القرية. وألقت بين الناس كميات من النشرات المطبوعة على قصاصات من ورق ملون، تشبه تلك التي ألقتها الطائرات فوق القرية في مناسبات مختلفة، من ارتفاع منخفض تكاد تلامس أسطح المنازل. وهي تضع اللوم على الثوار وتدعو الشعب إلى التخلي عنهم، بل و تسليمهم للسلطات المختصة. ومنها ما ينص على مكافأة سخية، لمن يقدم معلومات عن (محمد طه النجار) و(أسعد الرنتيسي)، زاعمة أن الثوار بقيادة هذين الرجلين، هم الذين يجلبون على (الأهالي) هذه المتاعب، (ولولاها لعاش الناس في سلام وأمان إلى يوم الدين ..!).

وما أن ابتعدت آخر مصفحة، حتى انطلقنا نستطلع ما جرى للأهل والمباني إبان فترة احتجازنا، وقد بدا لنا أن الوقت الذي مضى كان طويلاً جداً ..

لم أصدق ما رأيت عيناى. جابهني فراغ امتد بعيداً مكان المباني، التي كانت قائمة قبل قليل تحجب النظر عما وراءها حتى الأفق. لم يعد هناك سوى حطام.. أكوام من الحجارة والحطام والأثرية. مقهى أبو سالم والدكاكين المجاورة أمست ركاماً. شظايا زجاج محطم.. بقايا أبريق وكراسي وأطباق مبعثرة.. أخشاب محترقة.. وسحب غبار خائق ما زالت تملأ الفضاء، فتكتم الأنفاس.

لم يبق قائماً في المكان سوى (حاووز) ماء الحاج علي الهمص العائد لبيارته والمطحنة المجاورة التي يملكها. بدا كنصب تذكاري شاهد على ما جرى وما كان. غير أن جدرانه تصدعت، وانبعث الماء يتدفق منها كشلال من الدموع.. والجميزة شامخة في مكانها، تتحدى في كبرياء جريح صامت، وقد غطى الغبار والفتام أوراقها وأغصانها .

اجتمع عدد من كبار رجال القرية ضحى اليوم التالي في مضافة المختار الحاج عوض الله. نددوا واستكروا طويلاً، ثم قرروا في نهاية الأمر، أن يجمعوا من المال ما يكفي لإعادة بناء ما تهدم، لكي لا يتحمل الخسارة أصحابه وحدهم إذ ليسوا هم المستهدفين بحد ذاتهم، وإنما هي عقوبة جماعية يلجأ إليها الإنكليز كلما فشلوا في الكشف عن الثوار. كما أنها إحدى وسائلهم لإرهاب الأهالي الذين هم جميعاً هدف تلك العقوبة. ولسوف يسهم في جمع المال أهل القرية، كل في حدود قدرته، وربما أهالي القرى المجاورة.

عند عصر ذلك اليوم شهدت القرية جنازة شهداء الأمس. لم يتخلف أحد من الرجال والنساء والعلماء، بكيت شأني شأن الآخرين. الأحد عشر نعشاً محمولة على الأكتاف الموكب يسير الهويما في صمت حتى المقبرة. دفن الشهداء، الذين لم تغسل أجسادهم ولم يكفنوا. ووريت أجسادهم التراب والناس بين منتحب وغاضب ومندد. تذكرت جنازة أبي، وحزن أُمي. أحسست كأننا نواريه التراب اليوم.

عاد الناس بعد الدفن متفرقين، فغصت بهم الأزقة والطرفات أمام الحوانيت والمقاهي المغرقة في صمت مهيب. أما الأبنية التي نسفت بالأمس فكان شبان كثير يقومون بإزالة أنقاضها، أو جمعها في كومة كبيرة. وحين خلت مساحة من الأرض من الأنقاض بعد ساعات، شرعوا في إقامة سرادق كبير علقت في جوانبه و أنحاء منه المصابيح التي أضيئت فور تعليقها، مع أن الشمس لم تكن

قد غربت بعد. وضعت الكراسي والمقاعد التي تطوع بتقديمها عدد من الناس. عقب الغروب أخذ شيخ معمم ضريبر، جيء به من يافا، في تلاوة القرآن الكريم. وعلى الرغم من برودة الجو واشتداد الريح، وقنامة السحب التي تنذر بمطر قد ينهمر في أية لحظة. واصل الناس سهرهم حتى ساعة متأخرة من الليل. حيناً في الاستماع إلى التلاوة، وحيناً إلى متحدث من بينهم (كالشيخ محمد طافش) أو زميله الشيخ (محمد ابو العينين) عن مآثر الشهداء، أو في رواية قصة من تاريخ الأمة في الشهادة والجهاد .

وعلى مدى أيام ثلاثة تابع الأهالي سهرهم وتقديم التعازي أو تقبلها، فلم يكن هناك فارق بين أهل الشهداء وغيرهم فإلخسارة ألفت بالجميع، والذين فقدوا هم أبناء القرية، وليسوا أبناء أسرهم وحدها. كما أن أحداً لم يتوان عن تقديم الطعام في قدور كبيرة على مدى الأيام الثلاثة، في السرايق، كما في منازل ذوي الشهداء .

كان عسيراً علينا أن نفهم لماذا يجب أن يقتل آباؤنا وأحباؤنا على أيدي الانكليز. أن يتيم الأطفال وترمل النساء، أن تدمر المباني، وتحرق المزارع والحقول، فيعم الخراب، وينتشر الحزن في كل مكان ..! ثم من هم هؤلاء؟ ما سبب عدائهم لنا؟ من أين أتوا ..؟

قرأنا في مقرر الجغرافيا أنهم جاؤا من جزر نائية، وراء البحار، على مبعده آلاف الأميال من ديارنا، وأن بلادهم تلك، باردة ماطرة طوال العام.. وو.. إذن مالنا وما لهم؟ ولماذا وبأي حق يصرون على اقتحام حياتنا، هكذا عنوة واقتداراً وتطفلاً؟

هل مجرد كونهم (انكليزاً) ومحض كوننا (عرباً) يمكن أن يكون سبباً وجيهاً لهذا العدوان؟ أم ترى مبعث ذلك اختلاف ألواننا؟ أم لأنهم يتكلمون تلك الرطائة العجيبة التي لا تفهم ..؟

ويجب أهلكنا على تساؤلاتنا الكثيرة الحائرة، بأنها الثورة. وكأن هذه الأجابة المقتضبة تكفي لأن نفهم كل شيء، أو تفسر لنا أيًا من تلك التساؤلات. بيد أن هذه الأحداث أمست جزءاً من حياتنا اليومية، فأصبحت من ثم، تحظى بغير قليل من اهتمامنا، بل وتشكل هما حقيقياً لنا، فباتت شغلنا الشاغل. فما أن نلتقي في الفسحة، بين الدروس أو في الملعب، أو في الطريق حتى نبادر إلى تداول الحكايا عن بطولات ثوارنا الخارقة التي كنا نسمع عنها. ثم غدونا ننقسم إلى جماعات تتحزب كل منها لواحد من قادة الثورة البارزين، مضيفة عليه هالات من البطولة، ناسجة حوله فيضاً من الأساطير والخوارق، تفاخر به الجماعات الأخرى، لكأنما تلك البطولات من صنعها هي ..!

نسمع عن فوزي القاوقجي :

صهيوني دبر حالك /نفدوا الثوار.. / معهم فوزي القاوقجي / بطل الأحرار..

الشيخ عز الدين القسام أبو الثورة الأول القادم من سوريا ليستشهد في أحرار يعبد .وهو الذي عمل على قيام الثورة عام 1936، وكان جهاده نبراساً

للثوار والأحرار.

القائد حسن سلامة.. عبد الرحيم الحاج محمد - أبو كمال -.. عبد القادر الحسيني.. الحاج أمين الحسيني :

حاج أمين يا منصور..! سيفك هدينا السور ... (حتى دون أن ندري عن أي سور يتحدثون.!! سيف الدين الحاج أمين ..!

كنت من أنصار القائد عبد الرحيم. منذ ذلك اليوم الذي سمعت فيه أن هذا القائد يملك قدرات خارقة على مجابهة الانكليز، والإفلات من شراكتهم وكمائنهم، ثم الظهور بغتة في أي مكان ليهاجم دورية، أو ينسف مركزاً للبوليس، ويختفي بعد ذلك، في طرفة عين، ليظهر من جديد في مكان آخر.. وأن أعماله هذه قد أعيت قوات الاحتلال حتى أنها كرسست عدداً غفيراً من جنودها، كما رصدت مبالغ طائلة من أجل القاء القبض عليه حياً أو ميتاً ..!

أرسم له في مخيلتي صورة مثالية تتناسب وما أكنُّ له من إعجاب و إكبار. ولم يكن رفاقي أقل حماسة في تصوراتهم عن أبطالهم المفضلين. وكم تمنى واحدنا لو يشب عن الطوق فجأة ليغدو واحداً من هؤلاء كي يصبح ذكره - مثلهم - على كل لسان ...!

اتفقت مع الرفاق على التوجه بأسئلتنا هذه إلى أحد معلمينا. وقع اختيارنا على الأستاذ (عبد الخالق) مدير المدرسة. فهو خير من يمكن أن يستمع إلينا بسعة صدر، خلافاً للشيخ (محمد أبو العينين) العابس مكفهر الوجه على الدوام، أو الأستاذ (أبو مهدي) الذي يعتقد أننا صغار.. (عفاريت) لا نستحق عناء الحديث إلينا في قضايا كهذه ..!

قرع جرس الصباح. انتظمتنا صفوفاً أمام بناء المدرسة، ومن خلفنا حديثها الحافلة بالأشجار والأزهار. الأرض مفروشة بالرمال الأصفر، وحصى مجلوب من الشاطئ، مصقول أملس. أشجار الكينا العالية والسرو والصنوبر تحيط بالمدرسة من شتى أرجائها، يسمع حفيفها الهادئ فيدخل إلى نفوسنا البهجة والطمأنينة منذ بداية النهار. أشار الأستاذ للصفوف، فشرعنا ننشد :

بلاد العرب أوطاني/ من الشام لبغدان/ ومن نجد إلى يمن/ إلى مصر فتطوان

فلا حد يباعدنا / ولا دين يفرقنا / لسان الضاد يجمعنا / بغسان وعدنان

كف الأولاد عن صخبهم فور دخول الأستاذ عبد الخالق. ساد الصمت. قبع

الجميع في أماكنهم، إذ كان أستاذنا هذا يخطرنا بأنه إذا ما دخل غرفة الصف، فيجب أن يسمع صوت الأبرة إذا ما وقعت على الأرض...! بادر نعيم إلى رفع يده، حين كان الأستاذ عبد الخالق يتفحص دفاتر وأوراقاً بين يديه. تنبه له بعد لأي. تساءل في غير أكثرات :

ماذا يا نعيم ..؟

قال هذا مرتبكاً :

-أستاذ.. سؤال من فضلك ..

-تفضل.. هات ما عندك ..يا فتاح يا عليم..!

-سؤال عن الانكليز.. أعني الثورة

وجم الأستاذ برهة. ثم قال، وعلامات الدهشة بادية على وجهه النحيل، وفي عينيه الضيقتين الحادثتين كعيني صقر:

-ماذا تقصد يا ولد ..؟ مالك أنت والثورة ..؟

-نريد أن نفهم لماذا يقتل الانكليز أهلنا؟ لماذا يعتدون علينا؟ هؤلاء الذين استشهدوا بالأمس.. وهذه المباني التي نسفوها.. لماذا يفعلون هذا بنا ؟

نقل الصمت إلا من صوت حفيف الأشجار عبر النوافذ، فيما أخذ الأستاذ عبد الخالق يذرع الغرفة، جيئةً وذهاباً، ويداه معقودتان وراء ظهره، تماماً كما كان يفعل نابليون قبيل دخول المعركة (هكذا قيل لنا أنه كان يفعل)..!

بعد لحظات سادها الترقب المشحون بالتوتر، اتجه الأستاذ إلى باب الغرفة فأغلقه، ثم عاد ليقف بمحاذاة أول صف من المقاعد. بدا عليه اهتمام غير عادي، يوحي بأن ما يعتزم قوله شيء ليس من قبيل (الثور الأسود الذي أكل يوم أكل الثور الأبيض)، أو الثعلب الذي احتال على الحمار فأكله في قلب الغابة.. لأنه حمار ..! أو ليلي التي أكل الذئب جدتها ..! قال بصوت خفيض النبرات :

.. ما سأقوله لكم يا أبنائي، يجب عليكم أن تعوه جيداً. وليكن هذا هو موضوع درسنا اليوم. لكنه درس للحفظ في قلوبكم. امتحانكم فيه عندما تصبحون شباناً. والممتحن آنذاك هو الوطن.. فلسطين أمكم ..!

نظر بعضنا إلى بعض في دهشة ممزوجة بغير قليل من الخيلاء. تخيلنا للحظات أننا سنصبح ثواراً.. نحمل البنادق.. نتبادل المطاردة مع جنود الاحتلال من الانكليز. أعادتنا إلى الانتباه متابعة الأستاذ لكلامه بعد هنيهة صمت :

-الانكليز احتلوا بلادنا منذ نيف وعشرين سنة... غابتهم الاساسية من

وراء ذلك أن يجلبوا إليها يهوداً من وراء البحار.. من كل أرجاء الدنيا ..
هـب أحد التلاميذ ليسأل :

-ولكن لماذا يترك هؤلاء بلادهم ويأتون إلى بلادنا نحن ؟
أجاب الأستاذ موضحاً :

-يريدون أن يقيموا لأنفسهم ((وطناً قومياً)) يجتمع فيه يهود العالم. هذا ما وعدهم به وزير بريطاني اسمه ((آرثر بلفور)) في أوائل عهد الاحتلال، وبالتحديد في الثاني من تشرين الثاني عام 1917 أي قبل أن تخلقوا أنتم بزمان طويل. أي أنه قرر مصيركم حتى قبل أن تولدوا هل تفهمون؟ ويبدو أن ذلك كان أكبر من أن تستطيع فهمه مداركنا، فهب تلميذ آخر لكي يسأل :

-ومن هو بلفور هذا حتى يعدهم بذلك ؟.. وهل يملك هذا البلفور البريطاني أرضنا حتى يهبهم إياها وهو القاطن في تلك الجزر النائية ؟..
قال الأستاذ عبد الخالق مبتهجاً لهذا الوعي المبكر في تلاميذه النجباء !..
هاه.. من أجل هذا قامت الثورات
تشجع تلميذ آخر، فقال :

-لكن لماذا بلادنا بالذات ؟..

-لأنهم يزعمون بأنها أرضهم الموعودة .

-وما معنى الموعودة يا أستاذ؟ ومن ؟

-يزعمون أيضاً أنهم أقاموا في هذه الديار قبل آلاف السنين، وأنه كانت لهم فيها دولة، اندثرت فيما بعد. وأن كتابهم - التوراة - يعدهم بالعودة إليها، ولو في آخر الزمان أي في هذه الأيام..! ليقيموا دولتهم من جديد !..

-ونحن أصحاب البلاد، الحقيقيين.. منذ آلاف السنين حتى الآن، كما شرح لنا أستاذ التاريخ. ما شأننا ؟

-يبدو أن أحداً لم يفكر في ذلك يا بني .

-ولكن من يعترف اليوم بملكية أحد لشيء قبل آلاف السنين !..

-من أين تأتي بهذا الكلام الكبير يا ولد ؟

-في السرداق - يوم الشهداء - هكذا سمعناهم يقولون .

-حسناً.. حسناً.. هو أمر مضحك بالفعل يا أبنائي.. ولكن حتى الأمور المضحكة تصبح جدية حين تدعمها القوة. حاول الانكليز واليهود معاً أن

يفرضوا علينا هذا المنطق وهذا الواقع بالقوة التي يملكونها. ونحن، من ناحيتنا نرفض ذلك ونثور عليه. ها نحن نطالب الانكليز بالجلاء عن بلادنا وبالاستقلال والحرية لشعبنا. قال أحد التلاميذ، إذ تحول الحديث إلى حوار ودي بيننا وبين أستاذنا :

-ولماذا يساعد الانكليز اليهود ضدنا، مع أننا نحن الذين على حق ؟..
-هذا لو كانوا قضاة يا بني.. لكنهم ليسوا قضاة.. الانكليز واليهود متفقون على عداوتنا لأسباب تاريخية، لا أريد الخوض فيها الآن. أذكركم فقط بشيء منها. قرأتم في دروس التاريخ عن الحروب الصليبية.. أليس كذلك؟ ليس هذا وقته على أية حال .

نظر إلى الساعة في معصمه، ثم أردف قائلاً :
-.. ولكنني أكتفي بالقول الآن، لكي تكتمل الصورة في أذهانكم، بأن لكلا الطرفين أطماع في ثروات بلادنا، كما في موقعها الجغرافي. وستعرفون هذا في المستقبل أيضاً، في الصفوف الأعلى .

صمت من جديد برهة من الوقت، ثم قال، وهو يركز بصره علينا:
- لا تنسوا درسكم هذا. تذكروه دائماً إلى أن تكبروا وتصبحوا بدوركم ثواراً ..!
غادرنا قاعة الصف.. انطلقنا إلى بيوتنا، بمرح وحماسة نردد في الطرقات:

نحن الشباب لنا الغد / ومجده المخلد / نحن الشباب ..

غربت شمس ذلك النهار، وانتشرت طلائع الظلمة تغطي الكون، إلى أن شرع القمر يتوغل صعوداً في سماء صافية الأديم، مرسلاً شلالات دافقة من ضيائه الباهر، تغمر السطوح والقباب، فتلقي هذه على الأرض ظلالاً فاحمة تنبسط من أمامها في أشكال مختلفة. ثم لا تلبث الظلال أن تتقاصر شيئاً فشيئاً، كلما ارتقى البدر قمة السماء، ليغمر الضوء كل المرئيات، مثيراً في النفس أحاسيس مبهمه، هي مزيج من الشعور بالجلال والوحشة، والأحاساس بالضالة والتناهي في الصغر، في لجة هذا الكون السحيق الأبعاد بغير ما نهاية.

خلت الساحة والأزقة. فخفتت الضوضاء، فيما تحلق على المصاطب القائمة أمام البيوت رجال ونساء، لاسيما أولئك الذين تجاوزوا مرحلة الشباب، وتقدمت بهم السنون. بقايا غبار ما زالت تعبق في الجو خلفتها قطعان الماشية العائدة، مع الغروب، إلى حظائرهما، أو منازل أصحابها الذين غالباً ما يشاطرونها العيش تحت سقف واحد. يقدمون لها قمحهم وشعيرهم، وتمنحهم هي حليبها ..! مزيج من رائحة التراب والقطعان، ورائحة دخان الطوابين والخبز .. مزيج غريب منعش .. أخاذ. هدوء المساء يعم كل شيء. يقطعه ما بين أونة وأخرى نغاء شاة، أو خوار بقرة .. نباح كلب، أو صرير بوابة يذلف منها كهل، يتقدمه سعاله المتقطع .. صوت امرأة تستحث جارتها على الخروج للانضمام إلى زمرة السمّار التي تتكون أمام بيتها .

بعد أن اطمأنت والدتي إلى أن أحمداً وعلياء قد أخلدا إلى النوم، أذنت لي بمرافقتها، عقب توصية مشددة، مشفوعة بالتهديد بأن تكون هذه هي آخر المرات التي تصطحبني فيها، إن لم ألزم الصمت - كلاماً وحركة - في حضرة (الكبار). وكما في كل مرة قبلت تعهدي الذي لم يحدث قط أن نقيدت به فيما سلف ..!

أكثر الجالسات أهمية ومكانة كانت الحاجة (أم سائحة)، التي تنصدر الجلسة، عادة، فتضيف عليها هيبة و وقاراً. سبحة طويلة بين أناملها، تداعب حباتها بأناة، وكأنها حركات محسوبة. وشاح أبيض على رأسها يبدي عند أطرافه خصلات من شعرها المصبوغ بالحناء. ملامح وجهها نضرة، لما تزل، على الرغم من تجاوزها الستين، إلا من خطين دقيقين على جانبي فمها. أما

عينها فقد احتفظنا ببريق حاد، حتى يكاد المرء أن يتجنبهما إذا ما حدثتا فيه بامعان .

ابنتها (خضرة) التي تناهر الأربعين لا تشبهها في قليل أو كثير. سمراء حنطية ممثلة، لا تبدو عليها حدة ذكاء والدتها. عينها عسلتان خاملتان. شعرها فاحم تظهر منه خصلات نافرة، تعيدها إلى مكانها باستمرار، تحت خمارها الأزرق، بحركة باتت آلية، لتكرارها على الدوام. القلق باد في عينيها وحركات يديها العصبية. وهي لا تكف عن الكلام إلا إذا استولى على دفعة الحديث من يستطيع إرغامها على الصمت ..!

حديث الحاجة المفضل يدور، في أغلب الأحيان، حول الولادات المتعسرة التي صادفتها في حياتها، والتي يحلوها أن ترويها، من جديد، كلما أتيج لها ذلك. تملؤها الثقة والاعتداد بما صنعت يداها على مر السنين، شأن ضابط خاض معارك عديدة انتصر فيها جميعاً. لا أدري لماذا كانت ولادتي أيضاً واحدة من تلك الولادات المتعسرة، التي هي في الواقع - وكما كانت تحاول الحاجة أن تؤكد - من علامات التفوق، وسمات العبقرية في المستقبل غير المنظور. وما دامت حالات غير عادية فهي متميزة، مما حدا بها إلى أن تمن عليّ دوماً بأنها هي التي جاءت بي إلى هذا العالم. وكأنما المجيء إليه - في ذاته - إنجاز عظيم يفوق كافة المكتسبات والإنجازات. كما لا يفوتها أن تؤكد - من ناحية ثانية - بأن هذا العالم قمين بأن يسعد بوجودي فيه قطعاً، وإلا فلماذا لم أهلك في ذلك اليوم التاريخي الحافل؟ وما معنى أن تخوض - هي - معركة شرسة مع الموت تنتصر فيها أخيراً، لولا أن الله في ذلك حكمة بالغة وخافية نجهلها نحن البشر ..؟! أبتهج عندئذ لحديثها.. ويعتريني الزهو والغرور ..!

من هنا حق لها أن تأمرني فأطيع، وأن أقدم لها طاعتي العمياء وخدماتي المبصرة، بنفس راضية. كأن أحضر لها إبريق الماء للوضوء .. أستعير لها خميرة من إحدى الجارات.. أذهب إلى دكان (أبو العبد الرملاوي) لشراء (حصلبان) أو يانسون. هذا دون أن أنال على شيء من ذلك جزاء أو شكوراً ..! لم لا؟ ألسنت مديناً لها بوجودي على ظهر هذا الكوكب ؟

أما الخالة (خضرة) فلم تكن تستمرئ حديثاً كالحديث عن الجان والمردة والعفاريت التي تظهر للناس ليلاً. لا سيما للغلمان والياfecين، ومن هم في مثل سني ..!

أبو علي الجمال ظهر له عفريت ضخم عند مقام أبي هريرة، هدهد -

العفريت وليس أبو هريرة - بالقتل إذا هو لم يذبح كبشاً أبيض، ويوزعه على الفقراء والمعوزين. أم أحمد العتال تبدى لها شبح، قيل أنه كان يرتدي (أبيض في أبيض) وطلب منها طعاماً، لعله البامية على وجه التحديد ...!

وتختلف الخالة خضرة، أحياناً، مع إحدى المستمعات حول ماهية ذلك الشبح، أهو جني حقاً أم هو أحد أولياء الله الصالحين. وتصر عندئذ، على موقفها وكأن بين يديها وثائق دامغة تثبت ما تراه هي في هذه القضية ...! روت لنا ذات مرة، كيف رأى (أبو خليل النجار) ما رداً ضخماً يمتد جسده عمودياً ما بين الأرض والسماء، فيما هو عائد من عرس (دار الحملوي) في الهزيع الأخير من الليل، وذلك هو الوقت المفضل لدى الأشباح والأرواح لمداعبة بني البشر، وكيف أوشك المارد أن يكتم أنفاسه لولا أن قافلة جمال أدركته في اللحظة المناسبة ...!

كنت حريصاً على الاستماع لهذه الأحاديث في لهفة بالغة وفضول شديد. إلا أنها ما لبثت أن ملأتني رعباً، فغدوت أرى أبطال قصص الخالة خضرة في وضوح النهار، ناهيك عما حفلت به مخيلتي ليلاً من صور هذه الأشباح في صحوي ومنامي على حد سواء. من ثم فقد أمسيت لا أجرؤ على الابتعاد عن المنزل إثر حلول الظلام. وإذا ما حدث أن كلفنتي والدتي بالذهاب إلى مكان، أو أداء مهمة، عمدت إلى انتحال المعاذير المختلفة، متذرعاً بأي سبب يعن لي، خلا السبب الحقيقي، خشية أن اوصم بالجبن. ولما لم تكن كل أعذاري مقبولة لديها، فقد كان يتفق لي أن أخرج مكرهاً، وعندئذ، تندفع إلى مخيلتي كالسيل حكاي الخالة خضرة دفعة واحدة، مضخمة مجسمة ...! أحت الخطأ ..أهرول .. أعدو وكان يداً من خلفي تحاول أن تقبض على مؤخرة رأسي. تصطدم قدمي بحجر، أو عتبة باب. آه.. هذا هو الجني المتربص متقمصاً هيئة حجر. تقفز من فوق الجدار قطعة ..آه.. هذه هي إحدى العاشقات من بنات الجان، في صورة قطعة.

وفي ذات أمسية ظهر لي ذلك المارد اللعين. خرجت عقب العشاء بقليل، وأصرت والدتي أن ألتفح بكوفية حول رأسي وعنقي اتقاء البرد. لم تفلح كل المعاذير التي قدمتها. وما أن بلغت الطريق المحاذي للمقبرة حتى بدأ الهلع يجتاحني. نظرت إلى أعلى فإذا بمارد أمامي.. ذعرت، أغمضت عيني، أطرقت إلى أسفل.. ما زال أمامي. إنه المارد إذن بغير جدال.. يا إلهي.. يا إلهي.. لقد وقعت بين يديه أخيراً. انطلقت أعدو بجنون عائداً من حيث أتيت. ولم ينصرف المارد إلا حين اندفعت إلى داخل البيت كالسهم، وخلعت الكوفية. ألقيتها جانباً

كي أمسح العرق المتصبب من جبيني، فيما أُمي تنظر إليَّ بارتياح. متسائلة عما حدث لي، ولماذا أنا على تلك الحال ، تبين عندئذ، وبعد أن هدأت من روعي، أن خيطاً من العقال قد تدلى أمام عيني فحسبته مارداً ..!

لم يجر الحديث في تلك الأمسية حول الجان، و لا عن الولادات المتعسرة. قضية (عبد السحوة) زوج الخالة خضرة، هي التي استأثرت بالاهتمام دون سواها، لا سيما وأن الأحداث الماضية ما برحت ماثلة في الأذهان.

قالت الحاجة تظمن ابنتها :

-سوف يفرجون عنه قريباً فلا تقلقي. وكلّي أمرك الله يا ابنتي .

-ولكنهم لا يتقون الله يمّه.. ألم يشنقوا كثيرين غيره ..؟

ورغم أن الحاجة تعرف أن كلام ابنتها كان صحيحاً، إلا أنها لا تملك إلا أن تمضي في طمأننتها، حتى لو لم تكن هناك أسباب وجيهة لذلك الاطمئنان. فقالت:

-أولئك قبض عليهم وهم يقتحمون مستعمرات اليهود، أو يهاجمون قوات الإنكليز .

قالت أم مريم، بعد أن تلممت قليلاً، وهي تشير بيديها، كعادتها كلما تحدثت:

-ألم يقولوا أنهم لم يجدوا مع (العبد اسم الله عليه، ويجيبه بالسلامة) سوى رصاصات فارغة..؟

-هذه هي المشكلة. إنهم يشنقون الرجل من أجل رصاصات فارغة ..!

-أصلحه الله.. لماذا يحتفظ بها وهو يعلم انها ستجلب له مصيبة ؟

-ومن أدراه أنه سوف يتعرض لتفتيش مباغت كالذي حصل ؟

-كان عليه أن يتوخى الحذر. ألا ترين أن قريتنا تحظى باهتمام خاص هذه الأيام ؟

أما جارتنا (عدلة) الشامية، التي كانت تقطن خلف بيتنا من الناحية الجنوبية، والتي ظلت تستمع طوال الوقت، منقطة نظراتها بين المتحدثات في شيء من الاستغراب فقد قررت أن تقول شيئاً، آخر الأمر، كي تؤكد أنها تشارك في الهموم، وتسهم في الرأي، فقالت وهي تلملم خصلات شعرها الذهبي :

-الإنكليز يصنعون عندكم ما يصنع الفرنسيون عندنا تماماً .

رأت أمي أن تدلي بدلوها هي الأخرى، فقالت :

-يظهر أنهم متفقدون جميعاً على هذا لمصلحة اليهود كما يقولون .

تململت خضرة، وقالت في شيء من الاستياء لابتعادهن عن موضوعها :

-المهم الآن (أبو نمر). ماذا يمكننا أن نصنع؟ نبحث عن وساطة؟ نتقدم

بطلب استرحام للمندوب السامي ؟

فشعريرة تسري في جسدي.. أيشفقون رجلاً، بالفعل من أجل رصاصات

فارغة كذلك التي كنا نلعب بها اليوم في باحة المدرسة ..؟؟

كان درس المحفوظات في ذلك الصباح بالذات، قصيدة عن ثلاثة من

الثوار شنقوا عام 1930. روى لنا الشيخ محمد قصتهم. وأن تلك القصيدة

نظمها فيهم شاعر للثورة ويدعى إبراهيم طوقان. عنوانها (الثلاثاء الحمراء)

وأسماءهم التي علينا أن نحفظها : عطا الزير، ومحمد جمجوم، وفؤاد حجازي:

قسما بروحك يا فؤاد / صعدت جوانحها زكية / عاشت نفوس في سبيل

بلادها ذهبت ضحية .

قسماً بأملك عند موتك / وهي تهتف بالنشيد / ما نال من خدم البلاد / أجلُّ

من أجر الشهيد

أصوات الجالسين على المصاطب الأخرى تصل إلينا دون أن نتبين فحوى

شيء مما يقولون، إلا حين يعلو صوت منفعل، أو تتطلق ضحكة. رائحة الشاي

بالقرفة آتية من مصطبة مجاورة. من هم على المصاطب الأكثر بعداً يبدوون

كالأشباح تحت ضوء القمر. الأصوات كدوي نحل. أغنية غير واضحة الكلمات

تتردد متماوجة عن بعد. صوت المؤذن ينادي لصلاة العشاء فيعم السكون .

قامت والدتي، وأشارت إليّ. نهضت على غير رغبة مني. كنت أود

الاستماع إلى مزيد.. اتضحت معالم الأغنية يحملها الريح من مقهى (القاضي)

عند المنحدر القريب.. اسمهان.. (فرق ما بيننا.. ليه الزمان ..ده العمر كله

بعدك هو ان ..)

أشاحت والدتي بوجهها تخفي دموعاً تفرقت في عينيها.

أحمد وعلباء يستلقيان على فراش من تحته حصير على أرض الغرفة.

تمددت بجوارهما. سعيد لم يكن قد عاد بعد. ألقت أمي بلحاف علينا جميعاً، فيما

هي تتلو آية الكرسي همساً. ذبالة السراج تتأرجح مرسلّة ظلالاً فاتمة.. خفيف

الأشجار يهمس في أذني.. نفخت أمي على السراج فانطفأ. جذبت الغطاء فوق

رأسي.. أغمضت عيني.. ومضيت مسافراً بعيداً.. الأشباح.. المشائق..

الانكليز...!

لبثت زمناً طويلاً أحسب أن يوم " الجمعة الحزينة " هو ذلك اليوم الذي جيء فيه إلى القرية بجثمان عبد السحوة. في ناحية من القرية خيم الوجوم وساد صمت حزين. وفي مكان آخر منها انفجر غضب عارم، وقامت مظاهرة. وفي السوق أغلقت الحوانيت. وفي المسجد أقيمت الصلاة على روح الشهيد، وقام الخطباء ينددون بالانكليز، فكان يوماً مشهوداً. سيارة خضراء مغلقة اخترقت الشارع، وانعطفت إلى الزقاق المؤدي إلى بيت السحوة، ثم توقفت أمام المنزل تماماً. صمت هدير محركها بعد أن عقب الجو بدخان قاتم، ورائحة (بنزين) خانقة. وجهاء القرية ومخائيرها وقفوا قريباً من الباب. النساء على النوافذ وأبواب الدور. الصبية ملأوا الطرقات والزقاق في فضول مشوب بالخوف.

فتح باب السيارة الخلفي، وأنزل تأبوت حملة الرجال إلى داخل الدار، فانطلقت زغرودة من حنجرة ممزقة، اقشعرت لها الأبدان. أعولت النساء، وتهدجت أصوات الرجال، والتمع الغضب في عيونهم.

.. لقد فعلها الطغاة إذًا.. شهيداً آخر في قافلة الشهداء ..

.. شنق الرجل من أجل رصاصة فارغة.. يهودي واحد لم يشنق رغم أكداش السلاح التي بحوزتهم !..

خرج النعش، بعد فترة لم تطل كثيراً، على أكتاف الرجال. تكون للتعويك موكب يمشي وراءه في صمت مهيب. فيما انطلقت أصوات النساء، فكانت مزيجاً من العويل والزغاريد والصرخات المخنوقة. واحدة تبتهل إلى الله بأن (ينكب الانكليز). أخرى تنعي موت الفقيد في عز الشباب، وخضرة تدب (جملها) و(أبو اولادها..!). الموكب يمضي عبر شوارع القرية غرباً باتجاه المقبرة. الغبار يتصاعد فيخنق الأنفاس. العرق يغسل الوجوه المحترقة. حتى الصغار كفوا عن تساؤلاتهم.. وكأنهم يعرفون كل شيء، أو لا يعرفون أي شيء. كومة أنقاض المباني التي نسفت ما برحت في مكانها، زاد مرآها الناس سخطاً. كل شيء يذكرهم بالانكليز. "هذا بلاء عام !.. من أين جاء..؟ لماذا نحن بالذات دون سائر خلق الله؟ ولماذا بلادنا بالذات، دون غيرها، مطمع

الطامعين...؟"

تمكنت من التسلل بين القبور، ومن خلال ذلك العدد الهائل من الناس إلى أقرب مكان من الحفرة. رجلان يحملان الجثمان، ملفوفاً بالعلم، ثم ينزلانه إلى تلك الحفرة المخيفة.. القبر..!

يا إلهي هل يمكن أن يكون هذا المكان مقراً دائماً للعم عبد السحرة منذ الآن؟ هل معنى هذا أننا لن نراه يمر أمام بيتنا بعد اليوم.. كأبي.. أبي يقيم الآن في ظلام كهذا مخيف.. لا يأكل.. لا يشرب.. لا يرى أولاده.. هنا يبقى في الليل والنهار.. في الصيف.. وفي الشتاء.. منذ الآن وعلى مدى الزمان.. كل ذلك يا عم عبد من أجل رصاصة فارغة.. ويا أبي من أجل لا شيء على الإطلاق..! ألا يملون الرقاد هنا؟ ألا يخافون العتمة؟ ألا يشاقون لنا ؟

-إذا ما جاءك الملكان، ثم سألاك.. قل لهما ...

أي ملكين سيسألانه ؟.. كيف ؟.. وداخل القبر ؟..

صف من الرجال وقفوا قرب القبر، بعد أن رش بالماء، وغرست للتو في تربته الهشة أزهار وسعف نخيل. الناس يمرون بهم الهويناء، يصافحونهم واحداً واحداً، في صمت مطبق. وعندما هم الجميع بالانصراف، وقفت على مقربة مجموعة من الفتيان، أخذت تتشد في نغم حزين، تلقائياً، ودون أن يطلب إليهم أحد ذلك :

يا ظلام السجن خيم / إننا نهوى الظلما /

ليس بعد الليل إلا / فجر مجد يتسامى .

أقيم سرادق كبير في ساحة سيدنا وهب. علقته بداخله وخارجه أعداد من المصابيح - اللوكس - أضاعت أرجاء الساحة بنور باهر، أثار في نفوسنا، نحن الصغار، فرحاً غامراً، بدد الحزن من نفوسنا. بسطت الحصر، وجلس الناس على فرش من فوقها يستمعون إلى المقرئ الضرير الذي جيء به من يافا. شجي الصوت، حزين النبرات. تسمع عند كل مقطع يقف عنده الشيخ، آهات الاستحسان لجمال الصوت، أو لجلال المعنى، مصحوبة بغمغمات تدعو للفقيد، وتترحم عليه، طالبة من المولى، عز وجل، أن يسكنه فسيح جناته، فالشهداء (أحياء عند ربهم يرزقون).

كان ذلك، بالنسبة لنا، مهرجاناً مسلياً، على الرغم من كل شيء : نلعب على مقربة من السرادق.. نعدو.. نتشاجر. وربما نغني، ناسين الجو المكفهر المحيط بنا، مما يضطر بعضهم إلى انتهازنا، كيما تكف عن عبثنا الذي يفسد

عليهم متعة الحزن والتفجع ...! ويدور أحدهم بفناجين القهوة، يصب قطرات من إبريق نحاسي عتيق لا تزيد على رشفة واحدة، سرعان ما تتلاشى بين شفتي الشارب، ثم يعيد هذا الفنجان مشفوعاً بحركة من يده متفق عليها عرفاً، تعني الأعادة أو الاكتفاء .

وفي ركن قصي من السرادق جلس (محمد طه النجار) ومن حوله عدد من رجاله، مكفهر الوجه، مقطب الجبين، لا يني عن إلقاء نظراته الحادة هنا وهناك. شارباه معقوفان عند طرفيهما، مديبان كذيل عقرب. يعتمر كوفية وعقالاً، متسربلاً بعباءة سوداء، تخفي تحتها البندقية والحزام الجلدي المحيط بخصره الممتلئ بالرصاص (السلحك)، فضلاً عن خنجر على جانبه الأيمن .

.. هذا هو الرجل الذي وضعوا مكافأة لمن يساعدهم على اعتقاله.. بل لمن يمكن أن يغتاله..!

كان فرحنا - أنا و نعيم وحامد السلال وآخرون من رفاقنا - لا حدود له. فلقد اتيح لنا أخيراً أن نرى أحد رجال الثورة البارزين، بسلاحه الكامل.. ها هو ذا أمامنا كما لو كنا نراه رأي العين، يطارد الانكليز ويطاردونه.. يقتحم المستعمرات اليهودية مع رجاله ...!

في ظهيرة اليوم الثالث لعزاء (عبد السحوة)، عبرت سماء القرية طائرة منخفضة ألقت بكميات من المناشير تطايرت في كل الاتجاهات، لم يأبه لها أحد من الكبار. ولكننا انطلقنا، وكنا قد خرجنا لتونا من المدرسة، نلتقطها، أو نختطفها وهي تتهادى قبل أن تبلغ الأرض. ربما فرحاً بألوانها المثيرة. قرأت في واحدة منها :

".. من الذي يخسر بسبب الأعمال الخارجة على القانون الآن؟ إن الرجل الغني يعيش مرتاحاً في المدينة. هو لا يعرض أسباب معيشته للخطر، ولكنه يطلب إلى الرجل الفقير أن يفعل ذلك. إن الذي يخسر هو ذلك التاجر الصغير الذي أجبر على إغلاق دكانه. الذي تتلف بضاعته. هو ذلك الفلاح الذي لا يبيع محصوله في السوق. أليس صحيحاً أن الرجل الفقير هو الذي يخسر دائماً؟ ومع ذلك فإن هذه الأعمال لا طائل تحتها. إنكم لن تجنوا شيئاً من ورائها. فهي إنما تسبب المتاعب لكم ولقريبتكم.. الزموا الهدوء والسكينة فذلك خير لكم .."

وفي منشور آخر :

"... إن قادة عصاباتكم، أمثال القاوقجي وعبد القادر الحسيني، وأبو درة، وحسن سلامة، وعبد الرحيم، لم يجلبوا لكم سوى الخراب.. فتخلوا عنهم ..."

قبيل الغروب بقليل من ذلك اليوم جيء بقصاع الطعام، فمدت اعداد وفيرة منها داخل السرداق وخارجه، على امتداد الساحة، كي يتسنى للجميع أن ينالوا نصيبهم منها. عبق الجو برائحة المفتول، واللحم، ومرق البصل، والقرع. تحلق عدد من الرجال حول كل قصعة (باطية). وإذا ما اقترب منهم أحد الصغار أفسحوا له مكاناً، أو صرفوه عنهم ليجلس مع أمثاله، وما هي إلا دقائق قليلة حتى أتوا على ما في القصاع. وأخذ الناس يتفرقون، فيما عمد بعضهم إلى رفع الأنبية الخاوية، تمهيداً لما بعد الغروب، حيث يقدم الناس إسهامهم العيني لأهل الفقيد. تأتي النساء وفوق رؤوسهن صواني مملوءة بالأرز الجاف، مغروساً في وسطه قالب كبير أو أكثر من السكر، هرمي الشكل ملفوفاً بورق أزرق فضلا عما يحمل الرجال من قراطيس مملوءة بالشاي و البن. أما الموسرون، والأكثر قربى من تلك الأسرة، فيجلبون خروفاً، تماماً كما يفعلون في مناسبات الأفراح .

حين عدت ظهيرة اليوم التالي من المدرسة، ألفت السرداق قد أزيل من مكانه، وليس في ذلك المكان سوى مخلفات من الورق والمسامير والقش والرماد. وغلمان يلعبون اتخذوا من تلك المخلفات أدوات للعبهم، كرات يتقاذفونها بأقدامهم، بعد أن وضعوا حقائبهم، وكتبهم أرضاً، والهواء يعصف بأوراقها. صخبهم يملأ المكان. لقد عاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل أيام .

طرفت سمعي، حين عدت إلى دارنا، أصوات بكاء، ورأيت من خلال البوابة، المفتوحة على فناء دار السحوة، بعض النسوة بثيابهن السوداء الخالية من التطريز. وعلى رأسهن الحاجة أم سايحة والخالة خضرة .

دلفت إلى منزلنا فألفت والدتي مطرقة يرتسم على محياها وجوم حزين.. قبلت يدها.. ضمتني إليها.. وانخرطت في بكاء صامت رغماً عنها .

أذن المؤذن للعشاء، وسعيد لم يعد إلى المنزل بعد. وآذان العشاء - لا سيما في تلك الأيام - إيدان للناس بانقضاء الحد الأقصى للسهر في أمسياتهم تلك. من ثم، كان على الذين لم يؤبوا إلى بيوتهم حتى تلك اللحظة أن يفعلوا ذلك قبل أن يوغل الليل .

أما بالنسبة لأمي فقد كان الآذان، بمواقبته الخمس، هو التوقيت الذي تعتمد عليه في تنظيم شؤون حياتها اليومية، خاصة بعد أن باعت المنبه الذي لحق بأشياء أخرى باعتها على التوالي، منذ ألفت بنا الفاجعة، لتغطية النفقات الضرورية : حذاء لعلياء، شورت لأمين، حسب تعليمات معلم الرياضة، دفاتر وأقلام. المهم ألا يعلم أحد بمدى الفاقة التي نعاني .

حين تذكرت أن أخي سعيد قد تأخر، نقلت بصرها بيننا وبين موقد النار، تتوهج في أطرافه جمرات يغطي جوانبها رماد رقيق. وفي ركن منه إبريق معدني أزرق يتعالى البخار من فوهته مشبعاً برائحة الشاي والميرمية، شرابنا المفضل ...!

.. أتراه قد تأخر بسبب العمل عند (أبو درويش)؟ إذا كان الأمر كذلك فهو هين. لقد بات قلبها شديد التوجس في هذه الأيام. خطر لها أن ترسلني في أثره مستظلاً. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة قد رافقتها إلا أنها لم تطمئن إليها كثيراً، إذ هي بنفس القدر تخشى عليّ من مكروه يصيبني في ذهابي أو إيابي. زادها توتراً وميض برق لمع في تلك اللحظة مخترقاً شقوق الباب والنافذة، تلاه هدير رعد ترددت اصداؤه في الأفق، وبدأت زخات المطر تقرع السقف والنوافذ. السقف يدلف من جديد. قامت لتضع عدداً من الاواني في الأماكن التي ينساب منها المطر. القطرات المتساقطة تطرق هنا وهناك مرسلّة أصواتاً رتيبة مقفلة. شعرت بالحنق يملأ جوانحها. كم من مرة أوصيته - ذلك اللعين - بألا يتأخر عن آذان العشاء. (إنه لا يسمع لي كلاماً منذ وفاة أبيه.. الله يرضى عليك يا أمين ...!

الليل يتوغل، والظلام يتكاثف، والدوريات تبدأ جولاتها عما قليل، ولن

يمنعها هذا الجو العاصف.. لربما صادفته إحداها.. يا مصيبتني عندئذ..! تسمع وقع أقدامهم كل ليلة، تسبقهم صيحاتهم المعربرة ورطانتهم المثيرة للفرح. وجدت نفسها تقول بعد تردد :

-قم يا بني.. اسأل عن أخيك عند (أبو درويش) لنشرب الشاي معاً حين تعودان. تحركت في غير حماسة، وقد سرت عدوى خوفها إلى نفسي، فالخوف، كالوباء تماماً، ينتقل بالعدوى. لكنه كان خوفاً من نوع آخر. إنه الخوف من الظلام.. والعفاريث..!

المطر ينهمر.. الرعد يقصف.. تصفر الرياح.. وتتمايل الأشجار.. جاء المطر مبكراً جداً هذا العام.

قفزت إلى مخيلتي، على الفور أحداث قصص الخالة خضرة، وأشباح القتل أضحت كثيرة في هذه الأيام.. ربما في كل شارع.. ولا بد أن واحداً منها سوف يلقاني..! أخرجتني من تصوراتي حركة أمي، وهي تتهض، وتمد يدها إلى السراج، تتأوله في رفق، محاذرة أن ينطفئ. ثم تمضي معي إلى باب الدار. تفتحه قليلاً بالقدر الذي يكفي لمروري، ولتسرب حزمة من الضوء تثير قليلاً باحة الدار. لم يبدد ذلك شيئاً من مخاوفي، إذ كانت باحة دارنا بالذات هي أكثر مكان أخافه. لا سيما تلك الزاوية التي يقع فيها الكهف الكفري المهجور، والذي لم يكن أحد يعرف كنهه أو ماهيته، وإن كانوا - الأهل والجوار - يجمعون على أنه مكان مرصود، وأنه السكن المفضل لعدد من الجان المغرمين بمداعبتنا، نحن - الأئس - وإقامة علاقات ودية.. وربما غرامية بين بعض منا وبينهم..!

انطلقت في الطريق المتعرج، بحفره ونقواته. حالك الظلمة، خالٍ من السابلة تماماً. تلفت في اتجاهات مختلفة.. في المنعطفات.. عند مداخل البيوت الموحشة.. أتلصص شيئاً من الطمأنينة في ومضة شعاع، أو نبرة صوت، تتسرب من فرجاتها.. أنظر إلى السماء الملبدة بالغيوم بحثاً عن بصيص ضياء يصدر عن نجم تائه بين السحب. الهواء يلفح وجهي.. حبات المطر الكبيرة تتساقط فوق رأسي. هذا دكان أبو العبد الرملاني.. في الداخل كل الأشياء والحاجيات نائمة الآن.. السكاكر.. علب اللحمة والسردين.. رائحة العطار.. هذا دكان أحمد الحلاق، يغرق في صمت لا يعرف مثله إبان النهار.. كأنه يدعوني للاحتماء به، فنحن متعارفان.. منزل خالتي نعمة، يطل النور من وراء النافذة، لعلها تعدّ العشاء لفوزي وفتحي وفاطمة وبقية البنات. إنهم ينعمون بالدفء

الآن. الأسفلت الوحيد في قريتنا يلمع تحت المطر و وميض البرق الخاطف.. هنا تماماً سقط أبي في ذلك الصباح الأسود. أصرخ.. أنكب عليه باكياً.. الناس يتجمعون.. الموكب الثائر.. توشك الدموع أن تطفر من عيني.. لو كان حياً لما تجراً سعيد على تأخره حتى هذا الوقت. وما كنت لأخرج الآن للبحث عنه..

لاحت الجميزة عن كثب. كتلة فاحمة تربض في الأفق، تملأ ما بين السماء والأرض. أخذ خوفي ينحسر بعض الشيء، إذ أصبحت على مقربة من محل (أبو درويش). لكنه مغلق. مقهى أبو داود المجاور، وحده يشع منه الضوء وصوت الراديو.

دلفت إلى الداخل. مسحت المكان بنظرة سريعة. ذاك أخي سعيد، مع آخرين، بالقرب من جهاز الراديو الضخم، ينصتون باهتمام واضح. وكأنما أزعجتهم حركتي المفاجئة حين اصطفق الباب لدى دخولي، إذ انصرف إليّ شيء من انتباههم. أشارت أكثر من يد تطلب إليّ الصمت. سعيد وحده أشار إليّ بالاقتراب. توقفت حيث كنت. أصخت السمع بدوري، لهذا الشيء الذي يستمعون إليه من الراديو، والذي بلغ من أهميته ما جعلهم يلتصقون به التصاقاً حميماً كخلية نحل تحيط بملكتها...!

".. وإن حكومة صاحب الجلالة تعد شعب فلسطين بمنحه الاستقلال في أقرب فرصة ممكنة بعد انتهاء الحرب مع المحور. وما على هذا الشعب الكريم سوى أن يخلد إلى الهدوء مطمئناً إلى هذا الوعد..."

ساد الوجوم. وأخذ الحضور يتبادلون النظرات، وفي عيونهم تساؤلات حائرة قبل أن ينفضوا من حول المذيع، وتعلو أصواتهم في تعليقات مختلفة. منهم من أصر على أن الإنكليز لا يفون بوعده، وتاريخهم مع العرب منذ الحرب العالمية الأولى خير شاهد على ذلك. وعود بلا حصر.. الكتاب الأبيض.. اللجان المختلفة.. ثم لا شيء. وإيان ذلك كله تمضي الهجرة في تدفقها، ويمكنون لليهود في الأرض بشتى الوسائل و السبل. إنهم لا يرومون سوى الخديعة وصرفنا عن أهدافنا السامية.. كم شهيداً ذهب من قريتنا وحدها حتى الآن على أيديهم؟.. بل هل كفوا عن ملاحقة رجالنا كأسد الرنتيسي ومحمد طه النجار؟ ألم يحكموا بالإعدام، ذات مرة، على واحد وعشرين مجاهداً دفعة واحدة بتهمة قتل شاويش، لا ندري أهو إنكليزي أم يهودي...؟

بعض آخر رأى، أن يعطوا فرصة أخرى، فلعلهم يصدقون هذه المرة تحت ضغط الظروف المستجدة. ولن يخسر أحد شيئاً، إذ إن هناك احتمالات شتى

مرتقبة أسوأها لهم هو في صالح العرب. من هذه الاحتمالات أن يمنوا بالهزيمة في الحرب، فنكون قد وفرنا على أنفسنا الكثير من الضحايا والجهود. أما إذا انتصر الحلفاء على المحور، لا سمح الله - قال أحدهم - فقد تصدق بريطانيا هذه في وعدّها، وهو ما نأمل، وقد تنكّث بعهدّها، فنعود عندئذ إلى النضال ونحن أكثر قوة وأفضل عتاداً عن ذي قبل، لثورة طويلة المدى محققة النتائج، في الوقت الذي يكونون فيه قد خرجوا لتوهم من الحرب منهوكي القوى، متخنين بالجراح، عاجزين من ثم، عن التصدي لثورتنا.

قال واحد من الحضور:

-أرأيتم؟ هذا أول مكسب لهم. هانحن نختلف من أجلهم وبسببهم. وهذه هي سياستهم المعتمدة في كل زمان ومكان "فرق تسد".

غادرنا مقهى (أبو داود) والناس ما زالوا في لغظهم حول ما سمعوا. مضينا نتحسس طريقنا في الظلام، وقد تجمعت مياه المطر فتحول الطريق إلى برك. وفي القنوات المنحدرة من أعالي القرية يتدفق الماء غزيراً، والمطر المنهمر تتبدى خيوطه لأمعة ممتدة بين السماء والأرض كلما ومض البرق، مصحوباً بهدير رعود تجوب أرجاء الفضاء.

لم نكد ناوي إلى فراشنا - عقب تناولنا العشاء - في تلك الليلة العاصفة حتى طرقت أسماعنا أصوات طلقات من الرصاص، آتية من الناحية الشرقية. لم نأبه لذلك كثيراً، فقد توقفت الثورة، أو كادت، في الفترة الأخيرة. إلا أننا فوجئنا غداة اليوم التالي حين علمنا أن رصاصات الأمس تمخضت عن حدث هام، سرعان ما أفضى إلى تطورات، نجم عنها انقسام أهل القرية إلى فريقين متنازعين فيما بعد، ولأمد غير قصير.

حفلت ساحة القرية بعدد وفير من رجال البوليس، لا سيما الخيالة (الصواري) ببزاتهم الزرقاء، تزين صدورهم لوحات صغيرة تحمل أرقاماً معدنية لأمعة، تسهم في إضفاء غير قليل من المهابة عليهم. ضباط عرب وانكليز يتحركون في نشاط دائم، تحت وابل من المطر. ترشق سنايك جيادهم الماء المتجمع في الحفر والمنخفضات، وتثير بجليتها جواً من الرهبة، فيما اتخذ بعضهم من دار المختار مقراً لعمليات الاستجواب.

(محمد يوسف أبو سالم) كان المستهدف بتلك الرصاصات التي أطلقت عليه في جوف الليل، فيما هو عائد إلى منزله مع عدد من رفاقه وحراسه. كان الرجل محسوباً على الانكليز إبان الثورة. ومن ثم فقد دأب هؤلاء على إحاطته

برعايتهم، وحمايتهم أيضاً. فأمام بيته وضع حرس خاص. وعلى سور ذلك البيت، الواسع الأرجاء، نصبت أضواء كشافات تلمح ما حوله، طوال الليل، انقاء هجوم مباغت. وبات الرجل ذا نفوذ كبير لدى السلطات، وصاحب الكلمة الأولى، التي تتجاوز مخاتير القرية ووجهاتها جميعاً. حتى إن من كانت له قضية مع تلك السلطات، ما عليه سوى أن يتوجه بها إلى محمد اليوسف - هكذا أصبح يعرف اختصاراً - وهو عندئذ كفيل بحلها على خير وجه. ولم يكن الثمن الذي يتقاضاه لقاء خدماته مالا بأي حال، وإنما ولاء له، أو واجهة يعزز بهما مكانته. كان يمر من أمام بيتنا أحياناً. قصير القامة، ممتلئ الجسم، يرتدي بنطالاً من نوع "البريشز" الانكليزي، منتفخاً عند الفخذين، ضيقاً عند الركبة وحول الساقين، داخل جزمة حمراء ذات أزرار نحاسية، وسترة عسكرية، بجيوب بارزة عند الصدر. وعلى رأسه كوفية وعقال، يطفح وجهه عافية وحيوية. عيناه واسعتان حادتان. في فكه الأعلى سنان ذهبيتان. له شاربان كثيفان معقوفان إلى أعلى. يبدو في مظهره عموماً، كطاووس يزهر بريشه، ولكنه، مع ذلك، يدفع بالمرء إلى تهيبه وخشيته.

قبل إن خصومته مع عائلة النجار ترجع إلى سبب وطني. ففيما كان هؤلاء ثواراً مقاتلين كان هو في جانب أعداء الثورة. وقبل إنها قضية شخصية، بينه وبين محمد طه النجار. وأن الرجلين كانا في وقت من الاوقات صديقين حميمين، إلى أن تزوج الأخير من مطلقة الأول، مما أوغر صدر هذا عليه. لا سيما وأن ما حدث قد أكد ما كان يشاع عن علاقة كانت قائمة بين المرأة ومحمد طه النجار قبل الطلاق. بلغ الأمر بمحمد اليوسف أن انضوى تحت لواء معارضي الثورة بزعامه (النشاشيبي) انتقاماً منه، وابتغاء الايقاع به إذا ما سنحت الفرصة لذلك. من هنا توجهت للفور أصابع الاتهام إلى عائلة النجار، وعاد البحث من جديد، ودون هوادة عن عميدها محمد طه.

لم يمت محمد اليوسف إثر إصابته، فالرصاصات لم تصب منه مقتلاً، وإنما استقرت في أمعائه. وهو الآن يرقد في مستشفى حكومي بمدينة الرملة، حيث تجري له عملية تترتب على آثارها نتائج جمة فيما يتعلق بالعائلتين المتخاصمتين، ومن ورائهما القرية بأسرها.

ما حدث لم يكن غريباً البتة، فالثورة في عاميها الأخيرين - حسب ما فهمنا من أهلنا ومن حولنا إذاك - كرسست غير قليل من جهدها في تصفية مناوئيه. الشبهة - وحدها - كانت كافية لأصدار حكم بالموت. مما أدى، في

حالات غير نادرة، إلى وقوع ضحايا بريئة لم تكن تستحق ما حدث لها. خشي الناس أن يتطور ما حدث إلى نزاع دموي، يشمل سائر أهل القرية. فلقد كان سائداً بينهم أن بعض عائلات "بيننا" من أصل مصري، وفدوا إليها مع حملة إبراهيم باشا، ومنهم من جاء قبل ذلك أو بعده، بحكم الجوار بين مصر وفلسطين. وقد أطلق على هؤلاء دوماً (المصريون). أما أبناء البلاد فقد عرفوا بـ (الفلاحين). كانت عائلة النجار من المصريين وعائلة أبو سالم من الفلاحين. والسلطات البريطانية، عززت هذا التصنيف. ولعلها كانت، بالتالي، أكثر الأطراف سعادة بما جرى، وإن هي تظاهرت بغير ذلك، ذراً للرماد في العيون. إذ كان هذا هو التطبيق الأمثل أيضاً لسياستها "فرق تسد" التي عكفت على اتباعها منذ وطئت أقدامها أرض هذه البلاد.

تم استجواب عديد من الناس، في ديوان المختار، على مدى أيام أربعة، دون أن يسفر التحقيق عن تحديد هوية الفاعل. كما جرى تفتيش عدد من المنازل، ولكن بطريقة مختلفة، هذه المرة. فيما مضى كانوا يتلفون كل شيء تقع عليه أيديهم: يمزقون الأثاث بجراهم. يذلقون الزيت على الطحين، والملح على السكر. يحطمون الأواني، يهشمون الزجاج والنوافذ. لكأن مهمتهم تنحصر في إيقاع أكبر قدر ممكن من الأذى بآولئك التساء. هذه المرة كانوا على قدر، غير مألوف، من الدماثة والتهذيب. فهم لا يدخلون بيتاً إلا بإذن قاطنيه، ويرفقتهم المختار. إذا رفعوا شيئاً أعادوه إلى مكانه بحرص واضح. كل ذلك مشفوعاً بعبارات الأسف والإلحاح في طلب المعذرة.. حتى تساءل الكثيرون.. يا إلهي متى كان هؤلاء كذلك؟.. ومن أي سماء هبطت عليهم هذه الطيبة؟..

لم يلبث الأمر طويلاً حتى تبين أن خطر الموت قد انحسر عن محمد اليوسف، وذلك بعد أن استوصلت الأجزاء المصابة من أمعائه. وإن يكن ذلك الخطر لما يزل ماثلاً في محاولات أخرى لاغتياله، قد تقع في أية لحظة عقب عودته المرتقبة. حزن أناس، وابتهج آخرون. الذين حزنوا ودُّوا لو قضى الرجل نحبه، جزاء وفاقاً لما فرطت يده في حق أهله، والذين ابتهجوا إنما استبشروا خيراً بزوال سبب هام من أسباب الفتنة، في وقت هم فيه أحوج إلى التآزر ضد عدوهم المشترك.

ومهما يكن من أمر فقد لبث الجميع زمناً، ولا حديث لهم سوى أسطورة محمد اليوسف الذي نجا من الموت - بعد أن مزق الرصاص أحشاءه - لا لشيء إلا لأن (عمر الشقي بقي) ولأن الرجل يملك سبعة أرواح، إن لم يكن

أكثر...!

ابتهاجاً بنجاته أقيمت الأفراح، وشعت أضواء الكشافات حول دائرة محمد
اليوسف. وانطلق الرصاص من البنادق (متراليوز) الذي كان قائماً على أسوار
الدار. فيما شاركت قوة من رجال البوليس في الحراسة طيلة أيام الاحتفال
السبعة. ما انفك الحاكي ذو البوق الضخم عندهم يصدح مائلاً أجواء القرية
بأغاني (أمير الطرب) فريد الأطرش.. يا ريتني طير لأطير حواليك / مطرح
ماتروح عيوني عليك وأسمهان رجعت لك يا حبيبي./ من بعد طول الغياب.
(مطرب الملوك) محمد عبد الوهاب.. هلّيت يا ربيع هل هلاكك.. متعت الدنيا
بجمالك و(كوكب الشرق) ..افرح يا قلبي.. لك نصيب.. تبلغ منك ويّا الحبيب
أما في الجانب الآخر من القرية فقد ساد الوجوم القلق والصمت المغلف بالأسى
والألم.

ترك سعيد العمل عند الحلواني. ولما تعذر توفير عمل آخر له، لم تجد والدتي مناصاً من موافقته على فكرة بدأها من أجل تحقيق دخل يسهم في الإنفاق على الأسرة، التي راحت متطلباتها تتزايد يوماً بعد يوم، وذلك بأن يمارس (عملاً حرّاً)، كيفما اتفق، وحسب الظروف المتاحة لمثله. كان أول عمل قام به هو إنشاء "بسطة" لبيع الفلافل، فاتخذ من الزاوية الخلاء الملاصقة لبית خالتنا (نعمة) مكاناً مختاراً لممارسة مهنته الجديدة. وفي أيام الثلاثاء ينتقل إلى السوق نفسه ببسطته، قريباً من الجميزة. لأن يوم الثلاثاء هو يوم سوق القرية وما جاورها من القرى .

يوم (الافتتاح) كان يوماً مشهوداً. فقد أخذنا نصف الاواني الجديدة : موقد(بريموس).. مقلاة ..صحون.. تنكة زيت. ونرفع عقيرتنا بالنداء معلنين عن بضاعتنا الفاخرة. وقد تطوع عدد من رفاقي في المدرسة، فضلاً عن رفاق أخي، للمساعدة في هذا العمل الجليل. وكم كانت فرحتي غامرة حين أسند إليّ، منذ أول يوم، مهمة إعداد الأقراص للقلي، أو لفها بورق الجرائد القديمة للمشتريين، مما أغراني القيام بمعاونته عصر كل يوم، عقب انصرافي من المدرسة.

منظر مبهج حقاً أن ترقب الأقراص وهي تقذف في المقلّي، فيفور الزيت مشكلاً فقاعات تطفو على السطح. تسمع نشيشها، وتنتلق راتحتها تعبق الجو بنكهة التوابل الشهية، مما يسيل لعاب المارة، ويدفعهم من ثم، للأقبال على الشراء بحمية ورغبة واضحتين.

ذات مساء، وفيما كان العمل قائماً على قدم وساق، والزبائن يكتظون من حولنا، انقلب المقلّي بمحتوياته جميعاً، دفعة واحدة. تناثرت الأقراص في كل اتجاه، واندلق الزيت على ثيابي ويدي. صرخت..أعولت.. بكيت.. قامت جلبة في المكان. أبدى المتجمهرون أسفهم، كما عبروا عن تعاطفهم بالدعوات والتوجيهات الملائمة:

- يا ساتر يا رب.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. احترقت يد المسكين..

ثم ما لبثت أن انهالت النصائح والاقتراحات العديدة حول كيفية معالجة الموقف. نصح أحدهم بكسر عدد من بيض الدجاج، وصب محتوياته فوق مكان الحرق. واقترحت عجوز استخدام زيت الكاز، فذلك هو العلاج الأمثل للحروق. وامرأة شابة أرثأت أن تغمس يدي في ماء الملح، مؤكدة أن ابنها لم يكتب له الشفاء إلا بهذه الوسيلة. هذا فيما أنا أوصل البكاء، دون أن يخفف ذلك شيئاً من آلامي المبرحة. يبدو أنهم عمدوا، آخر الأمر، للأخذ بكل الاقتراحات المطروحة معاً، ضماناً للشفاء وإيثاراً للسلامة. فلقد صب أحدهم الكاز على يدي من حنفية (البريموس)، فطار صوابي، وأخذت أقفز في مكاني. وجاء آخر ببيضتين، كسرها على يدي، أما سعيد فقد عمد - بناء على توصية وردت أخيراً - إلى أقراص من (زهرة الغسيل) الزرقاء، حلها بالماء ثم دلقها فوق الحرق. إبان ذلك كان الخلاف محتدماً بينهم، إذ لم يكن هناك إجماع على صحة ما كانوا يفعلون، أو على وحدة في الرأي حول صواب التدابير التي اتخذوها..!

ما إن رأنا والدتي، ونحن ندلف إلى المنزل، حتى أصابها الفزع. امتنع لونها، فأقبلت مهرولة نحونا، صائحة:

-مالك يمه ..؟ مال أخوك يا سعيد ..؟

-لا شيء.. لا شيء. حرق بسيط ..!

صاحت :

-حرق تقول أيها اللعين ؟.. كيف ؟.. قل لي ماذا جرى للولد ..؟

-اندلق الزيت على يده..

-وما الذي دلق الزيت على يده؟ آه أيها المنكوب ..!

-ولكن ماذا صنعت أنا ؟

-ماذا صنعت؟ وماذا كنت تريد أن تصنع أكثر من ذلك ..؟ ألسنت أنت

سبب مصائبنا كلها؟ هذا ما كان ينقصنا ..(منين لك هم الله يبعث لك ..) ..(يا نيال من بات بهُمة القديم..)

توافدت الجارات.. غصَّ البيت بالأقارب والجيران في الأيام التي تلت لدرجة أشعرتني بأهميتي الفائقة، مما خفف عني شيئاً من تلك الآلام المبرحة. لا سيما حين جاءت أم مريم تصحبها ابنتها التي بدا عليها التأثر أكثر من غيرها.

تلك دموع في عينيها، ولكنها لا تجرؤ على النفوس بكلمة في حضور والدتها. تضاعف سروري عندما غدت تأتي كل صباح، تحمل وعاء مملوءاً بالحليب الطازج، إذ كانوا يملكون قطيعاً من الأغنام، وعدداً من الأبقار الحلوب.

مكنت في البيت أسبوعاً كاملاً أتاح لي أن ألمس عن كثب مقدار ما تعانيه والدتي في تنسنتنا. لم يكن ذلك خافياً علينا، على أية حال، بيد أنني أصبحت أشهد التفاصيل اليومية الصغيرة التي تمر بها، والتي تشكل في مجموعها عبئاً تنوء بحمله خمس نساء. تكس باحة الدار المتربة...تعجن، تمسح أرضية الغرف والمصطبة.. تقطف أوراق الملوخية ثم تفرمها. تطهو.. تغسل الثياب. ثم هي فضلاً عن كل ذلك تطعم الدجاج، وتراقب الأرناب التي كانت تربيها، كيما توفر لنا مادة غذائية من إنتاج منزلي! في محاولة منها لتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي. حتى الخبز في (الطابون) تصنعه في البيت. كما كانت تزرع الرقعة الصغيرة من الأرض (الحاكورة) المجاورة لبيت عدلة الشامية بالبقدونس والنعناع وشتلات من الفلفل والبندورة. عليها إيان ذلك تلعب أو تبكي. ألعياها، تثور أحياناً، ولا تجدي كل محاولاتي لإسكاتها. ولكن ثورتها محببة. تنهمر دموعها مدراراً، وفي اللحظة ذاتها تفرق الضحكة في حلقها. تريد شيئاً باستمرار... أن يخرج بها أحد إلى الزقاق، أن تقبض على عنق دجاجة، أن تتناول بيضة خرجت لتوها إلى النور، لا تثبت أن تكسرها فوق ثيابها.. تطلب طعاماً.. لا يعجبها.. تسأل عن أبيها. وهنا يأتيها الجواب المعتاد:

"مسافر يا حبيبتى .."

لم تعد تصدق.. تستأنف البكاء ملحة في طلبه. باتت الدموع لا تسعف والدتي كثيراً. وجهها يفصح عن ألم دفين لا حدود له وهي تهدد علياء، ثم تمضي في متابعة أعمالها العديدة في وجوم لا يفارقها معظم الوقت. الشعور باليتم لا يضاهيه شعور آخر. نحن نحظى بعطف الآخرين، ولكن هذا في حد ذاته مدعاة لمزيد من الآمنا، إذ هو تأكيد على أن وضعنا ليس عادياً، وأنا موضع عطف. لكانني أعيش في فراغ أجوف. معلق في الفضاء، لا أرض تحت قدمي. أفقد شيئاً استند إليه تماماً كن يقف على قدم واحدة كل الوقت موشكاً أن يسقط في أية لحظة..!

أخذتني والدتي إلى المستوصف الذي يؤمه طبيب يهودي، يدعى (إسحاق) مرتين في الأسبوع. كان يعالج كافة الأمراض والإصابات. بدءاً من الإسعافات الأولية، كما حدث لي، حتى الملاريا التي كانت تصيب الكثيرين، مروراً بالرمم

الربيعي، والأمراض الجلدية والتيفوئيد والسل الرئوي...! وما أن لحقني الدور حتى كان موعد إغلاق المستوصف قد أوف. و(الخواجة) لا يتأخر عن موعد انصرافه لأي سبب. لكن إلحاف والدتي في الرجاء دفعه، كارهاً، للموافقة على معاينتي. فك الرباط.. مسح يدي بدواء أحسست حرقة تسري في كل أنحاء جسدي. ثم رش مسحوقاً وربط يدي بلفافة من الشاش، فيما هو يستفسر - ولكن بغير اكتراث - عن سبب الحرق، مندداً بالطريقة التي عولجت بها، والتي تنم عن تخلف في الوعي الطبي شديد، مستخدماً العربية بلكنة مكسرة. مردداً باستمرار كلمة "يا خبيبي .."

أحملك فيه غير مصدق وجوده في قريتنا. أهذا الدكتور يهودي ؟.. أهو من أولئك الذين يقولون عنهم بأنهم أتوا لكي يستوطنوا بلادنا..؟ كان لدينا، مكتنز الجسم. له ذقنان، السفلى منهما تمتد من الصدغ حتى الصدغ الآخر. ضخم الأنف محدود به.. حليق الذقن والشاربين. أبيض اللون. يضع على عينيه نظارات مذهب، زجاجها داكن - تمنيت لو أمتلك واحدة مثلها - لم يبق من شعره إلا القليل على جانبي رأسه، وقريباً من أذنيه. أخرجني من استعراقي في التفرس بوجهه الغريب، حين ربت على ظهري قائلاً:

.. يا لله يا شاطر.. مع السلامة.. الأسبوع الجاي، مثل اليوم أشوفك !..

لم تتقطع زيارات رفاقي، وعلى رأسهم نعيم الذي أخبرني أنه قد تقرر نقل مدير مدرستنا الأستاذ عبد الخالق، وأن المدير الجديد سوف يصل هذين اليومين. كان ذلك مدعاة للدهشة. ذلك أن النقل لا يتم عادة في مثل هذا الوقت من العام الدراسي. ولكن ماذا في وسعنا أن نصنع نحن الذين ليس بيدنا من الأمر شيء..؟

تابع أخي سعيد عمله الجديد، على الرغم من اعتراض والدتي، خشية عليه هو أيضاً، وازداد إقبال الزبائن عليه، وبالتالي تحسن إيراده منه. كما تحسن سلوكه إلى حد ما، فأصبح يعطي والدتنا الفائض من دخله، ولا يدخل المنزل إلا وهو يحمل معه فواكه أو طعاماً.. عنب.. تفاح.. علب(بوليف) أو(طون سردين).. وكم كانت فرحتي ذات صباح حين فتح (الشيخ محمد) باب غرفة الصف للطارق، لأرى سعيد (بشرواله) الأبيض وطاقيته البيضاء عند الباب. تحدث إلى الأستاذ الذي ناداني لكي يناولني سعيد دفاتر وأقلاماً ملونة كثيرة ومسطرة وممحاة وزجاجة حبر. ثم أوماً لي مبتسماً وهو ينصرف. غمرني مزيج من الفرحه والحنو، والأحاساس بأنه أخي، بل أبي.. حتى أوشكت أن

تطفر من عيني الدموع .

أغلق الشيخ محمد الباب، ومضى يهز رأسه يمينا ويسارا فيما هو يعود إلى الطاولة بقامته النحيلة ورأسه المكشوف، فبدأ أكثر طولا ولكن أقل هيبة و وقارا مما كان عليه اول دخوله غرفة الصف. وقبل أن يضع عمامته على الطاولة، ويعلق جبته السوداء على مشجب في الزاوية الواقعة ما بين الباب والسبورة. طلب إلينا مواصلة كتابة درس الانشاء ليواصل هو قراءة الجريدة التي في يده .

غداة ذلك اليوم انتظمنا صفوفاً في باحة المدرسة. بعد أن قرع الجرس، وقمنا بالحركات الرياضية المألوفة. لبثنا صامتين في انتظار الإيعاز لنا بالتحرك إلى الصفوف. تحيط بنا أزهار الحديقة وأشجار السرو والصنوبر على امتداد السياج تعصف بها رياح آذار. والرمل المبلل تحت أقدامنا إثر أمطار هطلت في الليلة الماضية. وسحب متقطعة تعبر السماء متجهة نحو المشرق، وعصافير الدوري تتقافز هنا وهناك فوق الأشجار والأزهار، وبين عشب الحديقة الأخضر، طال وقوفنا، هذه المرة، أكثر من المعتاد .

ها هم الأساتذة يخرجون أخيراً، من غرفة الإدارة، يتقدمهم الأستاذ عبد الخالق. صعد عتبة الباب المرتفعة قليلاً عن سائر الفناء. فيما وقف الآخرون - بمن فيهم المدير الجديد.. قريباً منه.

بدا الرجل مكغهر الوجه، تلتئم عيناه ببريق حزين. أطرق قليلاً، قبل أن يتوجه إلينا بكلمته التي كان فحواها أنه شديد الأسف لفراقنا الذي لم يكن منتظراً في هذا الوقت. وهو إذ يفعل، على غير رضى منه، فإنه يخلف وراءه قلبه وروحه. غير أنه مطمئن لمستقبلنا إذ يتركنا بين أيد أمينة مخصصة، في مقدمتها الأستاذ شاكر - المدير الجديد - الذي لا ريب أننا سوف نجد فيه الأب قبل المعلم. كما أننا بدورنا، وبغير جدال سوف نكون الأبناء البررة المجددين... أو لسنا عماد هذه الأمة، الذين عليهم تبنى آمالها في غدٍ باهر، ومستقبل زاهر...؟ نظر بعضنا إلى بعض خلسة، وكأننا نتساءل عما إذا كنا كذلك حقاً دون أن ندري..! ولماذا يخفون عنا هذه الحقيقة الجميلة ولا يصرحون بها إلا في مثل هذه المناسبة ..؟ ولولا انتقال الأستاذ عبد الخالق لما أتيح لنا الاطلاع على آرائهم السارة هذه فينا ..!

تتحى عن مكانه، مفسحاً للمدير الجديد، الذي داخلتنا الرهبة لمرآه منذ الوهلة الأولى. ربع القامة. شديد حمرة الوجه.. كالانكليز.. عيناه زرقاوان. يبدو تماماً كانكليزي مستعرب، يرتدي كوفية وعقالاً من قبيل المحاكاة لأهل البلاد، كما كان يفعل بعضهم. مهيب الطلعة، بادي الحضور بشخصيته الطاغية.

ساد صمت مشوب بغير قليل من الحذر، قبل أن يبدأ الرجل حديثه بصوت حاد النبرات ينم عن عصبية واضحة. أعلن هو الآخر عن أسفه إذ يرى مدى تأثيرنا لرحيل (سلفه الصالح). أكد لنا أنه لن يألو جهداً في أن يكون الأب البديل، وأنه سوف يسير على خطا السلف. كما أنه لن يدخر وسعاً في أن يمنحنا فكره وعقله، ليصنع منا (رجال المستقبل) القادرين على خدمة الوطن، الذي يمر اليوم بظروف هي أخطر ما مر به حتى الآن، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الاولى وانحسار الاستعمار العثماني عنها. فهو يتعرض الآن لغزوة تضافرت فيها قوى الاستعمار والصهيونية.. بريطانيا والوكالة اليهودية. وأن الثورة التي توقفت منذ أمد قصير، بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، ولتدخل الزعماء العرب، سوف تعود من جديد، في الوقت المناسب إذا نكل الانكليز بوعودهم ثانية وهم أغلب الظن سيفعلون.

صمت الأستاذ شاكر قليلاً. أخذ يجفف عرقه بمنديل أبيض قبل أن ينبثنا بأن له ابنة سوف تكون معنا - في صفنا الخامس بالذات - لأن مدرستنا لا تضم بين جوائنها صفوفاً للبنات، موصياً إيانا بها خيراً، إذ هي بمثابة شقيقة لكل واحد منا، ثم نادى وهو يلتفت نحو غرفة الإدارة :

-..مي.. تعالي يا مي..

أطلت مي.. رائعة الجمال.. جاءت تقفز عدواً، فيما شعرها يتمواج حول عنقها وكتفيها، إلى أن بلغت مكان أبيها. وقفت إلى جواره. وضع راحة يده على كتفها. قال في زهو من يعرض جوهرة نفيسة يعرف قيمتها بحق:

-هذه مي ابنتي..

كوالدها، شقراء، زرقاء العينين، شعرها كشلال من خيوط الشمس الذهبية. ترتدي ثوباً بلون أوراق البرتقال. تناهز الحادية عشرة. تبدو شديدة الثقة بنفسها، والاعتداد بجمالها. لكن وجهها تضرج حمرة إذ وقفت أمام هذا العدد الكبير من التلاميذ وأساتذتهم. هذا فضلاً عن حشد من الفضوليين من أهل القرية، تجمعوا خلف السياج الخارجي. أخرجنا من دهشتنا وبهجتنا معاً - إذ كنا قد استغرقنا الموقف فأنسانا أنفسنا - قول الأستاذ شاكر بصوت انخفضت نبراته:

-والآن هلموا إلى صفوفكم يا أبنائي. ولا تنسوا اننا نقترّب من الامتحان الذي يكرم المرء عنده، أو يهان..!

لبنثنا بعض الوقت قبل أن يدلف الشيخ محمد إلى غرفة الصف، فكانت

فرصة لتساؤلات عدد منا حول أسباب نقل الأستاذ عبد الخالق في مثل هذا الوقت من العام، فيما انهمك عدد آخر في الحديث عن ابنة المدير التي بهرتنا في كل شيء. منينا أنفسنا بسعادة غامرة، غداً حين تكون بيننا. وبات كل منا أيضاً يمني نفسه بأن يكون نصيبه جلوسها إلى جانبه، حتى كدنا أن نشاجر بسببها ..!

كما أخذ يطل هذا وذاك من النوافذ بحثاً عنها في الباحة، فهي لم تأت إلى الصف بعد، فيما كنا نحسب انها ستدخله معنا للتو. كانت تتأهب إلى أسماعنا، في هذه الأثناء، أصوات راديو، أو (الحاكي) من مقهى أو دكان في السوق القريبة يردد:

" يا ليلي زرعوا البرتقال.. يا لله اجمعوه آن الاوان.. الأغنية التي حوّر الناس كلماتها طبقاً للظروف المستجدة إلى.. "يا الله (اقلعوه) آن الاوان"، مع ما كان يرافق قولهم هذا من أسى ومرارة. بياراتهم العزيزة على قلوبهم.. يقطعون أشجارها وكأنما يقطعون أوردة دمائهم. ولكن ما حيلتهم، فالحكومة ضيقت عليهم سبل تصديره، واضطر الكثير منهم للاستدانة من البنوك بفوائد فادحة، مقابل رهونات بشروط مجحفة، كي يتمكنوا من الإنفاق على بياراتهم. متجاوزين تحذيرات الشيخ علي العطار، والشيخ محمد أبو العنين من عواقب ذلك دنيا وآخرة.. "الفوائد ربا.. والربا حرام أيها الناس.. " يحق الله أكله..". فيرد هؤلاء بأنهم لن يأكلوه.. لكنهم مضطرون إليه لأنقاذ أشجارهم.. وهم يدفعون أي يغرمون.. (وإذا كانت البيارات عبئاً علينا اليوم فإنها لن تثبت أن تعود علينا بالنفع والخير العميم في المستقبل، كما كانت فيما مضى..) وفيما بينهم يقولون مامعناه :

(من كانت يده في الماء ليس كمن يده يده في النار)!!

ويبتهجون بل يستبشرون خيراً حين تدغدغ أسماعهم وتمس شغاف قلوبهم أغنية محمد عبد الوهاب الجديدة.. " ما احلاها عيشة الفلاح.. مطمئن قلبه مرتاح " فتثير فيهم أحاسيس من الشجن والحنين إلى الأرض والزرع والشجر والندى.. مع ذلك يتساءلون ضاحكين: كيف يكون قلب الفلاح مرتاحاً مع الديون والكساد.. ولا يمنعهم هذا من ترديدها في البيارات والحقول..!

كنا ندرك ذلك ربما بحدسنا وأحاسيسنا، نحن الصغار، أو بما كان يترامى إلى أسماعنا خلال أحاديثهم في البيوت، أو على المصاطب في العصاري، وما بين المغرب والعشاء. قلق عام ينتابهم، وهموم شاملة مقبمة، تبدو على الوجوه

الواجمة، وفي العيون الذابلة، والضحكات الفاترة. لكنهم يعودون للتفاؤل، على الرغم من كل شيء، وتترقّق في عيونهم الدموع وهم يتمتمون، محدّثين أرضهم .. "مين زيّك عندي يا خضرة.. في الرقة يا غصن البان.. ما تجودي عليّ بنظرة وأنا رايح عالميدان..".

دخل الشيخ محمد، فكف الصخب، وانقطع سيل الخواطر والتمنيات، وتفاوّر التلاميذ سراعاً إلى مقاعدهم. حين ساد الصمت نظر إلينا، وفي عينيه، ونقطيّة جبينه مزيج من الحنق والعطف، ثم قال : لا فائدة منكم، شياطين ..(غاب القطّ اللعب يا فار) أيها الملاعين..! تنتظرون الفتاة مي.. أليس كذلك ؟..

كان مجيء (مي) إلى صفنا مدعاة لتغيرات جذرية في أوضاعه، بل إلى انقلاب شامل في نظامه وعلاقات أفراده. اسماعيل العطار يتودد إليها. سليمان أبو سليمان يسعى لأن يكون الأثير لديها. نعيم أبو جلاله يحاول أن يقدم لها خدماته المجانية، يحمل عنها حقيبة كتبها.. يعرض أن يبيري لها قلم الرصاص.. يسعى لأن يهديها كراساً، أو مسطرة..! كنا جميعاً ننظر إليها وكأنها صنعت من مادة أخرى غير تلك الطينة التي جبلنا نحن منها. كما أصبحنا أكثر تأدباً وأشد تهذيباً في سلوكنا وحديثنا. كل يبتغي رضاها، المتمثل في ابتسامة أو نظرة استحسان تبعث السعادة في نفس من تمنحه إياها سحابة نهاره كله.. وربما امتدت آثارها إلى أحلامه في منامه..!

لم يكن أثر الأستاذ شاكر بأقل من أثر ابنته في التغيرات الطارئة، وإن يكن على صعيد مختلف. لقد بعث الرجل في القرية الساكنة حركة ونشاطاً لم نعهدهما منذ زمن. كان يبغي تغيير كل شيء دفعة واحدة..: عائلتنا (النجار) و (أبو سالم) لا بد أن يتم الصلح بينهما.. المدرسة يجب أن ينشأ فيها صف سادس للعام المقبل، وسابع للذي يليه، على أن يتكفل أثرياء القرية بتأمين المال اللازم، الذي لن تقدمه لهم حكومة الانتداب بأية حال..

..ضرورة الاشتراك في الألعاب الرياضية الموسمية، التي تقام في مدينة الرملة، مركز القضاء. فضلاً عن إنشاء فريق لكرة القدم..

.. الزراعة لا بد من تطويرها. وذلك باستخدام الآلات الحديثة والمبيدات الحشرية، بدلاً من الاعتماد على الدواب والوسائل البدائية.. البيارات أيضاً. وتصريف برتقالها.. لا بد لها من حل.

.. إيصال الماء إلى كل البيوت.. والكهرباء أيضاً.. مركز للبريد.. تعبئة الطرقات العامة.. بل والأزقة الفرعية..

القرية تفتقر لكل ذلك، وقد ألقت وضعها هذا حتى أنها لا تفكر في أن شيئاً ينقصها.

حيوية الأستاذ شاكر من نوع مبهر للغاية، أيقظت فيهم الأحساس بهذا الذي

ينقصهم والرغبة في الحصول عليه. وقد اثار هذا حوله لغطاً شديداً، وفضولاً متزايداً. انقسم الناس إزاءه بين معجب بآرائه، ومناهض لها لا يرى فيها إلا تطرفاً غير محمود العاقبة على كل صعيد. بل إن العديد من كبراء القرية رأى فيه خطراً يهدد مصالحهم، ومراكزهم.

فضلاً عن هذا كان الرجل مناوئاً للانكليز والحلفاء. مؤيداً شديد الحماسة للألمان، لا شيء إلا لأن هؤلاء خصوم للانكليز. من ثم كان يقضي جل وقته في الاستماع إلى آخر الأنباء عن الحرب القائمة. ثم يأتي لينقلها إلى الأساندة، مسبباً في تعداد الإنجازات التي تحققت للألمان في معاركهم على الجبهة البولندية.. الفرنسية.. البلجيكية.. ومدى الخسائر التي لحقت بالحلفاء، والانكليز بصورة خاصة..! مضيفاً من لدنه، ما يتفق وأمانيه ورغباته من أرقام و وقائع معظمها من صنع خياله وحده. ناهيك عن توقعاته للاحتتمالات المنتظرة، والتي لا شك أن خسارة الانكليز وهزيمتهم فيها محققة وثابتة ثبوت سنن الكون التي لن تجد لها تحويلاً ولا تبديلاً..! حتى نحن أيضاً لم يعفنا الأستاذ شاكر من تعليفاته عن الحرب، ونتائجها الحتمية التي سوف تجعل من هذا الكوكب - عقب انتهائها - جنة تشبه ذلك الفردوس الذي وعد به المتقون..!

أشرف العام الدراسي على الانتهاء. ولم ينجز الأستاذ شاكر شيئاً مما عرض من آراء ومشروعات، بسبب تلكؤ أهل القرية من جهة، ولقصر الوقت المتبقي من ذلك العام، من جهة ثانية.

حل موعد الامتحانات النهائية. ظهرت النتائج بعد أيام. جرى احتفال مقتضب لتسليم شهادات الانتقال .

ثم مضى الأستاذ شاكر وأسرته الصغيرة في إجازته الصيفية. وعندئذ رحنا نضرع إلى الله بقلوب مفعمة بالرجاء أن يعيده إلينا سالماً - ومن معه - في العام المقبل. كما غدونا ننتظر، بعد ذلك، أو بته بصبر فارغ ويشوق بيزر شوقنا لأي (مدير) مضى من قبل ..!

كان صيفاً حافلاً. رفضت والدتي أن أعمل مع أخي سعيد قماً في كل مرة نسلم الجرة .. وأنا من جانبي لم أرغب في العودة إلى دكان الحلاق أحمد الجمل. لم يبق إذن سوى العمل في الحصاد أو في سقي البيارات لكن هذا أكبر من سني وطاقتي. لهذا جهد العم عبد الغني أن يسهل علي الأمر قدر استطاعته، فجعلني برفقة عامل يسقي له أرضه. كان يريدني أن "أتعلم". غير أنني تساءلت أين هو العلم والتعلم في مثل هذا العمل. يجري الماء في القناة إلى أن يبلغ حفرة

حول الشجرة.. ينتظر الرجل امتلاءها، ثم يضع كومة من التراب يجرفها بفأسه كي تسد مدخل الحفرة، فيجري الماء إلى الشجرة التي تليها. أرقب الماء ينساب في القناة، رقيقاً صافياً، فوق الحصى المتألى، إلى أن يتدفق حول الشجرة فتطفو الأوراق والأعشاب الجافة، فوق رغوة بيضاء، تفور على سطحه، محدثة خشخشة رهيبة، وحفيفاً هامساً، فيما تفوح رائحة التربة رطبة نفاذة. يفعل الرجل ذلك، فيما هو يصدح حيناً بموال أو عتاباً، أو "يا ظريف الطول ما شي الواد الواد.. يا ربي تلتطف بينا وبالبلاد..". ويأتي من بيارة قريبة صوت آخر، كأنه يحاوره "على دلعونا على دلعونا.. راحوا الحبايب ما ودعونا .."

ولأن النهار طويل، يزيد من طوله ذلك العمل اللاني الرتيب، كان (دياب) لا يدع مطرباً دون أن يردد أغانيه، سليمة أو مشوشة.. عبد الوهاب.. "موضة اليوم".. فريد الأطرش.. و شقيقته أسمهان. وأعجب لكثرة ما يحفظ من هذه الأغاني. ويزداد عجي وإعجابي أكثر حين يحدثني عن أسماء الأفلام التي شاهدها، ورأى فيها هؤلاء المغنين أنفسهم..إفي سينما الحمراء أو سينما فاروق بيافا التي كان يزورها مرتين.. بل قل ثلاثاً في كل عام، مما أثار غبطني وحسدي له. ومنيت نفسي بأن أصنع صنيعة عندما أصبح في مثل سنه..! والدتي..؟ سأقنعها حينئذ..!

لكنه كان عملاً شاقاً، على الرغم من كل شيء، فعدت أدراجي للعمل في دكان الحلاق أحمد الجمل، عملاً بقول والدتي "الرمد أهون من العمى يا بني..". أضع رغوة الصابون على وجه أبو حسين الشرقاوي.. أو أرش الماء أمام الدكان على الأرض التربة، وجزء من الأسفلت عصر كل يوم، عندما تبدأ فتيات القرية غدوهم ورواحهن حاملات جرارهن. إذا كانت مريم بينهن أثار مرأها اضطرابي وازداد وجيب قلبي.. مريم التي بت أعتقد أن أحداً ما يرقبني مندداً أو محذراً حين انظر إليها.

في أواخر الشتاء من ذلك العام نشب خلاف بين الخالة نعمة و أنسبائها آل المغاري، حول زواج ابنتها فاطمة. إذ رأى هؤلاء أن الأرملة الصغيرة أضحت إرثاً حلالاً لهم، من حقهم أن يستولوا عليه، شأنها شأن أي متاع خلفه الفقيد. وما دام خطيبها قد مضى للقاء وجه ربه، فلم لا تكون من نصيب أخيه الأصغر. إلا أن فاطمة لم تكن راغبة في ذلك العريس الموروث ..! لقد هالها مجرد التفكير في ذلك. لم تستطع أن تتصور حدوثه. كيف يتزوج الأخ أرملة أخيه؟ ثم أتى لها أن تستبدل هذا الفتى الغر (عاطف) بذلك الشاب مكتمل الرجولة، والذي أضفى عليه استشهاد سمات من البطولة الأسطورية ألهمت خيالها، وباتت تلازمها في صحوها ومنامها، إلى حد أنها كانت تتكرر أحياناً أنه ذهب حقاً بغير رجوع.

الخالة نعمة، من ناحيتها، اتخذت موقفاً معاضداً لابنتها. أما زوجها (عبد الكريم الهندي)، الذي كان يعمل جزاراً في دكان في السوق، فقد أثر أن يلتزم الحياد. لا سيما وأنه غريب عن القرية، وليس من الحكمة في شيء، أن يزوج نفسه في أتون معركة (لا ناقة له فيها ولا جمل) ..! لو كان مقيماً في المجدل، حيث الأهل والعشيرة لاختلف الأمر. وهو من ثم، لن يجعل من نفسه "كبشاً" للعداء ..! كان شعاره (ابعد عن الشر وغني له) .. (والطاقة التي تأتي منها الريح سدها واستريح) ..!

تفادياً لتطورات قد تستجد على ساحة الخلاف، ارتأت خالتي أن تبعث بابنتها كي تقيم بعض الوقت - ريثماً تهدأ العاصفة - لدى أقرباء لها، في بيارتهم الواقعة في منتصف الطريق بين بينا والمغار. ولكي تظل على صلة بابنتها، عمدت من حين لآخر، إلى إفادي وابنها فوزي لزيارة فاطمة والاطمئنان عليها .

انطلقنا معاً عصر ذلك اليوم. حملت سلة تحوي أطعمة مختلفة ملوخة جافة وبامية وبرغل، فيما حمل فوزي على ظهره كيساً للملابس. كان الجو صحواً، بادئ الأمر. السماء زرقاء كصفحة، بحيرة هادئة، والشمس ساطعة تغمر أشعتها أرجاء السهول والبيارات المترامية الأطراف حتى الأفق. بغتة ومن غير

مقدمات اكفهر الجو، وتلبدت السماء بالغيوم. اختفت الشمس، وسادت عتمة غربية في غير اوانها. وريح شمالية باردة عصفت بالزرع والأشجار. وما هي إلا دقائق قليلة، حتى انهزم المطر غزيراً. رحنا نعدو بكل سرعتنا حتى تقطعت أنفاسنا. نحاول انتقاء المطر باللجوء إلى السياج دون جدوى، لم يكن هناك بيت أوكوخ ناوي إليه. بلغنا الوادي الذي ما إن اجتزنه حتى تدفقت فيه السيول القادمة من الجنوب، مكتسحة ما في طريقها من حجارة وبقايا أشجار. قال فوزي بصوت لاهث يملؤه الخوف :

- أرايت ..؟ لو لم نغادر الوادي في اللحظة المناسبة لابتلعنا الماء.

-ولكن المطر يغرقنا الآن يا ابن خالتي ..

-وماذا نفعل وليس لدينا ملابس للغيار ..؟

-المهم أن نصل أولاً يا ابن خالتي .

وددت لو اقتطف شيئاً من أزهار النرجس ذات الأوراق الزاهية البياض ترصعها النقاط الذهبية المنثورة على ضفتي النهر، لكن المطر أرغمني على الجري وراء فوزي نحو بيارة العم أبو صابر .

يستقبلنا أهل الدار بترحاب وحفاوة، معربين عن أسفهم لما أصابنا في طريقنا إليهم. فاطمة تهرع إلينا، بادية اللهفة والقلق. تضيئنا في حنان والدموع في عينيها، ومسحة من الحزن تكسو محياها الشاحب. تأخذنا إلى الداخل لتبديل ثيابنا، وتعلن أن لا سبيل لعودتنا إلى القرية هذا المساء في هذا الجو المخيف. لم يخطر ذلك ببالي من قبل. استهولت الفكرة بقدر ما أحببتها. ولكن ماذا نقول والدتي؟ لا شك أنها الآن جزعة، تصب جام غضبها على شقيقتها التي كانت السبب ..! " ما لنا نحن ومال نعمة وأولادها.. وهل يأتيينا من ورائهم سوى وجع الرأس ..!"

قبعنا قريباً من الموقد، نلتمس الدفء ونرقب الجمر المتوهج. الدفء يعم القاعة. والسكينة تسود أرجاءها. ربة البيت، وبناتها الثلاث، داخلات خارجات في حركة دائبة، لكأنما غص البيت بالضيوف الذين يستحقون الاهتمام المبالغ فيه هذا .

(أبو صابر) يجلس متربعا على مرتبة تتصدر القاعة. ينفث دخاناً كثيفاً من غليون عتيق، ذي قصبة طويلة. لا يفتأ يضغط محتوياته من التبغ بأنامله الصفراء، فيما هو يبدي رأياً، أو يصدر أمراً لواحدة أو أخرى من بناته. مهيب الطلعة. شعره مزيج من الأسود والرمادي. فوق كتفيه عباءة صنعت من وبر

الجمال. لا يتكلم إلا بمقدار، كأنه لا يرى في الحاضرين من يستحق التحدث إليه إلا إذا اقتضت الضرورة الملحة .

السقف عال أقيم على جسور ضخمة من الخشب. الجدران مطلية بالكلس الأبيض. فتحة كبيرة بدت في منتصف الحائط المواجه للباب، تحوي ألحفة وفرشاً ذات ألوان بهيجة. وعلى الجدار المجاور رفوف خشبية، وضعت عليها جرار من الفخار، مليئة بالزيت والزيتون، واللحم المفروم، والسمن، إلى جانب علب معدنية للسكر والملح والبن والبهارات. تعبق الغرفة بمزيج من رائحة غير محددة المعالم.

العنة شديدة في الخارج. هزيم الرعد، وعصف الرياح يتناهى إلينا، كأنما هي نذر السماء للبشر العاجزين عن صنع شيء حيالها. جلست فاطمة بجواري تسأل عن أمها وعن أحوال الأهل هناك. أضاعت صغرى البنات مصباحاً. انتشر الضوء يرافقه فحيح موحش. قام الرجل إلى الصلاة بعد أن أمر بإعداد العشاء. انطلق صوته الرخيم يرنل الآيات بصوت خاشع. داخلني شيء من الحزن. والدتي يعتريها الفلق الآن. وهي لا تدري أنني أحظى بكل هذه الرعاية في أمان وسلام، في كنف الحاج أبي صالح وأسرته. لا شك أنها تضرب الآن أخماساً في أسداس، لا سيما إذا كان (سعيد) قد تأخر عنها كعادته. ترمق أحمد وعلياء القابعين إلى جوارها بنظرات قلقة، يملؤها الشعور بالقنوط والغیظ والحزن معاً.. سأروي لها غداً ما حدث.

تحلقنا حول (الطبلية) وقد حفلت الغرفة برائحة زيت محترق، وباذنجان مقلي، وبطاطا وبصل، وخبز الطابون الطازج. خيم الصمت أثناء تناول الطعام. زخات المطر ترشق النافذة. أصوات حفيف الأشجار يعلو وينخفض، تبعاً لقوة الريح المندفعة عبر أغصانها وأوراقها. حبات برد تقذف الزجاج بعنف. قفزت وفوزي، بغير تدبر إلى الباب فرحين، نحاول النقاط حبات البرد، لكنها سرعان ما تذوب في أيدينا .

قهقه أبو صابر بصوت مجلجل. ضحكت أم صابر ربما مسايرة له - وهي تقول بلهجة من اكتشف قارة جديدة: (الولد ولد لو نصّبوه قاضي بلد)..!

أمسك الرجل عن الضحك، فقد ذكرته كلماتها بصابر، ابنهما الذي تطوع مع الجيش البريطاني. بدت على وجهه مسحة من ألم وحزن دفين، يشبه خيبة الأمل. تنبّهت أم صابر إلى ذلك سريعاً، فأرادت أن تقول شيئاً تصلح به خطأها غير المقصود، فإذا بها تزيد الطين بلة، كما تبين على الفور، حين قالت :

-غداً ينتصر الانكليز ويعود صابر بالسلامة ..
انفجر أبو صابر صائحاً:
-إذا كان شرط عودته انتصار الانكليز فلا أعاده الله ..
-استغفر ربك يا (أبو صابر)!!
-هذه على كل حال نتيجة تربيته!!
-سامحه يا حاج في غربته. رضا الوالدين، وانت سيد العارفين..
-اسامحه ..؟ كأنك لا تعرفين أي عار جلب علينا في البلد. لم تعد لي
عين أواجه بها الناس يا امرأة!! صحيح (الولد الخايب بيحب لأهله البهدة..)
-سلامة مقامك يا (أبو صابر) انت سيد الكل. تاريخك ناصع ومعروف
للجميع. وسمعتك بين الناس مثل (اليفت) الأبيض!!
-هذا بالذات هو ما يطير صوابي. أنا.. أبو صابر الذي أنفق عمره في
الثورات، على الانكليز واليهود، يذهب ولده ليتطوع مع الانكليز، اولاد الكلب،
ليحارب الألمان جنباً إلى جنب مع المتطوعين اليهود.. نعم مع الفيلق اليهودي..
عارفه شو يعني الفيلق اليهودي؟
-لعب بعقله ابن الحملوي.. الله يجازيه!!
لم تجرؤ أم صابر على متابعة الجد. كنا جميعاً - لا سيما البنات - نرقب
المشهد متوجسين، نخشى أن تندلع الحرب بين الزوجين. أطرقت المرأة رأسها
مستسلمة. وتشاغلت بصب الشاي في الفناجين الخزفية. مد الفراش، وأطفئ
المصباح (اللوكس) ليحل مكانه سراج واهن الضوء يوشك أن ينطفئ كلما
تسربت هبة ريح. أقفلت الأبواب، فأرسلت صريراً حاداً، والمطر ما برح في
الخارج ينهمر مدراراً .
مضينا إلى النوم تكتنفنا، أنغام موسيقى رائعة، تعزفها أنامل الطبيعة
المبدعة، محلقة بنا بعيداً مع أحلام لا حصر لها .

حين تقدم غازي الجمل يطلب يد فاطمة، كان ذلك بمثابة معجزة هبطت من السماء، كيما تنقذ الوضع بالنسبة لخالتي وابنتها. حتى وزوجها - رغم حياده المعلن - ولتضع حداً لتلك المعضلة الشائكة، التي بدت لوقت من الاوقات، بأنها لا تقل شأنًا - في نظر أطرافها - عن قضية الهجرة اليهودية ..! أو ليست قضية مصير هي الأخرى..؟! لم تتردد الخالة في القبول، فعائلة الجمل هي التي تستطيع أن تواجه التحدي، وأن تصمد أمام عائلة المغاري. إذ لا يفل الحديد إلا الحديد. "والقنطار يلزمه قنطارين" ولن يجروا هؤلاء على مناوأة آل الجمل بالذات، فهم الممسكون بزمام الوضع المعيشي في القرية على نحو ما. وأبناء المغاري أنفسهم قلما يجدون لهم عملاً لدى غير آل الجمل هؤلاء في مواسم قطف البرتقال، وفي ورشات تعبيد الطرق التي يتعهدونها لحساب الحكومة. لا سيما بعد أن نشبت الحرب، وراحت أعمال الأتشاء وتعمير الطرقات والجسور تجري على قدم وساق .

بسرعة فائقة أنجز كل شيء. الخطوبة تمت. الفاتحة قرئت. ذاع الخبر و انتشر. وما هي إلا أيام حتى أقيم سرادق كبير أمام دار الجمل، شمل جزءاً كبيراً من ساحة سيدنا وهب، ومن الشارع الرئيسي المحاذي لتلك الدار. وإمعاناً في التعبير عن جاههم وثرانهم استدعوا فرقة موسيقى (حسب الله) من يافا، لأول مرة في تاريخ القرية، الأمر الذي حداً بأهلها أن ينتظروا عرساً لم يسبق لهم أن شهدوا مثله، طوال الحقبة التاريخية الراهنة..!

كان من شأن ذلك أن يثير الحسد لدى أتراب فاطمة، فضلاً عن تنديد من المبطن بها، لكنهن قد اكتشفن أخيراً - بل كيف فاتهن ذلك فيما مضى - أنها كانت سبب استشهاد خطيبها السابق. لماذا؟ لأن (قدمها نحسة) جلبت له هذا المصير..!

.. ألم نقل أنها سوف تنسى الفتى بمجرد أن يتاح لها زواج مناسب..؟ وأي زواج كهذا الزواج ..؟

أنهت معظم وظائفها المدرسية على عجل، دون أن أعي شيئاً مما قرأت أو

كتبت. أما وظيفة الحساب فسوف أنقلها عن الأنسة (مي) التي توطدت صداقتي معها في الآونة الأخيرة.

الساحة تغص بالصبية والأطفال. الأنوار الساطعة تغمر المكان، حتى كاد أن يتحول إلى نهار. مُدَّت الحصر والبسط المزركشة تحت سرادق عُلقت على جوانبه سجاجيد فاخرة. وتدلت من سقفه مصابيح باهرة الضوء. فرقة الموسيقى لم تحضر بعد. ونحن نتحرق شوقاً لمشاهدتها، ناهيك عن سماعها. أذن العشاء، وما عثم الكبار أن شرعوا يتوافدون فرادى وجماعات. والصبايا أخذن يتسللن خلال طريق جانبي إلى داخل الدار، في خفر وارتيك، يحملن على رؤوسهن الهدايا، وقد ارتدين الثياب المطرزة بالحريز متعدد الألوان. عدد من الشبان ينثرون السجائر أمام الجلوس، ويطوفون بأكواب الشاي الفواحة بعطر الزنجبيل، يملؤونها من أوان ضخمة نصبت فوق مواقد الحطب، التي انبعث دخانها مشكلاً سحابة خانقة. بغثة خفتت الأصوات، وكفت الضوضاء. أفراد التخت الموسيقي يدخلون إلى داخل السرادق. هبَّ الحضور وقوفاً، إجلالاً وتكريماً، مفسحين لهم في صدر المكان. انهالت عليهم التحايا بالقول والأشارة، من كل جانب. وضعت أمامهم منضدة كبيرة حفلت بباقات الزهور، وأكواب ماء الزهر والسكر الفضي، التي تمنيت لو نلت واحدة منها ..! فضلاً عن علب السجائر من مختلف الأنواع: مبروك، تتلي سرت، ماتوسيان، نجاح ..!

لم يلبثوا إلا قليلاً قبل أن يبدأ العزف، بعد أن مهدوا لذلك بغير قليل من الحركات غير المفهومة - لنا على الأقل - كل يضرب على آله أو يداعيها، مصيحاً سمعه إلى أوتارها، أو الصوت المنبعث منها. مشفعا ذلك بنحنة أو همهمة. طبعاً نحن لا نعرف لهذه الحركات سبباً أو مبرراً، لكن ذلك لم يمنعنا من الإحساس بفرح غامر. لكم شكرنا - بيننا وبين أنفسنا - آل الجمل على صنيعهم غير المسبوق هذا. حتى لقد أوشك الرفاق أن يقوموا بتظاهرة للهناف بحياتهم ..!

بعد لأي توقف العازفون، فيما استمر وحده عازف العود يضرب بريشته، ويهز رأسه، ثم انطلق يشدو بمواويل وليال، لم تنثر كثيراً من إعجابنا، لاسيما حين كانت تبدو عليه علامات تشنج واضحة ومخيفة، إذ تنتفخ رقبته حتى نحسبها تكاد تنفجر. و تجحظ عيناه كلما ارتفعت طبقة صوته. وعندما أطلق لحنجرته العنان مردداً :

في البحر لم فتكم في البر فتوني ..! بالتبر لم بعتمك بالتبن بعتوني ..!

انطلقت، عندئذ، من الكبار خاصة، الآهات والصيحات من كافة جنبات السرادق، مما أثار فزعنا واستهجاننا بادئ الأمر، إلا أننا ما لبثنا أن ألفناها، ثم سرت إلينا العدوى، فأخذنا نصفق مع المصفقين، ونهز رؤوسنا استحساناً أو تقليداً لما يفعلون ..! الزغاريد من الداخل تشق الفضاء. أغاني دلعونا.. وعتابا.. و(أمنت بالله..نور جمالك آية آية من الله نور جمالك نور عجب.. يطفي في القلب اللهب ...)

عندئذ ترتفع أصوات الحاضرين : الله.. الله ... ياست لوردكاش. عقدت حلقة الدبكة. الشباب يضربون الأرض بأقدامهم.. يلوحون بمناديلهم. انتظم آخرون في صفين متقابلين، وشرعوا يرددون اغاني "السامر".

شعرت بالزهو أمام رفاقي، فالعروس ابنة خالتي. أنا إذاً من أصحاب الشأن في هذا العرس الخارق للعادة ..! حتى أن نعيم وسليمان واسماعيل كانوا يلجؤون إلي كلما أراد أحدهم كوباً إضافياً من الشاي.. بل إن سليمان جرب أن يختلس سيجارة عن طريقي وبمعرفتي كي يجرب التدخين ..!

الليل يمضي، والسمار يواصلون سهرهم، بغير تعب حتى الهزيع الأخير من الليل. ثم ينفض السامر ويتفرقون. بعضهم ينتظر خروج "الحريم" من الأهل. تضج شوارع القرية وأزقتها بالحركة بعض الوقت، ريثما يأوي الناس إلى بيوتهم، فيما يرتفع صياح الديكة، وخبوط الفجر الأولى تتسلل عند الأفق الشرقي، ونجمة الصباح المتألئة ترمق الأرض، ومن عليها، من عليائها في كبد السماء. يسود الكون السكون، وتعم السكينة انتظاراً ليوم جديد.

حان موعد الزفاف. تجمع أهل القرية أصيل ذلك النهار على جانبي ساحة "أبي هريرة"، حيث يجري سباق للخيل. باعة الحلوى والمتلجات - الواردة من يافا - ينادون على بضاعتهم. ابتعت قرطاساً من الفستق المغموس بالسكر، ضارباً عرض الحائط ببكاء (أحمد) الذي كان يفضل حبة (اسكيمو)، نشترتها من القرش الوحيد الذي كان في حوزتنا. لقد أضجرتني وجوده معي منذ كلفتني والدتي برعايته وحراسته، فيما ذهبت هي إلى دار شقيقتها للأسهام في إعداد العروس.

أقبلت الجياد، وبدأ السباق، فتصاعد الغبار، وعلت الأصوات والصيحات، وصهيل الخيل المزينة بسروج مزركشة، وأوراق ملونة. وعند نهاية كل شوط تتطلق صيحات الجمهور، معبرة عن إعجابها بالفائز، وسخطها على الخاسر. أفراد فرقة (حسب الله) يقرعون الطبول وينفخون في الأبواق، فيزداد حماس

أنصار الفريقين، ونتراهن نحن الصغار على حبات من الفستق، أو الدحل، بينما يراهن الكبار لقاء مشروب شاي أوقهوة عند أبي داوود.

مالت الشمس نحو المغيب، وحن موعد زفة العريس الذي بدا نحيلاً للغاية في (قمباز الروزه) الحريري، مكفهر الوجه لسبب لا أدريه. تحيط به جمهرة من الشبان، تردد بحماس أهليج (السحجة) يرافقها ضرب منتظم بالأكف وقرع الطبول. يطوفون به في شوارع القرية الرئيسية، وهو يمشي الهوينا، وسط سحابة من الغبار توشك أن تكتم الأنفاس. العرق ينضح من الوجوه المحتقنة، وقد بدا عليها منتهى الجد. أجهزة الراديو والحاكي مفتوحة على آخرها في المقاهي المجاورة. تختلط الأغاني الصادرة عنها بتلاوة الأخبار عن الحرب.. بضجيج الزفة.. بالزغاريد.. بدويّ سيارات الجيش البريطاني العابرة، محملة بالجنود الذين يدهشهم المشهد، فيهتفون ويصيحون بأعلى أصواتهم، وغالباً ما يكيلون الشتائم..!

تميزت الأمسية الأخيرة، بمفاجأة مثيرة. فلم تكد الموسيقى تبدأ وصلتها، والناس ما برحوا يتوافدون تباعاً، حتى شرع بعضهم يطلق الرصاص ابتهاجاً واحتفاءً بالمناسبة الميمونة. تقدم (أبو ممدوح) عم العريس يطلب إليهم الكف عن ذلك، لا سيما وأن الانكليز، - وإن هم تغاضوا عن ملاحقة حملة السلاح في الآونة الأخيرة - إلا أنه لا يؤمن جانبهم، فالانكليز هم الانكليز، وقد يقلبون المناسبة السعيدة إلى نكد لا حد له، إذا هم شأؤوا ذلك. وما هي ذي سياراتهم غادية رائحة تشهد ما يجري. لم يستجب أحد لرجاء أبي ممدوح. بل إنهم ازدادوا حماساً بلغ حد التهور، تعبيراً عن تحديهم للانكليز أنفسهم من ناحية، وإصراراً على أن تبلغ أفراحهم مداها، من ناحية أخرى. من ثم فقد راحوا يطلقون الرصاص بغير حساب.

تكاثر الناس، وعلا الصخب، وانتقلت للجميع عدوى هذه العريضة، بما في ذلك النساء اللواتي تعالت أصواتهن بالزغاريد والغناء وضرب الصاجات والطبول، فيما ترقص واحدة منهن أو أكثر، على إيقاعها. بغثة انطلق صوت حاد طغى على كل الأصوات. للثو توقف الجميع، وساد سكون مخيف. ثم لم تلبث أن قامت جلبة على مبعدة أمتار قليلة غربي السرايق، تتم عن فزع مباغت.. ثم صيحات:

إسعاف.. إسعاف يا ناس.. لقد أصيب.. مات.. لا.. لا.. لم يمت.. من هو..؟
حاولت الاقتراب، وأنا أجرُّ أحمد من يده، ولكن بغير جدوى، فقد حالت

الأجساد المتراسة دوني. حملوا شخصاً إلى السيارة الصغيرة الوحيدة في القرية، والتي يملكها (رشيد الجمل) عمّ آخر للعريس. انطلقت السيارة مسرعة، مخلفة وراءها رائحة بنزين وسحابة من الدخان، مختربة الزحام، في طريقها إلى الشمال.. يافا.. الرملة.. الله أعلم!.. و ما هي إلا لحظات حتى بلغ النبا مسامع النساء في داخل الدار. (علي الرملاوي) أصيب برصاصة طائشة في خاصرته.. ربما تكون مميتة.

سرعان ما انقلب (الفرح) إلى مأم، والزغاريد إلى عويل. انتشرت على الفور تعليقات وتخرصات شتى. وفي غضون دقائق قليلة رويت عشرات القصص المختلفة عن الحادث نفسه!..

مضيت بأحمد إلى المنزل. لم تكن والدتي قد عادت بعد. أما سعيد فلا أدري أين هو في هذه الساعة. لم أراه في العرس أيضاً. بت مثلهفاً لحضورهما كي أروي لهما ما حدث في عرس دار الجمل، لم يسعنا إلا أن ننتظر وحيدين في جو نكتفه الرهبة.

ها هي ذي تجيء أخيراً تسحب علياء بيدها. وقد علا الشحوب وجهها. إذن لقد عرفت ما حدث. وقبل أن أتفوه بكلمة أخذت تردد، فيما هي تروح وتجيء، تحمل وعاء أو ترفع وسادة، أو كوباً فارغاً :

(.. يا بختك الأسود يا فاطمة.. حسدوك يا حبة عيني!..)

تأجل إتمام الزفاف ريثما ينجلي الموقف، وتتحدد حالة المصاب، فضلاً عن نتيجة التحقيق - هذا ما عرفناه في اليوم التالي - . ذلك أن علي الرملاوي هو أحد أقرباء العريس، وصديقه الأثير. أجل لابد من الانتظار.

أقبل الصيف، وجاء موسم الحصاد.

قطعة الأرض التي نملكها زرعت قمحاً هذا العام. أتى المزارع (عم عبد الغني) لكي يبلغ والدتي عزمه على حصاد الزرع الذي أئنع، مبشراً بموسم خصيب. ولسوف يبدأ ذلك منذ الغد .

انتابتي فرحة غامرة حين وافقت والدتي - بعد إلحاح شديد - على ذهابي مع عم عبد الغني إلى (الأرض في أم الذهب). هناك سوف أقطف السنابل. أمسك بالفراشات. أرشق العصافير بالمقلاع. أشتري بطيخة بالمقايضة على غمر من القمح. ما يهمني الآن أكثر من أي شيء آخر هو : متى يأتي ذلك الغد ؟..

صحت عند الفجر. تناولت ملايسي من قرب وسادتي. عكفت أمني على إعداد (زودة) صغيرة. قدمت لي كوباً من الشاي، ثم مكثنا ننتظر مقدم العم عبد الغني. يخيم السكون على الكون، لا يقطعه سوى صياح الديكة، و صوت رجل يسري في طريقه إلى المسجد، مردداً تسبيحة أو تكبيرة، أو موحداً الله الواحد القهار. وصوت آخر يحث دابته على السير ميمماً شطر الحقول. رددت والدتي بصوت واهن وهي تتنأب. أصبح الصباح والملك لله.. فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم. تنأب سعيد، تمطى، أخذ يندد بالمتسبب في إزعاجه باكراً !.. صوت المؤذن يردد:

- الصلاة خير من النوم.

يعلق سعيد متعمداً المماحكة :

- والنوم خير من الحصاد !..

ترد والدتي حانقة :

- (هذا اللي انت شاطر فيه) !..

يحسم النقاش بجذب اللحاف فوق رأسه. ثم يعود إلى النوم.

طرق الباب. جاء العم عبد الغني أخيراً. ما لبث أن أردفني وراءه، على حماره الأسود. وانطلق بنا هذا الأخير عبر الأزقة. حوافره تطرق الحجارة

الصداء فتتغير أصواتاً حادة. وشخير مزعج يطلقه من أنفه بين الفينة و الأخرى. نسمات الصباح تصافح وجهي وصدري، مفعمة بأريج التربة والزرع والبرتقال. وكلما أوغلنا في الأرض الخلاء، أو خلال البيارات ازدادت تلك الرائحة قوة ونفاذاً، تتداخل معها رائحة الكروم المنتشرة على السفوح الغربية وكثبان الرمال. زقزقة العصافير العابرة من فوقنا في كل اتجاه. الشمس أطلت لتوها، فبدت قرصاً أحمر متوهجاً عند الأفق، ترسل أشعة أرجوانية تغمر كل الأشياء، وتصنع من خلال الأشجار ظلالاً رائعة. تساورني الرغبة في أن أتمدد في ظل تلك الجميزة، أو أن أشلق شجرة التوت هذه، أو أن أجذب غصن شجرة التين مؤملاً العثور على حبة نضجت قبل أوانها. يقطع عم عبد الغني عليّ تصوراتي، بين حين وآخر، لكي يبادرني بسؤال أحس أنه لا ينتظر عليه جواباً. وأياً كان ردي فهو يتقبله بصمت، أو يتبعه بسؤال آخر:

.. كيف تجد المدرسة؟ ماذا كان ترتيبك هذا العام؟ هل تحب المدرسة يا أمين؟ أخوك أحمد في أي صف؟

كان بادي العطف نحوي، ربما لأنه لم يرزق بولد، على الرغم من زواجه مرتين، ومنذ ما ينوف على ربع قرن من الزمان. حركة مفاجئة صدرت عن الحمار، أخلت بتوازني فكدت أسقط لولا أنني بادرت للتشبث، بحركة لا إرادية، بخاصرتي العم عبد الغني، والالتصاق بظهره. أدركت بعد لحظة، أن الحمار تنكب الطريق المعبد إلى الأرض الزراعية. تساءلت:

-هل بقي علينا كثير حتى نصل أرضنا يا عم ..؟

-ليس كثيراً، انظر إلى تلك الأشجار العالية، هناك تقع المحطة، والأرض بالقرب منها تماماً .

-ولكن لماذا لم نواصل سيرنا على الطريق العام المعبد إذا؟

صمت الرجل قليلاً قبل أن يجيب:

-بحكم العادة يا بني .

-أية عادة يا عم. أتذكر أننا مررنا قبلاً من ذلك الطريق، فلماذا لم نتعوده؟

-ألم تسمع بضابط المحطة؟

-بلى. كيف لم أسمع به؟ ولكنه لم يعد هناك منذ زمن بعيد، كما يقولون .

-هذا صحيح. ولكننا أصبحنا بحكم العادة - كما قلت لك - نتحاشى

المروور بطريق المحطة. حتى حماري هذا تعود هذا الطريق، وبات يتجه إليه

من تلقاء نفسه. وهو الذي قادنا إلى حيث نحن الآن !..

-هو حمار ذكي إذن يا عم !..

ضحك العم.

حسبته يضحك مما قلت، فأردفت مؤكداً :

-حقاً هو كذلك، فهو يعرف ما يريد - رغم أنه حمار - بل ما تريده أنت حتى دون أن تقول له ذلك !..

-يبدو أن الأمر هكذا يا بني .

ثم أتبع كمن يحدث نفسه (رغم أن كثيراً من البشر لا يعرفون ما يريدون !..)

بعد أن عاد الصمت وحوافر الحمار تدب على الأرض المزروعة، تذكرت الروايات العديدة التي كنا نسمعها عن الضابط البريطاني، الكولونيل وينجت، الذي كان مجرد ذكر اسمه يثير الفزع. لقد دأب هذا على التفنن في أساليب اقتراه لجرائمه، وكأنه يقوم بعمل يحبه ويتعشقه. وتتراوح جرائمه ما بين الاعتداء على الناس، بالضرب والسب، وسرقة ما يلقاه في حوزتهم، وبين القتل العمد رماً بالرصاص أو طعنًا بالحرايب. كان سادياً يجد لذته في تعذيب ضحاياه حتى الموت. وليس شرطاً أن يكون هؤلاء ثواراً، أو حتى مجرد رجال راشدين. بل كثيراً ما عمد إلى قتل غلمان، أو مزارعين يلقاهم في الطرقات، أو في أي مكان بين البيارات والحقول أو على رمال الشاطئ.

هكذا تناقلت الروايات سيرته. حاول أهل القرية اغتياله في أكثر من مناسبة، دون أن يفلحوا، مما أضفى على غريمهم هذا هالة أسطورية من الرهبة. لكن محاولاتهم ما كانت لتذهب بغير عقاب يوقعه بهم، تمثل في صور عديدة مختلفة. منها العقوبات الجماعية، يفرضها عليهم، اعتباطاً ومن تلقاء نفسه. وكأنه دولة قائمة بذاتها، لا يسأل عما يفعل. ومنها اللجوء إلى قتل مجموعات من الناس كيما اتفق، ربما صادفها في طريقه، أو عمد إلى جمعها من المزارعين، أو من بين رؤاد المقاهي وأصحاب الحوانيت، أو المارة. أما أهون تلك العقوبات فقد كان حجز أعداد غفيرة من أهل القرية في ساحتها العامة، لساعات طويلة تحت أشعة الشمس اللاهبة، أو المطر المنهمر، تبعاً للفصل الراهن حينئذ بل هم مازالوا يذكرون في قهر وأسى كيف ألقى هذا الانكليزي - اليهودي فجر ذات يوم بخليل السلال وولده ابراهيم من فوق الجسر إلى لجة الوادي، ليلقيا حتفهما دون أن تشفع لهما توسلاتهما وضراعتهما شيئاً. عن لي

سؤال أقطع به الصمت المهيب فقلت :

-ولكن لماذا لم تطلبوا نقله أو تقدموا الشكاوى عن أفعاله للحكومة ؟

فقهه عم عبده قبل أن يقول، وفي صوته نبرة تهكم :

-لقد فعلنا ذلك تماماً يا بني ..وذلك كانت خطيئتنا الكبرى...!

-لم افهم شيئاً يا عم ..

-هذا مافعلناه، ولكن ذلك كان لصالحه دون أن ندري. فما دام هذا يلحق

الأذى بنا إلى درجة تدفعنا للعمل على إبعاده، فمعنى ذلك أنه يقوم بواجبه على أفضل وجه حسب سياستهم. ومن ثم فنحن لم نجن من محاولتنا وشكاوانا سوى إيغار صدره علينا أكثر فأكثر، والإمعان، من ثم، في الانتقام منا.

-ألا يكون يهودياً ذلك الضابط يا عم عبد الغني؟

-هو يهودي يا بني .

-من حسن حظنا إذن أن الثورة انتهت وأنه نقل من هذا المكان إلى غير

رجعة إن شاء الله .

-الثورة لم تنته يا أمين. ولسوف تعود في الوقت المناسب .

-ولكن الانجليز سوف يخرجون من بلادنا عند ما تنتهي الحرب. كما

يقولون .

-من قال لك ذلك...؟

-سمعته من الراديو في مقهى العم أبو داود .

-وهل تصدق كل ما تسمعه من الراديو؟ اسمع يا أمين أنت ما زلت

صغيراً يا بني ..

-أنا لست صغيراً يا عم. عمري الآن 11 او 12 سنة لا أعرف تماماً .

ضحك الرجل وقال :

-أعرف، أعرف. ولقد حملتك رضيعاً بين يدي هاتين .وباركت لأبويك

يوم مولدك. ولكنني أقصد أن من هم في سنك لا يستطيعون إدراك معنى الأحداث الجارية على حقيقتها. أنت لا تعرف مثلاً أن الانكليز لا يصدقون في وعد أبداً. وهم لن يمنحونا استقلالنا بعد الحرب أيضاً.

- ماذا سيحدث عندئذٍ ..؟

- سوف تقوم القيامة هنا. اليهود من ناحيتهم، سوف يطالبون بتنفيذ ما وعدهم به بلفورهم.. وطن قومي. هجرة بغير قيود و لا حدود.. امتلاك الأراضي بلا حدود أيضاً. إلى آخر ما هنالك من أطماعهم. ونحن، من ناحيتنا، سوف نعارض ذلك. بل ونطالب بما هو عكسه تماماً: الاستقلال ... الحرية في إقامة دولة لنا ... الوحدة العربية.. أما الانكليز، فعليهم لعنة الله الأبدية، فما من أحد يعرف ماذا يريدون، وما هي حقيقة نواياهم .

بغثة أوقف العم عبد الغني حمارة. كنا قد بلغنا شجرة توت ضخمة، بسطت ظلها على رقعة واسعة من الأرض. خيم صمت مشحون بالتوتر. سرح بصره بعيداً. أجال بصره في الأفق العريض من حولنا قبل أن يرسل ضحكة مجلجلة، أجفلت منها، إذ صدرت عنه بغثة ولم تكن لها مناسبة واضحة. لم أجرؤ على سؤاله عما أضحكه. لزممت الصمت إلى أن التقط أنفاسه. ثم توكلت على الله، وقررت المغامرة بسؤاله:

-خير يا عم؟

-تريد أن تسألني عما أضحكني يا أمين أليس كذلك؟

-ليس هذا تماماً يا عم.. ولكن ..

-اسمع هذه الحكاية يا بني : هنا، في هذه البقعة قتل أحدهم !..

-قتل أحدهم ؟

-.. وكنت شاهداً على ذلك.. كان خائناً استحق القتل. أذكر ذلك كما لو أنه يحدث الآن..

-حقاً. ولو لا أنه كان كذلك لما قتلوه !.. لا بد أنه تعاون مع الانكليز .

لم يعلق على ملاحظتي. أطرق قليلاً، ثم شرع يروي الحكاية بصوت منخفض. ونبرات هادئة، كأنما يحدث نفسه:

... جاء الرجل يوماً إلى القرية. أخذ يتصل بوجهاتها وملاكي الأراضي و البيارات فيها، ويقيم معهم علاقات صداقة وطيدة. بدت طبيعته أول الأمر، لكنها ما لبثت أن كشفت عن أغراض خفية كان يرمي إليها. زعم أنه أحب قريتنا الهادئة الوادعة. ادعى أنها المكان الذي قضى نصف عمره في البحث عنه، إلى أن من الله عليه فهداه إليه أخيراً. من ثم فهو يود الإقامة فيها ما تبقى له من عمر في هذه الحياة الفانية !.. وما عليه الآن سوى أن يجد ذلك الإنسان الذي

يوافق على بيعه قطعة أرض يقيم عليها منزلاً صغيراً، تكتفه بيارة برتقال متواضعة.

وجد ضالته أخيراً في قطعة صغيرة بمنطقة "أم الذهب"، تلك التي عن يميننا الآن. تمكن من إقناع أحد الفلاحين، بئمن مغر، لم يكن مالوفاً آنذاك. لكن هذا المالك (حسن العبسي) فوجئ، يوم التوقيع على عقد البيع، بأن الرجل يحمل توكيلاً عن يهودي من مستعمرة (ريشون ليتزيون) عيون قارة، وأن هذا الأخير ليس إلا وسيطاً (للكرن كايمت)، المتخصصة في شراء الأراضي من الحكومة المنتدبة، وبعض من تستطيع التغرير بهم، لصالح الوكالة اليهودية. لم يشأ حسن العبسي أن يثير ضجة، أو أن يلفت انتباه الرجل إلى شكوكه حوله، رغم استغناء هذا الأخير له، لتصوره أنه مجرد قلاح أبله" سوف "ييصم" على العقد دون أن يعرف مضمونه ..! أبلغ العبسي القصة لقائد الفصيل في المنطقة، الذي تحرى الواقعة، فوجد أن الرجل لبناني، سبق له أن أسهم في عمليات البيع لمساحات من الأراضي اللبنانية، الواقعة في شمال فلسطين، وسهل مرج ابن عامر، لا سيما عائلات سرسق وسلام والخوري الإقطاعية المعروفة، هي ليست معروفة بالنسبة لك، ولكن من هم أكبر منك سنا يعرفونها جيداً.

صمت العم عبد الغني وكأنه مضى بعيداً في استحضار الذكرى. لا يسمع سوى وقع الحوافر تنغرس في التربة الهشة، وحفيف السنابل المتماوجة. ثم ما لبث، بعد لأي أن قال :

.. كنت أحد ثلاثة وقع عليهم الاختيار للقيام بالمهمة.

قاطعه في توجس من يستقطع صورة القتل التي عبرت ذهني للحظات مرعبة :

- ألم تكن هناك طريقة أخرى تحول دون إتمام الصفقة، بدلاً من قتله ..؟
كالامتناع عن البيع مثلاً.. كطرده من المنطقة.. وكفى!..
رد بحدة ظاهرة :

- لا يا أمين. ليست القضية هي بيع هذه القطعة تحديداً. كما أن ذلك لن يمنع من التوجه إلى أماكن أخرى لتنفيذ المشروع الذي كان وراء العملية. كانوا ينوون إقامة مستعمرة يهودية هنا.. في هذا المكان. تصور لو حدث ذلك، يا ولدي، أي كارثة كانت ستحيق بقريتنا؟ اليهود يقيمون هنا، بجوار بيوتنا وعلى مرأى منا. أرضكم هذه كانت ستؤول إليهم أيضاً..

كان علينا استدراجه عن طريق العبسي، الذي أبلغه استعدادده للتوقيع على

العقد بغير إبطاء. مقترحاً أن يتم ذلك في موقع الأرض ذاتها، بعيداً عن الأنظار وضماناً للسرية المطلقة .

جلسنا تحت شجرة التوت هذه نترقب، إلى أن جاء اللبناني في سيارة سوداء، توقفت إلى جانب الطريق الترابي. نزل هو منها، وبقي فيها شخص آخر. تبين فيما بعد أنه يهودي.. عميل آخر للشركة. مسح المكان بنظرة مريبة شملت كل الأفاق المحيطة به. اطمأن حين رأى حسن العبسي في الانتظار. اقترب منه هذا. راح يتحدث إليه بعض الوقت. ثم أخرج اللبناني من حقيبة كان يتأبطها أوراقاً قدمها للعبسي. خرجنا للتو من مكثنا، لننقض عليه و نستولي على الأوراق. اضطرب الرجل.. امتنع لونه.. ارتعشت أوصاله.. حاول مستميتاً الدفاع عن نفسه بكل الحجج الممكنة. نذرع بأنه لم يكن سوى ضحية جهله وغبائه، فضلاً عن عدم درايته بمثل هذه الشؤون ..! وإذ واجهه أحدنا بماضيه الحافل، متبعاً ذلك بأشهار مسدسه، معلناً الحكم بإعدامه باسم الثورة الفلسطينية، انهار الرجل دفعة واحدة. وطفق يسترحم ويستغفر، دون جدوى، فلقد فات أوان التوبة والاستغفار ..!

صمت العم عبد الغني قليلاً، ثم أردف في أسي:

.. آه يا بني لو عرف هؤلاء الخونة فداحة جريمتهم في حق شعبهم، بل وفي حق أنفسهم وأسرهم وأبنائهم من بعدهم، لأحيال قادمة بلا عدد. وهم في نهاية المطاف يخسرون كل شيء.. دنيا وآخرة يا بني ..!

أصبحنا على مشارف الأرض. ساد الصمت زمناً إلى أن بلغناها. ترجل العم فيما كنت أفقر عن ظهر حماره. السنايل تلامس صدري، ووجهي أحياناً. أدت بصري فيما حولي. بساط ذهبي بديع. سطحه غلاله شفيفة تكونت من أطراف السنايل المدببة. يتهادى بأناة مع ريح الصبا.. والطيور تحوم، ثم تهوي تلتقط الحب، ثم تتطلق محلقة في الفضاء الرحب ترفق راضية مطمئنة. الشمس ساطعة تغمر الكون. المحطة القريبة نطل بمبانيها الحجرية البيضاء من خلال فرجات بين أشجار الكينا العالية. نباتات متسلقة على جدرانها تحفل بأزهار بنفسجية وأوراق خضراء يانعة. سحابة دخان تبدو من بعيد، لا تثبت أن تتكشف عن عربات قطار قادم من الشمال، مرسلاً صفيراً مثيراً طالما استأنسنا به، كلما تصادف وجودنا قريباً من خط سيره شرقي القرية. عن بعد تراءت لنا مباني بيضاء تشرف من عليائها وديعة مهيبية. شعرت بحنين غامض إليها، رغم أنني لم أبرحها إلا منذ قليل .

أعداد من الفلاحين، في مواقع متعددة، يحصدون القمح بمنجلهم اللامعة في ضوء الشمس الباهر، فيما راحت أصواتهم والأصداء تتجاوب في أرجاء السهل، بحث بعضهم بعضاً على العمل، أو يرددون المواويل .

عدنا عند العصر. كان يوماً حافلاً. الفلاحون يملأون الطرقات، بدوابهم وعرباتهم المحملة بالسنابل، يتساقط بعض منها هنا وهناك فتفرش الطريق كله. غلمان على جانبي الطريق يفترشون الأرض، ومن أمامهم (بسطات) الحلوى وزجاجات المياه الغازية الملونة، وأكوام من الخيار والبطيخ. تكدست من حولهم أنهار من أغمار القمح، تعبق الجو برائحة التبن والتراب، ورفوف العصافير تحوم مغردة، تعلو وتنخفض، تقترب وتبتعد ... مهرجان زاخر بهيج استغرقني حتى الدهول.

خيل إلي أن فرصتي في متابعة دراستي قد ضاعت إلى الأبد. كان ذلك يوم حان موعد العودة إلى المدرسة، قبل أن يتم إنجاز البناء المخصص للصف السادس الجديد. ليس أمامي الآن سوى أن أندب حظي العاثر. لا سيما بعد أن فقدنا - أنا و فوزي - فرصة أخرى سنحت من قبل، سبق أن هياها لنا الأستاذ شاكر، بمسعاة الحثيث من أجل إلحاقنا بدار الأيتام في القدس، أو بمدرسة "سنلر" المهنية. كان متاحا لواحدنا، يومئذ، أن يغدو نجارا، أو حدادا، أو سمكيا مرموقا. حقا هي حرف لا تحظى لدى أهل القرية، بذات القدر من الاحترام الذي تتمتع به مهن أخرى، يرتدي أربابها طربوشا وقميصا ذا ياقة بيضاء منشأة، يتوسطها رباط عنق - لا سيما إذا كانا منقطا - إلا أنها - على أية حال - خير مما كان ينتظرنا من حرث في الحقل، أو سقي في بيارات البرتقال .

مصيرنا يتأرجح إذن، في مهب الرياح. بيد أن الأستاذ شاكر يمكن أن يحدد لهذا المصير مساره، إذ يقرر مواجهة التحدي، فيصمم على ألا يدع العوائق الطارئة تحول دون تحقيق طموحاته في صنع الجيل الأفضل الذي ينشد، من أجل البلاد والعباد ..! فلطالما اعتقد أنه مبعوث العناية الإلهية لإصلاح ما فسد على ظهر هذا الكوكب - كما يقول الشيخ محمد أبو العينين - وذلك عن طريق العمل الدؤوب، وليس مجرد الاكتفاء بالقاء الموعظة، حسنة كانت أو غير ذلك..!

وما دامت السلطات المختصة قد وافقت، من حيث المبدأ، على إنشاء الصفيين المرجوين فهذا وحده انتصار عظيم ..! ولئن امتنعت تلك السلطات عن تقديم المعونة في الوقت المناسب، إمعانا منها في تهيئة الظروف الملائمة لسيادة الجهل والتخلف، فما ذلك إلا لكونها سلطة معادية، وليس أدل على هذا من أنها تغدق بسخاء على أولئك الدخلاء، ومن أموال الخزينة العامة التي نسهم نحن بالقسط الأوفر منها، راضين عن ذلك أو كارهين له، قادرين عليه أو عاجزين عنه" ..

".. المهم يا أولاد، ويا سادة يا كرام، أننا حصلنا على الموافقة، رغما عن

أنوفهم.. حسناً.. لماذا لا نتدبر أمرنا بطريقة أو بأخرى.. لماذا لا يشاطر هؤلاء التلاميذ رفاقهم غرفة الصف الخامس في الوقت الحاضر..؟

ذلك بعض ما كنا نسمعه من الأستاذ شاكر، سواء في غرفة الصف، أو في حواراه مع المعلمين، حين كانوا يتخذون مجلسهم في ساحة الحديقة - مجال حركتنا الحيوي - صبيحة شتاء مشمس، أو ضحى ربيع متألّق. لم يزد عددنا على العشرة تلاميذ. بعد أن تخلف أكثر من واحد منهم. ولقد أسعدني أن نعيم واسماعيل ومحمد يوسف النجار كانوا بين الباقيين. وهذا الأخير كان الأكثر شغياً ومشاكسة، على الرغم من إصابته بعاهة عطلت يده اليسرى تماماً، مما حدا به إلى إخفائها في جيب بنطاله على الدوام. ولا يذكر أحد أنه رآه يوماً على غير هذه الصورة. وإذا ما سئل عن سر فقدان أصابعه الثلاثة، عزا ذلك إلى انفجار قنبلة كان يعبث بها. ونصدق نحن الرواية، فهو ابن عائلة انخرط معظم أفرادها في صفوف الثورة، وعلى رأسهم عمه الشهير محمد طه .

عمت الفرحة سائر الرفاق، حين راحت (مي) تشاركنا مقاعد الدرس في صفنا الجديد. مثل زهرة برية تتألّق تحت ضوء الشمس. كزنبقة بيضاء يتضوع أريجها، كفراشة ترف أجنحتها الشفيفة خلال أمسية ربيعية. كلما لاحت عن كذب مقبلة مع أبيها، أو منصرفة إلى منزلها، يتماوج شعرها على كتفيها كشلال من حرير. تمنيت أن أتحدث إليها. غير أنني تهيبت ذلك .

".. حتى إذا كان لأحد أن يقترب منها، فهو ليس أنا، على أية حال. بل إن محاولتي منافسة الزملاء الأكبر مني سناً، والأفضل ظروفًا، في التودد إليها، ليست إلا ضرباً من السذاجة والجنون ..!"

ثم تحققت الأمنية دونما تدبير سابق، حين طلب إلي الأستاذ شاكر - ربما لأنني كنت أول من صادفه في طريقه - أن أوصل إلى منزله سلة مليئة بالخضار والأرز واللحم، إضافة إلى باقة أزهار جمعها " عم زكي" البواب المصري، من الحديقة .

لم ألبث طويلاً، إثر دخولي المنزل، حتى أخذت (السيدة، والدّة مي)، توجه إليّ أسئلة متعاقبة في شؤون شتى، لم يكن المسؤول عنها بأعلم من السائلة ..! أثار ذلك دهشتي وخوفي معاً. ولم ينجني غير مجيء (مي) قادمة من المدرسة، يسبقها صخبها المثير. دفعت الباب في جلبة. هتفت بالتحية لأُمها. طوحت حقيبة كتبها فاستقرت على كنية قريبة. قالت الأم في أستياء بدا مصطنعاً، إذ كانت، تكتم ابتساماً لاحت على شفتيها :

-ألا تكفين عن هذا الجنون ؟..

أطلقت مي ضحكة ذات رنين، توجي بإدراكها ما في نفس أمها الممثلة إعجاباً بصباها الباكر، كامتلائها هي زهواً بفتنتها الطاغية. التفتت (مي) إليّ بغتة وكأنما فطنت لوجودي، لحظتني فقط:

-أنت .. هنا يا أمين ؟..

يا إلهي.. كيف لا أكون هنا و تسألني ؟.. لكن لا بأس. بل إن هذا لعظيم إذ هي لا تجهل اسمي..! تلعثمت قبل أن أقول نعم.. مجرد نعم. قالت بمرح وهي تعيد خصلة شعرها إلى الوراء بتلك الحركة من جيدها :

-نشكرك يا أمين ..

-لا شكر على واجب يا آنسة ..

وكانت كلمة آنسة هذه جديدة علينا، سواء في المدرسة أو في القرية. لم تكن من الكلمات المتداولة. يصفون المتزوجة بالمرأة وغير المتزوجة بالبنت.. وقد يضيفون (البكر). لكنها عادت تسألني:

-كيف كانت دروس اليوم معك ؟

-جيدة.. ما عدا الحساب و الجبر .

-الجبر هو المادة المفضلة لدي ..

دعوت الله في نفسي قبل أن أجيب (الله لا يجبره هذا الذي اخترع لنا الجبر). ثم قلت :

-لكنها أبغض المواد إليّ يا آنسة .

-إن شئت أساعدك.. وأحل لك بعض المسائل .

تدخلت السيدة كي تحول دون الاسترسال في حوارنا " الصبياني ". ذلك " الرجس الذي هو من عمل الشيطان ..". لم تجد خيراً من أن تستأنف ما انقطع من أسئلتها المخرجة. شعرت بالضيق، لانقطاع حديثي إلى (مي)، ثم لأنني لم أشأ أن أتحدث عن أوضاعنا الخاصة، التي لا تسر، للغرباء. ولعلها أدركت ما فكرت فيه، حين أطرفت رأسي، متحاشياً النظر إليها، وملترماً الصمت .

اقتربت مني. ربتت على كتفي، ومسحت شعري بحنو أم. ثم تركتني ومضت صوب الغرفة المقابلة، متهادية في مشيتها. يهتز جسدها الوثير، فيما شعرها الفاحم يتماوج على ظهرها وكتفيها. قلت في نفسي .. " هكذا نساء المدينة ..". وفي انتظار لا شيء أخذت أنفحص ما حولي من مظاهر الحياة المترفة. ما

عتمت والدة (مي) أن عادت، ويبيدها لفافة متوسطة الحجم، كلفتني بحملها إلى والدتي. كما أنها أعطتني باقة الأزهار التي جئت بها عما قليل .

انطلقت مسرعاً، تتناوبني مشاعر شتى متباينة ومبهمة. هي مزيج من السعادة والحزن.. من البهجة والأسى. ماذا ستقول والدتي إذ أدخل البيت بهذه اللفافة، التي لم أعرف بعد ما هي؟ وهي التي عودتنا الامتناع عن قبول شيء من أحد، كائناً من كان. حتى الأهل والأقارب، ناهيك عن الغرباء.. غرباء..؟ أهؤلاء غرباء..؟

قبل أن أبلغ المنزل التقيت مريم حيث كنت أراها أكثر الأيام عند أوبتي عصراً من المدرسة، عند المنعطف المفضي إلى دارنا، والذي كان خالياً من المارة لحظتني قدمت إليها باقة الزهر. قلبي يخفق متأرجحاً بين الفرح والخشية. زعمت أنني أحضرتها لها بالذات. ضمتها إلى صدرها بفرح. دفنت بين الأزهار وجهها. تاللاً بريق في عينيها. تمتمت بكلمات شاكرة، فيما كنت أتأملها مقارناً بينها وبين (مي). " .. إنها لا تقل عنها جمالاً.. لكن مي.. أناقتها كانت أكثر إبهاراً للعين.. وأشد إثارة للاعجاب.. ترى لماذا يمنعنا الأهل من التحدث معاً في هذه الأيام ..؟ ما الذي استجد ..؟ أعادت إليّ مريم باقة الزهر، شاكراً، ومعلنة في ذات الوقت، أنها ستمضي قبل أن تقع عين أحدهم أو إحداهن علينا .. ولما أبديت لها دهشتي. بادرتني بقولها ضاحكة:

-هل نسيت أنني ذاهبة إلى البيت ..؟

-وماذا في ذلك يا مريم ..؟

-لا شيء ..!

-إن تأخذينها ..

-وماذا أقول لهم يا شاطر ..؟

-ولكن هذه ليست أول مرة .

-كان زمان.. حين كنا صغاراً..!

-وهل أصبحنا الآن كباراً ..؟ ومنذ متى؟

-هم يقولون ذلك.. كبرونا رغماً عنا ..!

لبثت في مكاني، أنظر إليها حتى غيبتها المنعطف. دلفت إلى المنزل أحمل هدية (أم مي). اندفعت نحوي علياء. هرول أحمد يطلب، حتى دون أن يلتفت إلى ما في يدي، أن أساعده في مسألة حساب أعياء حلها. هي ثلاثة زائد

خمسة...! انصرفا عني حينما شرعت والدتي تفض اللفافة، بعد تردد غير قليل. وقفنا جميعاً من حولها، ننتظر في فضول ولهفة. علينا تتمنى أن تسفر اللفافة عن كمية من الحلوى. أحمد يرغب في أن تكون لعبة، كنتك التي رآها، ذات مرة، مع ابن الحكيم.. أما أنا فقد أردتها دفاتر وأقلاماً. بيد أنها كانت قطع قماش تصلح لملابس الأطفال.. يا لخيبة الأمل..!

أطرقت والدتي بعض الوقت. ثم رفعت بصرها إلينا، تنفّس في وجوهنا التأثر باد على محياها. و وميض حزن، نعرفه، يتلألأ في عينيها . ثم قالت وهي مطرقة، تنظر الى (طبلية) العشاء الذي فرغنا من تناوله للثو، ما معناه :

- في مرة قادمة امتنع يا أمين عن قبول أي شيء من الناس وكذلك أنت يا سعيد يجب ألا تقبلوا شيئاً من أحد، يا أولاد، حتى لا يشعر أحد بحاجتنا. حينما تكون نفوسنا عفيفة يحترمنا الجميع، الله يرضى عليكم ويسعدكم..!

وصايا هامة من هذا النوع لم تكن تنقطع أبداً، بل إنها حتى في المرات القليلة التي كنا نزور فيها بيت جدنا حسين، أو دار خالتي نعمه، توصينا بعدم تناول شيء مما قد يقدمونه لنا، بل وإن علينا الادعاء بتناول مثل ذلك الشيء قبل مجيئنا. من ثم تأصلت فينا عادة الرفض والتعفف هذه على المدى .

عكفت (مي) على مساعدتي في مادة الجبر. أخذت أتردد على منزلهم، مرة أو مرتين في الأسبوع. لم ألبث طويلاً حتى أحببت هذه المادة أكثر من أي شيء آخر. كما أصبحت أتقنها إتقان مي نفسها لها. إلا أنني ما فتئت أظهار بحاجتي الماسة لمساعدتها كي أظل على مقربة منها.

بيد أنني لم أكن أدري أن صلتني الوطيدة هذه بابنة المدير - هكذا كنا ندعوها- سوف تثير حفيظة الزملاء نحوي، بل وضعيتهم أيضاً. إذ يرى هؤلاء أنني أقلهم جدارة ب صداقتها. لهذا سرهم انقطاعي المفاجئ عن المدرسة، والذي كانت بواعثه ظروف سيئة اضطررتي للعمل في قطاف البرتقال. لم تكن والدتي سعيدة بما حدث. ولكن هل ثمة مندوحة عن مواجهة الواقع حتى لو كان مريباً...؟

لقد استشرى الغلاء، وازدادت المعاناة، و أوشكت الضائقة أن تخنق الأنفاس، بعد سني الثورة، التي أعقبتها الحرب العالمية مباشرة. ولكي تزيد الوضع سوءاً، عمدت حكومة الانتداب إلى المغالاة في فرض الضرائب على الأراضي الزراعية، حتى بات محصولها لا يفي بالمرتتب عليها منها، فضلاً عن ذلك، راحت تستورد كميات ضخمة من الدقيق الكندي والاسترالي، لتطرحها في الأسواق، بأسعار زهيدة، تنافس المحصول المحلي، وتؤدي بالتالي إلى كساده. أمسى هذا حديث أهل القرية في سهراتهم، على المصاطب، أمام البيوت، إضافة إلى نكف الأخبار التي تصل إليهم عن الحرب، من مصادر شتى، أولها الراديو ومضافة المختار، وآخرها - لكنه أهمها - الأستاذ شاكراً..!

الحاجة (أم سايحة) نصحت عائشة بأن تحل أزمتها ببيع الحاكورة الملاصقة لجدار منزلها. أبدت هذه استعدادها لشرائها "... رغم أنها ليست ضرورية جداً لها...". هكذا قالت الحاجة. أم مريم المغير أرثأت، في أمسية أمس أن تباع أُمي الأرض إذ "... ما فائدة الأرض كي تحتفظي بها، في مثل هذه الأيام، وأنت على هذه الحال..."

فكرت أُمي في ذلك. ثم تساءلت: "... من هو ذلك الأحمق الذي سيشتري

(الهم من صدر صاحبه).. اللهم إلا الحاجة أم سايحة، التي ستستغل ظرفها لشراء الأرض بثمن بخس .." اليهود وحدهم يتقدمون للشراء في هذه الأيام العصيبة. وهم يعرضون أسعاراً مغرية. مما أثار الشكوك حول إجراءات الحكومة الهادفة للوصول إلى هذه النتيجة، والتي لم تكن إلا شركاً ينصب لهم بعناية فائقة .

.. اليهود ؟! حتى لو فرشها هؤلاء ذهباً. حتى لو متنا جوعاً. وصية المرحوم : ".. الأرض يا عائشة.. الأرض هي العرض.. تموت الحرة ولا تأكل بثديها ..".

.. سوف تمر الأزمة.. وتبقى الأرض رغم أنف اليهود والانكليز.. الله لا يكسبهم ..!"

لم أتم إلا قليلاً تلك الليلة. وعند الفجر ينساب صوتها خفيض النبرات، كيلا توقظ الآخرين، فيما هي ترتب على كتفي بحنانها المعهود:
-أمين.. قم يا أمين.. اسم الله عليك يمه..

-هاه.. صحوت يا أمي ..

لا أدري إن كنت يقطاً أم نائماً.. وأنا أدير عيني في أرجاء الغرفة. أحاول مقاومة النعاس. ".. ما أروع الرقاد في هذه الساعة والبرد فارس في الخارج.. نبا لكل شيء. هوذا سعيد يهنأ بنومه.. حتى هذا لا أستطيع البوح به أمامها. ألا يكفيها ما تحمل من هموم ؟!" نهضت متناقلة هي الأخرى كي تعد لي (زوائد) لغدائي ذلك النهار. وكوبا من الشاي، أتناوله قبل ذهابي الآن، عله يبعث الدفء في أوصالي المقرورة، ويعينني على مشقة الطريق. أفقت في مثل هذا الوقت، ذات مرة. يوم ذهبت إلى أرضنا برفقة العم عبد الغني. كدت أطير يومها فرحاً. الأمر مختلف الآن. تطفر الدمعة من عيني. لا أريدها أن تراها. هذا عمل لا أقوى عليه.. لا أرغب فيه.. المدرسة.. مي.. الرفاق ..

غادرت المنزل أدثر رقبتي بشال من الصوف، صنعت له لي ابنة الخالة فاطمة، عرفاناً منها، وتقديراً لخدماتي أيام منفاهها. أتأبط (صرّة) تحوي قطعة جبن ورغيفاً. ظلمة رقيقة تسربل الكون. وغيوم كثيفة تحجب السماء، فتضفي على الجو مزيداً من الوحشة. أبحث عن أثر لنجم، في أرجاء السماء، بغير جدوى..

بلغت مكان تجمع العمال، في اللحظة التي شرعوا فيها بالتحرك، وهم

يحملون المقاطف والسلال ومواعين الورق. تناولت واحداً من السلال من يد الرجل المشرف على توزيعها. كأنه يعرف، منذ البداية، أنني لا أصلح إلا لحمل السل على ظهري..!

انخرطت في موكب العمال، الذين بدأوا يهزجون ويغنون. لكن أغنياتهم وأهازيجهم كان لها وقع على النفس حزين. كان بينهم مصريون وسوريون ولبنانيون. مضينا جنوباً صوب إحدى البيارات البعيدة، حتى أن الشمس ارتفعت أمتاراً في الأفق قبل أن نصل إليها .

كم مشواراً تراني قطعت حتى الآن، والسل اللعين على ظهري، مملوءاً وفارغاً، على التوالي، منذ الصباح الباكر. أحسد أولئك الجالسين أمام الكومة الهائلة من البرتقال، يلفون حياته بسرعة عجيبة تخطف البصر، ثم يقذفونها ذات اليمين وذات اليسار، إلى الأمام وإلى الخلف، حسب التصنيف الملائم لها، ثم تلف بذلك الورق الشفاف الملون في منتصفه تحمل اسم (الماركة) و(برتقال يافا). ولا تصرفهم دقة عملهم عن مواصلة أحاديثهم وضحكهم .

بل ليتني كنت واحداً من أولئك العاملين في ورشة التغليف، حيث الطرق المتواصل الذي يتخذ مع التكرار والرتابة نسفاً من الأصوات سرعان ما تألفها الأذان. قلت في نفسي :

ما أسعدهم جميعاً.. فهم لا يحملون سلالاً فوق ظهورهم. لا بد أن الشيخ محمد قد سأل عني اليوم.. كذلك الأستاذ أبو مهدي.. الآن حصة الأستاذ شفيق ودرس الأنشاء.. هل سيقراً عليهم موضوعي كعادته؟ أم أنه لا يستحق القراءة هذه المرة ..؟ سوف يخبرهم نعيم أو أبو سليمان عن سبب غيابي ..سيحرجني ذلك أمام مي.. سوف تتأكد من أننا فقراء.. هل سأصغر في عينيها ..! هل أشكو لأمي، عند المساء، مشقة هذا العمل لأعود غداً إلى المدرسة ..؟ " الشمس ما برحت هناك.. لا يبدو أنها تنوي مبارحة مكانها ..! أينقضي هذا النهار حقاً؟

إلى أن يحدث ذلك ستواصل نقل هذه السلال، ملأى وفارغة، حتى يأتيك الفرج من عند ربك.. أو تسقط إعياء تحت هذه الشجرة.. أو في مجرى الماء هذا ..! قال لي (زميل) عمل في هذه البيرة، في الموسم الماضي. قال عنها بأنها ليست أكبر بيرة في المنطقة. وهم - مع ذلك - يمشون فيها أسابيع عديدة قبل أن يفرغوا منها ". غلام آخر يقترب. يبدو متعباً تماماً. يتحامل على نفسه.

يأمل أن يكمل نهاره وإلا .. أكلوا عليه أجرته". مجموعة أخرى مقبلة. نهرول بالسلال الفارغة، وصوت "العم أبو عامر" يلاحق الجميع، منتهراً، لاعتنا الآباء والأمهات ...!

تنفست عميقاً حين تناول الرجل السل عن ظهري، وأفرغه فوق الكومة الكبيرة التي بدت متألقة، كالذهب في ضوء الشمس. كرة أخرى إلى الحقل.. ساعد خطواتي، منذ الآن، في الذهاب والإياب. أفرحني هذا الاكتشاف المتأخر: واحد.. اثنان.. ثلاثة ..

آه.. ذلك صوت عصا "أبو عامر". ما بال هذا ال "أبو عامر" يواصل الضرب في كل الأحوال، سواء توانوا في عملهم أم نشطوا فيه؟ لكانه يستمتع بصوت عصاه تصافح جلودهم ..!

يقولون - وربما كان ذلك صحيحاً - أنه يتقاضى أجراً على عمله هذا ..! إنه لم يضربني حتى الآن. أهى مصادفة أم ماذا ..؟ ربما، فهو يسكن قريباً من بيتنا... ولكن.. لو حدث لي هذا - لا قدر الله - أتراني أعدو أمامه مثلهم، تفادياً لضربة أخرى، أم أقذف بالسل أرضاً، فيزداد حنقا من أجل حبات البرنقال، فيحلف بالطلاق عشراً أن يصرفني على الفور، ويضيع عليّ عندئذ "شلن" أجر نهاري كله؟ كما يضيع سدى كل ما صنعت حتى الآن، وهذا الذي صنعت هو مفخرة كبرى، سأحدث عنها أمة فور عودتي في المساء.. ولكن متى يأتي المساء ..! فلأحسب: إذا قدر لي أن أعيش حتى أتم أربعة أيام فهي أربع شلنات.. عشرون قرشاً بالتمام والكمال ..! سوف تتمكن والدتي آنذاً، من شراء كمية من الأرز والسكر، وربما السيرج. لو لم تكن أمة بحاجة إلى هذه المواد لأشتريت حذاء جديداً، مثل ذلك الذي يملكه اسماعيل العطار. وإن لم يكن حذاء فليكن قميصاً، ودفترأ للكتابة، وربما زاد قرش أشترى بتعريفة منه شوكلاته بحليب من دكان عثمان أبو حسين ..

(مي) ..و(هم) .. يستمتعون بالدفع الآن فوق المقاعد. كانت أياماً سعيدة تلك التي خلت، حتى الأمس.. كانت مي تؤثرني عليهم جميعاً. تساعدني على "الجبر". أذهب إلى منزلهم دون حرج، في الأيام الأخيرة. نمر تحت الجميزة معاً، فيكيف باعة الخضار عن التلغني بمحاسن بضاعتهم. يحملون بنا في دهشة. أحدهم يهز رأسه في استياء.. آخر - من وراء بسطة الباذنجان - يمتد شفتيه امتعاضاً:

(الدنيا آخر زمن..)

بائع آخر : (اللهم احمنا من هذا الجيل.. لم تفقس البيضة عنهم..) (البنات والولد يمسيان معا..) (ماذا أبقينا لليهود..؟!)

أتراها تذكرتني فتسأل عني الآن..؟ هذا هو المهم. أتراها عرفت سبب غيابي عن المدرسة ؟

..آه.. صوت العصا.. والسم يسري في كتفي.. الصرخة تختنق في حلقي..
والدمع في عيني.. أقذف بالسل أرضاً.. أعدو صوب البوابة منطلقاً
كالسهم.. وصوت أبي عامر يلاحقني طالباً إلي أن أعود، وإلا فهو، وبالطلاق
ألفاً (سيحرق الذين خلفوني!..) و.. (لن يدفع لي مليماً واحداً)!!

قالت، ونظرة الأسفاق في عينيها ترافق رنة الحزن في صوتها:

-يغنيا الله عن حمل سلال البرتقال يا ولدي.

كغريق لامست قدماه رمال الشاطئ بعد أن أيقن من هلاك محقق. الفرحه
رقصت في صدري. وددت لو أقفز في الفضاء لفرط سعادتي.. أقبل هذه الأم
؟.. ألقى بنفسي في حضنها ؟.. سأعود إلى المدرسة ؟.. وغداً أيضاً ؟..
صحت على كلماتها وهي تتابع قولها :

-لقد قضيت نهاري كله في حيرة. لم أكن راضية تماماً عما حصل. كيف
أدعك تترك المدرسة كي تشغل في البيارات ؟..
ولكي أسري عنها قلت :

-لكنك فعلت ذلك مكرهه بسبب حاجتنا .

قالت وهي تلوح بيدها، كأنها تستنكر كل ما جرى، وتقرر في الوقت ذاته
حكمة مؤكدة:

- (ما حدا مات من الجوع يا ولدي. اللي خلقنا ما بينسانا .)

ولكي تخفف عني أضافت مبتسمة :

-خير ربنا كثير يا أمين. عندنا قمح من الأرض.. والدجاجات تبيض.. ها
أنت تسمعها تنق في باحة الدار.. وأخوك زرع شوية خضرة في الحاكورة..
تنكة زيت.. وتنكة زيتون من الرملة (بعثهم) خالك أبو عون. تين وعنب من
الكرم.. و.. الحمد لله يا ولدي .

شارفت الشمس على المغيب. تلبدت السماء بغيوم كثيفة، رافقتها رياح
غربية، سرعان ما تحولت إلى عاصفة مزمجرة، أعقبها تساقط مطر غزير،
حتى حسبنا أن سطح القرميد سوف يتكسر فوق رؤسنا، وأن الأشجار سوف
تنقلع من جذورها. التصقت علياء بي، فيما قال أحمد و هو يغالب النعاس
 ويفرك عينيه الذابلتين:

- (هل نتعشى يا أمي ؟)

- حاضر يمه .

نهضت نعد لنا الطعام الذي كنا نعرف مكوناته سلفاً. لكنها تعرف دائماً كيف تجد سبيلها لابتكار ما يدخل البهجة إلى قلوبنا. فقالت وهي عند باب الغرفة، وقبل أن تفتحه بحذر شديد، خشية اندفاع الريح العاتية :

-سوف اصنع لكم (زلابية).. ما رأيكم ؟

تحلقنا حول (الطبلية) القديمة، التي حفل سطحها ببقع لا حصر لها من آثار أنواع الأطعمة التي مرت بها عبر تاريخها العريق، منذ أيام والدي الخالية. بيد أنها حظيت، تلك الأمسية، بأقراص الزلابية، على صفحتها طبقة من السكر، إضافة إلى عدد من أرغفة الطابون، والبيض المسلوق، وإبريق الشاي الأزرق، رفيق الطفولة، يتصاعد بخاره برائحة القرفة .

وقد زاد الجو وحشة تأرجح ذبالة السراج الشاحبة. تخبو زماً حتى توشك أن تنطفئ، فنكتم أنفاسنا معها حتى توشك أن تنقطع. ثم تتناول من جديد، فتفرج عن الهواء في صدورنا. تتوالى ذبذبة الضوء، تبعاً لهبات الهواء المتسللة عبر شقوق الباب، محدثة صريراً حيناً، وأزيزاً حيناً، في تناغم محزن. بل إن الباب ليندفع في لحظات، وكأن يداً قوية تحاول اقتحامه فيثير الوجع في نفوسنا. ترمق أمي السقف، بين آونة وأخرى، بعينين قلقتين، ثم تدعو الله، بصوت هامس، أن يسترنا ويحمينا من (الدف)، هذا العام على الأقل، كيلا يضيف مزيداً لما نحن فيه. و لا يفوتها أن تضيف - للإفادة من المناسبة - رجاء، أقرب إلى الضراعة، من الباري عز وجل، بأن يوفق الأولاد، وأن يقيض، لهم ولها، أولاد الحلال، وأن يبعد، عنهم وعنهما، أولاد الحرام ..!"

لم تكن نتوقع زيارة جدي والخال رمضان، في تلك الأمسية العاصفة التي زادها مجيؤهما أكفهراراً. بل إني تصورت للحظة أن الله لم يستجب للشق الأخير من دعاء والدتي، أنا الذي ما كنت أشك قط باستجابته الدائمة لدعواتها..! جدي والخال رمضان، تربعا في صدر الغرفة، على فرشة لم تكن وثيرة، وبينهما مخدتان، الواحدة فوق الأخرى. كانتا معظم الوقت موضع دفع وجذب بين جدي و ولده، تعبيراً عن الإيثار من قبل الأول، والتوقير من جانب الأخير.

طفق خالي يرمق والدتي، بين الفينة والأخرى، كأنما يذكرها بأن هذا الكهل

الجالس أمامها هو الذي أنجبها وأتى بها إلى هذا الوجود، فهو من ثم، واجب الطاعة والولاء، كيما تنال رضاه عن جدارة واستحقاق ..! خيم صمت مشوب بالحذر، بعض الوقت. الكل ينصت لوقع المطر في الخارج. تصورت أن الكون سوف يغرق في لجة مياه تنهمر من السماء، وتتبع من أعماق الأرض. تذكرت (سيدنا نوح) والشيخ (محمد أبو العينين) الذي أكد لنا، ذات مرة، أن طوفانا آخر ربما يقع في أية لحظة، بسبب ما يقترفه البشر من آثام في هذه الأيام ..! أما الأستاذ "شفيق" فقد أكد لنا بدوره جازماً، أنه في وقت تمطر فيه السماء عندنا، يكون صيفاً ملتهباً في مكان آخر من الكرة الأرضية..! كم هو خاطئ رأي الأستاذ شفيق هذا ..! وهل يعقل أن مكاناً في الدنيا الآن لم تغرقه مياه الأمطار هذه..؟!

نبهني صوت جدي يتنحنح. وكان واضحاً أنه فعل ذلك من قبل. كان قد أنهى، لتوه أيضاً، لف سيجارة "عربي". أغلق العلبة، التي بدا واضحاً أيضاً أن لونها كان فضياً، في وقت من الأوقات، قبل أن يعلوها الصدا في أكثر من مكان. بلسانه لامس السيجارة، مجرياً إياها يمينا ويساراً، كي يتأكد من سلامة التصاق طرفي الورقة. قطع طرفها بأسنانه، ثم نفث ما قطع. أشعل عود الثقاب، فيما كان خالي يسابقه، محاولاً فعل الشيء نفسه لكي يشعل سيجارة والده، لكن محاولته جاءت متأخرة..! نفث في الهواء أول دفعة من الدخان، وهو يلقي براحة يده الثقيلة فوق فخذه اليسرى التي يبسطها عند جلوسه، ممدداً إلى جانبها عصاه، لتعينه على عرج ألم به منذ إصابته بشظية قذيفة، يوم كان جندياً في الجيش العثماني، يحارب الإنكليز في الحرب العالمية الأولى أيام السفر برلك. تتنحنح توطئه، لأن يقول :

-يا بنتي. جئناك اليوم بأمر لو وافقتنا عليه، هذه المرة، لتحقق لك سعادة الدنيا والآخرة..!

ولما رأى والدتي لا تجيب، إذ هي حدثت منذ البدء فحوى القضية التي جاء من أجلها، أردف جدي قائلاً :

-أنا أعرف رأيك مسبقاً في هذا الموضوع. وقد تحدثنا فيه من قبل. ولكن أباك أدرى بمصلحتك منك أنت. وكما يقول المثل "أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة" فكيف الحال بأبيك ..؟

خطر لي أن جدي، إذاً، وبعملية حسابية - ربما لا تكون بسيطة - يعرف

أكثر من أمي بألف سنة على الأقل ..! انتابها القلق من جديد. هذه المقدمات تعني دائماً أن وراءها أخباراً غير سارة، وإلا لما احتاج صاحبها إليها .

كالفران المدعورة أطبق علينا الصمت، فيما أعيننا تنتقل في حذر ما بين أمنا باشفاق، وبين الجد والخال في سخط لا تشوبه شائبة، أكثر من أية مرة سابقة. بدت لي تقاطيع وجه جدي بغیضة وغير متناسقة ..! أنفه الكبير هذا حبذا لو قص قليلاً من جانبيه. عيناه الضيقتان تجلبان المقت. أسنانه التي أصفر لونها، كأنياب نمر رأيت صورته صباح اليوم في كتاب قراءة علياء ..!

كان الخال رمضان يتابع كلمات أبيه، والنظر إلى والدتي، في ذات الوقت، عليه يستشف ردها المرتقب، دون أن ينسى الالتفات إلينا بعينين تفقران إلى المودة. تقولان بصمت ولكن بوضوح (أنتم العائق الأكبر أيها الملاعين). لكنه رأى أن يسهم بكلمة من جانبه، يشدُّ بها أزر أبيه، فقال وكأنه يلقي بحكمة ألهمها للتو :

- أنت صبية يا أختي. والناس ألسنتهم طويلة ..!

انفضت والدتي وصاحت :

- حول ماذا ألسنة الناس طويلة يا رمضان؟ مرة أخرى تعود لهذا الكلام الفارغ ؟

قال جدي ملوحاً بيده :

- لا شيء طبعاً يا ابنتي، فأنت أطهر من ماء السماء .

- إذاً لماذا تكون ألسنة الناس طويلة ؟

- هي هكذا.. فماذا نصنع؟

- اذن لندعهم وشأنهم ..

- حتى لو تركنا الناس وشأنهم فهم لا يتركونا وشأننا .

- لنقطع تلك الألسنة إذاً ..!

- هذا ما ننوي صنعه يا بنية ..!

- انتهينا إذن، وليست هناك مشكلة ..!

- انت لم تفهمي ما أعني يا عائشة. قطع الألسنة لا يكون إلا باتمام زواجك.

تمالكت نفسها، وتساءلت بصوت هادئ، وهي تحقق في وجه أبيها :
- قل لي يا أبي.. وأنت يا أخي " العزيز " هل سمعنا في حقي كلمة واحدة، منذ وفاة المرحوم، أو حتى قبلها ؟
ردا معاً، وهما يلوحان بأيديهما باستكثار بالغ :
- معاذ الله.. لا سمح الله.. ما هذا الذي تقولين ؟
اعتقدت أنها حسمت الأمر الآن، فقد أفحم الرجلان، فقالت :
- عن أي مشكلة نتحدثان إذاً .. ؟
قال جدي وهو يكتم غيظه :
- عن مشكلة صبية مات زوجها، ويرغب أهلها في تزويجها من أحدهم، منعاً للقليل والقال، في قرينتهم والقرى المجاورة .. !
والقرى المجاورة أيضاً .. ! لماذا لا نقول في فلسطين كلها بالمرّة ؟
ساد صمت ثقيل بعض الوقت قبل أن تقطعه بقولها :
- تعرف رأيي في هذا الموضوع من زمان .. (لا تخض المي وهي مي.. ؟)

- ومتى كان للبننت أن تخرج على طاعة أبيها .. ؟
- البننت. أما أنا فأأم لأربعة أولاد .

قبل أن يغادر جدي منزلنا، وإزاء إصرار والدتي على موقفها، ومن أجل مضايقتها، وممارسة مزيد من الضغط عليها، اتخذ قراراً (شبيهاً بقرار سابق) سرعان ما أيده فيه ولده، وهو أن صبية مثلها يجب ألا تترك وحدها في مثل هذه الأيام العصيبة. من ثم فإن الخال رمضان سوف يبيت عندنا منذ الليلة، لا سيما وأن دوريات الانكليز عادت، من جديد، تجوب أرجاء القرية ليلاً، وذلك بسبب اقتراب قوات رومل من العلمين. وضرب مصفاة النفط في حيفا من قبل الطائرات الألمانية .. ووو.. إلى أن أوردوا كل ما سمعناه من أنباء الحرب منذ بدايتها، وكأنه حدث البارحة .

وحين حاولت إشعارهما بأن أخاها - رغم ثقّتها بشجاعته - لن يستطيع الوقوف في وجه الدوريات البريطانية. رومل وحده الذي يستطيع ذلك. لا سيما وأن هذا الأخ، من ناحية ثانية، أعزل من كل سلاح. وإذ أبدى أخوها استياءه من ملاحظاتها، التي تتم بوضوح عن عدم رغبتها في بقاءه بمنزلها، أكدت له

أنها لا تنتقص بذلك من قدره، وإنما هي تريد أن تجنبه المخاطر فيما لو أفتنى سلاحاً، أقلها الإعدام، الأمر الذي لا ترتضيه لأخيها بالتأكد.

بيد أن جدي لم يوافق على هذا التبرير، الذي اعتبره واهياً للغاية. بل قد بدا عليه الارتياح إذك، ربما لأنه أدرك أن ممارسة ضغوط، من هذا القبيل، لا ريب مؤتيه ثمارها عاجلاً أو آجلاً..!

تبسّط الخال رمضان عقب انصراف أبيه. وحاول التودد إلى شقيقته، وتلطيف الجو الذي خلفاه أكثر اكفهراراً من عاصفة تلك الأمسية، فطلب عشاء وشايًا بالقرفة، معقباً على ذلك بأن (بيت الانسان وبيت شقيقته واحد..!). وبعد الشاي أبدى رغبته في العشاء.. (فبيت السبع لا يخلو من العظام..!).

تساءلت تلك الأمسية : لماذا يموت جد صديقي نعيم في حين لا يفعل جدي ذلك ؟!.. أما عن خالي رمضان فقد خلته يسقط من فوق شجرة برتقال عالية، أثناء عمله بالقطاف، فتتكسر ساقه. أما إذا أسعدنا الحظ فتكون سقطته على نحو يمكن أن يفقده النطق..!

أغمضت جفوني.. طفتت أستعيد ما مضى من يومي : المدرسة.. سباح بيارة العطار، والبرتقالات التي جلبها منها خلسة سليمان أبو سليمان، بما فيها حبة (البوملي) التي أصر على أن يأخذها هو.. الشيخ محمد وما رواه لنا من قصة سيدنا يوسف وإخوته.. خالي العزيز وجدي.. مريم.. مي.. جدي.. خالي.. كدت أصرخ في وجوههم (لماذا لا تدعونا وشأننا ؟!..).

جدي يهيم في صحراء قاحلة.. في بيداء مترامية الأطراف خالية من البشر.. يبحث عن ولده الضائع رمضان.. أنا وأخواي نقذف برمضان في جب ذي قرار سحيق.. أناس كثر يهرولون نحو الجد، ونحن معهم.. ثم نسبقهم.. ننبئ جدي بأن ولده الأثير أكله الذئب ونحن عنه غافلون..! يلوح جدي بكلتا يديه مستكراً.. ألا إنكم لكاذبون.. ما كان للذئب أن يأكل رمضان أيها الأشقياء.. إن رمضان لقادر هو على أن (يأكل الذئب..!) رفض جدي أن يستمع إلى أي تفسير لما حدث، فمضى يردد : (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله.. إنما ...

أوشكت أن أحزن من أجله، فهو جدي، والنم لا يصير ماء..! وإذا بقائل يهمس في أذني.. أنظر إليه لقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم..! فرحت.. كدت أطير فرحاً.. قفزت معبراً عن فرحتي الغامرة.. آه هذا الألم في

خاصرتي.. نظرت فيما حولي.. لقد وقعت عن السرير الجديد الذي ابتاعته أُمِّي
البارحة. هرعت إليّ مذعورة تردد :
اسم الله عليك يمه.. اسم الله عليك !..

-23-

لكثرة ما كان الجيران - لا سيما النساء - يمتدحون مسلكي، ويطرون
خلقي، ولأنني كنت، في ذات الوقت، أقرأ شيئاً من سيرة الرسول عليه السلام.
والخلفاء الراشدين، المقررة علينا في المدرسة، بت أعتقد بأنني قمين بأن أغدو
واحداً من أولئك الأولياء الصالحين، الذين لا تخلو أحاديث الأمسيات، على
المصاطب، أمام أبواب الدور، من ذكرهم و وصف كراماتهم والمعجزات التي
تجري على أيديهم، كالشيخ الرفاعي، والسيد البدوي، قدس الله سرهما. وكيف
أن هذا الأخير " جاب الأسير من بلاد الهند بحديده بعد أن مد من الشباك
(إيده)!!". وأن ولداً آخر كانوا يضعون إبريق الماء عند ضريحه في المساء
ليجدوه فارغاً في الصباح. ولا معنى لهذا سوى أن ولي الله استخدم ذلك الماء
في الوضوء لصلاة الفجر !! بل إن الكثيرين كانوا يذهبون إلى حد القول بأن
هؤلاء الأولياء - بعضهم على الأقل - يمشي بيننا دون أن ندري. وأن هناك
من الأحياء - هكذا نقول الحاجة أم سايحة - من هم أولياء، دون أن يعرف أحد
عنهم ذلك، إذ هم حريصون على التستر، فلا يظهرون كراماتهم للعيان. ومن
هؤلاء " أهل الخطوة " كالشيخ حسن الجمل، الذي لا يبعد منزله كثيراً عن
منزلنا. الشيخ حسين هذا كان بوسعه أن يكون في جامع البلدة هذه اللحظة، وفي
مكة المكرمة، في اللحظة التي تليها، مجتازاً آلاف الأميال، مخترقاً البر والبحر
أو الفضاء في طرفة عين، وبالجسد لا بالروح وحدها !..

جنحت إلى العبادة والتعبد لكي أصبح واحداً من هؤلاء. ولقد استهوتني
فكرة اختصار الزمان والمكان بمجرد الرغبة في ذلك. فضلاً عن إمكان
المشاركة في الأمسيات، وتناول العشاء مع من أشاء، دون أن يروني أو يشعروا
بوجودي بينهم. رحت أبالغ في تعبدي، حين علمت أن مزيداً من الصلاة
والتهجد، يمكن أن تدفع واحداً من الملائكة الذين قد يصادف مرورهم بقريتنا

إلى زيارتي، ثم تكلفني بمهمة إصلاح البشر من أهالي قرى بينا والقبيلة وما حولهما ..! تلك المهمة التي كان يطمح إليها الشيخ " العطار " إمام الجامع، - فيما يتناقل الناس عنه - والذي كان دائم الشكوى إلى حد اليأس من إمكان إصلاح أي من هؤلاء البشر، سواء في خطبة يوم الجمعة، أو أحاديثه في المسجد عقب صلاة العصر.

أخذت أتردد على الجامع، صعوداً ونزولاً، عند كل فجر ومغرب وأصيل. لا سيما بعد أن سمعت في آخر صلاة للجمعة، من الشيخ علي العطار نفسه، بأن صلاة الجماعة تعدل سبعا وعشرين ضعفاً من تلك المنفردة. وحاولت - بهذه المناسبة - أن أفيد من إجادتي مؤخراً لحفظ جدول الضرب، فوجدت المحصلة تغدو رقماً كبيراً فيما لو تابعت خطاي السير على ذلك النحو لعدد من السنوات القادمة ..!

ما عثم أن حل عيد المولد النبوي، فانتابني غير قليل من الابتهاج. ألبستني والدتي أفضل ثيابي (قمبازاً) أملس موشىً بخطوط بيضاء وزرقاء، وفوقه معطف أسود لا أعرف مصدره، إذ كان يرتديه أخي سعيد من قبل، وكوفية بيضاء وعقالاً أسود. ولم تخف أُمي أسفها لعجزها عن استبدال هذه الأخيرة بطربوش قاتم اللون. ولكن (ما الحيلة يا بني.. العين بصيرة واليد قصيرة ..!). جلست مع من هم في مثل سني، في الصفوف الأخيرة الملاصقة للرواق. رحت أتابع، ورفاقي، قراءة قصة المولد، يتلوها عدد من المقرئين الذين بدا واضحاً أنهم يحفظونها عن ظهر قلب، على نحو يدعو إلى الإعجاب .

الجمع ينصت، وقد عبق المكان برائحة البخور، التي ازدادت نفاذاً بفعل الرطوبة المنبعثة من جدران المبنى العتيق، والتي لم يخفف منها عدد من النوافذ ذات الزجاج الملون، أخضر وأحمر وأزرق. على مسافات متباعدة من الجدران نقشت آيات من القرآن. وفوق المنبر كتبت أسماء بلون الذهب : (الله) في الوسط. ثم على الجانبين : محمد - أبو بكر - عمر - عثمان - علي .

أتأمل العمود الضخم الذي جلست إلى جواره، ثم ألحظ الرجل الذي يدور بإبريق الليمون، ثم آخر بإبريق ماء الورد، زاهي الحمرة والصفاء. تمنيت لو يكون نصيبي من هذا الأخير. فالليمون يمكن أن أحظى بمثله في بيتنا، حيث تجلس النسوة الآن - ما بين العصر والمغرب - أمام البيوت، يحتفلن بدورهن بالمناسبة. ما لبثت أن تنبهت للقوم وهم يهبون، بغتة، وقوفاً ينشدون معاً بأعلى أصواتهم :

.. صلى الله على محمد .. صلى الله عليه وسلم ..

نهضت سريعاً لأصنع الشيء ذاته. لا بد أن أغدو يوماً ذا شأن عظيم من التقوى والورع. لسوف أنحو طريق الرسول ذاته.. ولكن أنى لي مثل غار حراء..! وهل تدعني والدتي أذهب إلى أبعد من بيارة خالها الحاج مصطفى أبو عون ..! ومريم؟ أقاطعها عندئذ، أم ماذا ..؟ ومي.. ودروس الجبر والحساب..؟ أما خالي.. لأدعوني الله عندئذ، أن يذهب به متطوعاً في الجيش البريطاني، حيث لا يعود إلينا بعد ذلك أبداً، كما حدث لحلمي المجدلاوي، وصابر الحملاوي، وممدوح البهناوي. ولا بد أن جدي، بسبب من حزنه الشديد على ولده، سوف يكف عن ملاحقة والدتي بشأن الزواج .

اعتصرني الزحام عند مغادرة المسجد حتى أوشكت أن اقع مرة أو اثنتين، فيما يردد الجميع أدعية وتبريكات إيان الخروج، وأثناء بحث واحد منهم عن حذائه، بين الكومة الكبيرة من الأحذية، وهو لا يني يلعن الشيطان الذي أضاع له حذاءه..! فيعقب آخر بأن الشيطان لا عمل له في مثل هذه المناسبة، ومثل هذا المكان. وهو أيضاً لن يشغل نفسه في مسألة كهذه ..!

أيقنت بأن الله قد اختصني بضرب من الكرامة التي أنتظرها - وربما العناية الإلهية الخاصة - وذلك عندما ألمّ مرض بأحد أبناء خالتي (نعمة) التي طلبت إليّ أن (افتح له) لكي أرى ما إذا كان ابنها من (أبناء الحياة)، وأنه سوف يبل من مرضه ..! كان شبحاً لطفل في عامه الثاني. التصق جلده بعظامه. غارت عيناه، صدره يعلو ويهبط في تسارع شديد، وأنفاسه تتحسرج. جلده يكاد يحترق. الخالة جفت دموعها ليأسها من شفائه. كذلك زوجها (الهندي). أداروا وجهه نحو القبلة، بناء على نصيحة إحدى الجارات، انتظارا لإسلامه الروح لبارئها. قالت إن " السر الإلهي" سوف يصعد إلى خالقه بعد لحظات. ثم أضافت (مبشرة) خالتي، بابتهاج واضح، بأن ابنها هذا سوف يغدو طيراً في الجنة، يرفرف على كتفيها، بعد أن يحين أجلها هي الأخرى ..!

حتى الرقي لم تُجد شيئاً. كان آخرها ماقامت به الحاجة نفيسة العطار. أدارت البخور الذي ملأ جو الغرفة برائحته الزكية، وهي تردد، فيما يدها اليمنى فوق جبين ابن الخالة المحتضر :

رفيتك واسترفيتك من عين أمك وأبوك .

رفيتك واسترفيتك من عيون الحساد اللي شافوك ومن عين اللي مايصلي

على النبي..

همست خالتي بصوت خافت :

... الله يسمع منك يا حاجة ..

... على رأي المثل خذ من عبد الله وتوكل على الله !..

ذلك كله ضاعف من ارتباكِي وحيرتِي. ماذا عساي أن أصنع والغلام سوف يموت على أية حال. بيد أني - ومن قبيل التعاطف مع تلك الخالة في محنتها - قمت بفتح ذلك الكتاب الأصفر، لأبي معشر الفلكي، كانت والدتي قد ابتاعته لي، فضلاً عن تغريبة بني هلال، دفعت ثمناً لها ثلاثة قروش. كل ذلك من أجل توسيع مداركي وتأهيلي لمثل ما أنا فيه الساعة. عملت بإحدى الوصايا الواردة في الكتاب. كتبت سطوراً على ورقة. طلبت إلى خالتي المنكوبة، أو التي توشك أن تصبح كذلك، أن تشعل بخوراً وكافوراً. قرأت بعض التعاويذ والتعليمات، التي أوصى الكتاب باتباعها، منبهاً إلى أن التقاعس عن تنفيذها، بحذافيرها، ربما تؤدي بصاحب الشئ - أن إلى الهلاك المحقق !..

وحين أبدت (زينب) ابنة أم عدنان، إحدى جارات الخالة رأيها، الذي فحواه أنها تتصح بعرضه على (الحكيم)، بدلاً من المحاولات العقيمة الجارية، نظرن إليها باستخفاف مشوب بشيء من الاستكثار. قالت خالتي :

- وهل في قدرتنا يا ابنتي ذلك؟ وأين هم الحكماء؟ هم في المدن. وهل بإمكاننا الجري به إلى يافا أو الرملة، أو حتى المجدل أو غزة ؟

قالت الفتاة في وجل :

- يا خالتي الولد مخطر.. ولن تفيد كتابه ابن اختك ال..

ردت خالتي - متجاهلة التعريض بابن شقيقته :

- كما يقول المثل يا ابنتي .. (خذِي من عبد الله واتكلي على الله..!). هذا الولد - مشيرة إليّ - ابن شقيقتي مبروك.. وإن شاء الله سوف يكتب الله الشفاء لولدي على يديه !..

نظرت الجارات بعضهن إلى بعض، قالت إحداهن:

(.. المسكينة تحلم.. بل تهذي لكنها معذورة.. أليست أمًا ؟..).

في طريقنا إلى بيتنا، قالت أمي أنها كانت تؤثر البقاء، عند شقيقته هذه

الليلة، لكي تواسيها حين يحم القضاء، ويتوفى الله ابنها (صباحي) خلال الساعات القليلة القادمة ..!

بيد أن خالتي لم تدعنا ثانية، كما أنها لم ترسل في أثرنا أحداً، خلافاً لما اتفقت عليه مع والدتي، إذا ما ساءت الأحوال أكثر. لقد عوفي صبحي منذ اليوم التالي .

هي مكرمة واضحة من عند الله لي إذاً ..! استخفني الفرح، إذ ساورني الشعور بأن شفاءه كان على يدي. رحت أغني وأقفز وأصفر، إلى أن تذكرت أن ذلك لا يليق بنوي الكرامات الذين أنتظر أن اسلك في عدادهم. أولم تجمع الجارات، فضلاً عن خالتي - وقبل هؤلاء جميعاً والدتي - بأنني "ولد مبروك"، وأن مستقبلاً زاهراً ينتظرني بين أولياء الله الصالحين ..؟!

انقطع الخال رمضان عن المبيت لدينا ليلاً، وذلك إثر ما اعتراه من ضيق لسوء استقبالن المتكرر له، فأدرك أننا لا نسعد كثيراً بوجوده معنا. وادعى عندئذ، بأن والدتنا هي التي تحرضنا على تصرفاتنا غير المرضية إزاءه .

وإذ باءت محاولاتهم، قبل ذلك، بالفشل حيال إصرارها على موقفها، فقد فترت علاقتهم بنا، وتحولت مع الوقت، إلى ما يشبه القطيعة التامة، فلم نعد نحظى برؤيتهم إلا في المناسبات، كالأعياد، والمولد النبوي، وما ذلك إلا لكي يثبتوا " للقصي والداني"، من أهل القرية بأن لعائشة رجالاً وأهلاً، وأنها ليست "مقطوعة من شجرة". أي من أجل ألا تلوك الألسنة سمعتهم !..

لم يكن أمر مثل هذه القطيعة صعباً علينا، فقد كان جدي متزوجاً من رقية (أم سرحان) التي أنجبت له أخوالي - سرحان ورمضان وشعبان - وخالتي بديعة. وذلك عقب وفاة جدتنا الحقيقية، قبل أن نولد. وهكذا لم نعرف لنا جدة تروي لنا في الأمسيات الماطرة حكايات الجدات عن الجن والعفاريت، عن الشياطين والملائكة، عن القول و(أبو رجل مسلوخة) الأمر الذي تكفلت القيام به أممي وجاراتها دون غيرهن ولكن جدتنا غير الحقيقية هذه أو (امرأة سيدي) لم تتعامل معنا إلا كأحفاد لها كما أنها لم تعامل قط والدتي على أنها ابنة (ضررتها) المتوفاة، كانت بادية العطف علينا. ترحب بنا في مودة ظاهرة حين نزور بيت جدي - على ندرة تلك الزيارات - ولا تحجم عن تقديم ماحبوزتها من طعام لذلك النهار " أو مما اختزنته من مؤونة البيت، أو ماجنته من كرمهم القريب من البحر من عنب وتين وبرقوق.

يوم عرفنا أن الأستاذ شاكر نجح في مسعاه من أجل إنشاء الصف السابع في المدرسة، استخفنا الفرح: هتفنا، عدونا في الباحة، نقاذفنا الحقائق والدفاتر والمساطر. بشرت أمي بالنبأ العظيم، فارتسمت على أساريرها وشفثتها ابتسامة عريضة، وطفح وجهها بشراً واشراقاً. "لن أذهب، إذأ، إلى مدرسة الأيتام في القدس، أو إلى أي مكان آخر في الدنيا، بعيداً عنها !.."

أسابيع قليلة، وينتهي العام الدراسي. ثم تتقضي عطلة الصيف، وفي الخريف يبدأ عام مدرسي جديد، ومي سوف تكون معنا.. رائع هذا.. آه لو تتقضي العطلة سريعاً.. لكنها لن تفعل، وشهور الصيف الباعثة على الملل. قالوا أنهم سوف يذهبون، إلى قريتهم "عنابة".. أين عنابة هذه؟ وأين طولكرم، التي قالوا أنها تقع بالقرب منها ..؟

تساءلنا : نعيم، وسليمان، واسماعيل العطار.. جميعاً:

- لماذا لا يمشون هنا؟ ومن ذا الذي سوف ينقل للمعلمين وللمخاتير، ولنا جميعاً الأخبار المثيرة عن أهوال الحرب ..؟
- راديو المختار.. طبعاً ..

قال اسماعيل العطار

- ولكن من سوف يفسرها لهم، كي يدلهم على الفرق بين غورنج و غوبلز.. رومل ومونتجمري.. ومن هو الانكليزي ومن هو الألماني بينهما. في القرية يعرفون موسوليني وهتلر، أما تلك الأسماء الغريبة الأخرى فمن ذا الذي يعرفها غير الأستاذ شاكرا، الذي يستطيع أيضاً أن يدخل البهجة إلى قلوبهم بأنباء الانتصارات الألمانية، على كل الجبهات. ألا فليأت اليوم قبل الغد، هذا الهتلر ليربحنا من هؤلاء الانكليز، الذين " منذ رايناهم لم نر خيراً أبداً.."، القول الذي لا يفتأ أهل القرية يرددونه. أليس هو الذي يقولون بأنه سوف يقضي على الانكليز واليهود معاً، فيخرج أولئك من بلادنا، ويحول دون مجيء هؤلاء إليها ..؟

والدتي أيضاً، كانت تتمنى ذلك، حتى دون أن تدرك الفرق، هي الأخرى، بين من يسمونهم الحلفاء، ومن يدعونهم المحور. المهم، عندها، أن يخسف الله الأرض بهؤلاء الذين قتلوا زوجها، وليكن الشيطان هو الذي يهزمهم، فكأننا من يكون ذلك الذي سوف يحل مكانهم، فلن يكون أشد سوءاً منهم.

نبأ آخر جاءها من الخالة نعمة، أشاع مزيداً من البهجة في نفسها. علي الرملاوي يوشك أن يشفي تماماً من إصابته، ومن ثم فإن زفاف فاطمة إلى عريسها سوف يتم وشيكاً. وهكذا ساء فال الذين شمتوا بها يوم أصيب، فنسبوا إليها الشؤم وسوء الطالع. ولقد كان ذلك، أهم بكثير، بالنسبة لخالتي نعمة — من أنباء الحرب العالمية القائمة، ونتائجها المرتقبة ..!

حزن والدتي المقيم لا يبارحها. أعباء المعيشة تزداد يوماً بعد يوم،

والحرب تلهب الأسعار هنا تماماً كما تلهب ميادين القتال في البعيد. الأولاد يكبرون، وتكبر معهم همومهم، لا سيما كبيرهم. الجيران لا ينسونها، ولا يحجمون عن الوقوف إلى جانبها كلما ألمت بها ضائقة. الحاجة أم سايحة، على وجه الخصوص، ترسل إليها، إذا حل الصيف، يوماً سلة عنب من كرمها، ويوماً مقطفاً من التين أو الصبار. أما الخضار، من خيار، وبندورة، وبقدونس، ونعناع، فالحاكورة، خلف الدار، كفيّلة بها. أم مريم تزودها، لماماً، بالجبن والكشك، ولا تنساها من الزعتر والمربيه. البرتقال لم يكن يوماً مشكلة، ففي موسمه لا ينقطع وروده من دار الجمل أو الحاج أبو عون. والناس جميعاً يتوزعون دون أن يتقاضوا له ثمناً. والدجاجات تبيض عشر بيضات في اليوم الواحد، لكن هناك ضرورات أخرى : ملابس.. دفاتر.. أحذية ..

.. وكلّيتها لله يا عائشة.. النبي آدم يخلق ورزقه معه ..

.. والنعم بالله.. يا ختي يا خضرة.. وعليه الاتكال ..

تقولها بانكسار. وأتمنى لو يسعني أن أصنع من أجلها شيئاً .." لو كنت مكانك يا سعيد لما تركت أمتاً في مثل هذه الحال .."

في موسم الحصاد، يمكن بيع شيء من القمح، وتمضي الأمور على خير، لا سيما وأن العم عبد الغني جاء بالأمس يبشر بموسم حصاد جيد. فلقد زرع الأرض قمحاً، في وقت مبكر، هذا العام، والأمطار جاءت غزيرة منذ أوائل هذا الشتاء. يؤكد ذلك (الدلف) الذي كاد يغرقنا، لولا أننا نهرع، إلى وضع الأواني، كالطناجر والصحون، هنا وهناك، تحت هذه القرميدة وتلك، نتقاذف أنا وأحمد وعلياء إلى حيث تساقط قطرات المطر، ثم نقبع، كي نتقادها، في الزوايا، ولصق الجدار، مما حدا بها أن تؤكد من جديد، عزمها على "إصلاح هذا القرميد.. عند حلول الصيف القادم.. إن أحيانا الله.."

تنظر إلى الأعلى في ضراعة مرعدة بابتهاال هامس :

.. يا من سترت ما مضى.. استر ما بقي ..

مذ أخذ الدفء يتسلل مع شمس آذار عمد الأستاذ شفيق إلى البدء بنشاط رياضي عارم. ففضلاً عن التمارين الصباحية، والتدريب اليومي على ألعاب رياضية مختلفة، استعداداً للمشاركة في مهرجان الألعاب الذي سوف يقام في مدينة يافا، شرع بتشكيل فريق لكرة القدم، قوامه التلاميذ من الصفين الأخيرين. عصر كل من يومي الأحد والأربعاء، نمضي إلى أرض (الحراز)، جنوبي القرية، حيث ينبسط السهل، يحيط بأطرافه جميعاً سياج كثيف من الصبار. تقع خلفه وعلى جوانبه بيارات البرتقال الممتدة حتى تخوم الكثبان الرملية، المترامية حتى البحر. يشاركنا اللعب معلمونا، بمن فيهم الشيخ محمد، الذي كان مظهره طريفاً حين يخلع جبته السوداء، ولكنه لا يتخلّى عن عمامته أثناء اللعب. وإذا عدو، ملاحقاً الكرة بقوامه الطويل النحيل، تمتد يده تباعاً، صعوداً ونزولاً، إلى عمامته تلك كي يبقّيها في مكانها، وخشية أن تقفز من فوق رأسه. ولا نكف عن اللعب قبل أن يبدأ قرص الشمس بالاختفاء وراء بيارات البرتقال، غائصاً في سواقي الرمال. عندها نقفل عائدين، جنباً إلى جنب مع قطعان الماشية، التي تملأ الجو ثغاءً وخواراً، مثيرّة غباراً كثيفاً، يعبق الجو من حولنا برائحة صوفها، وعرقها، وروثها...!

فاجأنا الأستاذ شفيق، ذات صباح، ببشرى هزتنا فرحاً، حين أنبأنا بأننا سوف نتبارى مع فريق قرية القبيبة. صحيح أنه حدثنا عن ذلك من قبل، لكننا لم نكد نصدق، ربما لأنه يحدث لأول مرة. لهذا كانت فرحتنا عظيمة، وبتنا نعد الأيام انتظاراً للموعد المقرر .

أقلّتنا حافلتان، حيث رافقنا عدد من المشجعين المتحمسين. وسرني أن أخي سعيد كان بينهم. لقينا استقبلاً حافلاً وبهيجاً عند مدخل القبيبة، حيث ارتفعت أشجار السرو، والكينا الباسقة على جانبي الطريق، فغمرته ظلالها الوارفة. اصطف تلاميذ مدرستها، وأمامهم معلموهم وقفوا في باحتها التي تكتنفها الأشجار والزهور. ارتفعت أصواتهم تصدح بالأناشيد. زغردت النساء، عند أبواب الدور، فيما احتشد جمهور حول سور المدرسة، وعند بوابتها يصفقون

ويهتفون. أصابنا الزهو وتخيلنا أنفسنا وقد انتصرنا على فريق القبيبة، مما زادنا إعجاباً بأنفسنا واعتداداً!..

اختلطنا بزملائنا، حينما فرغوا من واجبات استقبالنا، فيما ذهب معلمونا مع زملائهم إلى داخل المبنى، حيث قدم لهم الشراب، ثم القهوة، فيما قدمت لنا زجاجات المياه الغازية الملونة، ففرحنا بها وهي تفرقع، عند فتحها، وتفور، تتبعث منها نكهة عذبة مثيرة .

(صبري الحكيم) المشرف على المستوصف في قريبتنا، أختير حكماً للمباراة، التي سرعان ما ألهمت حماس المتفرجين، من أهل القبيبة، والقرى المجاورة، الذين وفدوا إليها في الشاحنات، وعلى ظهور الحمير والبغال، وقد ألمت بهم - كما بدا واضحاً - سعادة غامرة، إذ كان هذا الذي يجري حدثاً نادراً. ومما أضفى على المباراة أهمية، سمعة الأستاذ شفيق، التي كانت قد طبقت الآفاق في انحاء المنطقة، بوصفه رياضياً فذاً. وحين أسفرت المباراة عن فوز فريقنا، خمسة إلى واحد، عزي ذلك الفوز إلى براعته الفائقة، وقدراته الرياضية الخارقة!..

وقفنا صفوفاً، تلاميذ كل مدرسة على حدة :

.. استرح.. استرح ..

.. ثلاث مرحات لفريق مدرسة بينا ..

.. مرحى.. مرحى.. مرحى ..

دوت عاصفة من التصفيق، ترددت أصداؤها في أرجاء القبيبة. تدفق الأهالي إلى داخل المدرسة، لينخرطوا في حلقات، يلعبون الدبكة، وينزعون (الحطّات) عن رؤوسهم، ملوحين بها، ابتهاجاً وفرحاً، فانطلقت الأهازيج والأغاني : على دلّعوننا.. يا ظريف الطول ما شي الواد الواد ...

في طريق العودة، لاح القمر بدرأ ساطعاً، غمر ضياؤه الأشجار والحقول. بدت ظلال أشجار الكينا طويلة مهيبة، أضفت على ما حولها سحراً وجمالاً.. ووحشة. في الشمال، من خلال نوافذ الحافلة بدت أنوار تناثرت على مدى البصر. قيل لنا إنها مستعمرات أضيئت بالكهرباء : رخبوت، عيون قارة ... في الجنوب والشرق، حيث قرانا تملأ السهل، بدت نقاط قليلة من أضواء واهنة، كاد يخفيها ضوء القمر. رائحة التربة، والزرع، والأشجار، تتسلل عبر نوافذ الحافلة التي راح أزيز عجلاتها، وصوت محركها الخشن يبددان الهدوء المهيمن فوق

البيارات والحقول. لدى اقترابنا من مشارف القرية، شرعنا ننشد :

موطني.. موطني ..

الجمال والجلال.. والسناء والبهاء.. في رباك

والحياة والنجاة.. والهناء والرجاء.. في هواك

هل أراك؟ سالماً منعماً.. وغانماً مكرماً

هل أراك ؟.. في علاك.. تبلغ السماك

موطني.. موطني ..

انطلقت هتافات الأهل الذين كانوا في انتظار عودتنا، كما لو كنا جنوداً عائدين لنوهم من معركة مظفرة .

لم تمض سوى أيام قليلة حتى زف إلينا الأستاذ شفيق بشرى سارة جديدة، عن رحلة سوف نقوم بها، يوم الخميس القادم، إلى البحر هذه المرة. وعلى من يرغب المشاركة فيها أن يأتي بموافقة ذويه، وعليه أيضاً، أن يجلب معه طعامه ليوم كامل. اعترضت أمي، متذرة بخوفها عليّ، فالبحر "غدار"، و " ماكل مرة بتسلم الجرة .." وإن شالله كل يوم والثاني رحلة.. يوم فوطبول.. ويوم البحر.. وايمتى تتعلموا يا خاييين ..!؟

أيّدها سعيد في موقفها بعد أن علم أنه لا مكان له في هذه الرحلة. كذلك الحاجة أم سايحة. لكن مجيء أم مريم، في تلك اللحظة بالذات كان إيذاناً بالفرح، بل كان نعمة وبركة هبطت من السماء، على الرغم من ضيقي لمجيئها وحدها. بادرتها والدتي بسؤالها الاستنكاري، الذي يوحى إليها بنوع الإجابة التي تنتظرها منها :

- اسمعي يا أم مريم.. قال مفكرين ياخدوا الاولاد رحلة للبحر هالمرة؟ والمسخوط وحياة راسه لازم يروح معهم ..!

أدهشني موقف أم مريم، حين قالت، بعد أن رمقتني بنظرة سريعة :

-وماله يا أم سعيد ..؟

-والبحر يا أم مريم ..؟

-توكلي على الله.. يروح ويرجع بالسلامة ان شالله.. العمر واحد والرب واحد يا حبيبتى ..!

تحركنا قبيل الشروق، متجهين غرباً، يسودنا الصمت، وبقياء النعاس في

أعيننا. معلمونا، وعم زكي المصري البواب، في المقدمة، يسوق حماره، الذي نعرفه كما نعرف العم زكي نفسه، لصحبته الدائمة له. وهو نفسه كان يصفه بأنه رفيق عمره الوفي ..! حمّله بما لا نعلم من أواني ومواد خاصة بهم. ما لبثنا أن أخذنا نتسابق، لدى بلوغنا مشارف الطريق الرملي الذي يمر عبر البيارات، بعد أن اجتزنا المقبرة. بلغنا سواقي رمال شبيهة بالجبال. شرعنا نتدافع فوق الرمال الناعمة المبللة بالندى، نتدحرج عن القمم العالية، منزلقين على السفح، فيما أنهار من الرمال تتدفق منسابة معنا. شجرة جميل ضخمة، تبسط ظلالها العريضة، وشجيرات كرمة تفتش الرمال. أشجار أثل عالية تصفر الرياح بين أغصانها وأوراقها المدببة كالأبر، مرسله ظلالها الرقيقة إثر شروق الشمس. بدت من بعيد زرقة داكنة، تلامس أطراف الأفق، أسرعنا إليها بين الرمال وأشجار الكروم هاتفين:

.. البحر.. البحر.. يا أولاد ..

طفقنا نعدو، ونعدو، غير آبهين لصيحات معلمينا التي لاحقتنا، منذرة متوعدة، لكن هؤلاء ما لبثوا أن مستهم العدوى، فانطلقوا في أثرنا بحث بعضهم بعضاً على السباق :

.. يا أستاذ شفيق.. يا شيخ محمد.. اخلع الجبة.. يا أستاذ غنيمي ورينا همتك ..!

العم زكي وحماره، وحدثهما حافظاً على هدوءهما، إذ لاحا عن بعد، في مؤخرة الموكب يسيران الهويناء، في صمت رزين، ينبئ عن وطيد الألفة بينهما..!

أنسام البحر تتداح رحية منعشة. هدير الأمواج يبتلع أصواتنا. الشمس ترقى في السماء صعوداً، فتتقاصر الظلال، وينتشر الدفء. تغمر بنورها الرمال فتبدو بساطاً متموجاً من الذهب. مياه البحر تلوح أكثر زرقة كلما اقتربنا منها إلى أن توقفنا أمامها نلتقط أنفاسنا مأخوذين بسحرها ورهبتها معاً، نرنو للأمواج المتدافعة، كأن بينها سباقاً. يعلوها الزبد حين تبلغ الشاطئ، فتتكسر على رماله، ثم ترتد عنه حسيرة، تمضي في البعيد، مخلقة حطامها فوق طبقة رقيقة من الحصى والزلف والأصداف الملونة، يرشح منها الماء مرسلًا هسيساً هامساً، ما إن يتلاشى حتى ينقض الموج، يعيد الكرة من جديد.

تساءلت في سري " منذ متى .. وإلى متى ..؟ وإلى أين ..؟ "

لم أتوقف عند تساؤلي، إذ سرعان ما دفعني أحدهم فالفيت نفسي في لجة الماء، أضرب بيدي وقدمي، يتطاير الرذاذ فوقي ومن حولي، تصعد بي موجة وتهبط بي أخرى.. بالروعة البحر.. برودة الماء ورهافة النسيم.. أراجيح الموج.. وصخب الرفاق.. رفوف العصافير فوق رؤوسنا ومن حولنا، خافقة أجنتها في لجة سماء زرقاء صافية، تحتضنها كأم رؤوم حانية ..

أمضينا سحابة نهارنا، نسبح حيناً، نترشق بالماء والرمل حيناً، نخرج إلى الشاطئ، ندفن أجسادنا في الرمال الرطبة، إلى أن يبلغ منا الأعياء مبلغه .

تجمعنا في حلقات، كي نتناول غداءنا. يداعب النسيم أشجار الكينا التي تقيأنا ظلالها، والمياه بساط أزرق بلا نهاية يمتد على مدى البصر فتتلاقى مع زرقة السماء بعيداً عند الأفق، تبعث الرهبة في نفوسنا رغم ما يعترينا من مرح. المعلمون يفتشون الرمال تحت ظلال شجيرات النخيل، معهم العم زكي وحمارة. كانوا منهمكين في إعداد طعامهم. لم يكونوا على بعد منا يحول دون وصول رائحة الشواء إلينا. بالحدس والتخمين والتحزير أدركنا أنهم يصنعون (قذرة خليلية)، قوامها الأرز واللحم والكثير من التوابل، مما أثار حنقنا عليهم، كما أثار فينا، في الوقت نفسه، بغضنا للجبين والزيتون، وعزوفنا عن الزعتر ..!، محتويات (الصرر) التي جلبناها في حقائبنا، فضلاً عن البصل، وحبات من البرتقال ..

صبحي السيلوي كان أكثرنا حركة ومرحاً، منذ بداية الرحلة. لكنه الآن صمت بغتة، ثم سرح ببصره بعيداً، على صفحة الماء المتلألئة كالمرآيا، لكي يفاжئنا بقوله الغريب :

- ترى كم من البشر اختطف هذا البحر على مر الزمان ..؟! كم عمره هذا البحر ..؟ تعالوا نسأل الشيخ محمد ..!

ربما خطر لي سؤال مشابه، لكنني لم أجرؤ مثله، على البوح به. بعد لحظات صمت، أخذ يردد، بصوت هامس، وهو ما يزال في شروده، آية كريمة، كنا قرأناها في درس الديانة، منذ أيام، شرحها لنا، الشيخ محمد، متعجلاً يومئذ :

" قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مدداً. صدق الله العظيم .. سامعين يا أولاد ..؟

نظر بعضنا إلى بعض في دهشة. لم يفهم أي منا لماذا قال أبن السيلوي

هذا الذي قاله. ما الذي ذكره بدرس الشيخ محمد الآن. أم لعله يحاول حفظ الآية الكريمة من أجل (تسميعها) في درس الديانة غداً.. ولكن هل هذا وقته ..؟
لم نلبث طويلاً حتى نسينا الأمر كله ..! استأنفنا عراكنا مع الأمواج، حين كانت الشمس تتحدر غرباً، فيما استلقى معلمونا فوق الرمال، في قبيلة رخية، بعد تناولهم غداءهم، الذي إيقنا أنه كان دسماً وشهياً. ما فتئ صخب الفتية على أشده. وما أنفك الموج ملتحماً في معركته الأزلية، كراً وفراً. والغلمان بأجسادهم النحيلة السمراء يرتعون تحت وهج الشمس. انقضى الوقت منسياً تماماً، يتسرب حثيثاً كحبات الرمال بين أصابعنا. اكتشف واحد منا أنه إذا حفر في الرمل مقدار شبر أو شبرين، انبثق الماء من جوف الرمل عذباً سائغاً للشاربين. وسرعان ما عمم هذا اكتشافه على الرفاق، الذين انكفأوا بدورهم على الأرض، أو جلسوا القرفصاء يستخرجون الماء من باطنها، من عشرات الحفر التي رصعت رمال الشاطئ في لحظات.

بغثة شقت الفضاء صرخة غلام مرتاع :

.. يا استاذ.. يا أولاد.. في ولد بيغرق ..

هبّ المعلمون من قبيلتهم وقوفاً، على أقدامهم مرة واحدة. هرعنا جميعاً نحو الشاطئ، يسبقنا هلينا وعيوننا بحثاً عن ذلك الغلام. دوت الصفارة التي كانت إيعازاً لنا بالخروج إلى الشاطئ. قذف رجلان - جاءا قبل قليل يقودان جملين - بنفسيهما في لجة الماء. كذلك فعل المعلمون جميعاً. وسرعان ما خرجوا ثانية، حين ظهر على كتف واحد من الجمالين، غلام انطوى جسده فوق كتف الرجل، فتدلى رأسه على ظهره، فيما نصف جسده الأسفل على صدره. طرح الغلام أرضاً، فيما بادر الرجل الثاني إليه، وشرع في الضغط على خاصرتيه. وما راعنا إلا أن رأينا رغوة بيضاء تنساب من فمه، ثم رفعه هذا ممسكاً بساقيه إلى الأعلى، بحيث أصبح رأسه إلى الأسفل، يوشك أن يلامس الرمال، فيتدفق المزيد من الماء والزبد من فيه ومنخريه. طفق الرجل الآخر يضع أذنه على صدر الغلام، يستمع إلى تنفسه. تبين لنا، في هذه الأثناء، ونحن نتدافع هنا وهناك أن الغريق لم يكن سوى صبيح السيلوي .

كان الفرع بادياً في وجوه المعلمين، وعلى حركاتهم المضطربة. أيديهم تضرب كفاً بكف.. عيونهم معلقة بين الغلام، ووجه الرجل، مستطلعة ضارعة. توقف الرجل بغثة. أطرق أرضاً قبل أن يقول، بصوت خفيض متهدج :

-العوض على الله يا جماعة ..

موكب العودة يمضي في صمت مهيب. لا يسمع سوى حفيف الأقدام فوق الرمال. رفيقنا ملقى على ظهر الجمل، يقوده الرجل الغريب. المعلمون والأساتذ شفيق يحيطون به. رؤوسهم منغرسه في صدورهم، يحملقون في الرمال كأنما يحصون حباتها. طال الطريق وطال. حتى حسبنا أنه لن ينتهي، لكننا تنبهنأ أخيراً على أصوات تصدح من بعيد من أكثر من مذياع :
.. يا ريتي طير لا طير حواليك.. مطرح ماتروح عيوني عليك.. لكن ياريت ..

.. افرح يا قلبي لك نصيب.. تبلغ مناك ويا الحبيب.. افرح يا قلبي ..
اندفع جمهور من أهل القرية باتجاهنا، ملوحين بأيديهم، هاتفين ملء حناجرهم، وكأنما أدركوا بالحدس ما حدث. وما أن بلغنا الساحة حتى اختفى الجمل بين الجمع الحاشد ...
وضعتُ في الزحام.. وعنمة الغسق .

شغلت القرية حادثة صبحي السيلوي، عن كل ما عداها، ربحاً من الزمن. لم يعد هؤلاء يتحدثون عن الحرب، وتقدم الألمان، عن الهجرة اليهودية وتواطؤ الانكليز، أوحى عن الغلاء، أنحى كثيرون باللائمة على الأستاذ شفيق، يهتمونه، وسائر المعلمين، بالنقصير في رعايتهم للطلاب أثناء الرحلة، فيما ذهب آخرون إلى التنديد بالأستاذ شاكر نفسه، الذي لم يشارك في الرحلة، وكان حرياً به ألا يسمح بها أصلاً لما تنطوي عليه من أخطار. ولكن هذه هي نتيجة الاستهتار بأرواح العباد..!"

ترددت شائعات عن اعتزام (آل السيلوي) على الأخذ بنار ولدهم، وشائعات تقول بأن الولد كان يغرق فيما كان المعلمون "الأشواوس" يلعبون طاولة الزهر.. بل الضامة.. وقد تبين، فيما بعد أن مصدر تلك الأنباء المتباينة كان "محمد الشريف"، الرجل الغريب، الذي وفد إلى القرية منذ سنين، مدعياً بأنه دخل في الإسلام، تاركاً دين آبائه وأجداده الأولين. فتكرر له ذوبه، وناصبوه العداء. وهو، لذلك لا يبغى الآن شيئاً أكثر من الإقامة في هذه القرية النائية عنهم ما بقي له من عمر. وأعلن أنه اتخذ هذا الاسم تيمناً بصاحبه وشاهداً أكيداً على صدق إسلامه. ثم افتتح محمد الشريف دكاناً للبقالة، بمعونة (أهل الخير) في القرية، الذين تعاطفوا معه، وقرروا الوقوف إلى جانبه. وتعهد أن يكون حانوته قريباً من الجامع، ما أمكن، كيلا تفوته صلاة جماعة واحدة، ما دامت هذه تعدل سبعا وعشرين من الصلاة الفردية. أي أن المسألة تماماً كتجارة الجملة والمفرق كما يرى ..! وتزوج امرأة من القرية هي "حفيفة" أرملة "حسن ابو عميرة"، متكفلاً بابنتها من زوجها المتوفى، التي آلى على نفسه بأن يعاملها كما لو كانت ابنته من صلبه، ففي ذلك مزيد من الثواب، يضمه عند الله، يوم الحساب ..!

وحيثما واجه بعضهم بما صنع في القرية، بادعاءاته، وما نقل عنه من شائعات، زعم بأن ذلك صدر عنه بحسن نية، ويسبب من تعاطفه مع آل الفقيد الذين روّعه مصابهم، لاسيما وأنهم جيرانه.. وأن "النبي عليه السلام أوصى

بسابع جار "، (فما بالكم إذا كان هذا الجـار ملاصقاً لجدار دكاني ؟!..)

بيد أن حفل المصالحة الذي جرى، بعد فترة وجيزة، بين عائلتي النجار و أبو سالم، صرف الناس عن متابعة اهتمامهم بالحادث، لاسيما وأن هذه المصالحة تعرضت لاحتمالات شتى، خلال السنوات الأخيرة، ولأنها كانت على هذا القدر من الأهمية، فقد شوهد أهل القرية يهرعون، عصر ذلك اليوم، زرافات ووحداناً، صغاراً وكباراً، إلى ساحة البلدة، التي أقيم فيها سرادق عظيم، قريباً من ضريح الصحابي "أبي هريرة". وإذا لم يتسع السرادق إلا لعلية القوم، افترش الآخرون الأرض المواجهة له. كف الناس عن لغطهم حينما شرع الشيخ "لطفی عوض الله" في تلاوة آيات من الذكر الحكيم. لم يكن صوته رخيماً كصوت الشيخ "محمد رفعت" الذي ألفوا سماعه، كل صباح ومساء، من (الراديو)، الذي لما يزل أعجوبة في نظر الكثيرين، أمثال والدتي، وأم مريم، والحاجة أم سايحة.

رافني المشهد: المنصة.. السرادق الفخم. كراسي الخيزران. البسط الملونة على الجدران .

وقفت والعديد من رفاقي فوق قبور مرتفعة في مواجهة السرادق، مما أتاح لنا مشاهدة ما يجري من فوق الرؤوس المزروعة ما بيننا وبينه، غير أبهين بمن يزجروننا لوقوفنا على قبور الموتى .

عن كثب، بدا محمد يوسف أبو سالم، ومحمد طه النجار، ومن حولهما العديد من أفراد أسرتهما، في الصفوف الأمامية، وقد ارتدوا ثياباً فاخرة، وعباءات سوداء وقرميديّة الألوان، وعلى رؤوسهم الحطة والعقال، وفي الأيدي سبحات يعبثون بحباتها. وإذا فرغ الشيخ لطفی من تلاوته، سادت لحظات صمت وترقب، وكأن أحداً يخشى أن تنفجر قنبلة. وقف الاستاذ شاكر، باعتباره المثقف و(المتعلم) الأكبر بين الموجودين قاطبة، ثم توجه إلى المنصة. وضع كلنا يديه على المنضدة، منحنيّاً قليلاً إلى الأمام، ليشرع في النظر بإنعام في مختلف الاتجاهات، يتفرس الوجوه، كأنما يبحث عن شيء، قبل أن يتحنح، توطئة لبدء حديثه الرزين، بصوته ذي النبرة الجهورية العميقة :

تكلم عن الصلح " الذي هو سيد الأحكام"، مستشهداً بآيات في هذا المقام، سبق أن تلاها لتوه الشيخ عوض الله، مردداً " ياأيها الذين آمنوا أصلحوا بين أخويكم" وعن ضرورة توحيد الصفوف والجهود في الظروف الراهنة، وعن

الأخطار المحدقة بالبلاد والعباد، من الناقورة شمالاً حتى القنطرة جنوباً، ومن البحر غرباً حتى ضفاف الأردن شرقاً ولم يفته أن ينوه بأن هذا النزاع لم يكن إلا من فعل الانكليز قائلهم الله أني يؤفكون .."، تطبيقاً لسياستهم في بث الفرقة والخصام بين الأخ وأخيه، وزوجته التي تؤويه، لو أمكنهم ذلك. علا التصفيق إذ توقف الرجل لتناول كوب من الماء. استأنف حديثه، فكان حول عودة النشاط إلى الهجرة اليهودية للبلاد، ثم عرج على قصة باخرة نقل يهوداً نسفت في ميناء حيفا، والتي سرعان ما اتهم اليهود الانكليز بتدبير أمر تفجيرها، ولكن هؤلاء ردوا التهمة عن أنفسهم فنسبوها إلى العرب، الذين أكدوا بدورهم أن اليهود أنفسهم كانوا الفاعلين، والهاجاناه تحديداً. نبههم إلى ضرورة الامتناع عن التطوع في الجيش البريطاني، الذي لم تتورع قيادته عن إنشاء فيلق يهودي قوامه تسعون ألفاً منهم. ولكن حال الانكليز يؤول اليوم إلى الضعف - أيها الأخوة - ومصيرهم المرتقب لن يكون إلا هزيمة منكرة، تورثهم المهانة " إلى يوم الدين وأبد الأبدين.. فما من ظالم إلا سيلى بأظلم ..!" فالأسلحة الجديدة التي ابتكرها الألمان .. الطائرة بلا طيار .. الصاروخ .. الغازات السامة .. هذه كلها سوف تحقق القوات البريطانية محققاً.. إن شاء الله.. وفي مدى زمن يروونه بعيداً ونراه قريباً .."

نهض الرجلان عند نهاية الخطاب، بين عاصفة من التصفيق. تعانقا، كما فعل الشيء ذاته رجال من الأسرتين. انطلقت الزغاريد والتهنئات، وعيارات نارية. ثم ما لبثت أن جاءت قصاص الطعام. وسرعان ما انخرط الناس في حلقات حولها، فبدت حركاتهم كتدافع أمواج البحر في يوم عاصف .

في اليوم التالي تماماً، عم القرية اضطراب مفاجئ. تحدث الناس عن تصرف أحرق جديد للحكومة وللإهود معاً، إذ نعى إليهم أن هؤلاء شرعوا في بناء مستعمرة إلى الجنوب الغربي من القرية، أسموها "غان بينا". كان الغضب بادياً على الوجوه، وفي التساؤلات المستنكرة :

".. ألم تكفهم رخبوت وريشون في الشمال ؟.. إنهم يطوقوننا من كل جانب.."

".. حتى الاسم.. بينا. تصوروا حتى أسماعنا يسرقونها .."

كما نددوا بالانكليز المخاتلين المتواطئين، الذين لا يظهرون الآن.. ولا يحركون ساكناً.. كأنهم ليسوا الدولة الحاكمة المتسلطة على البلاد. على أية حال

هذا ليس جديداً علينا.. وكما يقول المثل "حاميها حراميها ..!!..!!.. غداً يا شباب نمضي إلى تلك المستعمرة، نسوي بها الأرض، نجعل عاليها سافلها. و " لايفل الحديد إلا الحديد .."

احتشد جمع غفير ضحى ذلك اليوم، في السوق، وتحت الجميزة. انطلق الرجال، وفي أيديهم الفؤوس والعصي، وقضبان الحديد. وحين بلوغهم المستعمرة، كان هناك قرويون وفدوا من القرى المجاورة للغرض ذاته. العدد القليل من الخفراء، في حراسة المستعمرة، هرعوا إلى سيارة كانت تقف هناك، انطلقت بهم جنوباً مثيراً خلفها سحابة من الغبار والدخان .

دمر الجمهور الأكواخ والمنشآت التي كانت في بداياتها بعد. تعاهدوا على ألا يسمحوا بقيام مستعمرة في منطقتهم، ما دام فيهم عرق ينبض ..! لم يفت محمد الشريف أن يشارك في العملية. بل إنه أبدى إعجابه بمن تزعموها، فضلاً عن ابتهاجه وسروره بما حدث. تفرق الناس، وعادوا إلى قراهم مزهوين بما صنعوا، يحمل بعضهم ألواحاً من الصفيح أو الخشب أو الزجاج، من أنقاض المباني المدمرة. لكنهم حين بلغوا القرية وجدوا الانكليز في انتظارهم .

".. رأيتم؟ ما هم يظهرون الآن حتى قبل أن نصل إلى بيوتنا .."

سيارات البوليس، والخيالة، والمخاتير، ومحمد اليوسف، غصت بهم الساحة، قريباً من الجميزة. اعتقلوا عدداً من الشبان. هدد قائد القوة البريطانية، الذي كان يترجم عنه ضابط عربي، وقف إلى جانبه، بأن ينسف عدداً من مباني القرية، يماثل عدد البيوت المدمرة في المستعمرة، في المرة القادمة. تدخل المخاتير فعرضوا الأسباب والمبررات التي حدثت بالناس لأن يقدموا على ما أقدموا عليه. ألزم الانكليز المخاتير قسراً، بالتوقيع - والبصمة لمن لا يعرف الكتابة، كالحاج علي الهمص - بألا يتعرض أهل القرية لليهود في المستقبل، إذا ما استأنفوا بناء مستعمرتهم. كما أكد لهم بأن تلك الأرض التي يقيمون عليها تلك المستعمرة هي أرض "أميرية" منحت لهم من قبل المندوب السامي نفسه ..! بل إن هذا حدث منذ القديم، وليس اليوم. منذ أيام (هريبرت صموئيل) أول المندوبين السامين على فلسطين ..! وحين ذكره أحدهم بأن هذا الأخير كان يهودياً، ثار قائد القوة في وجهه، مهدداً باعتقاله على الفور إن هولم يكف عن الشغب ..!

وحين تقدم أهل القرية والقرى المجاورة بشكوى عاجلة إلى قائمقام الرملة،

أبدى هذا تعاطفه معهم، لكنه أبدى، في الوقت ذاته، عجزه عن صنع شيء من أجلهم، فأحال شكواهم إلى حاكم اللواء البريطاني، الذي وعدهم برفعها إلى المندوب السامي ليرى فيها وفيهم رأيه... وربما يرفعها هذا الأخير إلى حكومة جلالته في لندن...

لم يمض وقت طويل قبل أن ترد الأنباء بأن معسكراً، للمهاجرين من بولونيا، هذه المرة، أقيم، على عجل، في أرض على مقربة من قرية (قطرة)، بجوار (معسكر قطرة) للجيش البريطاني، المقام هناك منذ زمن. وقد زعم أن هؤلاء ليسوا يهوداً، بل هم أسر بولونية، نزحت عن بلادها، إثر احتلال الجيوش الألمانية لها. لم ينقم أهل القرية على هؤلاء بل أحسوا بالعطف عليهم والاشفاق نحوهم. ثم ما لبثوا بعد وقت قصير، أن وجدوا فيه ميداناً لفرص عمل لهم، ولأبناء القرى المجاورة، بمن فيهم أنا وأخي سعيد، الذي تمكن من اقناع والدتنا - بعد جهد كبير بذله - بجدوى اصطحابه إياي "للمتاجرة مع البولونية".

كان البولونيون يبيعوننا علب السجائر، والسردين، والصابون المعطر، وقوالب التمر.. أشياء كثيرة وجميلة، نرى بعضها لأول مرة، في أغلفتها الملونة البهيجة. وهذه نقوم ببيعها إلى أصحاب الحوانيت والجيران عند عودتنا. أثارت النساء البولونيات دهشتنا، بل انبهارنا. كنَّ على قدر فائق من الجمال، لم نر ما يشبهه من قبل. بياض بشرتهن بلون الحليب.. شعرهن بلون الذهب، كخيوط الشمس عند الشروق، وقبيل الغروب.. عيونهن في زرقة مياه البحر في يوم صفت سماؤه، تضيء عليهن سحراً غامضاً تلك اليزات العسكرية، الضيقة والقصيرة، والقمصان الكبيرة على الصدر، تزيدها بروزاً صدورهن النافرة. وحين كنا ننقل إلى أمانا صورة مما نشهد في معسكر البولونية، تنقل بدورها ما سمعت، إلى جاراتها اللواتي يبدن استنكارهن معقبات بأن (الدنيا آخر زمن.. وأن القيامة آتية لا ريب فيها، عما قريب...!).

كان هناك أيضاً أطفال ورجال من البولونيين من أعمار مختلفة. قيل إن هذه المعسكرات أقيمت لكي يقطن فيها هؤلاء البؤساء من لاجئي بولونيا المنكوبة، ربّما تنجلي الحرب، مسفرة عن هزيمة الألمان. ولئن يتوانوا، آنئذ، عن العودة إلى ديارهم. هذا ما كان يردده المخاتير، نقلاً عن (سعادة القائمقام)، عن حاكم اللواء، عن المندوب السامي.. أيضاً... فليطمئن أهل القرى، على مستقبلهم، وليس عليهم أن يخشوا شيئاً البتة...!

نتفياً ظلال الأثل حين يلم بنا التعب. وإذا كان الوقت ظهراً تجمع عدد منا

حول (صرر) الطعام التي زودتنا بها أمهاتنا. نغامر أحياناً بفتح علبة سردين أو (بولوبيف). تعبر من أمامنا أسراب من البولونيات، يتضحكن، (ويرطنن) بما لا نفقه. سيارة جيب مكشوفة، تقودها إحداهن، يتطاير شعرها حول وجهها وجيدها مثيراً. نعمن النظر إلى الأكشاك الخشبية، ذات الألوان الزاهية، متاثرة على رقعة السهل، ومدى البصر، فوق السطح المقابل، تتخللها حدائق بدا عليها أنها أنشئت حديثاً، فأشجار الورد لم تزهر بعد، والعشب بدا قصيراً، وإن كان شديد الاخضرار. والنوافير التي وزعت في أنساق هندسية، ترش الماء في دوائر يصلنا رذاذها مع الأنسام القادمة من الغرب.

نؤوب في المساء. نعتزينا سعادة بالغة، حينما تلوح لنا مباني القرية، ومئذنتها على سفحها الجنوبي. لا تقل عنها، بل تفوقها فرحة أمانا بعودتنا، وفرحة أحمد وعلياء بالمعلبات الملونة الصقيلة، والأشياء الجميلة التي جلبنا معنا. لكنها، مع ذلك، لم تكن تحب لنا هذا العمل، فهي دوماً تخشى علينا شيئاً.

.. سيارات الانكليز يا أولاد.. يمكن يدهسوكم عن قصد ..!

.. اليهود يا أولاد.. ديروا بالكم.. لا تأكلوا من أيديهم ..!

.. الثعابين والعقارب.. البولونية يمكن يكونوا يهود يمه ..

وحين تشكو همومها أو تعرض مخاوفها على الحاجة أم سايحة، تحاول هذه أن تخفف عنها بشيء مما اعتادت قوله لها، في مثل هذه المناسبات :
(.. طولي بالك يا أم سعيد.. إن الله مع الصابرين.. بكره بيكبروا. المثل بيقول : اصبري على عجينك بيختمر).

عدنا، والشوق يخفق في جوانحنا. نتسابق في الباحة، يتطاير الرمل تحت أقدامنا. يعرض كل منا على الآخر ما أتى به من دفاتر وأقلام. ملابسنا متباينة في أشكالها وألوانها. ففي الأيام القليلة الأولى من بداية العام الدراسي، يغضون الطرف عن القميص الكاكي، والشورت الكحلي.

يا لفرحتنا الغامرة. مي، وصف سابع، نحن تلاميذه النجباء!.. من بينهم اسماعيل العطار، وسليمان أبو سليمان، ومحمد النجار، ونعيم أبو جلاله، وفوزي ابن الخالة. لقد بدوا أكبر مما تفعله شهور الصيف وحدها. رنين الجرس أجمل من أي موسيقى للوهلة الأولى، لولا ما يثيره، بعد لحظة في نفسي.. تلك الذكرى إياها.. فيغص حلقي، وينقبض صدري، وتوشك أن تطفر من عيني الدموع.

وقف المعلمون في مواجهة الصفوف المنتظمة، فيما اعتلى الأستاذ شاكر العتبة المرتفعة، مقدار درجتين، أمام غرفة الصف السابع الجديدة، تلمع شبايبكها الزرقاء، ورائحة الدهان ما زالت تنبعث من المبنى. بإشارة من الأستاذ شفيق، الذي بدا مختلفاً تماماً عما عرفناه فيما مضى، صدحت الأصوات الرفيعة الحادة:

دمت يا بلادي ما دام الزمن وطن المجد ومجداً للوطن

ساد الصمت، فتحدث الأستاذ شاكر، موجهاً إلينا نصائح وإرشادات أبوية. شكر الأهالي على إسهامهم الجليل في إقامة هذا الصف، مما ينبئ عن رغبتهم الصادقة في تعليم أبنائهم .. "لكي يكونوا ذخيرة المستقبل، وطلبة الأجيال القادمة، لا سيما بعد أن يجلو الانكليز عن هذه الديار المقدسة، وتستقل البلاد بمشيئة رب العباد ..."

وقفت مي عن كذب. بدت وكأنها هي الأخرى كبرت أكثر مما ينبغي. حتى ملابسها بدت وقورة مهيبية، لاتلائمها. طال شعرها الذهبي أيضاً، وبدلاً من الضفيرتين المجدولتين انسدل إلى منتصف ظهرها، يموج مع كل حركة من رأسها، التي بدا كأنها تعتمد الاكثار منها، أو هي لا تعتمد، ما من أحد يعلم على

وجه اليقين. لكنها كانت تضيف عليها مزيداً من السحر والرقّة والنعومة.
رائحة الورق الجديد حين وزعت علينا الكتب المقررة، والمحابر،
والمساطر الخشبية، تتسلل إلى قلوبنا بالبهجة.. الصور الملونة.. الرسوم..
خرائط الأطلس ..

كيف قضيت العطلة ؟.. ماذا تتمنى في عامك الجديد ؟.. ماذا تنوي أن
تكون في المستقبل ؟..

تلك هي الأسئلة التي ما أنفك الأستاذ شفيق يوجهها إلينا في درس الانشاء.
وقد اخترت في إجابتي أن أكون شرطياً ..! أما اسماعيل العطار، فقد تمنى أن
يفتح له مكتباً في مدينة يافا، لتصدير البرتقال إلى كافة أرجاء العالم..! مثل
رشيد الجمل والحاج عبد المجيد أبو لين ..!

لم تمض سوى أيام قليلة حتى تبينا أن جو المدرسة، أيضاً، لم يعد كما كان
فيما مضى. لم ندرك تماماً ما الذي تغير.. لكن شيئاً ما قد تغير بالتأكيد.. نفتقد
حماسة الأستاذ شفيق، ومرح الأستاذ غنيمي، وسخرية الشيخ محمد. بل إن هذا
الأخير ازداد وجهه عبوساً عن ذي قبل، حتى أن خطوطاً عمودية واضحة بدت
ما بين حاجبيه، وأخرى أفقية على جبينه، مما عمق خشيتنا إياه، وحزننا إزاءه.
وإذ يحين موعد حصّة الرياضة، التي اعتدنا انتظارها بفارغ الصبر، يطلب إلينا
الأستاذ شفيق أن ننتشر في الباحة لنزاول اللعب كيفما نشاء، الأمر الذي أثار
دهشتنا. وما نحن لا نذهب إلى (الحراز)، مما يعني أننا لن نشارك في مباريات
لكرة القدم، هذا العام، مع أي من القرى المجاورة. كنا نفكر في هذا، ربما معاً.
أفقنا أخيراً، على أن الرحلة المشؤمة التي فقدنا فيها رفيقنا كانت سبب ذلك كله .

مي لا تساعدني على دروس الجبر والحساب هذا العام، الأمر الذي
أصابني بالاحباط والأسى معاً، وزاد من كآبة أجواء عامي الدراسي هذا. لكنني
لم أقطع الأمل في أن يستأنف الأستاذ شاكر تكليفي بخدمات أوديتها لهم، كما كان
عليه الحال في الماضي. بيد أن مي لم تلبث أن عادت سيرتها الأولى.. إلى
شقاوتها المألوفة، وإن يكن بحذر. كانت كالانكليز، تستمرى خصومات التلاميذ
من أجلها. كذلك الأستاذ شاكر، عادت أنباء الحرب المتصاعدة لتحل مكانها في
أحاديثه من جديد. كان سعيداً لتقدم الألمان في روسيا، لكنه كان حانقاً على
أمريكا لدخولها الحرب إلى جانب "الانكليز الشياطين". دفع باب غرفة صفنا
صبيحة ذلك اليوم الشديد البرودة، حتى حسبنا أن الريح العاصفة هي التي

قصفتة، لكنه كان الأستاذ شاكر يهتف بأعلى صوته :

-تعال يا شيخ محمد.. تعال..

هَبَّ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ وَاقِفًا. اتَّجَهَ نَحْوَهُ حَتَّى بَلَغَ الْبَابَ، فَوَقَفَا كُلُّهُمَا عِنْدَ الْعَتَبَةِ:

- هل سمعت يا شيخ محمد؟ هذه أمريكا اللعينة تعلن الحرب على الألمان.. لكنها ستخسرها ورب الكعبة .. نعم سوف نخسرين يا أمريكا هذه الحرب ..!

ولما كان الشيخ محمد حزينا لسبب آخر، لم يتحمس كثيراً لما نقل إليه الأستاذ شاكر. وحين سأله الأخير عن أسباب فتوره، غير المعهود، في مثل هذا الموقف. حدثه عن بيارته التي لم يضمّنها في هذا الموسم لآل الجمل، أو لغيرهم من (الضمانة)، الذين يفدون من يافا في هذا الوقت من كل عام. تصدير البرتقال توقف بسبب المدمرات والغواصات الألمانية التي تجوب البحار، فتسد السبل على حركة السفن التجارية ايضاً.

-ولكن هذا ليس حالك وحدك يا شيخ محمد.. الدنيا حرب.. حرب يا شيخ محمد ..

- هذا أدهى وأمر يا أستاذ شاكر. لو كان الأمر متعلقاً بي وحدي لما أكثرت كثيراً، ولكنه بلاء عام. كما ترى، تقع علينا نحن تبعات ما يصنع الأوروبيون هؤلاء. فهذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل.. لم نصنعها نحن.. لكنها تخنقنا خنقاً وكأننا نحن مضمروها .

-الانكليز.. الانكليز يا شيخ محمد.. هم أسباب فساد هذا الكون. حتى الزلازل حين تقع لا بد وأن يكون لهم يد فيها ..!

وحين يهز الشيخ محمد رأسه موافقاً، يبادره الأستاذ شاكر :

-ادع معي.. ابتهل إلى الله العليّ القدير أن يورثهم هزيمة منكرة لا تقوم لهم بعدها قائمة. أنتم المشايخ دعاكم مستجاب ..!

يهتف الشيخ محمد، وهو يرفع كفيه نحو السماء ضارعاً :

-اللهم خذ بنواصيهم فإنهم لا يعجزونك ..

يسط الأستاذ شاكر كلتا يديه إلى السماء :

-اللهم آمين.. يا مجيب الدعوات.. الله يسمع منك يا شيخ محمد .

ثم اقترب منه ضاحكاً، يضرب على كتفه، قائلاً بصوت أقل ارتفاعاً :

-لكنني أشك في أن يستجيب الله لدعواتك يا شيخ محمد ..!

كنتم هذا ضحكة أوشكت أن تفلت من حنجرته. ثم هرولاً معاً نحو غرفة المعلمين .

- 28 -

عدوت الى الشارع مستطلعاً. أصوات صاخبة.. وصيحات تتردد مرعدة، معلنة سخطها وغضبها. كانت هناك (مظاهرة). وجدت نفسي بين صفوف المتظاهرين، دون أن أعرف كنه مايجري. علمت أن الغضب عمّ سائر أرجاء فلسطين. تظاهر الناس، وندّدوا بالانكليز ذلك حين نقلت إليهم الأنباء أن هؤلاء الانكليز يحاصرون قصر الملك فاروق بالدبابات. سمعوا الراديو، وقرأوا في الجرائد بأن مندوبهم في مصر، ويدعى (اللورد كيلرن) خير الملك بين القبول بوزارة بريدها الانكليز وبين التنازل عن العرش.. !

أ إلى هذا الحد تبلغ بهم الصفاقة أيها الناس.. ؟

انتابهم الشعور بأن هذه المهانة تمسّهم.. بل تمسّ العرب جميعاً، وليس الأخوة في مصر وحدهم، ثم إن الملك فاروق، أولاً وأخيراً، ملك مصر، ومصر بلد عربي، وهم يعلمون، حق العلم، بأن المصريين مثلهم تماماً يكرهون الانكليز، ولا يرغبون في مساعدتهم ضد الألمان. بل أنهم يتمنون مجيء الألمان الذي بات وشيكاً ليساعدوهم على التخلص من هؤلاء الانكليز الذين ابتليت بهم الأمة العربية .

تساءل بعضهم :

لماذا لا يكون (اللورد كيلرن) هذا يهودياً أيضاً ،على شاكلة ذلك الضابط (تشارلس وينجت) اليهودي الذي نكل بأبناء فلسطين إبان ثورتها، قبل أن ينقلوه إلى مصر للعمل مع القوات البريطانية فيها.. ؟.

تواصلت المظاهرات على مدى اليومين التاليين. ثم توقفت بعد أن علموا بأن الانكليز تراجعوا عن موقفهم أمام غضبة الشعب المصري والشعوب العربية في كل مكان، وأن القضية سوّيت بينهم وبين الملك فاروق. لكنهم في اليوم التالي قاموا بمظاهرات الابتهاج التي عمت سائر البلدان .

عدنا إلى بيوتنا قبيل العصر متعبين. ولكن الشعور بالزهو يغمر نفوسنا. ألم نهزم الانكليز أخيراً نحن العرب مجتمعين..؟

أمطرت السماء، عصر ذلك اليوم، بعد أن تلبدت بغيوم كثيفة قائمة، تحولت إلى سوداء فاحمة، بعد الغروب. فيما عصفت الرياح فتقصفت أغصان الأشجار تحت وطأتها. وميض البرق يخطف البصر، يتبعه قصف الرعد هادراً مخيفاً. أنكمشنا حول الموقد نلتمس الدفء في جمراته المتوهجة. حتى سعيد عاد مبكراً هذا المساء، وقد أفرحنا قرطاس العوامه الذي جلبه معه. بدا الخوف على أحمد وعلياء. كذلك ساورني ذلك الخوف أيضاً، إذ فكرت في الزلازل، و(سقوط الرعد)، الذي يتحدثون عنه، والذي هدم بيتاً في العام الماضي، وقتل بقرة وأربع نعاج. أكثر ما أخشاه الآن هو أن تبعث بي أمي إلى إحدى الجارات لاستعارة شيء ما. كيف أقطع باحة الدار المسكونة بالأشباح، وسط هذا الجو المرعب؟ أو أن تطلب إلي جلب حطب من الحاكورة حيث (البئر الكفري)، الذي طالما نسجت حوله القصص والروايات، فهو تارة يحوي كنزاً مرصوداً، تخرج منه دجاجة حـولها عدد من الصيصان المصنوعة من الذهب، ترسل أصواتاً مرعبة، فضلاً عن أنها تتحرك، أو هو مقام واحد من أولياء الله. عزز هذه الأقاويل ما رددته والدتي نفسها، إذ قالت لجاراتها ذات مساء أنها، ووالدي سمعا ذات ليلة حركة تصدر من ناحية البئر، متجهة إلى باحة الدار، ولما صاح والدي متسائلاً: من هناك؟ أجابه صوت ضخم، كأنه صوت أربعة رجال ينطقون معاً:

.. أنا يا شيخ سليم !..

.. ومن أنت ..؟

.. أنا ولي من، أولياء الله. سوف أتوضأ لصلاة الفجر، من هذه الجرة. جزاكم الله خيراً، وبارك لكم في جرَّتكم وفي نسلكم !..

وعندما صمت والدي رهبة مما سمع، عاد الصوت ثانية ليقول، فيما صوت الماء يندلق من فوهة جرة الفخار العتيقة :

.. قم صل الفجر يا رجل، فالصلاة خير من النوم !..

أكدت والدتي ذلك "والله سمعته بأذني يا خضرة كما أسمعك الآن. وسمعت صوت الماء المتدفق أثناء وضوئه..". أخذت أدعو الله في سري، ألا يلهمها ما يدعوها إلى أن تطلب إلي مغادرة الغرفة بعد أن سمعت ما سمعت .

تواصل سقوط المطر بغزارة لم تعهد من قبل، حتى أيقن الناس أنه لن يكف أبداً، وأن طوفاناً سوف يحدث كطوفان (سيدنا نوح عليه السلام) بعد أن "عم الفساد في الأرض، (فاقتربت الساعة وانشق القمر).. فقد نطق الحديد.. وولدت الأمة ربتها.. والنساء أصبحن يخرجن كاسيات عاريات في بعض البلاد كالبولونيات واليهوديات ..!!" يرددون هذا نقلاً عن الشيخ علي العطار وآخرين، مما قرأه هؤلاء في (الجفر) وفي غيره من كتب التراث ...!

غداً عودتنا إلى المدرسة، بعد أن صفت السماء وأشرقت الشمس، كانت في انتظارنا مفاجأة محزنة، هزتنا جميعاً، إذ علمنا أن الأستاذ شاعر سوف ينقل من مدرستنا، في غضون أيام قليلة. يبدو أن وشايات في حقه بلغت سلطات الانتداب، تماماً كما حدث مع مديرنا السابق الأستاذ عبد الخالق. المهم أنهم سيذهبون.. أجل، مي وأسرته سوف يذهبون ..! فلقد عودتنا الأيام على أن الأنبياء السيئة تتحقق دائماً .

وسريعاً جاء ذلك اليوم البائس، الذي خلف في قلبي ركاماً من الأسى. وقف الأستاذ شاعر على تلك العتبة إياها. يلقي فينا كلمة وداع، ونستمع إليه خاشعين. أكد لنا أننا "سوف نظل ابنائه البررة، على الدوام. وأنه لن ينسى الأيام التي قضناها في بلدتنا، مدى الحياة ..".

أحزنني وجهه المتجهم الحزين، يطفح حمرة تحت الحطة البيضاء والعقال الأسود، والبدلة الرمادية وربطة العنق الزرقاء، مما أضفى عليه مزيداً من الهيبة والوقار. وقفت مي قريباً من العتبة، بدت حزينة هي الأخرى، فأفرحني ذلك لحظة، إذ هي حزينة من أجلنا.. من أجلي تحديداً.. ربما!.. كانت تحق في الأرض عند قدميها كأنما تبحث عن شيء فقدته، تعبت حيناً بأضرار معطفها الأخضر، وحيناً بخصلة من شعرها الذهبي انسدت على صدرها. أحاسيس غريبة غمرتني، فدفعت إلى مآقي بالدموع. انطلقت أنشج باكياً، حين تعالى النشيج من حولي.. مي الأثيرة، المائلة دنيانا مرحاً.. تمضي فلا نراها بعد اليوم..؟

خيّط واه من أمل باهت يلوح كالسراب تعلقت به نفسي، حين أكد الأستاذ شاعر، من جديد، بأنه "لن يألو جهداً للعمل على زيارتنا، كلما أتاحت له الظروف ذلك في المستقبل .." أو أنهم قد يعيدون النظر في قرارهم الظالم .. في اللحظة الأخيرة ". أتساءل ..: أصبح هذا يا سيدي..؟ أم أنك تقوله كي

تخفف عنا وعنك وطأة الفراق..؟ لماذا يفترق الناس؟ لماذا هم مجبرون على أن يفعلوا ذلك؟ نفقد الأعراء دوماً.. بالسفر.. بالموت.. من نحب هم الذين يرحلون

...

المدرسة كئيبة بعد غيابها. الأستاذ عبد الفتاح - المدير الجديد - يختلف تماماً عن سلفه. قلما تسمع له صوتاً. يبدو متزناً وحريصاً على مظهره وهندامه. لكان كل شيء لديه محسوب بدقة. حتى مشيته وكلامه. لم يكن هناك ما يدعونا لكرمه. لكننا مع ذلك، وبالإجماع، لم نرتح إليه، لا شيء إلا لأنه حل مكان الأستاذ شاكر.. وبالتالي ذهبت مي..!

كان جل اهتمامه منصباً على الزراعة، إذ هو - كما علمنا بعدئذ - خريج مدرسة خضوري الزراعية في طولكرم. لهذا أصبح درس (الزراعة عملي) الآن درساً حقيقياً. عكف على تدريبنا كيف نزرع الملفوف والبطاطا والبصل. ولم ينس الورد الجوري والصقيلي وتم السمكة. كما أولى اهتماماً خاصاً بخلايا النحل التي كانت هناك. وكنت أحظى بلسعة أو أكثر منها - شأن بقية الزملاء - كلما خرجنا إلى موقعها. خاصة في ذلك اليوم الذي تم فيه جني العسل. عندها يردد الأستاذ عبد الفتاح قوله "لا يسلم الشهد من ابر النحل..!".

خرج إلينا يومئذ، من الغرفة الخاصة بأدوات الزراعة، وقد ارتدى ملابس غريبة، منتفخة، وكفوفاً بيضاء في يديه. وعلى رأسه وحول وجهه صندوق له واجهة من الشبك، وفي إحدى يديه جهاز ينفث دخاناً يغمر صناديق النحل. وفي نهاية العملية سألنا عما إذا كنا نرغب في شراء شيء من العسل، على أن نحضر ثمنه في اليوم التالي. وحين أخذت العسل إلى البيت، نظرت إلي والدتي حانقة، وأخذت تردد فيما هي تروح وتجيئ :

.. من أين أوفر لكم ثمن العسل يا سيد أمين ..؟

.. لم يبق علينا إلا العسل ما شاء الله.. ادعوا ربكم أن يديم عليكم البصل أولاً..!

صورة مي لا تغيب.. ثقلت أيام المدرسة. باتت مملة كئيبة.. عما قريب يحل موعد الامتحانات، ويقام ذلك الاحتفال الذي وعد به مدير المدرسة أهل القرية، والذي لم يشهدوا مثله من قبل. سوف يتضمن، إلى جانب الأناشيد الوطنية، تمثيليات يقوم بها تلاميذ مختلف الصفوف هي : فتح الاندلس، إسلام عمر، مجنون ليلى. بدأت التساؤلات التي تنيرها والدتي وجاراتها :

وماذا بعد المدرسة الآن...؟

الأجوبة هي ذاتها، رددناها أكثر من مرة. أولاد الجمل، وأبو سالم، والعطار
سوف يذهبون إلى المجدل أو الرملة أو يافا.. أو حتى إلى القدس لاستكمال
دراساتهم. الآخرون، تنتظرهم بيارات البرتقال، وكروم العنب، وقطف الزيتون..
والمواسم التي لا تتقطع على مدار السنة .

سرادق كبير أقيم في باحة المدرسة بين المبنى والحديقة. شارك الكبار من التلاميذ العمل في إقامته، كنقل أعمدة الخشب، وجرّ (الشادر) الكبير. أما الصغار منهم فينقلون أدوات النجارة والحدادة، وعلب الطلاء المختلفة الألوان، تطلق رائحتها المنعشة. كما أسهم فيه العديد من شبان القرية، فضلاً عن المعلمين أنفسهم. الباحة تعج بالحركة كخلية نحل. وخلف السياج، بين فرجات أشجار السرو والصنوبر العالية وتحت ظلالها وقفت نساء وأطفال، ينظرون إلى ما يجري في فضول ودهشة. أنجز العمل في أيام قليلة، وظهر للعيان ذلك المسرح المنتظر.

على ضوء المصابيح المتألئة عقب الغروب، شرع الناس يتوافدون من كل صوب. يجلسون على كراسي الزان التي صفت أمام خشبة المسرح. وقد تركت المقاعد الأمامية خالية لعلية القوم من المخاتير والوجهاء أصحاب البيارات .

اعتلى المنصة مدير المدرسة الأستاذ عبد الفتاح، يقدم التلاميذ. يذكر أسماءهم وأدوراهم في التمثيلية. ثم أعقبه الأستاذ شفيق يشرح ما تعنيه مسرحية (فتح الأندلس) ومناسبتها التاريخية، التي تتحدث عن أمجاد العرب الغابرين.. طارق بن زياد وموسى بن نصير .

خيم الصمت عندما ظهر الممثلون. لبتابع الجمهور أحداث المسرحية بشغف. لكن بعضهم يستفسر عما لا يفهم من تلك الأحداث، فيتطوع بعض آخر لتفسير ما يجري حسب فهمه هو لها. بعض تعتريه الدهشة.. بل الاعتزاز بما فعل الأجداد في الزمان الغابر، والأسى على ما فرطت أيديهم أيضاً، نتيجة لخلافاتهم وخصوماتهم، التي أفضت في نهاية المطاف، إلى ضياع البلاد والعباد، وإلحاق الأذى بهم جميعاً، وامتدت آثاره للأجيال اللاحقة بما فيها نحن.

ذلك بعض ما تردد على الألسنة إبان العرض وبعده. تلا ذلك عرض مسرحية (قيس وليلى) التي حظيت بعض المواقف فيها بالتصفيق من الرجال، والزغاريد من النساء الواقفات وراء مقاعد الرجال. أعقبها أخيراً، وفي الختام مسرحية (إسلام عمر). مذكورة بأجوائها التاريخية المثيرة لجهاد العرب المسلمين

الأوائل .

قدمت أكواب (الماورد والمازهر). نثرت الورود والساكر على الحضور، الذين انصرفوا زرافات عند نهاية الحفل الذي أخذ بالبابهم. انضم الأطفال والنساء إلى الآباء والأخوة لدى انصرافهم، عائدين إلى بيوتهم، عبر الأزقة النائمة، التي غمرها ضياء قمر صيفي حالم، وترامت ظلال جدرانها بأشكالها الخرافية. انطلقوا يتحدثون عما رأوا وسمعوا. أما أولياء أمور من قاموا بالأكواب التمثيلية فقد رفعوا رءوسهم عالياً. مفاخرين بما صنع أبناؤهم.

قال ابو اسماعيل العطار لأبي ممدوح الجمل مماسكاً:

-أرأيت يا (أبو ممدوح) ابني الذي فتح الأندلس...؟

رد أبو ممدوح مباهاياً:

-وابني أيضاً مثل دور قيس جيداً يا (أبو اسماعيل) حتى كأنه هو..

قهقه العطار، وهو يضرب كفاً بكف :

-ولكنه جنّ يا رجل.. هل سرّك أن يجنّ ولدك سعيد من أجل امرأة؟

-لا تتكر أيضاً أنها جنت من أجله هي الأخرى .

أما والد نافذ الحوراني، فقد أصابه الحرج حين هتف الحاج أبو عون، وهو

يضرب براحة كفه على كتفه :

-كيف رضيت، يا أبا نافذ، أن يمثّل ابنك دور ليلي ؟

-وماذا في ذلك، يا حاج مصطفى؟ المسألة تمثيل في تمثيل ..أتحسبه

صار بنتاً بتمثيله دورها..؟

أعلنت نتائج الامتحانات غداة اليوم التالي. كما وزّعت الشهادات، فاسودّت

وجوه وابيضّت وجوه - كما سبق أن توعّدنا الأستاذ شاكر (رعا الله أيامه)..

ومي.. آه يا مي لو أنك شاركتنا أيامنا هذه. أشاد مدير المدرسة بالمعلمين الذين

كانوا يقفون معاً أمام صفوف التلاميذ. كان أطولهم الشيخ محمد بقوامه الفارع،

عمامته الناصعة البيضاء وجبّته السوداء أضفتا عليه وقاراً. قلت في نفسي حينئذ

:" شيخنا هذا، كان الأقل جهداً، والأدنى أكثرثاً بنا و بدروسنا على حد سواء..

ولكن ها هو ذا، على الرغم من ذلك يبدو منتفخ الأوداج، وكأنه هو وحده من

صنع تلك الأمجاد ..!" قبيل انصرافنا شرعنا نردد الأناشيد :

.. موطني موطني ... هل أراك ... في علاك تبلى السماك...

.. دمت يا بلادي ما دام الزمن ... وطن المجد ومجداً للوطن ...

.. بلاد العرب أوطاني ... من الشام لبغدان ...

ومن نجد إلى يمن ... إلى مصر فتطوان...

فيما كانت تتنازعني مشاعر الحزن والأسى لفراق المدرسة والرفاق، وإلى غير رجعة هذه المرة، ومشاعر الابتهاج والفرح لخلاصنا من المعلمين والدروس والوظائف المدرسية. والشيخ محمد أيضاً..!

ولكي يبقى ذلك اليوم واحداً من الأيام التي لا تنسى، أعلن الاستاذ عبد الفتاح بأن عربة (السينما المتجولة) التابعة للحكومة سوف تصل إلى قريتنا مساء ذلك النهار، وبأن أهل القرية مدعوون، عن بكرة أبيهم، لمشاهدة عروضها في الساحة العامة للقرية .

شرع الناس يتوافدون على الساحة منذ العصر. اكتظ بهم المكان. بالكاد بقي أحد في منزله. تبدت على وجوههم معالم اللهفة والترقب لما سوف يشهدون. كأنهم غير مصدقين. لم يلبثوا طويلاً حتى بدأ العرض، لتظهر على الشاشة التي نصبت بعيداً عن العربة، خيالات وصور تصحبها الموسيقى. كانت حسب التعليق الذي رافقها أو قدّم بين يديها (فيلمًا) عن قيس بن الملوّح وليلى العامرية. ظهر أعرابيان بثيابهما البدوية. رجل وامرأة يتحاوران غناءً. من ذا الذي لا يعرف صاحب الصوت الذي يقلده الشباب في كل شيء. إنه (مطرب الملوك) محمد عبد الوهاب، والصوت الآخر الأميرة أسمهان من جبل العرب في سوريا. خيمة البادية.. الموقد.. النار المتقدة التي جاء قيس يطلب قبساً منها. تهتف ليلي مرحبة بادية اللهفة والحنين :

(قيس ابن عمي عندنا.. يا مرحبا يا مرحبا)

فيرد عليها قيس :

(متعت ليلي بالحياة ... وبلغت الأربا)

وعندما يقطع (أبو ليلي) مناجاتهما الحاملة بصوته المثير للرهبة :

(جئت تطلب نارا.. أم جئت تشعل البيت نارا ؟)

عندئذ يتهيج المشاهدون الرجال، إذ هكذا ينبغي أن يكون الرجل في مثل هذا الموقف. بل يستغربون كيف لا (يكسر) الرجل رقبة هذا المجرئ على حرمة سكنه و أسرته. فيما تستاء منه النساء واصفات إياه بالقسوة.. بل والجلافة أيضاً. وهن منبهرات بعذوبة صوت ليلي وجراتها. أكثر الحضور يشهدون شيئاً اسمه السينما لأول مرة. لكنهم في حلم ساحر. بالأمس كانت أعجوبة الراديو التي لم يجدوا لها تفسيراً حتى الساعة. واليوم هذه السينما العجيبة أيضاً. هذه التي تريك الإنسان يتحرك أمام عينيك.. يتكلم.. يغني..

يضحك ويبكي.. بل ويرقص أيضاً..! (صحيح الدنيا آخر وقت يا ناس !.. كل يوم عجائب وغرائب جديدة !.. عشنا وشفنا ويا ما نشوف !.. هذا كله من علامات الساعة !..) لم يداعب الكرى جفوننا تلك الليلة إلا قليلاً. واحتفاء بما جرى في الأيام الأخيرة. قدمت أمي لنا عشاء شهيياً : بيض مقلي، من نتاج دجاجاتها التي تملأ باحة الدار نقيفاً طوال النهار. ضحت بواحدة منهن أيضاً، ربما لأنها أصبحت (عتقية) لا تنتج بيضاً، زيتون وزيتون وزيت نابلسي، ثم فطاير وبليلة قمح بالسكر. دخل سعيد مندفعاً، يهتف فرحاً :

-أحضرت لكم عوامه ونمورة يا أولاد.

علياء وأحمد انقضا على اللفافتين يفتحانهما انتهرتهما أمي :

-انتظرا لما بعد العشاء يا (مفاجيع) !..

لم يصغيا إليها، بل شرعا في التهامها دون وناء.

صفت السماء. وتلألأت النجوم على صفحتها. نسيمات علية تنساب رقيقة حانية. الصوت القادم من مقهى القاضي يتردد واضحاً، أكثر قرباً من ذي قبل. إذاعة لندن حيناً.. ألمانيا حيناً. صوت يهدر مبشراً بهزيمة الانكليز وحلفائهم، وبالنصر المؤكد والمؤزر لدول المحور، ألمانيا هتلر وإيطاليا موسوليني. ما من أحد يجهل صاحب ذلك الصوت. باتوا يعرفونه جيداً ويترقبون سماعه في الأمسيات. على الرغم من تحذير السلطات. إنه يونس البحري. الذي يباشر إذاعته بعبارة المشهورة التي أصبحت شعاراً (حيّ العرب). نعم هم الألمان يحيون العرب ..فمتى يأتي أولئك لكي يريحونا من هؤلاء الأوغاد ؟.. لا يلبث أن يتناهى إلينا صوت الشيخ محمد رفعت يتلو سورة مريم، التي تثير في نفس والدتي دقات من الشجن. تطلب إلينا الصمت إكباراً وإجلالاً.. أبوكم يا أولاد كان يقول : (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون). يعقب ذلك الغناء : هليت يا ربيع هل هلالك.. متعت الدنيا بجمالك. أنساك وافتكرك ثاني. ثم اسمهان بصوتها الرخيم المثير للشجن :

عليك صلاة الله و سلامه.. شفاعة يا جد الحسنين..

ده محملك رجعت أيامه.. هنية وتمنته العين ..

أمي خاشعة، توشك أن تطفر الدموع من عينيها، ومسحة الحزن المألوفة تغشى وجهها الشاحب قليلاً. تردد همساً وهي تنظر إلى البعيد :

أوعدنا يا رب ...

خالتي وزوجها تمكنا - بعد أن بذلا جهداً لاينكر - من إقناع أمي بالسماح لي بمرافقة ثلاثتهم في رحلتهم إلى الخليل. ربما كان ذلك من أجل أن يكون لفوزي - ابن الخالة - رفيق في هذه الرحلة .

انطلق (الباص) مبكراً في طريقه إلى يافا. امتلأت المقاعد. كان المقعد الأخير نصيبنا. خالتي نعمة وزوجها (عبد الكريم الهندي) وأنا وفوزي ابن خالتي إياه.

الطريق الضيق المتعرج تحف به البيارات المسيجة بأشجار الغيلان ذات النّوار الأصفر، تضرب أغصانها السامقة سقف الباص وجانبيه. أصوات الموتورات التي تسقي البيارات. إيقاع صفيورها يمضي مع تدفق الماء في البرك، مرسلًا موسيقى مختلفة النغمات. السائق (أبو دياب النمروطي) لا يني بقلبي نكاتاً يضحك لها القريبون منه طوال الوقت. كان في شكله الكثير مما يثير ضحكهم، فهو نحيل قصير القامة، يبدو في ملابسه الفضفاضة كأنه يسبح فيها حين يتحرك. طربوشه الأكبر بكثير من حجم رأسه، حالت أذناه وحدهما دون انزلاقه إلى أسفل، ليغطي سائر وجهه. صمت أبو دياب فجأة. اشرايت الأعناق. تطلعت الأعين في فضول من خلال النوافذ إلى حيث راح ينظر أبو دياب، الذي نطق بكلمات مقتضبة، عاد بعدها إلى صمت ينبئ عن غمّ دفين :

هذه مستعمرة رخيوت.. وهؤلاء هم اليهود ..

شخصت العيون لترقبهم يمشون على رصيفي الشارع العريض. بعضهم يقف أمام الحوانيت ذات الألوان والكتابات والرسوم الغريبة على واجهاتها. خواجهات، و(برانيط) منفرة. نساء حاسرات غير محتشمت، بملايس تبدي من أجسادهن الأذرع والصدور والسيقان. الناس غير ناس.. ليسوا كأهل بينا. الحوانيت أيضاً ليست كمثّل حوانيتها. أصوات الراديو والحاكي تلغظ أو تغني بلغة غير مفهومة. المباني ذات طوابق عديدة تحيط بها الحدائق ذات النوافير، تنثر الماء رذاذاً في كل اتجاه. سطوح المباني من القرميد الرمادي والأحمر. علق بعض من في الحافلة باستنكار :

(يا أخي صدق من قال يهود. لا دين ولا ما يحزنون. قالت خالتي : الله لا يبارك لهم !..)

أسرع أبو دياب، كأنما يريد الخلاص من رؤيتهم. الطريق تحف به أشجار باسقة فتشكل ما يشبه النفق حين تتلاقى قمم أغصانها العالية. سيارات ودراجات.. مباني متباعدة متفرقة لا تلبث أن تكتظ وتتكاثف.. أناس في الطرقات لا يهتمون عن سمت من سمت رؤيتهم في رخبوت. صوت أبو دياب، مرة أخرى وكأنه ينبئ عن كارثة :

.. هذه عيون قارة يا شباب.. مستعمرة ريشون ليتزيون كما يسمونها هم . تمتد الأبصار مستطلعة في فضول، واستنكار أيضاً. يتساءل بعضهم من أين جاء هؤلاء. بل هم قد أنشأوا البيوت والحدائق والطرقات كما لو كانوا سوف يقيمون إلى الأبد في هذه الديار، التي ليست لهم.. والانكليز الذين أعانواهم ومهدوا لهم السبل لأنشاء هذه المستعمرات، هل سيقفون هنا إلى ما شاء الله ؟.. سيأتي يوم يرحل هؤلاء وهؤلاء.. (إن شاء الله.. الله يسمع منك.. هذا ما سيحدث في المستقبل بالتأكيد ومهما طال الوقت) .

يخلص أبو دياب بالحافلة إلى مكان متسع من الأرض الفضاء.. مستديرة كبيرة تتوسطها حديقة من الزهور الجميلة الملونة وسط أرض خضراء. هذا دوار بيت دجن. يدور أبو دياب مقود السيارة بكل قوته، وهو بالكاد يظهر من ورائه، ليتجه غرباً.. إلى يافا. ثم يستأنف الشرح دون أن يطلب إليه أحد ذلك، متعمداً رفع صوته، ليتناقله من خلفه إلى من هم وراءهم تطوعاً أيضاً :

هذه مزرعة (نيتر) اليهودية. يسمونها (مدرسة زراعية) مثل خضوري في طولكرم، ولكنها ليست إلا وكراً، لا يعرف أحد شيئاً عما في داخله على نحو مؤكد. يقولون أن بداخلها معملًا للسلاح.. ويعرفه الانكليز أيضاً. تلك قرية عربية. مئذنة تلوح من بعيد. بيارات يرتقال ثم بيوت وجوانيت على جانبي الطريق، يجلس أمامها رجال و نساء عرب.. هذه قرية يازور.. وذاك معمل تلج (الهباب). شلالات من الماء تتدفق على صرح عال من الأنابيب المطلية باللون الأحمر.. وهذه مطحنة (عطا الله عطا الله). تتباطأ الحافلة. تنن فيما هي تتمايل على الجانبين، ورائحة البنزين تعبق في أنوفنا. هذا (سبيل أبو نبوت)..(البصة).. نحن الآن عند مدخل يافا. الشوارع مكتظة بالسيارات، بعضها يحمل بشراً، وبعض يتمايل بحمولته من البضائع.. نداءات الباعة في كل

مكان. الدكاكين وأمامها معروضاتها المتنوعة الملونة.. روائح الأطعمة..
البسطات الحافلة بأشياء كثيرة لا حصر لها، لا نستطيع أن نتبين ماهيتها تماماً،
إذ نمر بها دون ريث. خلق كثير، يتحركون كخلية النمل في كل اتجاه .

.. وصلنا يا شباب حمد الله على السلامة ..

.. يعطيك العافية يا أبو دياب ..

.. الله يعافيكم ويسلمكم.. العصر العودة إلى بيانا يا شباب.. لا تتأخروا..

في ظل جدار سامق، عند الطرف القصي من باحة المكان، اكتظت بعدد
من الحافلات، جلس عدد من الرجال ذوي الطرابيش الحمراء القانية. بينهم من
ارتدى (قمبازاً)، ومن ارتدى بنطالاً. أمامهم أكواب الشاي وفناجين القهوة.
يتوسطهم رجل بدين جداً، يكاد صدره يخرج من قميصه، وفخذه من رجلي
بنطاله. من أمامه (أرجيلة) صفراء لامعة، يقرقر ماؤها كلما جذب نفساً منها.
أشار أبو صبحي الهندي إلى حيث هؤلاء، وكأنه يلقي إلى خالتي نبأ عن
اكتشاف عظيم :

-انظري يا نعمة.. ذاك الرجل البدين هو يوسف بامية.. !

قالت خالتي مندهشة :

-ما شاء الله.. قف أربعة. وهو صاحب هذه السيارات كلها ؟..

-صلي على النبي يا شiche (آه كلها) كراج بامية هذا باصاته شغالة كل
الوقت، على خط يافا غزة والقرى على الطريق، بينا واسدود والمجدل.. وله
خط على بئر السبع أيضاً.. سبحان العاطي !..

أنا و فوزي كالمشدهين نرقب ما حولنا بانبهار. المدينة بكل ضجيجها
وزحمتها. غاب عنا (أبو صبحي) بعض الوقت. ثم عاد يحمل عدداً من
القرطيس. أعطى كلاً منا كعكة بالسّمسم، وورقة تحوي القليل من الزعتر
والفلفل الأسمر. رجل ينادي بصوت جهوري :

- الرملة.. القدس يا شباب ..

هَبْ أبو صبحي واقفاً (هيا بنا يا أولاد.. يا نعمة ..)

انطلقت السيارة مغادرة (كراج بامية) متجهة شرقاً، عبر الشوارع ذاتها
التي جئنا منها عند قدومنا قبل قليل.. الأبنية العالية ذات الشرفات المزخرفة
تطل على الطريق.. المآذن عن كثر تشرئب إلى السماء. حدائق سبيل أبو نبوت

الواسعة الخضراء حافلة بالأزهار والأشجار.. على امتداد أرصفة الشارع، على الجانبين صفوف من الأشجار، كما تبدت من خلال فرجات بين المباني.. الشوارع نظيفة لامعة.. السيارات ذات الألوان والأحجام المختلفة، تنطلق في كل اتجاه. رجال من البوليس عند مفارق الطرق، بملابسهم وحركاتهم المهيبة، يوجهون السيارات العابرة ويرقبون المارة.

اعتراني شيء من الحزن إذ تغادر يافا هكذا سريعاً، قبل أن نرى منها إلا ذلك القليل. لكن زوج خالتي يتصرف دونما اكتراث لمشاعرنا. بل هو لم يلحظها أصلاً. وعلينا جميعاً أن ندعن لمشيئته. حتى خالتي التي كانت ذات سلطان في منزلها، بدت الآن وادعة مستكينة. لكنه مضى يحدثنا عما نرى، تعويضاً عما فاتنا. هذا معسكر صرفند للجيش البريطاني. هذه كروم زيتون الرملة. تلك مئذنة الجامع الأبيض في الرملة تبدو من بعيد. هنا يقام في شهر نيسان من كل عام موسم النبي صالح، يؤمه أهل المدن والقرى، فتتعدّد حلقات الذكر، وتمشي في الشوارع مواكب الطرق الصوفية، بأعلامها وطبولها. كما تقام الولائم والأفراح، وتمتلئ المنطقة بباعة الأطعمة والحلويات الملونة والمرطبات، من يافا والرملة. كذلك تكثر المعروضات من الألعاب والهدايا المصنوعة يدوياً في البلاد، والملابس الملونة، ولاسيما للصغار، تلون البسطات والأرصفة. تذكرت هذا الذي رأيته هنا منذ سنتين حين قدمت إلى موسم النبي صالح، بصحبة أخي سعيد ورفاق له. مضى أبو صبحي يحكي لنا أيضاً قصة نافذة النبي صالح المشهورة، والقوم الذين عقروها، فحل عليهم غضب الله وعقابه. هذه معصرة زيتون في هذا المبنى الأثري القديم. حتى حجارة المبنى الحقيقية بدت مشبعة بالزيت. وهذا مصنع حلاوة النبي صالح .

بدت لنا شوارع الرملة أقل إزدحاماً بالناس من شقيقتها يافا. المباني والدكاكين والبيوت بني الكثير منها بالحجارة وبعضها باللبن. تنتشر الأقواس الشرقية في معظم مبانيها. والنوافذ الخشبية المزخرفة برسوم جميلة. مآذن وقباب كثيرة. الرجال يرتدون (القمباز) والطربوش وشملة عريضة تحيط خصورهم، تتدلى منها سلسلة ساعة الجيب. النساء محجبات بالملاية السوداء والمنديل على الوجه. معظم المنديل في يافا شفافة يرى ما وراءها، أما هنا فهي كثيفة تخفي الوجه تماماً !..

توقفت السيارة في ساحة واسعة، تجمع فيها خلق كثير، صعد إليها ركاب يحملون سلالاً وضعوها عند أرجلهم في حرص واضح. ثم لم تلبث أن تحركت

عبر سوق قامت على جانبيه حوانيت كثيرة، على واجهاتها أسماء أصحابها التي رحنا نتسابق على قراءتها أنا وفوزي : الحاج مصطفى الخيري.. الحاج ربحي الغصين.. الفاروقي.. الناجي.. المفتي.. الحاج أحمد أبو لبن ..

تزيد السيارة من سرعتها : ويعلو هدير محركها. يشرع الطريق في الصعود شيئاً فشيئاً. لدى ابتعادنا عن الرملة، تحف به البيارات والكروم، التي انتشرت بينها الدور والأكواخ، على مرمى البصر. فلاحون وعمال يسوقون الدواب وقطعان الماشية. وحين غدونا على علو شاهق بين الجبال، على الطريق المتعرج كالأفعى حول سفوحها بدت الأودية من عل خلاصة ساحرة، تتراعى ظلالها هنا، أو تومض في ضوء الشمس هناك. من آن لآخر يعرفنا سائق الحافلة بما يعرف عن هذه المناطق وأسماء القرى والكفور. وحيناً يتحدث الركاب أنفسهم متطوعين بالحديث عما يعرفونه من هذه المناطق، إلى أن لاح لنا مبان متفرقة، لم تلبث أن تكاثرت شيئاً فشيئاً. في البعيد عقب رحلة أنهكت قوانا فيها اهتزازات الحافلة وتعرجات الطريق، ظهرت قبة الصخرة، تسطع تحت ضوء الشمس، ومآذن الأقصى، وأبراج الكنائس. حنين غامض لشيء لا أعرف كنهه، يثيره مرأى الأسوار الضخمة، بحجارتها العتيقة عند باب العمود. والباعة يملأون الساحة، ينادون على بضاعتهم (ملبن.. زيت.. زعتر.. زبيب.. قطين..) يعرض معظمهم صوراً ولوحات للأقصى، وقبة الصخرة، والأسوار وشتى الأماكن التاريخية. سبحات وأيقونات، وكتب قديمة أوراها صفراء، مشغولات من الصدف والمخمل. للمكان نكهة خاصة آسرة، تغمر الروح وتسمو بالنفس إلى آفاق كونية عليا لا حدود لها.

حين خيّرنا من قبل السائق بين البقاء في القدس أو متابعة سفرنا إلى خليل الرحمن، غاظني مرة أخرى ذلك (الهندي) زوج خالتي نعمة، بإصراره على مواصلة السفر دونما ريث. قلت لفوزي :

-لماذا يستعجل سفرنا عمنا الهندي ؟

-لأنه جاء من قبل إلى هذه الأماكن .

منادٍ يحث الراغبين بالسفر على اللحاق بالحافلة المنطلقة للتو :

الخليل.. ناقص ثلاثه ركاب.. الخليل.. بيت لحم.

وإذ يلمحنا عن بعد، يواصل النداء ولكن بصوت أكثر ارتفاعاً :

الخليل يا مستعجل.. أربعة ركاب. ناقص أربعة.

العبارة الأخيرة بدت وكأنها موجهة إلينا. استجاب زوج خالتي للنداء على الفور، فهرع باتجاه الرجل، فيما هو يحتثا على اللحاق به، إلى الطرف الآخر من الساحة، وهو يحمل حقيبة كبيرة، فيما تحمل خالتي (بقجة) أكبر من اللتين حملناهما أنا وفوزي. أمسينا داخل (الباص). ولكن هذا لبث طويلاً قبل أن يتحرك، إثر إلحاح الركاب، وبعد أن يئس المنادي من العثور على عشرة آخرين أيضاً..!

على مدى البصر، في كل اتجاه بدت الأودية السحيقة وقمم الجبال الشاهقة وكأنها تلامس صفحة السماء. تلك بيت ساحور بمبانيها البيضاء، وأبراج كنائسها وأديرتها العتيقة.. صور باهر.. نحالين.. بيت فوكين.. بلدات وقرى ذات طابع متميز في أنساق المباني والحدائق، كما في الثياب والأزياء. مشارف بيت لحم، الأكبر بين كل القرى والبلدان، التي شهدنا مذ غادرنا القدس. نقترّب من ساحتها أمام كنيسة المهد، ذات الأسوار العالية، كأنها حصن قلعة رومانية، توحى بالوحشة لكنها مهيبّة تملأ النفس جلالاً. تغص الساحة بأناس من شتى الأجناس، كما بدوا في أزيائهم وهياكلهم. أجراس الكنائس تقرر، يتردد صداها في الجبال والأودية. هنا هبط جبريل عليه السلام ليبشر مريم العذراء ابنة عمران، بولدها الذي يكلم الناس في المهد صبيّاً. خلق الخيال بعيداً بعيداً إلى الأزمنة السحيقة. خالتي تنبّهل إلى الله، بأن يعيدنا إلى ديارنا سالمين..! (الهندي) كعادته في تسريعه غير المحمود، لم يصبه شيء من ذلك الخشوع أو تلك المشاعر التي ألمت بنا. أشار علينا بالجلوس في ركن من تلك الساحة، لتناول طعامنا قبل مواصلة السفر إلى الخليل.

مرت بنا نساء تلحميات. أبدت خالتي إعجابها بأزيائهن. الثياب الطويلة حتى القدمين. بيضاء أو سوداء، مطرزة على الصدر و الجانبيين بألوان مختلفة زاهية وشاح أو شال أبيض يغطي الرأس، مرسلاً على الظهر أو ملفوفة حول العنق، منهمكات في الكلام أو الضحك بدا واضحاً أنهن خرجن للمشي في هذا المكان الحافل بكل ماهو مثير وجميل. قال لنا زوج خالتي إن النبي يحيي قتل في هذا المكان تحقيقاً لرغبة تلك اليهودية (سالومي) برؤية رأسه على طبق من ذهب..!

اليهود.. دائماً اليهود.. أليسوا هم منشأ الشر و الأذى إذن منذ أقدم العصور..؟ وهذه الحرب العالمية المستخدمة.. أي دور مقبوت لهم فيها..؟

شُرع عمنّا (الهندي) يستحثنا على اللحاق بالحافلة إلى الخليل، واعدًا إيانا بأن نخرج على بيت لحم وكنائسها لدى عودتنا .

تتحدّر الشمس نحو المغيّب، فتغمر الظلال السفوح الغربيّة، فيما تسطع أشعتها على قمم الجبال والتلال الشرقيّة. سكيّنة موحّشة.. ونسمات باردة تتسلل عبر النوافذ، رغم أننا في مطلع الصيف، خلافاً لما كان عليه الحال صبيحة هذا النهار في يافا. قرى كثيرة لاحت عن بعد ترصّع سفوح الجبال التي بدت لوحةً طبيعيّة رائعة، مستلقية في سكيّنة في أحضان الجبال الشامخة الخضراء .

تذكرت أمي وإخوتي. حبذا لو كانوا معنا الآن. بل تمنيت لو كان أبي حيّاً، لقمنا إذن معه بهذه الرحلة، بدلاً من هذا (الهندي) زوج خالتي نعمة ...!

لسوف أحدثهم عن هذا كله. نعيم وسليمان واسماعيل سوف يحسدونني بلا ريب ..! سأروي حكاية رحلتنا هذه لمريم قبل هؤلاء جميعاً.. أما أنت يا مي.. آه يا مي.. أين أنت الآن أينها الغالية ..؟

الليل طويل طويل.. قلقة حيرى من أجله. تتسائل مرة أخرى. ولقد أعيتها التساؤلات : (أين أنت الآن يا أمين.. ماذا دهاني كي أرسله معها ؟. حسبي الله عليك يا نعمة.. ترى أين هم الآن؟ هل يبيتون في يافا عند أم زكي العبسي؟ أم تراهم واصلوا سفرهم إلى الخليل؟ كيف أمضوا نهارهم؟ أكلوا ؟. شربوا ؟..)

على ذبالة السراج المتأرجحة بدت علياء وأحمد منكشيين تحت اللحاف، كقطبتين وديعتين، تثيران الشفقة. سعيد تمدد لصق الجدار.. (هذا الولد قلبه طيب.. يحب إخوته.. يخاف عليهم من نسمة الهواء.. لكنه.. آه يا رب..)

تأتي أوقات تحسب فيها أنها نسيت سليم. لكنها في مثل هذه الأوقات العصبية تجده أمامها، يؤنس وحشتها.. يحفزها على الصبر.. يشد من أزرها في حمل العباء الذي ألقته على عاتقها رصاصة الانكليزي القادم من وراء البحار. لو لم يقدم على فعلته تلك يومئذ، لتغيرت مسيرة حياتهم. من المؤكد أنها كانت تسير الآن في اتجاه آخر. لم يقتل سليم طوال سنوات الثورة، حين كان يحمل البندقية، ويتسلل في جنح الليل مع رفاقه، لمهاجمة المستعمرات اليهودية إثر اعتداءات هؤلاء على العرب. في تلك الأيام التي كانت تملؤها خوفاً ورعباً كان يعود سالماً في كل مرة.. ثم يمضي الآن هكذا في طرفة عين؟ وفي ظرف عادي تماماً لا يتوقع أحد أن يصاب فيه بسوء ..؟

انضمت إلى الجارات، في تلك الأمسية، على مصطبة الحاجة الكبيرة. أم مريم وابنتها، الحاجة خضرة، حفيظة زوجة محمد الشريف. (هذا الرجل ليس ككل الرجال.. لا يقصر في شيء من أجلها.. لو طلبت (لبن العصفور) لجاءها به).. الانكليز يتراجعون، يتقدمون.. الألمان بخترعون، يصنعون.. اليهود يفرّون، يهاجرون.. الزرع.. الحصاد.. البرتقال.. الأعراس.. الغلاء المخيف.. البيارات التي جفت أشجارها. تحدثن في هذه الشؤون جميعاً. أما هي فكان همها أمين عند عودته بالسلامة مع خالته نعمة.. هل يذهب إلى مدارس القدس، أم مدارس يافا، أسوة باسماعيل (ابن العطار) وسعيد (ابن الجمل) ؟.. هذه المسألة

التي توركها دائماً ولا تغيب عن بالها إلا لماماً ..

- لا هذه و لا تلك يا عائشة.. يبحث له عن عمل يساعدك على ما أنت

فيه؟

-لكنه صغير يا حاجة.. أي عمل يمكنه أن يقوم به المسكين ؟

-أي عمل والسلام.. يقولون أن الانكليز يريدون عمالاً في المعسكرات.
وإذا لم يكن هذا، فلماذا لا يعمل في بيارات البرتقال أو في كروم الزيتون؟ أي
شيء أحسن من لا شيء يا حبيبتي ...! (المثل يقول العب في المقصص حتى
يجيك الطيار)

الجن.. العفاريت.. يقولون أن جنياً تلبس بنت (ابو عيشة). الحق على أمها
التي دلفت الماء المغلي على رأسها في الحمام، دون أن تسمي بالله. أخذوها
للشيخ (عبد الجبار). كسر على جسد المسكينة حزمة عصي خيزران. لم يستطع
الرجل إخراج الجني اللعين. يقولون أن بين الجان من هو مسلم ومن هو كافر..
يظهر أن هذا من النوع الثاني ..! نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..!

(النور) كان لهم نصيب في أحاديث (المصطبة). نصب النور خيامهم في
البستان المقابل لكان أبو العبد الرملاوي، وفي الحواكير (شباب البلد كل يوم
عندهم. هذا ماكان ينقصنا ..! راقصات ومغنيات.. والرجال يسهرون عندهم
حتى الفجر. بينهم واحدة اسمها صابرين. لها سن ذهب تسحرهم لما تضحك
لهم.. وخدوا دلع نوريات ..! الله لا يكسبهم بكره يخربوا لنا الاولاد..! قال أبو
(صالح الجمال) وضع لها النقوط في صدرها عشرة جنيهات ..! وأشعل لها
سجارة بخمسة جنيهات ..! شوفوا بالله عليكم. الله لا يبارك له الثاني. الناس يا
دوب تلاقي الخبز وهو يحرق المصاري يشعل سجارة لواحدة نورية ... لا
حول و لا قوة إلا بالله.. أذن العشاء يا لله يا صبايا ..!)

اعتراها الغم والضيق حين أغلقت باب دارها. الصمت مطبق، والظلمة
الفاحمة في باحة الدار. نقيق الضفادع في الأودية القريبة يتناهى إليها حزناً
موحشاً. الديدان المضيئة تبرق عبر الظلمة، تتقافز أمامها ومن حولها، خفيف
أوراق شجرة التين في الحاكورة بجوار الكهف (الكفري) المهجور. أسرع
الخطأ، ومن أمامها علياء وأحمد يتعثران فيلوذان بها، ويمسكان بثوبها. تنفست
الصعداء حين أفلتت باب الغرفة. ضوء السراج شاحب، ولكنه على أية حال

خير من العتمة المخيفة هناك. حاولت دفع ولديها للنوم. لكنهما أصرّا على ألاّ يناما قبل تناول العشاء. جاءتهما برغيف الطابون، وقطعتي جبن مما جاءت به أم مريم صباح ذلك النهار. إبريق الشاي يوحى بشيء من الطمأنينة حين يتعالى بخاره المعطر بالميرمية. تقدم لهما الشاي تصحبه دفقة حنان من قلبها المتخن بالجراح والشجن .

الليل طويل طويل.. يزداد طولاً وعمقاً كما لو كان ينبئ بأنه سرمدى ... " وأين أنت يا أمين..؟ يا رب.. يا من سترت ما مضى.. استر ما بقى .."

أمضينا ليلتنا الأولى في دار البكري. تجمّع الرجال في القاعة الواسعة الأرجاء، ذات الأقواس والأعمدة العالية. مضافة آل البكري، حيث جلس الرجال على فرش مدّت فوق بسط ذات ألوان زاهية، ورسوم جميلة، و مساند عديدة وضعت بين واحداهم والآخر كي يتكى عليها. لذت وفوزي بالصمت، فيما انخرط الرجال في أحاديث شتى. يصب أحدهم القهوة في فناجين بيضاء، ذات زخارف ملونة، يطوف عليهم بها من حين لآخر. يقطعون حديثهم في كل مرة، لكي يثيروا جلبة حول من يسبق من في الأولوية لتقدم له القهوة. فيما يهتف الشيخ البكري بين وقت وآخر : قهوة يا (ابو مصباح).. قهوة للرجال. يستأنف الرجل البدين ذو اللحية الكثّة البيضاء (ابو ماجد) حديثه الذي انقطع بقوله :

-الحلال هذه السنة قليل يا جماعة لقلة الخير .

يرد رجل يدعى (ابو فيصل) :

-أي والله كانت الأمطار شحيحة هذا العام على غير المعتاد .

شيخ نحيل وقور (الشيخ رجب الناظر) يقول بصوت عميق هادئ:

-هذا نصيبنا أيها الناس.. والأمر بيده سبحانه من قبل ومن بعد .

يؤمن على قوله (ابو ماجد) بالقول :

-نعم نعم.. وما أصدقّه من قائل يا شيخ رجب (وفي السماء رزقكم وما

توعدون..) اللهم عافنا واعف عنا .

حاول زوج خالتي (الهندي) بعد أن شاركهم حديثهم ومشاعرهم، أن يثنيهم عن السعر الذي طلبوه ثمناً للأغنام التي يبغى شراءها. تشبثوا بادئ الأمر. لكنه نجح أخيراً في زحزحتهم عما أرادوا، مؤكدين له بأنهم ما كانوا ليبيعوا (حلالهم) بهذا السعر لأيّ سواه. لا سيما وأنه ضيفهم الأثير. شكرهم عندئذ (الهندي) على هذه الأريحية، التي لا ينكرها أحد، ودعا لهم بالبركة والعوض .

عقب العشاء نشبت معركة حامية الوطيس، من أجل غدائنا في اليوم التالي.

أصرَّ كلٌّ منهم على أن يكون هو صاحب الدعوة، إلى أن فرض عليهم الشيخ الناظر ترتيباً أقرّوه بالأجماع، مؤداه أن يكون الغداء عنده. أما العشاء فلدَى أبي ماجد. أما غداء اليوم الذي يليه فعند (أبو موسى) الزير. ولولا إصرار زوج خالتي على أنه لن يبقى أكثر من يوم آخر في الخليل، لامتدت سلسلة الدعوات إلى ما شاء الله، بحيث تشمل الحضور جميعاً .

منذ الصباح الباكر خرجنا أنا وفوزي، إلى الزقاق مع عدد من أولادهم. نركض.. نتقاذف الكرة.. نلعب الاستغماية.. الدّحل.. نتسلق شجرة الجميز العتيقة التي تظلّ مساحة كبيرة من الزقاق.. وشجرة البلوط الهائلة في الساحة القريبة. قال الأولاد أن عمرها آلاف من السنين، كما سمعوا من آبائهم. عدنا مع صالح وحسين وماجد إلى الدار نحو الظهيرة، ولكن إلى حيث الحريم هذه المرة. استقبلنا ببشاشة ومودة من قبل سيدات الدار، كانت خالتي نعمة هناك، وكأنها واحدة منهن. بتودد واضح وحنو حقيقي، سألت امرأة بيضاء مكترة الجسم، ينسدل شعرها الفاحم على كتفيها، عما إذا كنا نرغب في الطعام أو أي شيء آخر. وقبل أن نجيب سبقتنا خالتي بالأعتذار شاكرة للمرأة، ذات العينين العسليتين والجسم البدين. لكن هذه تجاهلت اعتذار خالتي. دلفت إلى الداخل، غابت بعض الوقت، لتعود وفي يدها علبة حلوى، وفي اليد الأخرى سلة تحوي فواكه مجففة من التين والعنب والمشمش .

الفتيات الصغيرات التفنن حولنا فرحات مندهشات، ينفرسن في وجوهنا وأجسامنا، كما لو كنا قد هبطنا للتو من كوكب آخر. بقينا وحدنا معهن، حين عادت النساء للانهماك فيما كن فيه من عمل لإعداد الطعام. بخار كثيف يتصاعد في أجواء الدار.. رائحة السمن واللحم، كما رائحة البصل والثوم واللبن تعبق في المكان. خليط من هذا كله يثير الشهية، لا سيما وقد حل موعد الغداء. باحة الدار ذات الرخام الملون الجميل، الجدران السامقة التي شيدت من الحجارة الداكنة، توسطت الباحة بركة واسعة، تكتنفها شجيرات الورد الجوري. تظلل البركة أغصان شجرة توت معمرة، فتضفي على المكان سحراً غريباً. الفتيات يعاملننا كما لو كنا ألعاباً طريفة قدمت إليهن !..

في المضافة عند العصر حيث عدنا إليها كارهين، نتساعل من أين أتى كل هؤلاء الرجال؟ امتلأت بهم المضافة. لكنهم يخلدون إلى الصمت مصغيين إلى المتحدث من بينهم. إلى أن قطع الصمت والحديث معا الأذان لصلاة العصر يتناهى إلى المكان، فيبعث في النفس الخشوع. هبَّ الرجال وقوفاً للصلاة

جماعة، يؤمهم الشيخ البكري. أنا وفوزي أيضاً يجب أن نصلي معهم. قبيل التسليم لكزني فوزي بمرفقه، فكتمنا ضحكاً أو شكاً أن ينفجر. سرت تمتعات الرجال بالدعاء، فيما يصافح واحداهم الآخر، بعد مصافحة الشيخ البكري أولاً. ثم ساد الصمت قليلاً إلى أن يتخذ كل منهم مجلسه، مسنداً ظهره إلى الجدار الذي صفت على امتداده الوسائد. ولكن متى يؤتى بالغداء؟ وماذا ينتظر القوم؟

الجو مهيب، حتى أن غير قليل من الرهبة تسلل إلى نفسي. وكذلك ابن خالتي فوزي. لا نملك أن نتكلم أو أن نغادر المكان. لا بد أن أُمي قلقة الآن كعادتها عند غياب أي منا.. لسوف أحدث سعيداً بهذا كله. كذلك نعيم والآخرين.. لسوف أعمل على إثارة حفيظتهم، هذه المرة..! ها هم أخيراً يأتون بالطعام الذي لا بد أنه أمسى عشاءً أيضاً، فالشمس قد غربت لتوها. (بواطي) الأرز واللحم ورائحة السمن تطغى. تستقر (البواطي) أمام الجلوس. لا تمتد إليها الأيدي قبل أن يهيم الشيخ البكري بذلك وهو يقول :

-تفضلوا على ما قسم الله يا جماعة. بسم الله الرحمن الرحيم .

سرعان ما اندفعت الأيدي إلى القصاع. وانهك الجمع في التهام الطعام، في صمت مطبق إلا من همهمة هنا ونحنة هناك. وبسرعة أيضاً انفض القوم عن القصاع. فكان علينا أن نكف عنها بدورنا، حتى قبل أن نتناول كفايتنا. رفعت (البواطي) دون أن ينقص منها الكثير، ونحن ننظر إليها بأسف. أبو مصباح يعود إلى تقديم القهوة، ببشاشته المعهودة، حين يشرع الرجال في أحاديثهم وحكاياهم التي يبدو أنها لا تنتهي. نتمنى إذن لو نترك وشأننا، فنغادر جو القاعة هذا غير المريح، لصرامته ووقاره. إلا أننا لم نجروء على الإفصاح عن رغبتنا، ناهيك عن تنفيذها.

زاد الجو اكفهراراً حينما تطرق الحديث إلى الانكليز وتواطؤهم مع اليهود. وعد بلفور المشؤم.. هربت صموئيل، ذلك اليهودي الذي نصبوه مندوباً سامياً على فلسطين أول عهد الانتداب، موكلين إليه أمر تهيئة الظروف الملائمة للهجرة اليهودية، وإقامة المستعمرات على الأرض الأميرية لكي تستوعب مهاجريهم هؤلاء. إضافة إلى صنع كل ما من شأنه أن يمكنهم من إقامة وطن قومي لهم. لجنة (المستردل).. الكتاب الأبيض.. أحكام الإعدام الجائرة وشهداء الخليل وغيرها. جمجوم والوزير وحجازي الذين أعدمهم الانكليز.. ثم عن ثورة البراق التي انطلقت من الخليل والقدس.. عن دور الشيخ عز الدين القسام الريادي فيها، وفيما تلاها من ثورات، كانت أعناها قوة وأطولها زمناً ثورة عام

1936 التي مهد لقيامها غداة استشهاده في أحراش يعبد. الأمر الذي زاد لهيب الثورة ضراماً، لا سيما وأنه قد جاء في أعقاب مواقف احتجاجية ضعيفة، كالمذكرات والعرائض، والمؤتمرات وتأليف اللجان، والوفود إلى المندوب السامي في القدس، أو إلى الحكومة البريطانية في لندن. هم يشكون ما يقع عليهم من مظالم لمن أوقع فيهم تلك المظالم نفسه..! يقابل ذلك كله، من جانب الإنكليز، وعود لا تتحقق أبداً. أتباع القسم، وتلاميذه ومؤيدوه، حملوا لواء الثورة، التي امتدت من بعده في الزمان والمكان، فشملت أرجاء فلسطين بأسرها حتى عام 1939.. أثنوا على الرجل الذي حمل روحه على كفه، قادماً إليهم من بلدة جبلة على الساحل السوري، إيماناً منه بوحدة الأرض والأمة و الدين، وبقينه بجذوى الجهاد في سبيل الله والوطن، فإما نصر وإما شهادة. لم يؤمن الرجل بالحلول الوسط، ولا بالوعود والعهود الخالية الكاذبة، فالحرية تؤخذ عنوة ولا تمنح مجاناً لأحد.

قال قائل منهم : ألا يعني هذا (ياجماعة) أننا أبناء أمة واحدة.. قضايانا واحدة.. تاريخنا واحد.. كذلك مصيرنا ومستقبلنا جميعاً.

قال الشيخ البكري الذي لبث صامتاً معظم الوقت :

- أنتم تعرفون أنني قاتلت مع القسم جنباً إلى جنب. رحم الله الرجل وأسكنه فسيح جناته. ثم مع فصيله من بعده على امتداد زمن الثورة. نعم أذكر تلك الأيام، وهي ليست بعيدة عنا على كل حال. هناك في أحراش يعبد، وربي جبال نابلس وطولكرم وعنتابا. منذ البداية جاعنا الرجل ومعه العديد من الرجال من سوريا لقناعته وإيمانه بأن بلادنا واحدة وأمتنا واحدة. هذه شهادة لوجه الله والتاريخ. كان على يقين بأن الجهاد هو السبيل، دون غيره إلى تحرير البلاد من المستعمرين، فرنسيين كانوا أو إنكليز، وبالتالي منع هجرة اليهود والحفاظ على أرض الوطن.

أطبق صمت حزين.. ران على القوم خشوع يليق بمقام الرجل، الذي حنى الرجال رؤوسهم أمام ذكراه العطرة إكباراً وإجلالاً.

يتحرك الشيخ (الناظر) في مجلسه. يهم بالكلام فيصمتون:

-أيها الأخوة. بشرنا أفضل الخلق صلوات الله عليه وسلامه، بأن القيامة لا تقوم قبل أن يتجمع يهود في هذه البلاد. ثم تأتي جيوش من المشرق، وتقوم حرب ضروس، يفنى فيها اليهود عن بكرة أبيهم. يغمر الدم الأرض يومئذ،

حتى يبلغ الركب. يومئذ يختبئ اليهودي وراء حجر فينطق الحجر قائلاً يا مسلم هذا يهودي تعال فاقتله.. أجل " لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود.. "

لبث القوم صامتين، شاخصة أبصارهم إلى الشيخ، وقد ارتسمت على وجوههم علامات البشر والارتياح، و كأنهم يتمنون أن يحدث هذا، في هذه الساعة، قبل أن يقوموا من مقامهم.

تناهى إليهم صوت المؤذن قادماً من الحرم الابراهيمي. هب الرجال وقوفاً، وكأنهم فوجئوا بسماعه على حين غرة. لم تمض دقائق قليلة حتى كنا نسير في موكب مهيب، في الطريق إلى الحرم الابراهيمي لأداء صلاة العشاء. جموع المصلين تزد تباعاً فرادى وجماعات. الأنوار الباهرة تضيء صحن الحرم وباحته الخارجية. الأعمدة العتيقة الضخمة البادية للعين، وكأنها وجدت هنا منذ الأزل. السجاد الملون، برسومه الجميلة يغطي أرض الحرم. نوافير الماء في الباحة الفسيحة الأرجاء. كنا ننسى ما حولنا. أخرجنا من استغراقنا هذا انتهاء الصلاة، وسماع التكبير والتلاوة. ثم يتفرق الناس، ونمضي لقضاء ليلتنا الثانية. حفلت ليلتي بالرؤى والأحلام. شيخ وقور لا سبيل إلى وصفه.. كأنما هو قادم من أعماق التاريخ، يحمل في يده مصباحاً يشع نوراً باهراً. يقول بلهجة استنكار: يزعمون انتماءهم لي وهم ليسوا كذلك. أنا مشرقي ومقامي هنا، منذ فجر التاريخ، وهم جاءوا بالأمس من بقاع في مغرب الشمس. سبقت أصل وجودهم بألف سنة فكيف يدعون قرابتي. أنتم أبنائي والأرض لكم ... يصمت الشيخ قبل أن يهديني المصباح، وهو يشير لي بيده صوب الشمال. ألتفت إلى حيث يشير، فأرى قبة الصخرة ومآذن الأقصى تسربلها ظلمة حالكة.. ولكن مصباح الشيخ، ومن هذا البعد السحيق ينشر الضياء عليها وعلى ما حولها.. ثم يقول وهو يقدم لي المصباح بيد وسيفاً باليد الأخرى: " هذا هو الطريق إليها !.. "

- ها نحن أخيراً في القدس يا فوزي. عمك (الهندي) وفى بوعده، هذه المرة، يا ابن خالتي. ولكن هل سنمكث في القدس بعض الوقت، أم تراه يتعجل سفرنا كعادته؟ قال فوزي :

- يا حبيبي المهم أننا سنمضي يوماً على الأقل هنا، فهذه هي القدس يا أمين وليس غيرها. ثم انهما يعتزمان، هو و أمي أداء صلاة الظهر، في حرم المسجد الأقصى، حيث الصلاة جماعة في هذا المكان الذي بارك الله حوله، تعدل لا أعرف كم صلاة عادية في مكان آخر. أليس هذا ما كان يقوله لنا الشيخ محمد أبو العينين، أم تراك نسيت ؟..

خالتي تنادي إذ سبقناهما بمسافة عشرين أو ثلاثين متراً، في ذلك الشارع الضيق، ذي الحجارة الضخمة الداكنة، والأرض المبلطة بالحجارة. تنادي خالتي أمرة إيانا (قف انت وهو). توقفنا إلى أن لحقنا بنا. حذرتنا عندئذ، بأننا يمكن أن نضيع في لمح البصر وسط هذا الزحام، وماذا تصنع ساعتئذ؟ هل تطلب المنادي للبحث عن (مسخوطين) ضائعين ؟!..

كل ما حولنا مثيرٌ للدهشة. الأسواق تغص بالدكاكين والبسطات، حيث هنا كل شيء مما لا يمكن أن يخطر ببالنا، سواء الأسواق وما حفلت به من بضائع وهدايا ومأكولات، أو الشوارع والأزقة المتفرعة عنها، ذات الأسقف المغطاة، والقباب العتيقة كأنها ولدت مع التاريخ. رائحة الرطوبة تخالط روائح الأطعمة والملابس والعطور والبخور والعنبر. مزيج مثير من كل شيء. نسهو أحياناً عن تعليمات الخالة، نتباطأ هنا.. نتوقف هنا مشدوهين بما نرى، فلا ننتبه إلا على وكزة منها أو نداء. زوج الخالة ظل محايداً، لا يتدخل قط طوال الوقت، إلا أنه يحثنا الآن على المضي قدماً، دون تلكؤ، نحو المسجد الأقصى، كيلا نفوته الصلاة جامعة. المسجد الأقصى وقبة الصخرة. بدا المشهد كالحلم. الباحة الفسيحة جداً. القبة المتألئة ذات الألوان الزرقاء المذهبة تبهر العين، وتشيع في النفس الخشوع قباب عالية، وأقواس فخمة، وأعمدة حجرية ورخامية ملونة. آه

يا قدسنا ما أبهاك وأروعك.. نظرت إلى خالتي التي أشرق محياها خشوعاً وسكينة، ودموع لمعت في عينيها.. تهمس وهي ترفع يديها وبصرها نحو السماء ضارعة (يا رب يا من قدّرتنا على زيارة قدسك الشريف، أوعدنا بزيارة بيتك الحرام، في مكة المكرمة، وضريح نبيك الحبيب، في المدينة المنورة ..)

يشرح لنا عمنا الهندي :

هذا حائط البراق الذي يزاحمنا عليه اليهود، ويسمونه هم(حائط المبكى) زوراً وبهتاناً. هذه قبة الصخرة التي يحكى أنها ارتفعت من مكانها على الأرض حينئذ، لكي تلحق بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ساعة انطلق مع جبريل عليه السلام يعرج إلى السماء، فأشار إليها بيده الكريمة، فتوقفت حيث هي معلقة هكذا في الفضاء. من فوق المنابر يتردد صوت عدد من المؤذنين في سماء المدينة. يتقاطر الناس إلى المسجد. وسرعان ما غصت بهم الساحة، حتى أوشكت أن تضيق بهم على رحبها. وقفنا في الصفوف الأخيرة، وخالتي مضت إلى الصفوف الخلفية لتصلي مع النساء .

وما أن قضيت الصلاة، حتى عاد (الهندي) إلى تسرّعه المعهود. لا بد من اللحاق بالحافلة المسافرة إلى يافا. ولكي يسكتنا اشترى لنا ملبن ومهلبية، وسقانا أكواباً من الخروب المتلج. حاولت خالتي أن تثنيه عن عزمه، لكي نبني في القدس هذه الليلة، لكنه أبى. تنازعنتي الرغبة بين البقاء والرغبة في العودة إلى أمي وإخوتي والرفاق، إلى حارات بينا وبياراتها. وكما يحدث دائماً، رضخ موكبنا الأصغر لأمر (الهندي) وإذا بنا على متن الحافلة التي تقلنا إلى يافا.

شوارع يافا، قبيل الغروب أقل اكتظاظاً بالناس عما كانت عليه صبيحة ذلك اليوم. نستقل الحنطور. نظرب لوقع حوافر الحصان على حجارة الشارع، كموسيقى ذات إيقاع موزون. تغمرنا البهجة أنا و فوزي، فهذه أول مرة نركب فيها حنطوراً. تبهرنا واجهات المحال المضاءة باكراً، قبل أن يحل الظلام. معروضاتها الأسرة، نشتهي كل ما فيها. حتى تلك الأشياء التي لم نرها من قبل، ولا نعرف ما هي، لكنها لا بد أشياء جميلة تقتنى أو تؤكل أو تشرب !.. الكراسي على الأرصفة أمام الحوانيت والمقاهي، يجلس عليها رجال من ذوي الطرابيش، أمام بعضهم الأراجيل ينفثون دخانها، وقد رشت الأرض بالماء، فانتشرت في الجو رائحة الرطوبة المتربة. هذا (مقهى الانشراح) المشهور. حتى في بينا يأتون على ذكره. جدرانه جميعاً من الزجاج، ينبؤنا زوج خالتي. كان على وشك أن يقول شيئاً آخر، لكنه كف بغتة عن الكلام، حينما انحني يمد

نصف جسده إلى خارج الحنطور محملاً بدهشة، ثم يهتف مثيراً فزعنا: (انظري يا نعمة.. أليس ذلك الرجل هو محمد الشريف...؟).

بادرت خالتي تنظر إلى حيث أشار زوجها. ولكن الرجل كان قد ابتعد قليلاً وهو يسير على الرصيف المقابل، فلم تعرفه إذ كان ظهره فقط بادياً فقالت:

-تعني ذاك الرجل؟ لكنه يضع على رأسه (برنيطة) وهو يرتدي بدلة أيضاً يا (أبو صبحي)..أتق الله يا رجل.. محمد الشريف و(برنيطة).. معقول؟ ولماذا يكون هنا الآن..؟

-هذا ما حيرني يا امرأة. اؤكد لك أنه هو بعينه.. ولكنه ..

-يخلق الله من الشبه أربعين.. محمد الشريف؟ وحد الله يا رجل !..

استوى في مجلسه، وهو يضرب كفاً بكف متسائلاً، يقرع نفسه، لماذا لم يوقف الحنطور فور رؤيته لكي يلحق به، ثم قرر فجأة أن يفعل ذلك. لقد الحوذي قرشاً. هرونا وراء (الهندي) مسرعين. ولكن عبثاً ذهبت محاولتنا. فالرجل الذي يسعى للحاق به ضاع وسط الزحام، حين أمسينا عند ناصية شارع يافا تل أبيب الملتقية شارع جمال باشا. أسقط في يده. ولبت حائراً، يضرب أخماساً في أسداس، مردداً كمن يحدث نفسه "محمد الشريف.. ما الذي جاء بك إلى يافا في هذا الوقت وبهذا الزي؟ (برنيطة وبدلة) يا محمد الشريف؟ وتختفي أيضاً في هذا الشارع.. يافا - تل أبيب، الذي تقع فيه دائرة (C.I.D) للبوليس والأمن...؟".

(ياص بينا سافر منذ قليل). هكذا قال أحدهم. أين نمضي الليلة إذن؟ ارتأيا أخيراً، خالتي وزوجها، بعد المداولة، أن نذهب إلى منزل (أبو زكي العبسي) جارنا في يينا، الذي يعمل منادياً في كراج بامية، ويقيم وأسرته في يافا منذ زمن. الأمر الذي يحسده عليه بعض أهالي قريتنا.

يقع منزلهم في يافا القديمة. سلطنا إليه طريقاً ضيقاً بعد أن مررنا بساحة (الساعة) توقفنا أمامها ملياً. ذلك البناء من الحجر الرملي العتيق، الذي ثبتت عند قمته الهرمية الشكل ساعة كبيرة، تدق في أوقاتها، بحيث أصبحت دقاتها سمة ومعلماً لرواد الساحة، وسكان ما حولها من بيوت وحوانيت. رائحة البحر الملحية تعبق حارات يافا القديمة، ذات الأضواء الواهنة. قبل أن نلج الزقاق المفضي إلى المنزل المنشود، سلطنا شارعاً حديثاً عريضاً، بدا واضحاً تنافره مع عراقة المكان. قيل أن السلطات البريطانية شقته هنا، بعد أن هدمت ما بنوف على مائة منزل، قامت بنسفها، بحجة تحسين المدينة، في حين كان الهدف أمنياً وانتقامياً معاً، رداً على عمليات الثوار أيام الثورة. كما نسفت أجزاء من المناطق الشمالية والجنوبية من المدينة القديمة، فأحالتها إلى أنقاض، متذرعة بالأسباب ذاتها. وهكذا شوهدت المدينة وأزالّت من الوجود آثاراً تشهد على حضارة عريقة قائمة منذ آلاف السنين. زعموا أنهم سيدفعون تعويضات لأصحابها!.. ولكن ما الذي يمكن أن يعوّض خسارة تاريخ وحضارة؟ هذا ما كان يردده العديد من أهالي البلدة القديمة في يافا.

في منزل العم (أبو زكي العبسي) قضينا أمسيّتنا، بصحبة جيران جاءوا إليهم، حين سمعوا بأن لديهم زواراً من بلدهم، لكي يشاركوهم سهرهم وسمهرهم. كما في كل مكان آخر، دار حديثهم حول الإنكليز و اليهود والهجرة، جور حكومة الانتداب، وصنيعها في يافا حيث هم الآن. ينتابنا الضيق أنا و فوزي إذ أننا لم نحسب، منذ البداية، أن جل رحلتنا سوف ينقضي في الاستماع إلى الكبار، الذين لا همّ لهم سوى الحديث عن الثورة.. بطولاتها، مآسيها، مظالم الاستعمار وتجاوزاته على الحقوق والبشر، واليهود وأطماعهم في بلادنا. ولكن

ماذا نصنع؟ ليس في وسعنا غير الصمت والاستماع أيضاً...! كان أبو زكي، لا ينفك عن ترديد عبارات الترحيب، التي لو أحصيناها (أنا وفوزي) لبلغت أرقاماً عالية...! كذلك كانت الخالة (أم زكي) التي أبدت مودتها وحبها للخالة نعمة، على وجه الخصوص. كما انهم - العم أبو زكي وحرمة - لم يدعا سائحة تمر دون الاستفادة منها للمباهاة بما هما فيه. سواء العمل أو الأقامة في يافا، الأمر الذي يتمناه الكثير من القرويين. قدمت لنا (أم زكي) عشاء يافاوياً سخياً، على غير ما ألفنا في بيانا. أطباق عديدة حفلت بأصناف شتى من الطعام. و لا ينفك الرجل وحرمة يقسمان علينا بأن نتناول المزيد. ولكن على الرغم من رغبتنا أنا وفوزي الاستجابة لرجائهما - برّاً بالقسم على الأقل - إلا أننا لم نجرؤ على ذلك، أمام نظرات خالتي المحذرة.

في الصباح الباكر مضينا بصحبة العم (أبو زكي) إلى كراج بامية، ولكن ليس قبل إفطار شهّي، وسخي أيضاً، أصرّاً على تقديمه لنا، كي لا نشهرّ بهم لدى أهل بيانا. كأن نقول بأننا خرجنا من لدنهم دون أن يقوموا بواجبهم نحونا. قال هذا العم (أبو زكي) وهو يقهقه عالياً ويضرب بكفه الثقيلة على كتف عمنا عبد الكريم الهندي...!

نفى محمد الشريف أن يكون هو ذلك الرجل الذي شوهد في يافا، حينما سئل من قبل بعضهم، وبعد أن أشاع القصة زوج خالتي، حتى بلغت أسماع أهل القرية كافة. ادعى بأنه كان في القدس لأداء صلاة الجمعة اليتيمة ..! صدقه بعض فيما شك في أمره آخرون. بيد أن هذه المسألة نسيت تماماً يوم حادث مقتل المعلمة يسرى اليافاوية، فقد كان حادثاً غريباً، ومثيراً قلب حياة القرية رأساً على عقب لزمّن غير يسير. كانت يسرى، المعلمة الوحيدة في مدرسة البنات، التي استحدثت قبل عامين. تقطن وحدها داراً صغيرة، على مقربة من المدرسة. ذات صباح، و حين افتقدت لغيابها، كان طبيعياً أن يُتحرّى عنها في منزلها، فاكشف عندئذ أنها قتلت بطعنات في صدرها. شاع في القرية أن يسرى كانت في حال توجي بأنها تعرضت لمحاولة اعتداء عليها، قبل أن تتلقى الطعنات القاتلة. قيل أنها كانت بملابس نومها التي تمزقت، وخصلة شعر وجدت في قبضة يدها المتبسة. ثم تشعبت الروايات إلى فروع عديدة، كل منها يذهب في اتجاه. من بينها همس تردد في أكثر من مكان بأن المختار الشاب (أسعد الرنتيسي) هو الجاني، حيث كان الرجل موضوع أقاويل من قبل، مؤاذاً أنه كان معجبا بها. بل قيل إنه عرض عليها أن تكون ثالثة زوجاته، إلا أنها رفضت، مما حدا ببعضهم أن يردد أقولاً مثل: (حاميتها حراميتها ..) و(حرامي الدار أعيا كل حارس)...

كان يوماً مشهوداً في بينا. سيارات البوليس. ضباط عرب وانكليز بزياتهم الزرقاء والنجوم اللامعة على أكتافهم. تجمعات في كل مكان، لا سيما أرصفة المقاهي وفي ظل الجميزة. استدعى عدد كبير من الشبان، حتى أولئك الذين لم يكن للشبهات أن تحوم حولهم بحال. ومن بين هؤلاء أخي سعيد، الذي عاد مؤخراً من غيبة طويلة في شمال البلاد. كان التحقيق يجري في دار المختار (الحاج أبو عون)، وبحضور محمد اليوسف، مما أثار حفيظة آل النجار، وعلى رأسهم عميدهم محمد طه، وإن لم يستدع هذا إلى التحقيق. إلا أن عودة محمد اليوسف إلى واجهة الظهور والنفوذ، على هذا النحو السافر ساءه وآلمه. هذا ما

أخذ الناس يلغطون به، ويتحسبون لنتائج واحتمالاته. أما محمد الشريف فقد نفى حين دعي إلى التحقيق، أن يكون على علم، أو أنه يشك في أحد من أهل القرية. بل وأكد أن الفاعل لا بد وأن يكون من خارجها. ثم أردف بأنه يقول قوله هذا ويستغفر الله العظيم إذ إن بعض الظن إثم !..

لم يسفر التحقيق، كما لم تكشف التحريات، في نهاية الأمر عن شيء. غير أن الشائعات ما برحت تحوم حول المختار، الذي أبدى عدم اكتراثه بما يتقولون عنه، مؤكداً للمستريبيين في أمره بأن أعداءه من أيام الثورة، هم الذين يعملون على الكيد له والأيقاع به. كما أنه نسب شيئاً من هذا القيل إلى منافسيه على منصب (المخترة) الذي فاز به من دونهم !..

مضى زمن هدأت فيه الضجة القائمة حول مقتل المعلمة. انصرف الناس إلى قضاياهم وأعمالهم. وعادت من جديد مشكلة البحث عن عمل. تلك المشكلة التي أفضت مضجع والدتي. ولكن العم عبد الغني رأى أن يسدي لها معروفاً، فطلب إليها أن ترسلني معه للعمل في قطاف الزيتون في الرملة، لأسبوعين أو نحوهما. وإزاء تأكيده بأنه سوف (يضعني في عينيه). وبدافع من الضرورة الملحة، لم تجد مناصاً من الموافقة .

اتخذ لنا العم عبد الغني سكناً قريباً من الجامع في مدينة الرملة. غرفة كبيرة أمامها باحة فسيحة، تسلفت أشجار الياسمين على جدرانها العالية. نمنا جميعاً في تلك الغرفة. أنا وعم عبد الغني قريباً من بابها، وابنتا أخيه (عزيزة وآمنة) ورفيقتهما (خديجة) في صدرها. عند الفجر، في يومنا الأول مضيت والعم إلى الجامع المجاور. كان النوم لما يزل مسيطراً طاغياً. لم أكن راغباً في الذهاب في مثل هذا الوقت المبكر. وددت لو أنني أعود ثانية إلى النوم. لكن الرجل نبهني إلى النداء الذي كان يعلن ساعتئذ : (الصلاة خير من النوم). توضأنا من حنفيات الماء المنبثة حول بركة تتوسط صحن الجامع. عدد غير قليل من الناس يفعلون الشيء ذاته. ازدهى المكان حياة وصحوا وضياء، رغم أن الظلام ما برح يغشى أرجاء الكون.

كنّ في انتظار عودتنا عقب صلاة الفجر، وقد ارتدين ثيابهن و وقفن متأهبات للانطلاق مع عم عبد الغني إلى حقل لا يبعد كثيراً عن أطراف المدينة، حيث التقينا هناك أعداداً من العمال والعاملات، وفدوا من قرى مجاورة. كان عليّ بوصفي (ولداً نحيلاً وخفيفاً) أن أصعد إلى أعالي أشجار الزيتون المعمرة،

لكي أسقط عن قممها ثمارها. من أجل ذلك زودني الرجل بعصا طويلة، أجدُّ بها الأغصان والثمار، ليقوم الآخرون ممن تحت الأشجار بجمعها في سلال يحملونها.

كان عملاً شاقاً مرهقاً. بيد أن رفقة الأولاد والبنات، وتبادل الدعابة، والأغاني والأهازيج والمواويل.. كل ذلك كان قميناً بأن يجعل الأمر هيناً، بل مشوقاً أيضاً. نقضي العصر والأمسيات معا في تلك الدار الصغيرة. أمكث وحدي مع الفتيات حين يمضي عم عبد الغني إلى مقهى قريب، أو إلى السوق كي يتنازع لنا خبزاً وجبناً، وربما شيئاً من الفول وأقراص الفلافل. عزيزة أكثر الفتيات مشاكسة، تتعمد استفزازي وإثارتني. هي حيناً تخطف كسرة خبز، أو قرصاً من الفلافل في يدي، محاذرة أن يلحمها العم، غير آبهة باحتجاجي، فيما بعد، حين لا يكون الرجل معنا. وفيما آخذ الأمر على محمل الجد، تتفجر ضاحكة تشاركها رفيقتها الضحك، فضلاً عن تعليقات لاذعة. اختطفت من يدي ذات مرة - وكنا وحدنا ساعتئذ - منديلاً اشتريته كي أقدمه هدية لمريم عند عودتي المظفرة. حدث ذلك حين عرضته عليها مباهاة ولأخذ رأيها عما إذا كان هدية لائقة!.. دسّت المنديل في صدرها، وهي تعلن أنها سوف تأخذه لنفسها، فهي أولى به من مريم هذه. وأن عليّ (إن كنت شاطرًا) أن أجرؤ على إخراجه من مخبئه!..

ثرت واضطربت.. كيف لي أن أمد يدي إلى صدرها؟ وماذا ستفعل هي عندئذ لو أنني أقدمت على ذلك؟ ربما تصرخ.. تشتم.. من يدري!.. كلا لن أسترجع المنديل من هذا المخبأ الحصين المحفوف بالمخاطر!.. ولما رأيت (خبيتي) هكذا بدا عليها، أمسكت بيدي لتدفع بها إلى حيث خبأت المنديل. أحسست بقشعريرة غريبة، إذ وجدتُها - يدي - تلامس لحماً طرياً ساخناً. اقتربت مني حتى لامست وجهي خصلات شعرها، ولفحته أنفاسها اللاهثة. اقتربت أكثر حتى لامس خدها صفحة وجهي، وأحسست بدفع جسدها حين التصقت بي. تراجعت فجأة مبتعداً عنها، فأجفلت إذ كانت مسيلة العينين .

كان ذلك مخيفاً.. ورائعاً أيضاً. عدوت نحو باب الدار، مبهور الأنفاس، مأخوذاً مرتبكاً، لكنني لم ألبث أن عدت.. اقتربت منها.. مددت يدي نحو صدرها لاستخراج المنديل من مخبئه.. لكنها هي التي ابتعدت الآن، وهي ترسل ضحكة متحدية، وتلوح بسباتها في شقاوة قاتلة :

.. لا يا شاطر .. كنت من الأول!..

بتنا نتحين الفرص، بعد ذلك، بل نختلقها اختلاقاً كي نبقي وحدنا، إلى أن أحست خديجة بما يجري. لكن هذا حدث في اليومين الأخيرين، حين كنا نزمع العودة إلى بينانا الحبيبة. انتابنتي مشاعر متباينة، تراوح بين الرغبة في أن تطول مدة بقائنا هنا، وبين الحنين إلى الوالدة التي أغيب عنها، لأول مرة، كل هذا الوقت. بدت الأشجار أكثر دفئاً ومودة في الأيام الأخيرة.. ورائحة الأرض المبللة بالندى شهية محببة، تشيع في صدري وجداً وحنيناً.. وعصافير الدوري التي تحط على الأشجار، أو تهبط إلى الأرض تلتقط الحب، ثم تطير محلقة في الفضاء الواسع.. ونسمات الخريف الباردة تنبئ بشتاء قريب. أود لو أعانق الأشجار والعصافير في الكروم، والياسمين على الجدران، وخضرة الأرض وزرقة السماء، وقطرات الندى المتلألئة.. عزيزة وخديجة.. وحتى عم عبد الغني ..!

في أرجاء حقول الرملة.. على مشارفها، وفي طرقاتها، يضطرب مهرجان قطاف الزيتون بعنفوانه المثير، وصخبه البديع. غصت الطرقات والحقول بزرافات من العاملين، رجالاً ونساءً، غلماناً وفتيات، يحملون سلالهم وعصيهم وزوائد طعامهم.. أشواقهم وأهازيجهم، بملابسهم المتباينة في أشكالها وألوانها. كما اكتظت بقوافل العربات والدواب، التي ناعت بأحمالها وأثقالها. وجهتها معاصر الزيتون. تعالى الغبار المنبعث من وفرة الزحام والحركة، محملاً برائحة الزيت والزيتون، وقد اختلطت بروائح عرق الدواب وروثها. بدت المدينة عن كثب بقبابها ومآذنها ودورها البيضاء. عرس للطبيعة والبشر، في خضم حياة مؤارة، جمعت ذلك المزيج المتألف مابين عناصر الطبيعة والإنسان، والحيوان جميعاً. أثار كل أولئك في نفسي أحاسيس مفعمة بالحنين والشجن ..

أهمس في ضراعة :

- يا عم عبد الغني متى نعود ؟

تنظر الفتيات الثلاث إليّ. لعلهن أدركن مابي.. يربت العم عبد الغني على كتفي، مبتسماً، وكأنما هو الآخر قد أحس ما يضطرب بين جوانحي ويقول :

- غداً أو بعد غد ياولدي

آه.. لكأن دهرًا ينقضي قبل أن نعود .

قيل لنا عند بوابة المعسكر بأن على من لا يحمل (هوية) شخصية أن يحصل عليها أولاً، وقبل التقدم لطلب عمل. سأل واحد من بين الواقفين عما إذا كان ممكناً النظر في شأن الهوية بعد معرفة النتائج، فمن أسعده الحظ وبمن الطالع بالقبول التزم بإحضارها. رفض الرجل القابع في الغرفة الصغيرة عند البوابة، التي كانت سيارات الجيش تعبرها بين لحظة وأخرى. قال الرجل متأففاً:

-انصرفوا وافعلوا ما قلت لكم وإلا فلا عمل لكم هنا .

كان بديناً، منتفخ الأوداج، ممتنع الوجه، حتى ليبدو كصفحة نحاس قديمة، ما إن تنظر إليه حتى تبغضه على الفور. الحراس الانكليز بقبعاتهم قرمزية اللون، وبدلات الخاكي، وشارات لامعة لا ندري ما هي، على الأكتاف والصدور ومقدمة القبعة. كان منظرهم مهيباً، باعثاً على الرهبة، حين تذكرت دورياتهم التي كانت تداهم القرية فيما مضى، وضابط المحطة الشهير بجرائمه وقسوته.. إنهم هم أنفسهم !..

غداة اليوم التالي، منذ لاحت تباشير الفجر، شرعنا نغذ السير متوجهين إلى مدينة الرملة، من أجل الحصول على الهوية. (الباص) المغادر للقرية لا يتحرك قبل أن يجتمع له العدد الكافي من الركاب لشغل مقاعده. من ثم كان علينا، لكي نضمن الوصول إليها أثناء الدوام، أن نقصدها سيراً على الأقدام.

سبعة كنا، من بينهم نعيم أبو جلاله وسليمان أبو سليمان، وكنت أصغرهم. نمضي عبر الحقول والبيارات إلى وادي حنين أولاً، ثم نتجه شرقاً إلى الرملة. تصافح وجوهنا نسمات الصباح الندية. تحط العصافير على الأشجار رفوفاً، ثم تطير حين تحس اقترابنا منها. بلغ مني الأعياء مبلغاً، إلا أنني لم أفصح عن ذلك تحاشياً لسخرية تصدر عن أحدهم. أتحرق شوقاً للحصول على الهوية، ومن ثم على عمل في معسكر قطرة. العمل في معسكرات الانكليز جيد وممتع، كما يقول العاملون فيها، فضلاً عن الأجر المغربي. ثم إن هذا العمل - هكذا حدثت

نفسي - خير على أية حال، من حمل سلال البرتقال في موسمه الوشيك، وجدّ الزيتون، وسقي البيارات، أو تعبيد الطرقات مع المتعهد (عبد الله أبو غوش). عملت مع هذا الأخير يومين اثنين، لم أستطع أن أضيف إليهما ثالثاً. كان العمل يبدأ مع شروق الشمس ولا ينتهي إلا مع غروبها. وهو إما تكسير الحجارة تحت وهجها اللافت، وإما نقلها بالقفّة إلى المختصين برصفها توطئة لرشها بطبقة من القار الساخن ذات الرائحة النفاذه المثيرة مع بخارها المتصاعد.

كان ذلك على الطريق بين بينا واسدود، بمحاذاة خط السكة الحديد الذاهب إلى رفح فمصر. وعلى الرغم مما نحن عليه من عناء وفرحنا مرأى قطار الصباح المتجه شمالاً إلى محطة اللد، وقطار العصر المتجه جنوباً صوب مصر. نتوقف لحظتنا عن حمل الحصى وتكسير الحجارة. نعد عربات القطار، ونلوح لركابه الذين يبادلوننا الهتاف وحركات الأيدي والصفير !! تمنيت لو أنني كنت واحداً منهم. أشجار الكينا العالية، واحتنا الظليلة في قيط الظهيرة، ساعة تناول الغداء من الزوادة التي كنا نشرع في ترقبها وانتظارها، ونعد الدقائق لحلول موعدها، حتى قبل أن يبدأ نهارنا بحمل القفّة الأولى. سيكون الأمر مختلفاً في معسكر الانكليز. لا أرى سبباً واحداً يحول دون قبولي للعمل فيه، بل إنني أزيد على بعض المتقدمين، بأنني واحد من بين قلائل تعلموا الانكليزية، الأمر الذي سوف يأخونه في الحسبان، دونما ريب !! تصورت هذا كله أثناء عودتنا. بل لقد حلمت به، فكان من شأنه أن خلق لدي الاحساس بأن الطريق إبان العودة كان أقصر .

أعلنت فرحتي على الملأ حين اجتزت الاختبار للعمل في معسكر قطرة. قبلت مع ثلاثة آخرين من بينهم نعيم أبو جلاله. أما العمل فمراسل مكتب ،يدعونه (office Boy). كان نصيب الصديق نعيم العمل في مطبخ الضباط، على الرغم من جهله المطبخ بشؤون الطبخ. وددت لو أطير إلى بينا، كي أرف إلى والدتي النبا العظيم .(لا سيما وإن راتبك سوف يكون أربعة جنيهات.. يا بطل)!!

كدت لا أصدق أنني أنا الذي سوف يعمل في ذلك المكتب الرائع بمعسكر قطرة. الغرف نظيفة لامعة. أرضها وجدرانها من الخشب. المراوح الكهربائية التي تدور من تلقاء نفسها يا أولاد!! كنا نسمع عنها فيما مضى، ونشكُّ أصلاً في وجودها كحقيقة. لم أكن أصدق أن هناك رفاهية من هذا القبيل، يمكن أن تتاح لكائن ما ،حتى لو كان هذا انكليزيا !! عدد من الفتيات

الجماليات، يعملن هنا جنباً إلى جنب مع عدد من الرجال.. بعضهم يرتدي ملابس مدنية، والآخر من الانكليز بزياتهم العسكرية. أثار دهشتنا أن هؤلاء الانكليز ليسوا كالذين عرفناهم فيما سلف. يتحلى هؤلاء بتهذيب ودمائه على نحو ما. بل هم حين يصدرون إليك أمراً يقدمون لذلك بقولهم (من فضلك) أو (إذا أمكن)..! لقد منحوني قبل أن يمضي أسبوع واحد على تعييني في هذه الوظيفة الرائعة، دراجة انكليزية خضراء بلون سياراتهم.. جديدة تماماً، ذكرتني على الفور بتلك الدراجة الصدئة المتأكلة، التي سبق أن اشتراها سعيد منذ شهر، من ابن (ابو هاشم)، بجنيهين اثنين، فأقامت والدتي الدنيا على رأسه ولم تقعدهما، إلا بعد أن أعادها إلى أصحابها، واستعاد ثمنها بتوسط من أهل الخير، الذين تطوعوا لفض النزاع حول الصفقة ..! همست بيني وبين نفسي ..(هذه بركات دعواتك يا أم سعيد ..!).

مس ريبا - كما كانوا ينادونها - كانت الأجل بين العاملات في مكتب إدارة المعسكر هذا. بيضاء، ذات شعر ذهبي، وعينين زرقاوين واسعتين تتيران في المرء أي شيء عدا الاطمئنان إلى صاحبتها. يزيد بياضها نضاعة تلك الثياب السوداء، التي ترتديها في أكثر الأحيان. معتدة بنفسها، ومتعالية في مسلكها، حتى على أقرانها. أما أنا فهي بالكاد تنظر إلي. بل إنها حين تناولني مظروفاً لأنقله إلى الغرفة المجاورة، تظل مطرقة تنظر في أوراق أمامها، متعمدة ألا تعيرني التفاتا. أما (مس سارة) فسمراء شرقية الملامح، ذات عينين شديدي السواد، كشعرها الأسود الفاحم. ممثلة أكثر من زميلتها (ريبّا) البادية النحول. سارة هذه تتعامل برقة أكثر. وحين لم يكن لديّ عمل هنا أو هناك، لدقائق أو لساعة من الوقت أجلس في غرفتها. يحلو لي عندئذ، أكثر من أي شيء آخر أن أرقب أناملها الرشيقة وهي تعزف على الآلة الكاتبة. أعجب كيف يمكنها أن تفعل ذلك بتلك السرعة الفائقة، وحتى دون أن تنظر إلى الآلة نفسها. حاولت، ذات مرة، أن أختلس طباعة كلمات على تلك الآلة، عندما خرجت لشأن ما. وحينما تعرفت حركة الآلة عالجتها مضطرباً، أحرك مفتاحاً، أضغط زراً، في محاولة لأعادتها، سيرتها الأولى، فكسرت شيئاً ما فيها. أصابني الذعر، وتوقعت أسوأ ما يمكن أن يحدث.. وقفي عن العمل. عندما عادت (مس سارة) أدركت على الفور ما حدث فور لمسها الآلة بيدها. حدقت في وجهي بإمعان. لم أفهم معنى نظرتها المحايدة التي رمقتني بها، ولكنني أيقنت أنها سوف ترفع الأمر برمته إلى أحد (مسترين) سميث أو فوكس. بيد أنها فاجأتني بابتسامة

أعقبتها قولها، وهي تضم ذراعيها إلى صدرها الناهض :

ماذا فعلت يا ملعون ...؟

لم أصدق ما سمعت. فرحت كثيراً.. لن يعلم بذلك إذن (المستر) فوكس على وجه التحديد. ولن أفصل من العمل أيضاً ...! (ياما انت كريم يا رب) ..!

المستر فوكس والعدد الآخر من الموظفين المدنيين كانوا يهوداً. يجلس بعضهم أحياناً في الردهة أمام المبنى في فترة الاستراحة، وحدهم أو بصحبة الانكليز في أكثر الأحيان. يصل إليّ بعض حديثهم عن كتب، حتى لو لم أتعمد سماعه. أفهم بعضه، ولا أفقه بعضه الآخر. ولكنني أحاول الربط حينئذ، بين ما أدركه وما لا أدركه من ذلك الحديث لعلّي أعرف عمّ يتحدثون، ولا سيما حين يذكرون (العرب)، حيث ألمح العداء في وجوههم واضحاً جلياً .

بدوا ذات يوم على قدر من الابتهاج، لم يسبق أن ظهر عليهم مثله من قبل. بل ذلك كان حال جميع من في المعسكر. كالهتاف وتبادل التهاني والقبلات بين الرجال والنساء .

ترى ما هو مبعث فرحهم اليوم؟ ما الذي حدث؟ مع نهايات ذلك النهار علمنا أن الألمان يتراجعون، ولأول مرة، على جبهة هامة جداً، هي جبهة العلمين. حيث أن مارشالا انكليزيا يدعى (برنارد مونتجمري) استطاع اكتساح خطوطهم، وأن يوقع بهم هزيمة منكرة. معنى هذا اندحار جيوش (رومل) القائد الألماني الأسطورة، الذي لم يهزم في معركة قط، بل هو صاحب الاسم الذي يثير مجرد ذكره الرعب في صفوف القوات البريطانية.. كأن الانكليز أنفسهم لا يصدقون ذلك ..!

عكس ذلك تماماً كان الحال عندما نحن العرب. إذ كان ما هو مفرح لهم لا بد أن يكون مصدر تعاسة ونذير شؤم لنا. استقبل العرب هذه الأنباء بالوجوم والتشاؤم، في كل مكان .

مثلما أثارت إعجابي بزّات الضباط الانكليز، وما عليها من شارات على الأكتاف والصدور، بهرتني الألوان الزاهية، بل الساحرة على البولونيات. الشعر الذهبي المرسل.. حمرة الوجوه والشفاه.. بياض البشرة. اليزات الكاكي العسكرية والقبعة المائلة على الرأس، ينساب الشعر الحريري على الظهر والكفين، يطّيره الهواء، فيلامس الجيد ويستقر أو يتريث على الصدر ..

سارة منشرجة الصدر في هذا الصباح. مع خطواتها يتضوع شذى عطر ساحر حين تدلف إلى المكتب. لعلها الوحيدة، التي تملك ذلك الشعر الفاحم، ترسله على كتفها، بين الشقراوات. القميص الأبيض نافر عند أعلى صدرها أكثر مما كان يبدو في الأيام الماضية. سلسلة ذهبية تتدلى من جيدها، ثم يختفي طرفها داخله.. (التتورة) السوداء الضيقة جداً على قوامها فترغمها على تضيق خطواتها، يصاحبها إيقاع دقات كعب حذاءها على أرض المكتب. أختلس النظر إليها بحذر خشية أن تمسك بي مثلبساً. لكنها سرعان ما تحس ذلك. خطت نحوي، وهي تثبت نظرتها إلى عيني. أطرقت سريعاً.. قرصت خدي وهي تضحك بصوت مرتفع قائلة بالعربية :

..(كل مالك بتصير ملعون يا أمين ..!)

بعد قليل، أوقفت الضرب على الآلة الكاتبة. ثم دعنتي لمرافقتها إلى مقصف الضباط، الذي كان قد خلا من رواده، كالعادة بعد التاسعة. جاءتنا فتاة (منهن أيضاً) بكوبين كبيرين من الشاي الممزوج بالحليب، وقطعتي كعك. طلبت إليّ سارة عقب انصراف الفتاة، أن أجلس إلى جوارها. وإذ بدا عليّ التردد والارتباك، قطبت جبينها قليلاً، وهي تكتم ضحكة توشك أن تفلت منها، ثم قالت بلهجة أمرة، مشيرة بيدها إلى المقعد المجاور لها :

-قلت لك تعال واجلس هنا يا أمين ..

تناولت مجلة ملونة فتحتها وهي تردف قائلة :

-تعال انظر إلى هذه الصور ..

لم يكن في وسعي غير الانصياع لطلبها، فبادرت إلى الجلوس حيث أشارت، تاركاً مسافة بيني وبينها، محاذراً لمس جسدها الذي أصبحت ملاصقاً له في هذا الوضع، إلا أنها قرّبت كرسيها حتى لامست ساقها العارية عند الركبة ساقى العارية أيضاً، في نفس الموضع، بسبب الشورت الذي كنت أرتديه. شرعت تقلب صفحات المجلة، فيما هي لا تكف عن الحركة، وعن تبديل وضع ساقها، واحدة فوق الأخرى بالتناوب، وكأن ذلك يحدث عفواً و عن غير قصد. اعترتني أحاسيس غريبة مثيرة، لكن سارة لم تدعني أمضي بعيداً قبل أن تسألني بغتة، وهي لا تفناً تحديق في المجلة :

-أتحب اليهود أم تكرهمهم يا أمين ؟

فاجأني تماماً سؤالها. أدهشني عدم انتظاري سؤالاً كهذا؟ تلكأت قليلاً قبل أن أجيب :

-ليس كلهم .

-كيف... ماذا تعني بقولك ليس كلهم ؟..

-لا أكرهك أنت يا مس سارة ...

-تكره الآخرين إذن ؟..

-لم أقل ذلك ..! لكن خذي مس ريباً مثلاً ..

حدقت في وجهي بنظرة ثابتة، لم أعدها في عينيها من قبل. ثم قالت بعد برهة صمت، خلتها طويلة، بصوت هادئ يراوح بين الرجاء والأمر :

-لا تكرهمهم يا أمين لأي سبب. لأنهم بؤساء مساكين. هنثر يعمل فيهم القتل. وهم يأتون إلى هذه البلاد للنجاة بأرواحهم، هم عائدون إلى أرضهم الموعودة ..!

حيرني قولها "عائدون إلى أرضهم". وحين استفسرت عن معنى قولها هذا التزمت الصمت .

في هذه اللحظة أقبلت فتاة الصالة، بخطواتها الثابتة الرشيق، لتطلب إلى سارة بالانكليزية، الذهاب إلى المكتب، بناء على طلب وردها. نهضت سارة على الفور. طلبت إليّ البقاء حيث أنا ريثما تعود. لبثت في مكاني بعض الوقت أتأمل المكان، وكأنني أراه لأول مرة .(ميس الضباط) هذا يرتاده ضباط المعسكر، والنساء البولونيات في الليل. يسهرون ويعربدون من باب الترفيه عن

أولئك الضباط. ملحق به ما يسمونه (الكانتين). حيث يجدون فيه ما يرغبون من أطعمة ومشروبات.. وهدايا.. أدوات كتابة، بطاقات معايدة.. وغير ذلك مما لا يحيط به حصر..

وحين طالت غيبة سارة، بادرت للعودة إلى المكتب. وهو ملاصق تماماً للصالة، لا يفصلها عنه سوى طريقة طويلة. وفيما كنت أمر بالنافذة المفتوحة على تلك الطريقة، والتي تجلس فيها (مس ريبا)، سمعت حواراً بينهما بصوت مرتفع، يتسم بالحدة، حينما توقفت قليلاً بعيداً عن النافذة، قبل أن أتابع سيرى إلى المكتب. أمسكتا عن الحديث فور دخولي. أدركت أنني كنت موضوع حديثهما ذاك، حينما نظرت إليّ (ريبّا)، التي بدا على وجهها التجهّم والاستياء. بل لعله الغضب. ثم ما لبثت هذه أن غادرت الغرفة بسرعة، توشك أن تجتاحني بجسدها الفاتر وعطرها المثير. أكدت ظنوني نظرات سارة المتفحصة، لكنها سرعان ما ابتسمت، وهي تشير نحو الباب قائلة :

-مجنونة ريبّا هذه !..

ثم انصرفت للضرب على الآلة الكاتبة، غير منتظرة تعقيباً مني. " ما معنى هذا؟ ما الحكاية؟ ما شأنهما بي ؟.. " .

إبان العودة حدثت نعيم بشأنهما، لكنه كان مهتماً أكثر بالحديث عن الطبخ، والطهي، والطعام المتاح له تناوله هناك، بحرية مطلقة لا حسيب عليه ولا رقيب.. لحوم، معكرونة، (بولبييف)، معلبات مختلفة الأنواع مما لم يره من قبل.

-تصور يا أمين فواكه تعوم في القطر معبأة في علب !.. تفاح.. دراق وهذا الأنا.. أنا.. آه أنا ناس. حتى الخبار معبأ في علب. أما ذلك الكعك الذي يسمونه بودنج (puding).. يا سلام يا أمين (اللي أعطاني يعطيك)..! ثم انطلق بعد ذلك، يتحدث مندهشاً عن الشقراوات البولونيات، اللواتي يحضرن بصحبة الضباط. وكيف أنهم يتعاقبون، بل هم يتبادلون القبلات هكذا جهاراً نهاراً، في الطرقات !.. تحدث أيضاً عن رئيس الطباخين (أبوعثمان) الذي يحلّوله أن يلقي بالأطعمة الفاخرة في صناديق القمامة، وأنه لا يتورع عن أن يذل أكثر من نصف خزان الشاي، الممزوج بالسكر والحليب، في البالوعة...! يفعل هذا كله لا شيء سوى الكيد للانكليز على طريقته. لكي يوقع بهم خسارة ماء، هي إسهامه في حدود قدرته بمساعدة الألمان في حربهم ضدهم !.. ما يتلفه أبو

عثمان من هذه المواد يا أمين يمكن أن يطعم نصف أهالي بيينا ..!

تذكرت نعيم وأبو عثمان و المعسكر في المساء، حين جلسنا نتناول عشاءنا من الخبيزة، التي تجيد والدتي طهوها. ولكني منذ البداية لا أستسيغها، فامتعت عن العشاء. وحين أبدى سعيد تذمره أيضاً، لأنه بالأمس لم يأكل سوى هذه الخبيزة، وحدث أن علياء أخذت تبكي لأنها تريد شيئاً آخر، انفجرت والدتي صائحة منددة.. (هذا اللي شاطرين فيه.. وانت يا سعيد لا منك و لا كفاية شرك.. اشتغل وجيب يمه.. ما أنت صرت طول الباب ما شاء الله عليك ..!).

ولكن (سعيد) الذي تعود على ثوراتها المفاجئة لا يبدي اكتراثاً. بل هو يثير حنقها أكثر حين يعمد إلى تهدئة ثائرتها بالضحك، أو بالاقتراب منها ليطلع قبلة على جبينها. عندئذ تدفعه عنها ساخطة، وتضرب له المثل بأخيه الأصغر قائلة - أخوك الصغير هذا حامل همنا ..(وانت داير على حل شعرك)..! ويزيد الطين بلة حين يطلب أحمد دفاتر ومساطر.. ثم تتبعه علياء تقلده فتطلب ما طلب، فلا تملك. إلا أن ترفع يديها إلى السماء ضارعة :

-الله يرضى عليك يا أمين رضى القلب ورضى الرب.. أنت لا تطلب شيئاً.. وكل ما هو موجود يعجبك ..(روح يمه الله يرضى عليك بعدد شعر راسك)..!

وقع المطر المتساقط فوق سطح القرميد.. أشجار الكينا ترسل حفيفها في الخارج.. صوت الراديو يأتي من بعيد يعلو ويخفت مع تماوج الريح.. العتمة الموحشة هناك، وراء الباب، جمر (الكانون) يخبو شيئاً فشيئاً.. ضوء السراج الواهن يتأرجح، مرسلًا ظلالاً ورسوماً كثيفة، ذات أشكال مختلفة على السقف والجدران.. أدفن راسي تحت الغطاء لأمضي بعيداً في دنيا بلا حدود.. نعيم ... أبو عثمان ... البولونيات ... سارة ... تحب اليهود ... تكره اليهود ..!

حينما أخبرت والدتي، بعد أيام، بما قالته لي سارة، غضبت وقالت لي :
- لماذا لم ترد عليها ؟..
- وبماذا أرد يا والدتي ؟..
- اسألها كيف تكون هذه أرضها وهي (ما بتحكي عربي..! وهي نفسها من أي داهية إجت).
- لقد سألتها، ولكنها لم تجب.
- كان عليك أن تسألها مرة ومرتين وعشر مرات حتى تجيب ..
صدق من قال (البيت بيت أبونا إجو الغرب يحاسبونا)..
- خشيت أن أغضبها يا أمي ..
- ولماذا تخشى غضبها ؟.. تخشى اليهود أولاد الميتة ؟.. كله إلا هذا يا أمين ..
ذهبت إلى المعسكر غداة اليوم التالي، متحفزاً للرد على سارة، لكنها لم تتح لي أية فرصة لذلك. لقد تجاهلت الموضوع تماماً. أخرجت من حقيبتها قطعتي (شوكلاتة)، قدمت لي واحدة منها ثم - وكأن ذلك يحدث مصادفة - أخرجت منها كتيبا، قلبت أوراقه هنيئة، قبل أن تناولني، لنقول وهي تتحني نحوي، وقد لامست وجهي غدائر شعرها .. (خذ تفرج يا أمين). ثم شرعت تقرأ لي ما هو مكتوب تحت الصور التي احتواها ذلك الكتيب. منها ما هو لشوارع في المستعمرات اليهودية، ومنها صور لمصانع أقمشة، وأخرى لتعليب الأغذية.. مدارس.. تلاميذ في رحلات ... كشافة في مخيمات.. فتيات شبه عاريات.. ثم أخيراً لجنود يهود في الفيلق اليهودي المقاتل مع الحلفاء في شمال أفريقيا. وقبل أن تطوي الصفحة الأخيرة.. ضربت بكفها صدري، ولكن برفق قائلة وهي تبسم :
- أرايت لماذا يجب أن تحب اليهود يا أمين ؟.. عندهم أشياء كهذه ليس

عندكم مثلها ..يعني عندهم حضارة ..! عارف حضارة ماذا تعني؟ و وجدنتي أقول لها :

-يا آنسة سارة هذه حضارة البلاد التي جئتم منها. وحضارة تلك البلاد أصلها من العرب ..

-من قال لك هذا الكلام الفارغ ؟

-أسألتنا وأهلنا.. والكتب أيضاً ..

شغلنا ذلك النهار جو غريب ساد المعسكر. إنهم يرقصون في الشوارع. أصوات الموسيقى وأغاني غير مفهومة من الراديو وأسطوانات الحاكي. كان ذلك ابتهاجاً للنائج التي أسفرت عنها معارك (سئالغراد) وهي هزيمة ساحقة للقوات الألمانية، وخسائر فادحة في صفوفها. فهذا الذي هزم هو الجيش السادس الذي استسلم تسعون ألفاً من جنوده، من بينهم أربعة وعشرون جنرالاً ومارشالاً. ذلك ماتناقلته الأنباء.. الراديو.. الجرائد. فضلاً عن سارة ومن معنا في المكتب.

وبقدر ما كان هذا مبعث سعادة لهم، كان مصدر تعاسة لنا، نحن العرب في المعسكر. ولأنهم يعرفون هذا، عمدوا إلى مماحكتنا، بل إغاضتنا بتصرفاتهم وتعليقاتهم على ما حدث كقولهم :

(.. صاحبكم هتلر انتهى.. خلاص.. بكره تشوفوا.. طالعونا انسوا هتلركم هذا ... لسه بتحبوه ..؟ طيب يا خبيبي خبوه للآخر لما نشوف)..!

كانت سارة هي الوحيدة التي واصلت تعاملها معي كما كانت في السابق. بل إنها أصبحت تداعبني وتضاحكني أكثر من ذي قبل، فعندما نكون وحدنا تلتصق بي، تميل نحوي قائلة وهي تشير بإصبعها إلى وجنتها : (أمين قبلني هنا)..! وإذ أهم بذلك تباغتني بخطف قبلة يشفتيها، وتطيلها أحياناً أكثر مما أحتمل، لا سيما حين تضميني إليها بقوة، ملصقة صدرها المضطرب صعوداً وهبوطاً بصدري، فيأخذ مني الاضطراب والخوف مبلغاً لا أعرف كيف أداريه. لكنها تبادر إلى القول فيما هي تصحح وضع شعرها وملابسها :

.. ملعون.. صرت ملعون يا أمين ..!

أما هذا فلم أجرو على نقله لأمي. إذ هو نقض صارخ لتعليماتها ووصاياها الصارمة، التي لا تفك عن تذكيري بها في كل حين :

.. اليهوديات يمه.. الكفار الملاحين.. دير بالك منهم.. والبولونيات كمان!..
" آه لو رأيتي مع سارة الآن ولكن ماذا تريدني أن أصنع؟ هل أصفعها ؟..
أهرب منها؟ أعرف أنك لا تقبلين هذه الأعداء.. لكنك لست في مكاني
لتعذريني!.."

تجتاحني مشاعر الندم، بل الشعور بالذنب لمخالفتي وصاياها، لكنني
سرعان ما أنسى ذلك عند حدوثه في اليوم التالي !..

حدثني نعيم مساء ذلك النهار عن بولونية صغيرة شقراء. زعم لي بأنها
أحبته، وأنها غدت تسعى لرؤيته كل يوم. وهي تحدثه عن بلادها التي دمرها
الألمان أول اجتياحهم لأوروبا، وعن ذويها الذين قتل بعضهم و اعتقل بعض
آخر، وأنها هي وأمها وحدهما كتبت لهما النجاة من جساتبو هتلر والنازية .
وهي بعد ذلك تنتحب يا أمين من أجل ابنيها المعتقل هناك. تتصورهم يشرحون
جثته لأجراء تجارب عليها، أو يلقون به حياً في أفران الغاز ... هي يهودية
صحيح يا أمين، لكنني لا أملك إلا العطف عليها حين تحدثني عن هذه الولايات
التي حاقت بها وبأمثالها. وهي أيضاً ليست كاليهود الذين نعرفهم هنا !..

أجادل نعيم عندئذ، في مدى صحة ما تقول صديقتي (ماريا). وأتذكر
سارة.. هي أيضاً ليست مثلهم. وعندما تمر بنا كوكبة من النساء البولونيات،
يتأودن في مشيهن، تضيء عليهن اليزات الكاكية، المكوية جيداً، مزيداً من
السحر والفتنة، يعلق نعيم حينئذ بقوله، بجرأة لا أملكها، ربما لأنه يكبرني
بعامين :

".. أكثر ما يسحرني في البولونيات، يا ولدي، سيقانهن المكتنزة البيضاء
كالحرير.. او صدورهن الرجراجة النافرة.. وذلك الشعر الذهبي تحت القبعة
المائلة !.. وملابسهن الكاكي الضيقة جداً.. !"

في طريقي إلى الساحة الواقعة عند أطراف المعسكر من الخارج، يلتقي
العديد منا عند الانصراف. ننتظر سيارة الجيش القادمة من معسكر عاقر، التي
اعتدنا أن نقفز إليها عند الدّوار في رواحنا، كما نقفز منها، عندما تخفف من
سرعتها، في ذات المكان عند مجيئنا في الصباح. هذا الترتيب الذي درجنا عليه
منذ حظينا بالعمل في معسكر قطرة. إذ هم لا يخصصون لنا وسيلة نقل إلى بيوتنا
لقلة عددها، وعلينا إذن أن نتدبر أمرنا بطريقة أو بأخرى. في ذلك العصر ألفت
سيارة نقل مدنية تقف إلى جانب الطريق. عرفت أنها واحدة من سيارات شركة

(سوليل بونيه) اليهودية، التي تتعهد أعمال الانشاءات والطرق للبريطانيين، في معظم أرجاء فلسطين. ولما كانت تقف عند منحدر خفيف، وكنت أحلم دائماً بذلك اليوم الذي أقود فيه سيارة، وأفكر في طريقة القيادة ومنعتها إلى حد الهوس، وكذلك كان شأن أترابي جميعاً. بخيل لي أحياناً بأني أجلس وراء عجلة القيادة.. أحرك المقود.. أرفع قدماً وأضع الأخرى فوق (دواسة البنزين) أو الفرامل ... أنطلق بها كالريح ...! خطر لي ذلك كله في لحظة خاطفة. وسرعان ما وجدتي بداخل سيارة سوليل بونيه هذه. أحل فرملة اليد، وإذا بالسيارة تتحرك حتى قبل أن أفعل أي شيء آخر، لتدرج نحو المنحدر. فوجئت بما حدث وكأني لم أكن أتوقعه.. ماذا أصنع؟ يا إلهي؟ لا وقت للتفكير ولا للتصرف.. إلى أين ستمضي بي ..؟ تملكني الهلع .." إذا ما انقلبت الآن هذه اللعينة.. لو صدمت إنساناً أو حيواناً.. وصايا أمي.. ها أنذا أسوأ من سعيد ..". لكنها وكما تحركت بغتة ودون سابق إنذار توقفت فجأة لدى ارتطامها بصخرة على جانب الطريق، عندما جنحت إلى اليمين قليلاً.. تنهدت عميقاً كأني أخرج جبل الرعب الذي جثم على صدري دهراً. نظرت إلى الصخرة .." لا شك أن دعوات أمك هي التي أوقفتها في اللحظة المناسبة والمكان المناسب، كي تحول دون وقوع الكارثة المحققة، التي كانت في انتظارك ...". قفزت منها على الفور، حين تناهت إلى سمعي عن بعد، صيحات غاضبة. نظرت إلى الوراء فيما انطلقت أعدو بما أوتيت من قوة. كان سائقها اليهودي يصيح :

.. وقف يا ملعون.. يا عفريت يا ابن العفاريث.. ساذبك وحياة ديني ..!

لم يهدأ روعي إلا حين أمسيت بعيداً عن المعسكر، والتقيت نعيم في مكاننا المعتاد. رويت له، مبهور الأنفاس، ما حدث، فيما كانت تقترب منا كوكبة من البولونيات، خرجن للتمشي على الطريق. أخذنا نتفرس فيهن حتى أوشكت أن تدوسنا السيارة القادمة من معسكر عاقر. قفزنا إليها في اللحظة الأخيرة، ونحن نلوح لهن كما لو كان بيننا وبينهن سابق معرفة أو انتظار لقاء ..

أيام وشهور توالى على الناس، وهم يرقبون أحداث الحرب الجارية التي تفاقمت أكثر فأكثر، لا سيما بعد ما سمعوه عن دخول أمريكا تلك الحرب، بقوات ومعدات هائلة إلى جانب الحلفاء، أو هم يشكون ضنك العيش وشح الموارد. البرتقال لا أسواق لتصريفه، فالبحر مغلق، وموسم قطافه هذا العام كان أسوأ موسم مرّ عليهم. الأعراس قليلة هذه السنة، ومعظم الزيجات أرجأت إلى أن (تتحسن الأحوال). ولكن متى تتحسن الأحوال، والحرب لا يبدو أن لها نهاية وشيكة؟ البيارات بعضها يخضع للرهونات لبنوك في يافا وثل أبيب. أما من رفضوا التعامل معها فقد جفت أشجارهم لعدم قدرتهم على مواصلة خدمتها. محصول القمح فائض عن الحاجة، فقد كان موسم الأمطار غزيراً سخياً، ولكن الناس لا يأكلون خبزاً فقط. حاجاتهم كثيرة، ويبيع ما يزيد عن حاجتهم من القمح يسعف في الحصول عليها، ولكنه أيضاً لا تصريف له، أمام منافسة الطحين الكندي، والقمح الأسترالي المستورد، حتى في داخل البلاد. حتى مواسم الحصاد، التي كانت مواسم الفرح والبركة بدت كئيبة مكفّهة. من له ولد أو رجل يعمل في معسكرات الانكليز، فقد أوتي حظاً عظيماً. ولكن فرص هذا العمل ليست بالكثرة، التي تستوعب كل قادر عليه أو راغب فيه. والانكليز يؤثرون اليهود على العرب للعمل معهم، إلا إذا اقتضت الضرورة. نعم فالانكليز هم الانكليز، وعداؤهم لن يتغير فيتحول إلى صداقة للعرب تحت أي ظرف. اليهود أيضاً ما برحوا يتدفقون على البلاد، والمستعمرات ما أنفكت تقام في أماكن كثيرة، لم يستطع أهل البلاد وقفها رغم ثوراتهم المتعاقبة. وحين لجأوا إلى طلب العون من أسيقاتهم العرب، وجدوا أن عبد المعين بحاجة لمن يعينه ..! فبلادهم مستعمرة أيضاً، وهم لا يملكون من أمرهم أو أمرها شيئاً. بل إن من حكامها من هو ضالع مع الغرباء، يأتمر بأمرهم عن قصد أو عن جهالة، يقدم لهم خدمات، إما مدفوعة الثمن، في شكل كرسي يجلس عليه، أو تطوعاً واحتساباً لوجه الشيطان وابتغاء مرضاته ..!

في خضم هذا كله، ماذا تستطيع امرأة مثلها أن تصنع؟ هذا الذي يجري يُعجز أقدر الرجال وأحكم العقول. تتذرع بالصبر كسائر الناس أيضاً. لكنها لا

تتي تفكر في مستقبلهم. سعيد الذي غدا شاباً لا تدري ماذا ينتظره. لم يتعلم في مدرسة، ولم يتقن صنعة. أمين هو من تعقد عليه الأمل في حمل عبء الأسرة، ولكن ها هوذا ينقطع عن مواصلة تعليمه مرغماً، بعد أن أنهى الصف السابع. حبذا لو مكنتها الظروف حتى لو أقتضاها الأمر بيع (الهاكورة) للحاجة أم سايحة.. ولكن حتى هذا لن يمكنه من الذهاب إلى يافا لأكثر من سنة دراسية واحدة. تتصوره عندئذ، شاباً يرتدي بزة كحلية اللون، وقميصاً أزرق كالأسناذ شفيق موسى، أو الأستاذ علي السيد.. وربما (كرافته) أيضاً..! ولكنني آه يا ولدي.. (العين بصيرة واليد قصيرة) .. أحمد.. علياء.. أربعة.. خلف لي أربعة. مطالبهم وحاجاتهم (تهد الحيل) .. "آه يا تلك الرصاصة الغادرة.. وذلك الجاني الذي لم يتق الله.. لو يرى الآن ما نحن فيه.. وأي آثار خلفت.. جريمته النكراء..!"

تقترح عليها مرة أخرى، الحاجة خضرة، أن يذهب أمين وأحمد عصر كل خميس، لقراءة القرآن على القبور، لقاء ما يعطيهم ذور الموتى، كالعادة المتبعة، خبزاً وبيضاً مسلوفاً. أو أن عليها أن تقبل نصيباً من الزكاة، التي يعرضها عليها أقاربها من عائلتي الهمص وأبو عون، أو جيرانها دار الجمل والعطار.. أو بدلاً من ذلك كله تبيعهم (الهاكورة)!!

لم تنقطع عنها زيارات أبيها في الشهور الأخيرة مصطحباً أياها رمضان. ظلوا يأملون، على الرغم من كل ما حدث في الماضي، بأن (يلين رأسها) وتوافق على الزواج، لا سيما بعد أن ضاقت الأحوال حتى بالرجال. غير أنهما أقل إلحاحاً، هذه الأيام، حرصاً منهما على ألا يثيرا غضبها، وبالتالي رفضها من باب العناد. بل إنهما يلُمحان كلما حانت الفرصة ولا يصرحان.

حدثت شقيقتها نعمة في الأمر، إذ ضاقت بها السبل، وازداد سواد الدنيا في عينها. نعم هي الوحيدة، التي يمكنها أن تفضي إليها بمكنونات قلبها دون حرج. ردت عليها شقيقتها بلهجة حانية، لكنها لا تخلو من الحنق والألم لأجلها :
".. يا عائشة.. يا حبيبتي.. يعني أنت أحسن مني ..؟ أسأليني أنا لما تزوجت الهندي. لم أتزوجه حباً فيه أو في الزواج.. لكنها الظروف.. الدنيا.. الانكليز الله لا يكسبهم هم السبب.. لا تفتحي لي جروحي وافتح لك جروحك.. اسمعي مني وتوكلني على الله ..!"

لم تتم تلك الليلة. وقع المطر المنهمر فوق القرميد، والريح العاصفة رغم أن الشتاء يوشك أن ينقضي.. شباط في أواخره. أيام (المستقرضات)، وقصتها

مع البدوية، التي شكت شح المطر ذات يوم، فاتفق شباط وآذار على إرضائها من جهة، والانتقام منها لسخريتها منهما من جهة ثانية. أهاب أحدهما بالآخر قائلاً " يا خوي يا شباط ثلاثا منك وأربعة مني حتى تخلي واديهما يغني .." وهكذا أخذت الأمطار تنهمر كالسيل سبعة أيام بلياليها.. فامتلاً الوادي وغرق قطع أغنامها.. وهي نفسها أوشكت على الغرق، لولا أن الله سلم ..! ضحكا منها و وعداها بمثل ذلك في العام القادم ..!

حتى هذه الحكاية التي جنح إليها خيالها، في تلك الليلة الظلماء، لم تجلب النوم إلى عينيها. وهذا ال (أبو صفية) الذي لمّح باسمه والدها في زيارته الأخيرة لها. هل هو الرجل الذي يلائم ظروفها؟ وأنه ليس أكثر من (شغيل) في البيارات والبناء. الأهم من هذا كيف يكون وقع الأمر على الأولاد؟ لا سيما الكبيرين.. وإذا ما عيرهما رفاقهما.. أمك تزوجت يا سعيد ..! أبو صفية عمك زوج أمك يا أمين ..! (يا إلهي).. أمسكت رأسها بين يديها، تحركه يمنة ويسرة ألما، واللوعة تعصر قلبها. طفرت الدموع من عينيها.. بكّت وبكّت.. دفنت رأسها في الوسادة، التي سرعان ما بللتها الدموع. ولكن المطر ما برح ينهمر، يقرع القرميد بعنف أشد، والنافذة الغربية تصطفق.. والريح ما انفكت تعصف بالأشجار فتتكسر الأغصان تحت وطأتها التي لا ترحم. أعيانها الألم والأرق معا.. أرهقها الحزن والأسى فأغفت. أبو صفية بعينه الحادتين يقترب منها.. يحاول أن يبتسم لها.. لكن ابتسامته مخيفة.. هذه أنياب ذئب.. يقترب أكثر.. يمسد شعرها براحة كفه الثقيلة فتصدمه.. تكبر الأنياب البارزة من فكيه كلما اقترب.. ينقض عليها، ينوي النهامها.. تدفعه عنها بكلتا يديها، وتهم بالفرار من وجهه، فيما هو ينقض للأمساك بها.. تدفعه عنها.. تصرخ في وجهه والروع يخنفها ... يتراجع.. يبتعد.. يختفي.. تنظر فيما حولها.. تلفي نفسها تجلس في فراشها ، الأولاد من حولها نيام، تتردد وانية أنفاسهم الرتيبة الهادئة. إلا أن (سعيد) الذي صحا للتو.. يتساءل مرتبكا :

... ما بك يا أمي ..؟

تنعم النظر إلى وجهه السطح الحبيب، البديل عن ذلك الوجه المرعب، الذي كان الساعة أمام عينيها. تبحث بهما في أرجاء الغرفة، كأنها تريد أن تطمئن إلى أنه ذهب حقا.. وأن ما رآته لم يكن إلا كابوساً. تمتمت وهي تشير إلى سعيد بأن يعود إلى النوم وفي عينيها نظرتها الحانية :

... لا شيء يا حبيبي.. لا شيء.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..(اللهم

اجعله خيراً).

- 40 -

ما الذي حدث؟ كيف تطورت الأمور، وفي غضون وقت لا يتجاوز شهوراً قليلة، حتى تزوجت عائشة ..؟

أجل تزوجت عائشة من (أبو صافية). لم يصدق كثير ممن حولها، وفي أنحاء بينا قاطبة، أن المرأة الصابرة العنيدة، التي بئس ذووها من قدرتهم على إرضائها لمشيئتهم تتزوج أخيراً. فلقد أيقن الجميع أنها لا بد منفقة عمرها أرملة متسكة من أجل أولادها. ولكن ها هي ذي تتزوج أخيراً ..!

كان قائماً وكثيراً ذلك اليوم. لم يكن يوم بهجة وفرح. المرارة تقعم نفسها، والحزن بطوي جوانحها. صور سوداء لا تبرح مخيلتها حول أبنائها. تضم صغيرتها : " علياء .. آه يا ابنتي ..". هي نفسها لا تصدق أن هذا حدث. كأنها في حلم مفزع. ندمت وتمنت لو أنها لم تدعن لمشيئة أحد. ولكنها لم تدعن. الظروف هي التي أملت عليها صنع ما لا تريد، حتى أولئك اللواتي قدمن للتهنئة كن كمن يقدم العزاء في فقيدها. أما من كنَّ يغرینها ويدفعنها إلى الموافقة على الزواج دفعا، فقد أتين اليوم على غير الصورة التي توقعنها. بعضهن ينظر إليها، وكأنما اقتربت خطأ فادحاً لا سبيل إلى غفرانه. ينظرن إلى علياء، فيمظنن الشفاء، ويقبلن الأكف، مع نظرة نحو السماء ترافقها تمتمة غير مسموعة ولا مفهومة. يتحوقلن ويتأسفن. أم مريم وحدها بدت متعاطفة معها، مواسية لها في محنتها. أما مريم فقد لبثت صامتة، لكنها مضت تخالسن النظرات، وقد بدا عليها التأثر.. ربما من أجلي ...! تكسر الصمت أُمي بقولها وهي ترنو إلى مريم:

-كبرت يا مريم.. عروس ما شاء الله.. أنت من عمر أمين.. فاكدة يا أم مريم أنت قبل الزلزال بشهرين وأنا بعده بأربعة ..!

أمنت أم مريم على قولها بأن البنات يكبرن عادة قبل الأولاد. وحين دعت لها والدتي بأن يقبض الله لها (ابن حلال) في وقت قريب.. إنه سميع محيب،

أكدت لها أم مريم بأن الذين طلبوها حتى تلك اللحظة (بعدد شعر رأسها). وافقت والدتي على ذلك بأن البنت (مثل الوردة اللهم صلي على النبي) فلماذا لا يتقدم لها من هم بعدد شعر رأسها ورأس أمها أيضا ..؟!

اعتراني ضيق مبالغت، دونما سبب واضح للجزء الأخير من حديثهما. أمعنت النظر فيها. حقاً لقد كبرت. فهل تتزوج غداً وتبتعد عنا أكثر مما ابتعدت. صحيح أنني لا أتمكن من رؤيتها والتحدث إليها إلا لماماً هذه الأيام، إلا أن فكرة زواجها، وابتعادها من ثم عن الحي، زادتني ضيقاً وانقباضاً. هممت بمغادرة المكان، ولكن مريم هنا، والفرص المتاحة للقاءها باتت أندر من خبر سار..! أم تراني نسيت محاولاتي من أجل أن أراها، من حين لحين، عن طريق ابنة خالتي فاطمة، حينما تذهبان لملء الجرار من حاووز الهمص؟ لن أضيع هذه الفرصة إذن. لأصبرن.. فإن الله مع الصابرين. وكل ما نحن فيه يدعو إلى الصبر والتصبر..! "أمي هذه التي تزوجت (أبو صافية) أخيراً.. وأبو صافية نفسه الذي اقتحم حياتنا على غير رغبة منا أو انتظار.. أبي.. وتلك الرصاصة.. وذلك الانكليزي الجبان.. إلهي اجزه شر الجزاء.. إنك أنت المنتقم الجبار ..".

نظرت حولها في صباح اليوم التالي. نتفقدتهم. لم يكن هناك أحد غير علياء. تحدثت نفسها : أحمد في المدرسة. أمين لم يذهب لمعسكر الانكليز فأين هو؟ سعيد خرج مهموماً مغموماً حتى دون أن (يصيح). لم يصفق الباب وراءه، كما اعتاد أن يفعل عند خروجه غاضباً. أغلق الباب بهدوء ومضى.. احتضنت علياء، وانخرطت في بكاء صامت، بدا لها كأنه سوف يمتد إلى ما لا نهاية : "آه يا أحبائي.. ماذا صنعت بكم ..؟ الله يجازيك يابا.. الله لا يوفقك يا خوي يا رمضان.. أنت السبب..!".

عند ناصية الشارع، قريباً من دار أبو زكي العبسي، وقف سعيد يتكئ على الحائط، فيما جلست قبالة على الحجر الرابض لصق الباب، كأنه هناك منذ الأزل. لكنه بدالي وكأنني لم أفطن إلى وجوده إلا هذه الساعة. أحرق في أرض الشارع. سعيد أيضاً مطرق إليها. يضم ذراعيه متقاطعين على صدره. يزفر حيناً.. يتنهد حيناً.. يضرب الجدار حيناً ثالثاً ... ثم يقول كمن يحدث نفسه دون أن ينظر إليّ :

-لماذا حدث هذا يا أمين ..؟-

قالها بصوت مبجوح لم أعهد سماعه منه قبل اليوم. بماذا أجيب ..؟ وهل أنا أدري منه بالأسباب التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه ..؟ هو على أية حال لا ينتظر مني جواباً. لكن دموعاً تفرقت في مآقي بغتة.. كبّث مشاعري في الأيام الماضية، دفعها إلى الانفجار الساعة. شهقت.. انتحيت.. أمسكت رأسي بكفي خشية أن يلمح دموعي أحد. انحنى علي سعيد.. مسح رأسي بيد حانية.. أمسك بيدي وأنهضني .

- ما هذا يا أمين؟ تبكي يا أمين؟ لا لا.. أنت يا أمين رجل.. والرجل لا يبكي. لم نعد صغاراً.. كبرنا على البكاء. وأما أعانها الله. لا تصدق أنها راضية عما جرى. خالك وجدك من جهة.. والأحوال من جهة.. والناس ...

خالتي نعمة تأتي كل يوم لتقضي سحابة النهار. وفوزي أيضاً يرافقني أكثر الوقت. لم يتغير الكثير في أسلوب حياتنا، سوى دخول ذلك الرجل فيها. كان شرطاً لها أن يقيم معنا كي لا يتبعد عنا. ولما كانت له ابنة في مثل سني (اسمها أمينة)، فقد جاءت معه أيضاً. لم أشعر نحوه بمحبة ولا بكراهية. شعور محايد تماماً. نقمتي وإخوتي كانت تتجه نحو الظروف القاهرة، التي أملت علينا ما لا نريد. هو من ناحيته لم يسع إلى التقرب منا و التودّد إلينا.. يتصرف وكأن لا وجود لنا. كان يدرك موقعه منا أغلب الظن، فالتزم جانب الحذر حيالنا. أما أخي سعيد فقد أسرّ لي بأنه يكره الرجل كرها شديداً. بدا لي سعيد، في هذه الأيام شاباً مكتمل الرجولة. نما الشعر في وجهه وشاربيه. بدا أطول مما كان قبلاً. عيناه الواسعتان تحت حاجبيه الكثيفين، تتبّان عن رجولة مبكرة، لا سيما وأنه دائم العيوس والتقطيب، حتى دون أن تكون هناك أسباب موجبة. كان سعيد يتجنب رفقتي فيما مضى، بدعوى أنني (ولد) وهو ذاهب إلى أمثاله من الشباب، ولا يليق بالتالي أن يصطحبني معه، أصبح الآن يميل إلى مرافقتي، إثر عودتي من المعسكر عند العصر. نذهب إلى مقهى الخال (أبو داود)، أو إلى رفاق له في ساحة القرية أو سوق الجميزة. يريحني ذلك الأحساس بالطمأنينة في صحبته. أما رفاقي فقد حسبت أنني لن أستطيع مواجهتهم بعد الذي حدث. لكن هؤلاء لم يبد على أيّ منهم أي جديد. نعيم يحدثني كعادته عن بولونيته الشقراء. سعيد الجمل يروي لنا الحكايا عن يافاء، وثانوية العامرية، التي سوف يواصل فيها دراسته حتى شهادة المتربكوليشن (Metriculation). سليمان أبو سليمان يطلق العنان لغنائه (.. يا ظريف الطول ماشي الواد الواد ..) أو تقليده لواحدة من أغاني عبد الوهاب أو فريد الأطرش. وكما تمضي الحياة بنا دون تغيير ذي

بال، كذلك كان شأنها مع عامة الناس في قريتنا. المقاهي تغصُّ بروّادها، أربعة شاي.. قهوة يا ولد.. طرقات الزهر و الدومينو.. صوت الراديو يصم الأذان.. سيارات الجيش العابرة.. من فيها يحبُّون أو يشتمون.. جرس المدرسة يدق فيما ننتظر السيارة التي نقلنا إلى المعسكر. تلك هي قادمة تهدر من بعيد.. تنقض علينا كوحش كاسر، لكان سائقها ينوي أن يدوسنا تحت عجلاتها ..! بعنف يفرمل في اللحظة الأخيرة، فيجأر صغير كوابحها.. نهرع إليها متدافعين للتسلق من الخلف.. لحظات خاطفة، وإذ الجميع على متنها، لتتطلق مزمجرة، مثيرة غباراً ودخاناً ورائحة بنزين خانقة .

في أواخر ذلك الشتاء توفيت (حفيظة) زوجة محمد الشريف. وكما في كل حالات الموت، بندهش الناس أول الأمر، ثم لا يلبثوا أن يعتادوا ذلك وينسون. دهش أهل القرية، ولا سيما نساؤها لموت حفيظة المفاجئ، إذ كانت موفورة الصحة والعافية، فكيف ماتت؟ زوجها - الطارئ على القرية منذ سنين - لا يخل عليها بشيء، وهو يعاملها كأحسن ما يعامل رجل زوجته.. فلماذا تموت؟! أما هو، الرجل الطيب، الوديع كالحمل، فقد تركته حفيظة وحيداً في هذه القرية، التي لا قريب له فيها ولا صديق، على الأرجح. ابنتها (وداد) من زوجها الأول بقيت معه. لقد تربت في حجره منذ طفولتها، فهي بمثابة ابنة له. لا سيما أنه لم يرزق بولد من حفيظة. عمر وداد الآن ثلاث عشرة سنة أو نحوها.. أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً.. ليس هذا مهماً، فالناس في القرى قد لا يعرفون حقيقة أعمارهم، وتواريخ ولاداتهم، على وجه اليقين .

لقد رآوه بأم أعينهم يذرف الدمع هتوئاً، وهو يمشي وراء نعشها. بل لقد انتحب لدى مواراتها التراب. لم يحتمل متابعة المشهد الأليم، فانتحى جانباً، كي لا يتمزق فؤاده وهو يراها تلحد أمام عينيه، توارى الثرى في تلك الحفرة المهيبة الرهيبة، التي هي الموطن الحقيقي، والمسكن الدائم لكل كائن من البشر. هكذا واسوه، لكي يهوتوا عليه. ثم هولم يتأخر عن عمل كل مامن شأنه أن يعينها على الشفاء، كنفلها إلى يافا لمراجعة أطبائها، بعد أن عرضها على اسحاق الحكيم اليهودي في القرية، دون أن يفضي مسعاه إلى النتيجة المرجوة .

أقام الرجل مأتماً مهيباً. قرأ المشايخ القرآن الكريم على روحها الطاهرة. تناول المعزّون القهوة السادة. وزّع الصدقات عن روحها، على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، من محتويات دكانه، كالأرز والسكر والطحين والصابون، وحتى علب السردين وعلب الكبريت وصودا الغسيل ..! لم يدخل دكانه أحد في الأيام الثلاثة التي تلت وفاتها، دون أن يهبه شيئاً من محتوياتها . لغط الجميع بذكره، وأثثوا عليه ثناء حسناً، ودعوا الله مخلصين أن يعينه

على مصابه، وأن يلهمه، بحق، جميل الصبر والسلوان. وما دام الرجل على هذا القدر من الطيبة والحنو، فلسوف يرعى ربيته وداد كما لو كانت ابنته من صلبه.

قال محمد الشريف للجوار، عقب انقضاء أيام العزاء، بأنه ذاهب إلى يافا ليومين أو ثلاثة من أجل أمور تهمة. عاد بالفعل في اليوم الرابع، وقد بدا عليه الحزن والأسى. استطالت لحيته، وغدا ممتقع اللون، كما لو أن مرضاً عضالاً ألمّ به. وفي أعقابه، عصر ذلك اليوم، جاءت سيارة تحمل بضائع جديدة، لم تتسع لها الرفوف وأرض الدكان، فوضع كميات منها أمامها وعلى جانبيها كادت أن تسد الطريق. وقفنا، عدد من الغلمان والفتيان، نرقبها لدى تفريغ حمولتها. كذلك فعل بعض الرجال، الذين كانوا في طريقهم إلى الجامع، وقفوا يفرجون. ولم يرحزهم عن مكانهم سوى صوت المؤذن. تحركوا عندئذ، وهم يتسائلون عن محتويات حمولة الشاحنة، وعن الرجل الذي سرعان ما عاد إليه نشاطه، وأسعفته همته. أما هو فقد كان يغغم على مسمع منهم بأنه إنما يؤدي واجبه، إذ ليس في وسعه أن يقطع عن الناس حاجاتهم وضرورات عيشهم. يقول ذلك وكأنه ينتظر شكرهم على أريحيته .

تذكرت عندئذ، ما زعمه الهندي، زوج خالتي، يوم كنا في يافا بأنه رأى محمد الشريف هناك في زي غريب كالمتنكر، وقلت إنه - الهندي - كان واهماً دونما ريب، أو أنه تراءى له أن من رآه كان محمد الشريف هذا لكم أساء الظن زوج خالتي بهذا الرجل الطيب !.

أعقب ذلك إقبال الناس على دكان محمد الشريف، أكثر من أي وقت مضى. كما أن الرجل سرعان ما خرج عن تحفظه وانطوائه. أخذ يجالس الآخرين، سواء في الجامع، أو في مضافة المختار. يحضر المآتم والأعراس، لكي يرد لأصحابها جميلهم، يوم وقفوا إلى جانبه في محنته. بل إنه وهو الذي يعرفون قصة خروجه على ذويه، ولجونه إلى قريتهم هذه، كيما يعيش بعيداً عن بني جلدته، ضماناً لحريته في اعتناق العقيدة التي اختار، وما أفاء الله عليه من نعمة الأيمان والهدى، لجدير بحديثهم ورعايتهم.

وإذا ما جرى الحديث حول الانكليز واليهود، شاركهم الرجل التنديد بهؤلاء وأولئك. فالانكليز هم أصل البلاء في هذا العالم. واليهود تركوا أوطانهم، ومساقط رؤوسهم في أوروبا، لكي يأتوا إلى هذه الديار.. لماذا يفعلون ذلك؟ لماذا لم يذهبوا إلى الأرجنتين أو غانا، حيث فكروا أول الأمر؟ بل كان يحدثهم

عن أمور يجهلونهم، أو يعرفون القليل عنها. أتى لهم مثلاً أن يعرفوا، في هذه القرية، شيئاً عن (مؤتمر بلمور)، وما قرر اليهود فيه؟ عن العصابات اليهودية بأسمائها ومسمياتها العاملة الآن ضد الانكليز؟ عن دور اليهود في المراكز المالية العالمية والبنوك والشركات.. إنهم كالأخطبوط، يتدخلون في كل شيء، وينشرون حبالهم وديسائسهم في كل مكان. غير أنه في النهاية يبدي شيئاً من العطف على (مأساتهم)، إذ هم عرضة، على الدوام، لأخطار شتى تحيق بهم في أوروبا. وهم من ثم معذورون إذا ما فكروا في النزوح إلى مكان آمن كفلسطين، ثقة منهم بأن أهلها كرماء بما فيه الكفاية، للسماح بإيوائهم بين ظهرانيهم، فضلاً عن الثقة في حماية الانكليز لهم.

أما (تيودور هرتسل) ذلك المجنون الذي حلم باقامة دولة لليهود في (أرض الميعاد) فليس أكثر من إنسان خيالي كان يعيش في وهم كبير..!! بل إنه لمعتوه أيضاً إذ يشتط به الوهم إلى هذا الحد.

ينصت الناس إليه، ويعجبون بسعة اطلاعه وغزارة علمه. بل إن الكثير منهم أمسوا يقصدونه في حانوته، للاستماع إليه. أو هم يلجأون إليه لاستشارته، حتى في أمور قد تكون خاصة. فالرجل كأسمه (شريف)، وموضع ثقة. بل إن حسن الطالع وحده، هو الذي جاء به إلى قريتهم، لكي يتخذها موطناً، دون غيرها من بلاد الله الواسعة..!!

أمي أيضاً أوصتني، وكذلك الخالة نعمة أوصت أولادها ألا نقصد، بعد اليوم، غير دكان الشريف لشراء حاجاتنا. فهو، فضلاً عن كل ما أصبح معروفاً عنه، يبيع بضاعته لهم بأسعار زهيدة، تقل كثيراً عن أسعار أصحاب الحوانيت الأخرى، أبناء بلدتهم ذاتها: أبو العبد الرملوي.. عبد الله أبو نحلة.. عثمان أبو حسنين..!! الرجل قنوع ويخشى الله في البيع والشراء.. في السر والعلن..!!

الدنيا تضيق بي حتى الاختناق. مريم تتزوج وترحل بعيداً إلى الحارة الشرقية. حتى في عرسها لم أستطع تقديم باقة أزهار لها. حيناً بدا كئيها بعد رحيلها. وسعيد يذهب إلى حيث لا ندري، أغلب الظن أنه توجه إلى حيفا. لم يصبر على رؤية رجل (غريب) يعيش بيننا، ليصبح بين عشية وضحاها أحد أفراد أسرتنا. كنت أشاطره المشاعر ذاتها، لكنني كنت أقدر منه على إخفائها. حرصي على ألا أكون سبباً في مزيد من الألم لأمي، مكنتني من كبت تلك المشاعر وعدم الإفصاح عنها. يكفيها ما هي فيه. واللوم لا ريب، يقع على جدي حسين وخالي رمضان وحدهما. خيمت الكآبة علي منزلنا أكثر مما كان الأمر فيما مضى. وغياب سعيد أنشأ لها هماً عظيماً ليس هذا أوانه. في المعسكر أيضاً يشيعون بأنهم ينوون الاستغناء عن خدمات عمال من العرب. دعوت الله ألا أكون واحداً منهم. ولقد طمأنتني (سارة) بأن ذلك لن يشمل الأعمال الصغيرة كعملي هذا، اللهم إلا إذا سعت إليه (ريباً) ذات التأثير الواضح على (الكابتن سميث)، والمسؤول عن المكاتب التي نعمل فيها. وريباً هذه، تعرف سارة كما أعرف، أي قدر من الود تكنه لي ..!

خالتي نعمة وضعت مولوداً أسمته (جابر)، الأمر الذي أثار استياء فوزي، وسبب له ضيقاً شديداً. تصورت للتو أن يحدث مثل هذا لنا أيضاً في وقت ما، في مقبل الأيام ..! فوزي كان حزينا أيضاً لعمله في دكان عمه الهندي. تلبية لرغبة خالتي نعمة في أن يغدو ابنها (لحاماً) مرموقاً في القرية.. هذا في الوقت الذي ينقل إليه الرفاق، العاملين في المعسكرات ما ينقلون من أنباء البولونيات، والسيارات التي تغدو وتروح فيها. وحين سعى، في محاولة منه أخيرة، لأن يثني أمه عن رأيها، وعرض عليها العمل لدى أحمد الحلاق، مبيهاً لها مزايا (الحلاق) على (الجزار) كان عمه الهندي أقدر على إقناعها بعكس ذلك، لا سيما وأن (الولد ولد لا يفهم أين تكون مصلحته). يريد فوزي أن يعمل في أية مهنة خلا الجزارة .

تكتنفي الوحشة والشعور بالضيق في الأمسيات، حين أجد نفسي وحيداً

بغير رفيق أو صديق من لداتي، فضلاً عن افتقادي لأخي سعيد. حتى حين أنشغل بتدريس كل من أحمد وعلياء، فإن ذلك لا يعوضنني شيئاً عن غيابه. أمي أيضاً حزينة واجمة أكثر وقتها. لكنها عاجزة عن تغيير شيء فيما يجري. يجمعنا العشاء في المساء. لكن لا العشاء، ولا الأمسيات، كانت هي التي اعتدناها. يظل الصمت باسطاً سلطانه طوال الوقت. أمينة ابنة عمنا الجديد، بدت لي أكثر رقة مما حسبت أول الأمر. وهي لا تنفك عن محاولتها استرعاء انتباهي، بوسائل شتى تلجأ إليها. كأن تناولني إبريق الماء القريب منها، أو رغيف الخبز، أو كوب الشاي. وهي تسعى عندما نكون وحدنا إلى التحدث إليّ في شأن يعنّ لها أو أمر تختلقه اختلاقاً. إلا أنني أفكر في سارة والمعسكر ومريم التي ذهبت.. أما (مي) فقد بات اليأس من احتمال عودتها إلينا، مع أبيها، أمراً مقضياً .

لماذا لا يحدث دائماً إلا الأسوأ؟ لماذا نفقد الأحبة دائماً؟ أترأى صحيحاً ما يتناقلونه في الحكايا من أن (اللي انكتب عالجبين لازم تشوفه العين ..)، تلك الحكمة التي يعلنها المطرب محمد عبد الوهاب بصوته الجميل..؟ وهل هذا الذي نحن فيه، هو ما خطته يد القدر على جباهنا.. أم تراها تلك الرصاصة ..؟ ويا أيها القدر ماذا تخبئ لنا من بعد ؟

الكآبة تبسط ظلها على البيت كله. بل إن الناس جميعاً في القرية تعترهم مثل هذه الكآبة، ومعها القلق والأرق والتشاؤم. مسغبة العيش.. الأبناء المحبطة عن اليهود والحلفاء والمحور. جيء بالأس بابين (الحملاني) مقتولا على جبهة مصر. قيل في طبرق، قيل في العلمين، في النورماندي.. ما من أحد يدري على وجه اليقين. تخرّصات ليس إلا. المهم هو أنه فقد حياته هناك، في حرب لا شأن له بها ولا بأصحابها. نعاه بعضهم بوصفه شهيداً، فيما رأى فيه آخرون مجرد قتيل في سبيل الانكليز، أي في سبيل الشيطان ..! (أيموت من أجلهم، يا ناس، ويسلك في عداد الشهداء)..؟

خلت حياتهم الآن من مواسم الفرح. حتى المواسم الوطنية التي أمسوا يتوقون إليها كالنبي صالح، والنبي موسى، والنبي روبين بعدت الشقة بينها وعنها في الزمان. هي على مرمى البصر، لكنها محظورة عليهم بأمر الحكومة. لأن الأضواء ممنوعة. والمصابيح والنوافذ تظلى بالأزرق، نقادياً لغارات الطائرات الألمانية. على الرغم من كل ذلك تؤكد لي سارة بأننا (سوف نعيش بعد الحرب، معاً عرباً ويهوداً.. جنباً إلى جنب، في سلام ووثاق.. وأن

الانكليز سيرحلون ذات يوم. بل يجب أن يرحلوا، فهم الذين يوقعون بيننا وبينكم يا أمين، لكي يبرروا بقاءهم هنا. نحن وأنتم يجب ألا نعطيهم هذه الفرصة ..!). قلت لها عندئذ :

- ولكنهم أصدقاؤكم. بل هم يسمحون لكم بصنع السلاح الآن، كما يقال.
- وكيف تعرف أنت ذلك؟ ولكن حتى لو كان هذا صحيحاً فهو في مصلحتنا المشتركة في نهاية الأمر.. أليس كذلك يا أمين ؟
- أنتم تريدون إخراجهم من البلاد حقاً ؟.. تريدون إخراجهم وهم يعملون على إدخالكم.. كيف؟ أو ليسوا هم الذين يساعدونكم على الهجرة و يقيمون لكم المستعمرات ؟

- بلى.. ولكننا لا نريدهم هنا إلى الأبد. نريدهم فقط بالقدر الضروري لتحقيق أهدافنا.. ثم بعد ذلك... (في ستن داهية ..!). إذا بقي هؤلاء الانكليز هنا فلن تكون لنا دولة خاصة بنا.. أعني.. وبكم ..! هناك مسائل كثيرة، يا أمين، لا أستطيع شرحها لك.. أنت صغير.. نعم صغير أنت.. أم تحسب أنك أصبحت رجلاً.. تعال يا شاطر.. تعال أجلس هنا بجانبني.. إلى متى تظل خائفاً هكذا يا عبيط ..!؟

لبثت صامتاً.. أو لعلي شردت بعيداً أفكر.. أستعيد ما نقوله. أخرجتني من شرودي حبة (المندلينة) التي قذفتني بها فأصابت صدري، وهي تطلق ضحكة عالية، فيما تنقل كرسيها هي إلى جانبي. جرّوت هذه المرة على مبادلتها قبلة خاطفة.. أعادت الكرة مرة.. مرتين.. لكنني اضطريت وابتعدت لاهثاً. تضحك طويلاً حتى تكاد أن تستلقي على ظهرها، وهي تقول :
- خوَّاف يا أمين.. ولكن لماذا تخاف ؟.. لن يحدث لك شيء لو أنك.. يعني ...

جاءت الفتاة النحيلة الشقراء، العاملة في المقصف بكوبين من (الانسكافيه بالحليب) كانت سارة طلبتهما من قبل. رمقتنا بنظرة مشفوعة بابتسامة.. ثم غمزت لسارة بعينها قبل أن تنصرف.. وضعت سارة قطعاً من قوالب السكر الصغيرة في الكوبين. قدمت لي واحداً، وهي تقول فيما هي تشير إلى محتوياته :

- انظر.. هذا اللون ليس صافياً تماماً. إنه بني.. كريم.. رمادي.. قد يختلف حتى على تسمية لون هذا الشراب. الأمور بيننا وبينكم كذلك.. ليست

صافية تماماً أولاً.. ونختلف على الأسماء والمسميات ثانياً ... ولكن الجوهرى هو أن تكون الأمور بيننا صافية كالحليب الأبيض.. والكثير يتوقف عليكم من أجل أن يتحقق ذلك .

-علينا نحن؟ كيف ؟

-نعم عليكم أنتم. يجب أن توطنوا أنفسكم على العيش معنا، دونما ثورات واضطرابات، وكلام فارغ كالسابق. و لابد أن التجارب الماضية علمتكم أنه لا فائدة من ذلك كله. مات منكم الكثير.. فماذا أفادكم ذلك ؟..

... " ترى لماذا تحدثني سارة في هذه القضايا وهي التي تقول بأنني ما زلت صغيراً على فهمها؟ ما الذي تريد أن تدخله في روعي؟ لماذا؟ أتحبني هي كما تقول أم هي تحتال علي؟ ولماذا أنا؟ ألم تجد يهوديا يحبها ؟.. ثم كيف تجد العربية إلى هذا الحد ؟..

في طريق عودتنا أتحدث عن سارة إلى نعيم، ويحدثني هو عن البولونية. لا يقطع حديثنا سوى قدوم سيارة الجيش تهدر من بعيد. تخفف من سرعتها عند الدوار. نعدو خلفها.. نتعلق بها.. يجذبنا الرفاق إلى الداخل. يستقيم الطريق أمامها وتتطلق بأقصى سرعتها. أزيز عجلاتها يدوي على الطريق الأملس، تحف به أشجار الغيلان والصبر، التي تطل من ورائها البيارات والكروم، حتى مشارف بينا، التي نبلغها قبيل الغروب. يهدئ السائق من سرعتة، مرغماً بين الدكاكين والمقاهي على الجانبين، إلى أن يتوقف بعنف قريباً من ظلال الجميزة، مثيراً غباراً وأتربة.. تدفع بالباعة ورواد المكان إلى التحديق المتجهم في سائقها.. مصحوباً بسيل من اللعنات تنصب على رأس أصحابها !..

تشخص إلينا، عندما نترجل، أعين الجالسين على المقاهي، والباعة تحت الجميزة. ولكننا نهفو إلى أن ترانا أعين الفتيات، حاملات الجرار، غاديات رائحات بمحاذاة مقهى أبو سالم !.. أترى بينهن مريم؟ لكنها رحلت إلى الحارة الشرقية، فهنيئاً للحارة الشرقية !.. الغصة تختنق في الحلق، والحرقة في القلب لظى.. الوحشة تسربل المرثيات.. وفي السماء غيوم داكنة تزحف على أديمها لتحجب القمر والنجوم.

وقع ما كان في الحسبان. جاءت قائمة (التوفير) للعمال العرب، في معسكر قطرة. قدّر لي أن أكون بينهم. ريباً تلك الأفعى. لقد نجحت أخيراً في تأليبهم عليّ. أليس الكولونيل سميت (كالخاتم في إصبعها) كما تقول سارة ؟..

مورد الرزق الوحيد ينقطع. ونتاج الأرض لا يوفر لنا أكثر من طحين للخبز، وأشياء أخرى قليلة، نحصل عليها مقايضة ببعضه، وبما نأله من ثمن بخس يبيع بعض آخر. والرجل الذي حلّ بيننا أبدى أنه ليس مسؤولاً عنا، منذ البداية. بل هو ليس في حال تسمح له بذلك حتى لو أراد. ولسوف يضيف هذا مزيداً من الضنك والعناء لأمي الملتاعة، التي لم يقدر أحد على تقديم وصفة مجدية لها غير (الصبر). وأي أسى يخلف في نفسي فراق المعسكر وما تعودته فيه. الابتعاد عن سارة ليس كل ما يؤسفني، علي الرغم من أنها حاولت التخفيف عني بكلمات، هي في نهاية الأمر، لا تعني شيئاً .

طبعت على الآلة الكاتبة عنوان منزلها في رخبوت، وأكدت لي، ترحيبها بزيارتي لها هناك إن شئت. بل إنها أصرت على أن أفعل. أستمع إليها واجماً، ثم متسائلاً بيني وبين نفسي (هل يعقل أن أزورها في رخبوت ؟.. وصايا أُمي.. والخطر المترصص بي آنئذ..). وإذ طال صمتي، وامتدت إطراقتي أكثر مما ينبغي على ما يبدو، انحنيت علي لتطبع قبلة على وجنتي، إذ كنا في ركن من المقصف وحدنا، وقد خلا من رواده، كالمعتاد في مثل هذا الوقت من النهار. ثم قالت :

-على أية حال لن تنقطع عن العمل اليوم أو غداً. لا يزال أمامك أسبوعان من الآن .

-وبعد الأسبوعين يا (مس سارة)؟..

-يعني ...!

أمضيت الأيام الباقية، أكاد لا أؤدي عملاً، في انتظار اليوم الأخير الذي جاء سريعاً .

ليل الأرق طويل، ولكن ها هوذا ملل النهار طويل أيضاً. المشي في أزقة بينا.. بين الدكاكين والمقاهي.. إلى سوق الجميزة.. مع فوزي حتى سور المدرسة، والنظر إلى التلاميذ يصخبون ويلعبون في باحتها وحديقتها أحسست بالحنين إليها .. حتى قراءة صفحات من هذا الكتاب أو هذه الجريدة، لا يكاد ذلك كله يملأ من هذا الفراغ المتنامي شيئاً. وأمي التي كنت أحسب أن انقطاعي عن العمل يسبب لها إزعاجاً لا حدود له، لم يبد عليها أنها اكرثت كثيراً. هل كان ذلك موقفها حقاً، أم انها لم تتأ أن تتقل على كاهلي فتحملني من الهموم مزيداً..؟

بيد أن الوقت لم يطل قبل أن نعلم بأن معسكر عاقر يطالب عمالاً. كنت بين أوائل المتقدمين. وفي غضون أيام قليلة، ظهرت النتيجة، التي علقت على اللوحة، عند بوابة المعسكر. بقدر ما كان حزني لدى مغادرتي (قطرة)، كان فرحي اليوم في (عاقر). نعيم أيضاً بين المقبولين. بل إن حسن الطالع رافقنا هذه المرة، إذ كان نصيبنا مع العمل في المطبخ. مساعد طباط.. سفرجي.. أي شيء.. نتقن العمل أو لا نتقن، لم يسألنا في ذلك أحد. إلحاقنا بالطباخين، عربا ويهوداً، و ذوي الاختصاص هنا كفيل بتعليمنا ما لا نعلم. نتلقى تعليماتهم وتوجيهاتهم وننفذها.. نقشر الخضار.. نعد الفواكه.. نضع الشاي في (براميل) كبيرة ممزوجة مع هذا المسحوق الأصفر الذي يقولون أنه حليب.. ننقل المواد والأدوات إلى حيث يجب أن تتقل.. نصنع أي شيء دون أن نعرف شيئاً. هم الذين يوجهون حركتنا، وهم الذين يعينون المقادير، ومجمل التفاصيل اللازمة!..

الجنود يقدون تباعاً إلى قاعات الطعام في الصباح الباكر لتناول الإفطار. يقفون بالدور في (طابور) طويل، يحملون أطباقهم في أيديهم. يضع السفرجي لواحدهم في طبقه بيضاً مقلياً، وشرائح من لحم الخنزير، وأصابع النقانق، ثم يمر هذا أمام خزانات الشاي، ليملأ من حنفية في أسفلها، كوباً معدنياً كبيراً، قبل المضي إلى قاعة الطعام، حيث أعدت الموائد وعليها شرائح الخبز الأبيض، والمحمص الذي يسمونه هم (toast) وقوالب الزبد والمربى، وبشر القمح (corn flake). يضح المكان بالصخب والضحك بل والعريضة. يحدث مثل ذلك في الغداء والعشاء مع الفارق في نوعية الطعام ليس إلا. شرائح اللحم البارد، والخضار المسلوقة، لاسيما البطاطا، معجونة بالحليب والزبد. ثم الحلوى بعد ذلك من سلطة الفواكه المعلبة، والمعجنات ذات الأنواع والأسماء الغريبة.. جلي..

كراميل.. والكثير مما لم نعرف من قبل. حتى لقد غدونا موضع حسد رفاقنا على عملنا الشيق هذا. كنا نستمرئ ذلك الحسد إذ أتيح لنا أن نرتع في هذا النعيم المقيم من دونهم ..! كان علينا أن نتبادل (ورديات) على مدار اليوم. ومن حين لآخر يجيء دورنا لوردية ليلية، مما يقتضيها المبيت في المعسكر. لم ترتح والدتي لذلك، واعتضت عليه. كيف (تببت عند الانكليز واليهود يمّه). غير أنها لم تثبت أن رضخت للأمر الواقع .

لم نشهد من قبل أعياداً للميلاد أو لرأس السنة. أعيادنا التي نعرف، هي عيد المولد النبوي.. عيد الفطر والأضحى، حيث أمي والجارات يسهرن حتى الصباح، منهمكات في صنع الكعك والمعمول، فيما نحن نحوم من حولهن. رائحة المحلب وشذى الينسون تغمر البيوت والزقاق، بل الحي كله لا سيما عند عودتنا من لدن الفران (أبو ربحي الغزاوي)، نحمل الصواني على رؤوسنا، إذ النساء لا يخرجن في مثل هذا الوقت. عيد الميلاد هذا كان شيئاً مختلفاً. ولأنه عيد الميلاد فقد طلب إلينا العمل في ورديات متلاحقة ومكثفة. وإذا كان الأستاذ شفيق موسى يؤكد لنا أن عجائب الدنيا كانت سيعاً، فليلة الميلاد هذه كما رأيناها هي العجبية الثامنة ..! صخب وصباح، وحركة دائبة.. نداءات، وحث للهمم، تنديد وشتائم مقدعة ..! الطباخون والمشرفون في حالة استنفار.. اختلطت أصوات البشر بهدير الأفران.. بروائح اللحوم والدجاج والأوز ولحم الخنزير والبقر.. مع عبق الفطائر والشطائر، وصنوف الحلوى التي حصر لها. البخار سحابة تغطي كل شيء، يكاد المكان يتفجر دفئاً وحرارة، لولا دفقات من الهواء البارد تفتحه عندما يفتح باب أو يغلق آخر. المطر ينهمر غزيراً في الخارج، والبرق يومض، والرعد يهدر كقصف القنابل. مذكراً الانكليز بالغارات الألمانية. زجاجات الخمر على الموائد، وفي أيدي الجنود، في كل مكان. وعلى المنصة التي تقع في صدر الصالة كان سرب من اليهوديات يرقصن في استعراضات جماعية، وفردية في البداية، ثم ينضم إليهن عدد من الانكليز يراقصونهن على إيقاع الموسيقى الصاخبة التي تصم الأذان .

نحن العمال العرب نرنو إلى ذلك، وقد أخذت منا الدهشة مأخذها، لا سيما مشهد الرقص، وابتدال اليهوديات في أحضان الرجال، شبه عاريات. أشعرنا الطباخون اليهود بأن الفضل لهم (أي لليهود) رجالاً ونساء في إحياء هذه الحفلات، وفي خلق أجواء المرح، وإضفاء البهجة على السمّار، بتقديمهم شتى صنوف المتع هذه التي نشاهد. أضاف الطباخ (سمحون) ذو الشعر الأشيب، فيما

هو يصرُّ عينيه الضيقتين، بأنهم إنما يشاركون الانكليز احتفالاتهم مسابرة، ومن أجل مصلحتهم الخاصة فقط، إذ هم لا يعترفون أصلاً بالأعياد المسيحية أو الإسلامية. بل كيف بعيد ميلاد للمسيح وهم الذين ينكرونه في الأصل؟ وحينما أمعن هذا في الأساءة للسيد المسيح عليه السلام، تصدَّى له الطباخ (أبي عثمان) تشاجر أو أوشكا أن يشتبكا بالأيدي، لولا أن تدخل المناوب (المستر بيكر)، الذي بادر إلى توجيه اللوم على الفور إلى (أبي عثمان)، حتى قبل أن يتحقق من أن هذا إنما يدافع عن السيد المسيح المحترق بعيد ميلاده الليلة، والذي سبق لليهود هؤلاء أن سعوا لصلبه قديماً، وها هم لا يزالون يسيئون إليه وينكرونه حتى عصرنا الحاضر. لكن الضابط بيكر صاح غاضباً :

- (أنتم العرب مشاغبون.. حتى في مثل هذه الليلة لا تكفون عن الشغب)!!..

عَبثاً حاول العرب إقناعه بأن يستمع إليهم لكي يشرحوا له حقيقة ما جرى. لبثت تلك الليلة الأسطورية موضوعاً للحديث على مدى الأيام التالية، سواء بين العاملين في المعسكرات، أو بين السَّمار من أهل القرية، وكأنها واحدة من ليالي ألف ليلة وليلة التي يسمعون عنها .

سيارات الجيش البريطاني التي تقل العمال في كل صباح، تمتنع عن ذلك عادة في أيام الأحد من الأسبوع. علينا من ثم أن نتدبر أمرنا في ذلك اليوم، من أجل الوصول إلى المعسكر بوسائلنا الخاصة، التي لم تكن سوى السير على الأقدام أو ركوب الدواب، إذ لا وسيلة مواصلات منظمة تتوفر بين بينا ومعسكر عاقر .

نتجمع عند الفجر في سوق الجميزة أولاً، ثم ننطلق شرقاً في طريق ترابي من خلال البيارات والحقول والأرض العراء، المزروعة قمحاً أو ذرة أو بقولاً، إلى أن نبلغ جارتنا قرية المغار، المتربعة فوق ربوة عالية وعلى سفوحها. دخان (الطوابين)، كما رائحة خبزها الساخن تضيخ الأجواء من حولها. وإذا نغير الأزقة الضيقة عند طرفها الجنوبي، نلتقي أناساً من أهل المغار هنا وهناك، ممن يكرّوا في السعي إلى حقولهم، يجرّون دوابهم وأغنامهم وأبقارهم. أو نلتقي عمالاً مثلنا ينطلقون إلى المعسكرات والبيارات. الحياة تمور بأوجه النشاط منذ بواكير الصباح. ثغاء الأغنام، وخوار البقر.. رائحة التربة الندية.. زقزقة العصافير فوق الأشجار وعلى الأسطح. برد الصباح في هذا الوقت من

الشتاء.. يغدُ موكبنا السير فنبلغ المعسكر مع بداية الدوام .

ذات صباح ليوم أحد، وقبل أن نبلغ مشارف المغار، على الطريق الترابي غربيها، والشمس قد بزغت لتوها، توقفنا جميعاً دفعة واحدة، وكأن أحداً أمرنا بأن نفعل ذلك، أمام جثة رجل ملقاة على قارعة الطريق، يقف إلى جوارها حمار أبيض، يضرب الأرض بقوائمه. أصابنا الهلع.. تحلقنا حول الجثة. الرجل ميت منذ وقت ليس بالقصير، فيما بدا للكبار من بيننا :

.. الدم متجمد حوله يا جماعة.. قتلوا الرجل فياويلهم من الله... لا بد أنهم لصوص.. قطاع طرق ...

تذكرنا ما كنا قد شهدناه على الطريق قبل وصولنا إلى هذا المكان، ولم نأبه له ساعتئذ. ثلاثة رجال ملثمين مروا بنا مسرعين، يتجهون غرباً في طريق بيننا. لعلمهم هم القتلة ..؟ بل لا بد أنهم هم، وإلا فمن يكون غيرهم؟ ألم تروا إلى عجلتهم.. حتى إنهم لم يردوا علينا الصباح ..! لم يردوا طبعاً خشية انكشاف أمرهم. تابعنا طريقنا، يغشانا الخوف والأسف لموت إنسان في هذه الفلاة، فيما أهله ينتظرون عودته سالماً غانماً. مضينا نضرب أخماساً في أسداس.. تكهنات.. تعليقات.. تفسيرات شتى.. كل يدلي بدلوه.. ويستعرض ذكاه ..!

لدى عودتنا إلى القرية في المساء، كانت تعج بأفراد البوليس، تماماً كما حدث يوم مقتل يسرى اليافاوية. اتخذوا من مضافة المختار الحاج مصطفى أبو عون مقراً للتحقيق. حققوا مع الكثيرين.. اعتقلوا عدداً من الشبان على ذمة التحقيق. وانتشرت الشائعات بلا حصر : كان الرجل قادماً من إحدى قرى الشمال، محملاً حماره بضاعة يبيعهها في سوق بينا أو المغار.. الذين قتلوه لصوص سرقوا بضاعته ونفوده ... قتل الرجل خصوم له أخذاً بالثأر، بعد أن تربصوا به في هذا المكان النائي ... الرجل سمسار أراضٍ قتله ثوار ... الرجل ... الرجل ...

لم يبرح خيالي مرأى الجثة تلك الليلة.. امتنعت عن تناول العشاء.. رافقتني صورة القتل، وتحركات البوليس عشية ذلك اليوم حتى في أحلامي .

بواكير الربيع، وما زالت لساعات البرد تُلْفَح الوجوه، لكنها ليست كذلك التي عهدناها في أعياد الميلاد، ورأس السنة، وشهور الشتاء الأخيرة. كل شيء في الداخل كان مريحاً ومسلماً، على الرغم من المناكفات، التي لا تتوقف بين العمال العرب أنفسهم من جهة، وبين هؤلاء واليهود، الذين يتكلمون العربية، من جهة أخرى. إلا أنها لم تكن تتطور إلى ما هو أكثر من ذلك. و الفضل في هذا يرجع للشاويش (هنري) المخمور دائماً : وصف الضابط (ستانلي). كانا على قدر من الشدة والصرامة ترهب الجميع. من ثم لا يتجاوز هؤلاء وأولئك حدوداً معينة .

شاء لي حسن الطالع أن أغدو موضع رضاهما، لا شيء إلا لأنني أُلْمُ - ولو بتواضع - بلغتهما الانكليزية. كان علي أن أقوم بترجمة التعليمات، وربما الشتائم أيضاً، الصادرة عنهما للعمال. نعم أمسيت حتى دون سعي مني، المترجم المعتمد لكليهما، الأمر الذي أبهجني حقاً، إذ أصبحت في مأمن من نوبات الغضب، التي كانت تنصب على رؤوس الآخرين، حتى دون أن تكون هناك أسباب وجيهة في أكثر الأحيان. الشاويش (السيرجنت هنري) يبلغ به الغضب أحياناً حدّاً يدفعه إلى قلب محتويات الأواني.. أو أن يضرب بحدائه الضخم مائدة أو إناء، وكأنه يقذف بكرة قدم، فيما هو يصيح، ويكيل الشتائم، ثم يهتف :

-أمين.. تعال أنت.. قل لهؤلاء الأوغاد بأن صبري قد نفذ. قل لهم أن يكفوا عن.. أن يذهبوا إلى.. نعم قل لهم أن يذهبوا جميعاً إلى الجحيم.. ولينفذوا ذلك على الفور.. هذه تعليماتي.. قل لهم ذلك !!

ينصرف غير منتظر سماع ترجمتي، أو ردة الفعل الناجمة عنها، من قبل هؤلاء. لكن الصمت المطبق يخيم على الجميع، والهلع يدب في أوصالهم. لا يسمع سوى هدير الأفران، وهسيس الأنية التي يغلي فيها السائل أو الطعام. البخار ورائحة الخليط الهائل من الأطعمة والأشربة، تبدو واضحة تماماً الآن أكثر من أي وقت آخر.. وإلى أن يأتي الله بفرج من عنده، على صورة انتهاء

الدوام.. أو إقلاع سيارة الشاويش هنري، ذاهباً إلى مهجعه أو صالة العرفاء. يتنفسون الصعداء، ويحمدون ربهم أن مرت ثورة الشاويش هنري بسلام، هذه المرة أيضاً.

لهذا أصبحت موضع حسد منهم، لكن بعضاً آخر أخذ يسعى للتقرب مني والتودد إليّ. من هؤلاء (السفرجي) أحمد المصري. وعلى الرغم من أنه يكبرني ببضع سنين، إلا أنه استطاع أن يبني صداقة وطيدة مع كلينا، نعيم أبو جلالة وأنا. كما أنه نجح في بناء صداقات مع العاملين من اليهود أيضاً. توطدت عرى صداقتنا أكثر، حين أعلمته بأن عائلتنا مصرية الأصل، وأن جذّي لأبي قدم مع الجيش المصري في غزوة إبراهيم باشا لفلسطين، حيث أقام فيها من بعد. لماذا بقي في فلسطين ولم يعد مع الجيش المصري؟ هذا ما لا أدريه، إذ استشهد أبي قبل أن ينبئنا بشيء عن ذلك. هتف أحمد المصري حينئذ، وهو ينقض عليّ يحتضنني ويضمني إلى صدره قائلاً :

نحن بلديات إذن ... يا سلام يا أولاد !..

أكد لنا أحمد المصري، بأنه وجد الآن.. والآن فقط تفسيراً لتلك المشاعر التي كانت تخامرنا نحن (أنا ونعيم)، فالدم (لا يصير ماء)، و لا بد أننا ننتمي إلى أرومة واحدة، وإن دماغنا المشتركة مصرية، من عهد خفرع وتوت عنخ آمون !.. منذ ذلك اليوم أصبحنا نتحدث في كل ما يعنّ لنا. قضايانا الخاصة.. وقصتي في معسكر قطرة.. واليهوديتان سارة وريبا.. البولونيات والانكليز واليهود هناك. وفي ذات يوم اقترح علينا أن نذهب ثلاثتنا إلى رخبوت، ما دامت سارة سبق لها أن دعتني إلى منزلها ..(والا لماذا أعطتك عنوانها ؟.. هناك سوف ترون العجب. سبق لي أن ذهبت إلى رخبوت مرات عديدة.. رأيت اليهود على طبيعتهم، كما هم، في الأسواق، في البيوت، في الكازينوهات والملاهي. لنذهب يا شباب.. وبما أن خير البر عاجله.. فلنذهب مساء اليوم، حيث لا وردية ليلية لدينا أو نذهب غداً إن شئتم !..).

زعمت لوالدتي أن علينا وردية ليلية ذلك اليوم.. وفي المساء كنا ثلاثتنا في رخبوت. شوارعها المضاءة مكتظة بالمارة. واجهات المحال الساطعة الأنوار حافلة بكل شيء. الخواجات يتأبطون أذرع النساء جهاراً نهاراً. بل يقبلونهن أيضاً في الطريق العام !.. تفرعات ذلك الشارع العريض، والمداخل العديدة إلى شوارع كثيرة أضيق. كيف نعثر على بيت سارة وسط هذه المتاهة.. تلك هي المسألة؟ ولكن ذلك لم يعجز أحمد المصري، الذي جعلنا نعرف طريقنا إلى

منزل سارة، على هدي العنوان المكتوب في الورقة وسؤال بعضهم عن اسم الشارع المنشود ..! لم تكن بنا حاجة إلى طرق الباب بقبضة يدنا، كما نفعل في بيانا، إذ ضغط أحمد المصري على زر مثبت على الجدار، ففتح الباب بعد ريث. وإذا هي سارة أمامنا وجها لوجه. نظرت إليها دهشاً لكنها انقضت علي.. قبلتني في الوجنتين، متجاهلة من معي. لبث نعيم مندهشاً إلى أن دعيتنا للدخول، فيما نظر إلينا أحمد المصري مبتسماً.. بل ضاحكاً، يهز راسه يمينا ويسارا، وهو يهمس كمن يحدث نفسه (أيوه يا عم ..!). عرفتنا على أبيها موشى، وأمها استر. غرفة جلوس صغيرة. عدد من الكراسي في صدرها وعلى جانبي مدخلها. على جدرانها علقت صور شتى بعضها لفتيات عاريات، وبعض لزعماء من اليهود. وحين رأتنا ننظر والتساؤلات في أعيننا، شرعت وهي تشير إلى كل منها، تشرح ما هي ومن هي.. النساء ممثلات في أفلام ذكرت أسماءها، دون أن نعرف شيئاً مما تقول. أما صور الرجال فهي حسب تعريفها : لنبي صهيونيتهم (هرتسل) ولزعيمهم (وايزمن) الذي حصل لهم من الانكليز على وعد بلفور.. وآخر اسمه (بن غوريون) هذا فضلاً عن صورة أبويها يوم زفافهما، وصورة كبيرة لها هي في مدخل البيت.

ندمت على مجيئنا إلى هذا المكان.. مالي ولسارة هذه، ويهودها وصور زعمائها وأنبيائها المزعومين. ولكننا جئنا، وانتهى الأمر. في الطريقة الصغيرة، البادية لنا على قيد خطوتين أو ثلاث داخل البيت، جلست استر، وهم بالجلوس قبالتها موشى، وهو يعتذر لنا من بعيد قائلاً :

كنا سندعوكم لتناول العشاء لولا أن الطعام معدّ لنا وحدنا من قبل ولا مجال لدعوة آخرين ..!

شكرناه على دعوته هذه التي تتسم بكرم واضح، فيما يعترينا الاشمئزاز من هذا البخل البشع المتأصل، الذي طالما سمعنا به عن اليهود، وأسوأ منه الاعتذار بمثل هذه الفظاظلة. أما سارة فقد بدت وكأنها لم تسمع أو تلحظ شيئاً. شغلها، أو هي التي تشاغلت بالحديث عن المعسكر الذي غادرته، والأسئلة عن المعسكر الذي نعمل فيه الآن، فضلاً عن إبداء شعورها بالأسف من أجلي ..!

غابت قليلاً، ثم عادت لتقدم لنا أكواباً من شراب (السيذر) والبرتقال، ولتحدثنا عن مستقبل البلاد، لا سيما وأن الحلفاء باتوا في الموقف الأفضل، بل هم في طريقهم إلى النصر على دول المحور. وحين بدا علينا وكأننا لا نصدق

بأن الألمان يُهزمون - هؤلاء الذين هزموا الحلفاء في (دنكرك) وحطموا خط (ماجينو) الاسطورة - أعلنت أن الهزائم المتلاحقة التي منوا بها مؤخراً، على جبهات عديدة، حولت الحرب كلها لصالح الحلفاء. فمنذ جبهة العلمين، وشمال إفريقيا، وخسائرهم الفادحة في تلك المعارك.. بل إن خسائرهم في معركة (ستالينغراد) وحدها كلفتهم مائتان وخمسة وثمانون ألف جندي. قتل نصفهم وأسر الباقون (.. شكراً ليهود.. الذي أنقذنا من براثن الطاغية هتلر.. وهذه أرض المعاد تبقى لنا.. و يمكننا بالطبع العيش فيها معنا.. لماذا لا نكون أصدقاء؟ كما هو الحال بيني وبين أمين...؟)

قالت ذلك وهي تضحك وتضرب بكفها على فخذي. وحين أبدى أحمد المصري أكبرنا سناً وأكثرنا وعياً أيضاً، لكثرة مطالعته - دهشته لوفرة معلوماتها، وإعجابه بسعة اطلاعها، أعلنت ببساطة متناهية بأنها عضو عامل في مجال التوعية، في تنظيم الهاجاناه. عندها قلت، متسرعاً وفي غمرة استغرابي :

-أنت؟.. أنت يا مس سارة عضو في الهاجاناه التي يقولون أنها..

قاطعتني ضاحكة، وهي تعتدل في جلستها، لتضع ساقاً فوق الأخرى، فينكشف ساقها البرونزيان.. عامدة أو غير عامدة.. ما من أحد يدري، فأضافت تقول :

-وما ذا في ذلك يا شباب؟ لا أخفي عليكم أننا نعمل على أن يكون لكل يهودي ويهودية دور يقوم به من أجل قضيتنا، في أي مكان من العالم. وأنا كيهودية أيضاً لي دوري.. فما هو وجه الغرابة؟ لكن ما هو غريب، هو أمر زعمائكم أنتم. إنهم متحجرون.. لا يريدون.. التعاون معنا.. وهم قصار النظر، لا يريدون أيضاً أن يخرج الانكليز، قبل أن يمنحهم هؤلاء ما يسميه زعمائكم الاستقلال.. أي استقلال يقصدون ؟.. وعن أي إنكليز يتحدثون ؟.. ومع ذلك هم منشغلون دائماً بتأليف لجان لا تصنع شيئاً.. لجان تحت أسماء وعناوين مختلفة.. بل إنهم يتقاتلون من أجل تزعمها وترؤسها.. الذين يتقاتلون هم الذي تتألف منهم اللجان أيضاً !.. ما جدوى ذلك في النهاية ؟..

استأذنا للانصراف.. غادرنا منزل سارة، ونحن في حيرة من أمرنا ؟.. هل هي صادقة فيما تقول؟ بل هل يعقل أن تكون صادقة فتدلنا على خفاياهم وأسرارهم؟ وإذا كانت فعلاً كذلك.. أليس هناك هدف آخر من وراءه ترمي إليه؟

وكيف يتفق أنها، كيهيودية، تريد الأفضل لنا ولزعمائنا بحيث نبدي استياءها لخلافاتهم؟

أصريت على مرافقتنا.. وبعد أن سرنا خطوات معدودات، أشارت إليّ وهي تتباطأ قليلاً في مشيها. وحين انفردت بي.. وتابع رفيقاي سيرهما، قالت عاتبة، بل مؤنبة :

-لماذا لم تأت وحدك ؟.. هل كان يلزمك حرس ؟..

وحين اعتذرت بأنني لم أعرف كيف أجيء إلى رخبوت، فضلاً عن الاهتداء إلى منزلها، قالت:

-حسناً، ها أنت قد عرفت الطريق. سأنتظرك لتجيء وحدك في المرة القادمة.. هاه.. أفهمت يا أمين.. قلت وحدك ..!

ضمتني إليها.. قبلتني وانصرفت وهي تلوح بيدها. باي أمين ..! هتف أحمد المصري :

-لنذهب إلى أحد المقاهي يا أولاد.. يسمونها هنا كازينو.. تعلموا يا جهلة.. ماذا يسمونها؟ كازينو ...! (سارتك) هذه يا سيد أمين (سدّت نفسنا) ..!

دلّفنا إلى مكان بدا لنا منذ الوهلة الأولى أنه حانة وصالة رقص. داهمني اضطراب شديد. لكان عيون هؤلاء جميعاً تتفحصني.. نظرت إلى ملابسي.. حذائي. أخرجني من ارتباكى أحمد المصري وهو يدفع بي إلى إحدى الموائد، حيث جلس ثلاثتنا نرقب ما يجري.. وصوت الموسيقى الصاخبة، والراقصات اللواتي كشفن عن صدورهن وسيقانهن. جاء النادل. طلب أحمد المصري شيئاً، حتى دون العودة إلينا لعل لنا رأياً آخر. صبّ لنا النادل قطرات في أقداح صغيرة، من الزجاجة التي أرساها بعدئذ، على المائدة أمامنا. أضاف إلى الأقداح قليلاً من الماء. ما أن تجرعت رشفة حتى غص حلقي، فكأن نارا أحرقته. وعلى صوت سعالي تطلعت إلينا العيون، إما ساخرة أو مستنكرة. أدركت أن هذا الذي شربت لم يكن سوى الخمرة، التي طالما حذرتني والدتي من الاقتراب منها، ذلك أن (الرسول عليه السلام لعن شاربها وبائعها وناقلها.. الله يرضى عليك يمه) ..!

اقتربت منا فتاة دون العشرين من عمرها.. شقراء، أرسلت شعرها الذهبي على كتفيها.. توقفت على بعد خطوتين، ترمقنا بنظراتها الجريئة، ممسكة

بسيجارة في يدها.. قطعت الخطوتين، ثم وقفت بين نعيم وأحمد المصري، تشير إلى سيجارتها وهي (ترطن) بالعبرية. بادر أحمد إلى إشعال عود النقاب.. انحنت تشعل سيجارتها، لاح صدرها المكشوف، وقد تلاصق نهذاها حتى بدا عميقاً ذلك الخط الفاصل بينهما. ثم سألت، وهي تتفت دخان سيجارتها، في وجوهنا، بلهجة ركيكة عما إذا كنا عرباً كما خمنت، وما إذا كنا نرغب في الرقص معهم، مشيرة إلى الحلبة. ثم مؤكدة لنا بأن هناك الكثير من البنات الأوروبيات والمحليات، اللواتي يمكن للواحد منا أن يختار من بينهن من يشاء لقضاء أمسية جميلة معها....!

وحين نظر بعضنا إلى بعض متسائلين، وكأن عيوننا تتشاور في الأمر، تذرع أحمد نيابة عنا بضيق الوقت لدينا، الأمر الذي يدعونا للانصراف في غضون دقائق. قالت ضاحكة، فهي لم تيأس بعد، وهي تغمز بعينها اليمنى ما معناه بأنها تعرض علينا الذهاب معها!! ولدهشتي وحين أوشكت الرد عليها رافضاً، كان أحمد المصري قد سبقني إلى الرد معلناً بأننا نتمنى ذلك، على أن يكن ثلاثاً..!

غادرنا المكان في صحبتها، بعد أن أشارت إلى أخرى، فانضمت إلينا بغير تردد. أما هذه فكانت سمراء، ذات عينيْن واسعتين نفاذتين. وحين أصبحنا داخل زقاق ضيق، لا يصله إلا ضوء خافت، من عامود كهربائي، على مسافة غير بعيدة، وقفنا تحت شجرة صنوبر أغصانها الكثيفة امتدت إلى عرض الطريق، وعلى ارتفاع أمتار وراء سور الحديقة لذلك المنزل. قالت لنا الأولى بأن في وسعها أن تأخذنا إلى منزلها، لقضاء الليلة. وبقدر ما كانت دهشتي، كذلك نعيم، كان اندفاع أحمد المصري في الاستجابة لها. أحسست بغتة أنني في حالة غريبة، هي مزيج من الرغبة في المغامرة ومن الرعب، في ذات الوقت مما يجري. لكن أحمد المصري بادر إلى سؤالها عن (الثمن)!! ساومها وكأنه يشتري قميصاً أو حذاء. اتفقا أخيراً، فمضينا معاً من شارع إلى شارع، وإذا توغلنا مسافة ليست بالقصيرة، بين المنازل المضاءة فيما أصوات الراديو، ناطقة بالعبرية سواء كان حديثاً أو أغنية، تصل إلينا من وراء جدران تلك البيوت التي نمر بها. تملكني الخوف بغتة.. وتذكرت في ذات اللحظة.. (اليهوديات يا أمين.. لا تأمن لليهود يمه..!) كأنها تنتظر إلي الآن.. أكاد ألمح وجهها أمام ناظري، وقد ارتسمت عليه علامات الخيبة والدهشة والغضب..! توقفت فجأة.. سحبت نعيم إلى الوراء بشدة، فتوقف حيث هو، فيما تابع أحمد المصري سيره معهما :

-اسمع يا نعيم.. لن أمضي خطوة واحدة أخرى مع أحمد.. إلى أين يذهب بنا معهن.. إلى أين ؟
-انا الآخر بدأت أشعر بالخوف.. يمكنهم أن يذبحونا ويخفوا آثارنا هنا..
(و لا من شاف ولا من دري.. ونكون رحنا في شربة ميه)
-إنن هيا بنا. نادِ أحمد، ولنعد على الفور..
-ولكن إلى أين ؟
- إلى المعسكر نبيت هناك، ونزعم لأهلنا أن ورديتنا امتدت حتى الصباح.. المهم أن نخرج من هذه الورطة ..!
في طريق العودة، لم يكفَ أحمد عن التنديد بنا، ووصمنا بالجبن والخيبة أيضاً، إذ أضعنا (فرصة عظيمة) لقضاء ليلة رائعة في صحبة اليهوديتين.. حين ومادلين ..!

منذ النصف الأول من شهر حزيران أصبح شغل الناس الشاغل متابعة الأنباء، في ليالهم ونهارهم، بأعصاب مشدودة، وقلوب وجلة، تتحسب لما هو قادم 0 تلك الأنباء التي راحت تتوالى عن المعركة الهائلة، محتدمة الأوار، على شواطئ نورمانديا في فرنسا، والتي سوف يتوقف الكثير على النتائج التي سوف تسفر عنها. التفاؤل والمرح والسعادة تسود أرجاء المعسكر حيث نعمل. لكل جانب أسبابه الخاصة. الجنود الانكليز يرغبون في انتهاء الحرب بانتصارهم على المحور، ومن ثم العودة إلى بلادهم. وأما اليهود، فلأن ذلك يعني لهم تحقيق حلمهم في إقامة وطنهم القومي على أرض فلسطين. وإذا كان الثمن الباهظ، الذي تقاضوه في الحرب العالمية الأولى، لوقوفهم إلى جانب حلفاء ذلك الزمن، كان وعداً من بلفور، لرعيهم حاييم وايزمن، فإن الثمن الذي سوف يتقاضونه عند انتهاء هذه الحرب القائمة هو تحقيق ذلك الوعد - الحلم على أرض الواقع. أن يغدو حقيقة واقعة يحيونها. هذا ما كانت تلهج به ألسنتهم، وتتحدث عنه الجرائد والراديو. كما أن العرب من جانبهم، كانوا يتحدثون عن نتائج ما بعد الحرب، في الدور والمقاهي والسهرات على المصاطب. أهون هذه النتائج، إذا ما دارت الدائرة على ألمانيا هتلر، أن كارثة لا يعلم مداها إلا الله سوف تحيق بهم. لقد دلل أولئك الألمان على حسن نيتهم نحو العرب، بما أبدوه دائماً من نصرة لقضاياهم، وتأييد لثوراتهم المتعاقبة. كما أن العرب يلمسون ذلك حقيقة واقعة، بعد أن أمست ألمانيا مأوى للزعماء المناوئين للانكليز، سواء كانوا مبعدين عن ديارهم، أو فارّين للنجاة بأرواحهم من جور أحكام قد تطل رقابهم. المفني لاجئ لديهم، يقابل هتلر نفسه وقتما يشاء، للحصول على وعود بالعدم والمؤازرة، بعد الحرب التي لا يشك الحاج أمين الحسيني، ولا هتلر في نتائجها النهائية. كذلك فوزي القاوقجي قائد الثورات العديدة المتعاقبة في فلسطين وسوريا. هو الآن هناك من أجل الاستشفاء، إثر جراح خطيرة أصيب بها وهو في طريقه إلى إحدى المعارك.. ها هم الألمان يعالجونه وينقذونه من موت أوشك أن يكون محققاً، سواء بسبب جراحه، أو احتمال وقوعه في أيدي الانكليز

أو اليهود. هو أيضاً يعمل على كسب الألمان إلى جانب القضايا العربية عامة. ورشيد عالي الكيلاني كان قد لجأ إليهم عقب إجهاض ثورته على أيدي الإنكليز وعملاتهم في العراق، القائد حسن سلامة أيضاً هو في ضيافتهم الآن .

لاغرو إذن أن يترقب هؤلاء جميعاً ما يجري الآن بحذر وقلق، انتظاراً لما تسفر عنه معركة النورماندي الجارية. الاذاعات من لندن ومن برلين، بصوت يونس البحري، لا تتوقف عن نقل أنباء المعركة. صحيح أن أحداً من الجانبين لا يأتي بالأنباء صادقة مائة بالمائة، فكل مبالغاته، إلى حد تحويل الأمنيات إلى أخبار كأنها الحقائق. ولكن المتلقين من كلا الجانبين تحركهم أمانيتهم أيضاً..!

كانت الحاجة (أم سايحة) قد اشترت (راديو)، فهي القادرة الوحيدة في الجوار - بعد دار الجمل- على اقتنائه، وشراء بطاريات له ..! تتجمع النساء في بيتها عند المساء. هذه تريد الاستماع إلى القرآن الكريم، وتلك ترغب في أغنية لأسمهان أو أم كلثوم.. وبعض يتابعن الأخبار، وإن كن لا يقدرن على فهمها تماماً إلا أنهن بالحدس والتكهن يمكنهن تخمين اتجاه الرياح. وقد يتاح لي حضور جلساتهن هذه بصحبة أمي، إذ مازلت يرينني صغيراً، رغم بلوغي الرابعة أو الخامسة عشرة ..! عندئذ يمطرنني بأسئلة لا نهاية لها، حول ما يجري. يطلبن إليّ ترجمة فصحي الراديو إلى لغة يفهمنها.. أو على الأقل، شرح ما استخلصت مما سمعت :

-انت متعلم يا ستي.. فهّمنا الله يرضى عليك ..!

-احكي لنا يا خالتي الله يبعث لك بنت حلال تسعدك وترضيك ..!

وقد أكون - مثلهن - بحاجة لمن يفسر لي مضمون ما أسمع.

حين أسفرت المعركة عن هزيمة الجيوش الألمانية على تلك الجبهة، لم يصدق الناس ذلك.. أو هم لم يشاؤوا أن يصدقوا بأن تلك الاسطورة التي رسمت في أخیلتهم عن القوة الألمانية، التي لا تقهر، يمكن أن تهزمها قوة على وجه الأرض. من ثم عليهم أن يتشبثوا بآمال تصنعها أخیلتهم، فحيناً يشككون في الأنباء الواردة إليهم، على أنها دعايات غريبة مغرصة، وحيناً أنه لا بد وأن هناك خفايا لا يعلمونها وأن الألمان يدبرون شيئاً يفاجئون به العالم برمته، فراحوا من ثم يتناقلون أقوالاً مثل:

-لا بد أن في الأمر سراً لا يعرفه إلا الألمان أنفسهم .

-لسوف يفاجئ الألمان الدنيا بأسرها بسلاح جديد يقلب مجريات الأحداث

رأساً على عقب. انتظروا بعض الوقت.. توقّعوا في وقت ليس ببعيد مفاجآت سارة. الدعاية الألمانية أيضاً كانت تقول ذلك.

-أليسوا هم الذين أذهلوا العالم بتلك (الطيارة بدون طيار).. وبالصاروخ (F2).. وبالغازات السامة.. ووو.. ولا أحد يعرف ماذا لديهم أيضاً.. أسرار عسكرية عظيمة سوف يكشفون عنها عند استخدامها فقط، وفي الوقت المناسب..

-وكلّوا الأمر لله (يا جماعة).. ومن توكل على الله كفاه...

على الرغم من الرتبة التي خلقتها حالة المراوحة بين الأمل والقنوط يحدث من حولنا ما يحرك المياه الراكدة في القرية. فوزية ابنة خالتي، تزف إلى غازي ابن الحاج أبو عون. و كما هي أعراس العائلات الموسرة، أقام هؤلاء عرساً حافلاً في بياراتهم غربي القرية. الدبكة والسامر وتخت الموسيقى من يافا. كانت الحفاوة بخالتي وأولادها، وبنا أيضاً واضحة، لكوننا أهل العروس !...

عطلة المدارس الصيفية تنتهي، وينتقل أحمد إلى الصف الرابع. أما علياء فإلى الصف الثاني.. وقد أصبحت مشاغبة وطلباتها كثيرة.. لكنها كانت مصدر تسلية لنا، ولوالدتي على وجه الخصوص. فوزي ابن الخالة، يواصل عمله لدى عمه الهندي ليصبح (معلماً لحاماً) تفخر به خالتي !..

محمد الشريف يغدو رجلاً مرموقاً بين أهل القرية. يبني غرفتين إضافيتين في داره، وينشئ مضافة صغيرة يزوره فيها محبوبه. يوسع مكانه على حساب قطعة الأرض الخلاء المجاورة لها، ولا يعترض عليه أحد. يستشير الكثيرون في شؤونهم ويثبثونه شجونهم .

أمينة التي تتضح معالم أنوثتها أكثر في كل يوم، تواصل مداعباتها ومشاكساتها، لا سيما بعد أن أصبحت تلميحات أمي وأبيها حول عزمهما تزويج (هذه البنت لسعيد أو لأمين) في الوقت المناسب !.. من جانبي لا أرى فيها أكثر من أخت لنا، نعيش معاً تحت سقف واحد. لكن ذلك يضايقها، بيد أنها لا تبدي غير الرضا والمودة .

نعيم يحنُّ إلى بولونية معسكر قطرة (ماريا)، التي لا يعترف بأن هناك امرأة أجمل منها (في العالم). نواصل عملنا في معسكر عاقر.. والطريق الطويل المضني، نقطعه ذهاباً وإياباً سيراً على أقدامنا، أيام الأحاد. لقد بتنا نغبط أولئك الذين يملكون الدواب، ويتخذونها وسيلة لنقلهم إلى المعسكر. يربطونها على السياج، دون أن ينسوا تعليق (المخالية) في رقابها ملأى بالتبن والشعير

تزيد عن وجبة غداء ..!

راديو الحاجة أم سايحة أصبح يغنينا، لبعض الوقت، عن راديو مقهى القاضي. يتحدثون عن فيلم جديد لأسمهان تمثل فيه وتغني. يقولون أنه سوف يهز الدنيا بقصته الغريبة وبأغانيها في ذلك الفيلم، التي سمعوا منها حتى الآن بالراديو .. (ايمتى حتعرف ايمتى.. إني بحبك انت).. (أنا اللي أستاهل كل اللي يجرى لي).. (أهوى يا من يقول لي أهوى). ومع كل أغنية حكاية يخلقونها. اسم الفيلم في حد ذاته مثير للخيال والجدل .. (غرام وانتقام). ومحمود عنان السفرجي، لا يفتأ يشنف أسماعنا، فيما هو يروح ويجيء، يحمل الأطباق الفارغة والملأى، بواحدة ثم بأخرى من تلك الأغاني، طوال نوبة عملنا مما يثير عجبنا وإعجابنا. كيف حفظها؟ من علمه غناءها وهي جديدة لم تسمع إلا عن قريب..؟ وهو يعدنا، أيضاً باصطحابنا لحضور الفيلم عند عرضه في سينما فاروق.. وربما الحمراء بيافا. غير أن نبأ مفاجئاً ينقض على رؤوس الناس كالصاعقة بغير مقدمات :

.... ماتت أسمهان! وماتت قبل إنهاء الفيلم .

ذهل الناس ولم يصدقوا.. لا بد أنه نبأ ملفق.. إلا أنهم ما لبثوا أن تأكدوا من صحة النبأ، بعد أن أذاعته الإذاعات، وكتبته الجرائد جميعاً. بل ووصف لكيفية موتها، غرقاً في النيل، وما أحاط بالحادث من غموض. فبعض نسبته إلى القضاء والقدر وحدهما، وبعض رأى فيه حادثاً مدبراً، وأن لزوجها الممثل (أحمد سالم) يد في ذلك وبعض أصرّ على أن للانكليز يد في الحادث، متذكّرين الطريقة التي قتل فيها الملك غازي منذ سنين، وأكدت الأيام أنهم كانوا وراء مقتله.. صحيح... ليس صحيحاً... معقول... ليس معقولاً..! لكن الأنباء السيئة قلما تكون كاذبة : أسمهان ماتت. والحزن من أجلها في كل مكان. كانت كالحلم.. كالخيال.. كالأسطورة.. تلك الشمعة التي أضاعت ليالي سمرهم انطفأت سريعاً، فعمر الشموع قصير دائماً، وقد خلفت وراءها ظلاماً وقتاماً .

في المساء، ونحن جلوس على الشرفة، تنأهى إلينا صوتها، من مقهى القاضي، حزينا ومحزنا:

فرق ما بينا ليه الزمان ... ده العمر كله بعدك هوان.

لم يمض زمن طويل على أحداث النورماندي، حين نقلت الأنباء حكاية جديدة هزت الدنيا بأسرها لغرابتها وخطورتها. عن مؤامرة استهدفت حياة هتلر.

ليس الانكليز ولا الأمريكيان هم الجناة، لكنهم عدد من قادته أنفسهم. جنرالات ومارشالات، من ذوي الأسماء المعروفة والطنانة في الحرب. لكن الرجل نجا بأعجوبة. بعد أن قتل معظم من كانوا معه في ذلك الاجتماع. ولأن هتلر هذا رجل (ضد الموت)، كما كان يحسب الكثير من الأصدقاء والأعداء، على حد سواء، فقد ذهب بعد الحادث بساعة أو نحوها فقط، وكأن شيئاً لم يحدث، لاستقبال حليفه (موسوليني)، الذي كانت زيارته لألمانيا في هذا الوقت بالذات، محددة سابقاً ..!

حاروا في تفسير ما وقع لهتلر. فسره الأصدقاء بما يتفق وأمانهم أيضاً، تشبهاً بالبقية الباقية من الأمل، الذي استقر في نفوسهم ورسخ في وعيهم، على مر السنوات الماضية. نجا الرجل إذن دليل لا يندحض على أن العناية الإلهية تريد له النجاة، لكي ينجز أموراً لم يخلق إلا لأنجازها ..! وإلا فما معنى أن يقتل من كانوا بالقرب منه و من حوله، دون أن يصاب هو بسوء؟ ما معنى أن تفشل خطة المتآمرين المحكمة، هذا الفشل الذريع، ولأسباب واهية لا يصدقها عقل؟ ألا يعني هذا أن للرجل رسالة لم تتم بعد؟ وهي من وجهة نظرهم، خلاصهم من اليهود والانكليز معاً، ومن ثم الإبقاء على بلادهم ملكاً لهم دون غيرهم من الدخلاء؟. ذهبت الإشاعات كل مذهب. حكيت القصص، ونسجت الحكايا.. خيالية وأسطورية كانت، لكنها تلتقي جميعاً، في نهاية الأمر، عند نقطة واحدة، هي أن معجزة من السماء أنقذت لهم زعيم ألمانيا (هتلر).. الأسطورة ..!

أما أولئك في الجانب الآخر، فقد رأوا فيما حدث، وفيما سبقه من انهيارات لجيوشه، الجبارة على كافة الجبهات، دليلاً قاطعاً على بداية النهاية المحتومة. وإذا كانت هذه المحاولة باءت بالفشل، لسبب أو لآخر، فلا ريب أن محاولة أخرى أكثر إحكاماً سوف تتجز المهمة .

ولا ينقصني هذا العام قبل أن يختم أيامه بما هو أكثر فجيرة. وإن تكن هذه الفجيرة واحدة من ذيول المؤامرة على حياة هتلر. إنه (رومل) هذه المرة.. رومل الأسطورة الحقيقية، التي يكن لها الاحترام، ويعترف لها بالعبقريّة الفذة، الأعداء أنفسهم. أجل إنه رومل.. ثعلب الصحراء، هذه المرة. كان الاعتقاد سائداً بأن رومل هذا ما دام حياً، فسيظل هناك أمل براود النفوس بعودة الأمور إلى نصابها، واتجاهات الرياح إلى مجراها الصحيح. لسوف يهزم الحلفاء على يديه، رغم كل شيء ..! لسوف يفاجئ رومل خصومه بما يقصم ظهورهم ..!

أو ليس هو القائد الفذ القادر على اجتراح المعجزات ..؟ وهم الآن ينتظرون إحداها في هذا الوقت العصيب. ولكن ها هو ذا رومل يذهب. وحين يوارى رومل التراب، تدفن معه آمال كبيرة لبثت ربحاً من الزمن تضیی نفوسهم وتخفق بها قلوبهم .

ليس مهماً أن يعرفوا أسباب موته.. كيف؟ وأين؟.. انتحر..؟ أم قتل على الجبهة الروسية..؟ المهم أنه قد مضى. الفضول وحده يدعوهم للتساؤل والاستفسار. تقول الأنباء بأن الرجل كان ضالماً في (مؤامرة تموز) على زعيمه هتلر. وأن هذا الأخير - حفاظاً على أمجاد رومل وشهرته، ثم تحسباً لردة فعل الشعب الألماني - قد خيَّره بين الانتحار في صمت، بالسّم الذي أرسله إليه مع اثنين من مارشالاته، ورفاقه في السلاح، وبين محاكمة علنية تكشف دوره في المؤامرة، فاختار الرجل الانتحار، من أجل سمعته وأسرته وبلاده .

وحكايات تروى عن كيفية انتحاره.. عن شجاعته الفائقة في استقبال الموت أيضاً.. حديثه الأخير مع ولده وزوجته، قبل تجرع السم بدقائق معدودة. يخبرهم فيها بأنه ذاهب إلى حتفه. ماذا عليهم أن يفعلوا.. ترتيبات جنازته.. أن يتحلوا بالصبر والشجاعة.. يقبل زوجته.. يقبل ولده (مانفريد) بيتسم لهما ابتسامته الأخيرة.. وبريق دموع في عينيه.. ويمضي. وحين تبكي لأنه يقتل قتلاً وظلماً، يتندر ضاحكاً بمرارة، مذكراً إياها بحكاية سقراط في وضع مماثل تماماً، حين أجاب زوجته بقوله (وهل كنت تفضلين يا عزيزتي أن أقتل ظالماً ؟) .

مآثم في كل بيت.. والحزن في كل مكان.. يرددون.. (كل شيء يسير نحو الأسوأ ... اللهم الطف بنا و أعنا على ما هو آت).

لم نشعر باليتم، فيما مضى، على النحر المفجع الذي نحس في هذه الأيام. كان الأقارب والجيران، ومن حولنا جميعاً يشيرون إلينا، أو يتحدثون عنا، دون أن ينسوا إطلاق وصف (يتيم) على واحدنا. كان ذلك يخلف في نفوسنا الغضة إحساساً غريباً، هو مزيج من الشعور بالاختلاف عن الآخرين، إلى شعور بالحرمان والتسليم بقدر لاحيلة لنا فيه. قدر فرضته علينا رصاصة أطلقها كائن ما وطئ أرضنا ذات يوم، قادماً من وراء البحار لكي يكتب مأساتنا الدامية، بحركة من إصبع يده ..! صورة لاتبرح مخيلتي ..

في أيامنا هذه، ومنذ زواجها، تغيرت أشياء كثيرة في حياتنا. لم تعد قادرة على التصرف كما تشاء. هي تراوح حيرى بين إرضاء الزوج، وبين الحذب على الأولاد، وحمايتهم من سوء، وحتى من هذا الذي يتبدى في عيونهم، ويرسم على وجوههم من أسى ومرارة. من شأن ذلك أن يسهّد لياليتها ويشقى حياتها. بيد أنها لا تملك أن تصنع شيئاً. بدت في كثير من الأوقات نادمة على ما جرى. كان في وسعها - هكذا مضت تحدث نفسها - بأن تقيم على رفضها الزواج. لقد صمدت في البدايات، فما بالها تتصاع بعد هذا الزمن لما أمّلته الظروف والأهل؟ أهى الحاجة؟ الضرورة؟ الأهل؟ أم هي كل هذه مجتمعة؟ حتى الجيران وإن كانوا متعاطفين معها، رحماء بها، إلا أنهم يحملون الأفكار ذاتها، والتقاليد عينها : صبية مثلها تعيش أرملة ما بقي من عمرها؟ كيف؟ أمر من الغرابة بمكان ..!

تفاقم إحساسنا بالظلم والحرمان والضياع. بتنا نرى في عيون الآخرين نظرات الرثاء تلسعنا كالسياط، رغم أن مبعثها هو عطفهم علينا. غير أنها ورغم النوايا الطيبة إزاءنا، نشعرنا بالدونية في كل الأحوال، وبأننا نفتقر إلى شيء يملكونه من دوننا. وعلى الرغم من أن أحمد وعلياء لا يدركان من الأمور ما ندرك (أنا وأخي سعيد)، إلا أن ملامح الانكسار البادية في أعينهما، لا تخفى على الناظر إليهما، حتى دونما إمعان. صديقي نعيم يلمس ما يعتل في داخلي. يتجاهله نارة، ويتطرق إليه تلميحاً نارة أخرى. وحين لا يجدي ذلك يلجأ إلى

مباشرة غير جارحة، كأن يقول محتدأ، أو متصنعاً الحدّة :

-يا أخي يحدث هذا لكل الناس. الرسول عليه الصلاة والسلام عاش يتيماً.

-ولكنه يا نعيم ...

-أمك على الأقل على قيد الحياة.. أطل الله عمرها ..

فوزي ابن الخالة أيضاً، يقول شيئاً من هذا القبيل، كلما لاحت مناسبة مماثلة. بل هو يمضي ليقص عليّ حكايا عن معاناته هو والشقيقات، وأنه يتحمل الكثير أيضاً، وأنا عندما تكبر ستتغير أشياء كثيرة.. أما الآن فما (باليد حيلة) على رأي الخالة نعمة ..!

لعل إحساسي هذا كان سبباً في إحجامي عن الاستجابة لمحاولات أمينة التقرب مني والتودد إليّ، بوسائل شتى تلجأ إليها. فهي منذ وطئت قدمها أرض دارنا تمثلت لي ولأخوتي جزءاً، بل طرفاً فيما أَلَمَ بنا. صحيح أنها مثلنا - يتيمة أيضاً من أمها - محكوم عليها أن تعيش أوضاعاً ليست من اختيارها، لكن هذا لا ينفي إحساساً فائراً، أوقل نفوراً يعترينا نحوها.

في ذلك الصباح، وبطلب من أمي، ذهبنا معاً إلى الكرم نجني تيناً وعنباً وجميزاً. في السنوات الأخيرة لم أذهب إلى الكرم إلا لماماً. أذكر الأيام الخالية التي كان يصحبني فيها والدي، إلى كرمنا الذي يقع إلى الشمال الغربي، عند أطراف البيارات المحاذية لرمال الشاطئ. تربته حمراء تنبسط الخضرة على أرجائها، فتبدو لوحة ملونة ساحرة، بين أشجار التين، والكرمة، والتوت، والزيتون، وجميزتان كبيرتان، وسدرة عند الطرف القصي على السفح الرملي في نهاية الكرم. فوضى الأشجار المتناثرة هنا وهناك على غير نسق، كانت أجمل ما تراه العين، إذ بدت أجاماً مبعثرة، على بساط ثلونه حمرة التربة وخضرة العشب والبقول، حتى أن بعضها صنعت من تلقاء نفسها، ما يشبه الخيمة من أغصانها وأوراقها الكثيفة. عريش البوص قريباً من السدرة، حيث كان يحلو لوالدي تقيؤ ظله ليغفو ساعة القيلولة، فلا يفيق إلا نحو الغروب. يبادر عندئذ إلى جرة الفخار الحمراء العتيقة، يتوضأ من مائها البارد. هذا العريش مازال على حاله، ظليلاً تتسرب النسمات مابين عيدانه الملساء رطبة منعشة.

جيراننا (دار البوحي) أصحاب الكرم المجاور، يزرعون أرضهم تبغاً. لم أعرف ذلك إلا يوم اقترب أبي من حدود كرمهم، ليحيي عمال الورشة العاملة لديهم وأصحاب الكرم. كانت هناك أكوام من أوراق عريضة بنية وصفراء،

يفرد العامل ورقة على حدة، يضيف إليها أخرى ثم أخرى، إلى أن تصبح ربطة برصها فوق الكومة العالية الكبيرة. رد القوم التحية بمثلها، ودعوا أبي مشاركتهم فنجنا من القهوة، كانت تفوح رائحتها وهي تغلي على الموقد. بعدئذ جمع أبي عنباً وتيناً في سلة، بعد أن أسهمت في (التلقيط) معه. حملتها إليهم. قبلها جيراننا شاكرين، داعين لأبي بدوام الخير والبركة.. وطول العمر أيضاً!..

خرجت من شرودي.. من رحلتي في سني طفولتي الخالية، حين ألقيت نفسي وأمينه وحيدين تحت واحدة من أشجار التين، نقطف ثمارها، وقد اختفينا تماماً في ظلها الوارف. لقد تسربت خيوط من أشعة الشمس، التي استطاعت التسلل من خلال أوراقها الكثيفة، فرسمت بقعا دائرية صغيرة، بدت كقطع ذهبية متناثرة تتلألأ على الأرض الرملية. تنبها إلى ما يعنيه الموقف. سادنا شيء من الاضطراب، الذي لم تكن أسبابه واضحة لنا. بدت أمانة شاخصة ببصرها إليّ، ترمقني وعلى شفثيها ابتسامة مرتبكة. خيل إليّ أنها تتوقع مني الدنو منها. وإذا لم أفعل، اقتربت هي، فأصبحت أمامي تماماً. صدرها الناهض يرتفع ويهبط يتسارع غريب. أوشك صدرها أن يلامس صدري. ومضت في خيالي صورة امرأة ماء، ورجل ماء، في مكان ماء، في وضع مماثل لوضعنا هذا. اكتسحني شعور مبهم، دفعني إلى الورااء دفعا، في سرعة ومضة برق خاطفة. تنامي اضطرابي، وتسارعت أنفاسي اللاهثة. أطرقت أمانة إلى الأرض، وقد توردت وجنتاها، بل إن دموعاً لاحت تنترقرق في عينيها. بعفوية مباغطة وجدنتي أدنو منها.. احتضنها.. أضمها إليّ بحنان. أحسست أنها تعاني حالة مماثلة.. لم يزايلني شعور حنان أخوي يجتاحني نحوها. تندت دموع في مآقينا معاً.. كأنما توحدت أعيننا وقلباننا في جسد واحد وروح واحدة .

جلسنا تحت شجرة التين. وقتاً لا ندري مداه، نتناول حبات من قطوف العنب، غير واعي لحركة أيدينا، صامتين لكننا نتحدث بقلبيننا وعيوننا، إلى أن قالت بلهجة تشي بذلك الحزن الدفين :

.. ليتنا نبقى وحدنا هنا زماناً طويلاً طويلاً ولا نرى أحداً ..

قلت متعباً، ترزح على قلبي هموم رجل في خمسينيات عمره الشقي :

.. ويمتد بنا الزمان إلى الأبد ..

.. لا أهل ولا أقارب أو أحد.. أي أحد ..

.. و لا انكليز.. و لا يهود.. حتى ولا عرب ..!

- 48 -

ما إن عدنا عصراً حتى ألفينا القرية على حال من الاضطراب والغلبان، ذكرتنا بيومي مقتل المعلمة بسرى اليافاوية، والقنيل المجهول على طريق المغار. سيارات البوليس والجيش البريطاني أيضاً.. وتجمعات هنا وهناك. قالوا أن شباناً ثلاثة وجدوا قتلى على رمال ببارتهم. هم الأخوان أحمد وتوفيق النجار، وقريبهم نايف الشيخ ابراهيم. يلغط الناس في كل مكان بأقوال وحكايا في دهشة واستنكار :

.. ثلاثة دفعة واحدة ؟.. يا للمجرمين.. ثلاثة من عائلة واحدة.. ألا يخافون الله ... المنتقم الجبار ...؟ يا ويلهم من حساب يوم عظيم.. حسبنا الله ونعم الوكيل!

تعليقات شتى، وشائعات، وغضب، ووعيد وتهديد. ما يرنو إليه الجميع هو معرفة الجناة، الذين يجب أن يشنقوا عندئذ على هذه الجميزة.. هل كان القتلة يهوداً؟ ولكن هؤلاء لا يقتلوننا في هذه الأيام. بل هم يوزعون المنشورات الداعية إلى تعايش و وفاق، معلنين في ذات الوقت أن نشاطهم يقتصر على الانكليز وحدهم. الأحداث خلال السنتين الأخيرتين تؤكد أن أعمالهم الارهابية موجهة للانكليز فعلاً، فما الذي غير اتجاههم إن كانوا هم القتلة؟ وإذا لم يكن اليهود هم الجناة فمن يكون إذن ؟

يضرب الناس أخماساً في أسداس، ويطلقون التكهنات، في شتى الاتجاهات. بعض ذهب به الظن إلى الخصوم القدامى محمد اليوسف وجماعته. ولكن لماذا يقدم هؤلاء على هذه الجريمة النكراء بعد أن ساد الوفاق والوئام، أو على الأقل توقفت الخصومة منذ (الصلحة) التي جرت منذ زمن؟ ولكن أصحاب وجهة النظر هذه، لا يعدمون القدرة على إيراد المبررات والأسباب. فمحمد اليوسف قد يرى أن هذا هو الوقت الأنسب لإنهاء آل النجار، على مراحل، كقوة منافسة له في هذه الظروف المواتية. فما من أحد يعلم على وجه اليقين، ماذا يمكن أن يحدث غداً، وما الذي تخبئه الأيام. قد يذهب الانكليز.. ربما ينقلبون اليوم على

حلفاء الأُمس ولن يكون هذا غريباً عندئذ. فهم على مدى التاريخ لا يؤثمن جانبهم، والتجارب معهم، والقصص المروية عنهم غير مجهولة.. قد.. وقد ...

اتخذ البوليس هذه المرة من المدرسة مقراً للتحقيق. ولكن كما حدث في مرات سابقة، أقفل التحقيق دون الوصول إلى نتائج حاسمة. وإذ علمنا فور عودتنا من الكرم بأننا كنا على مسافة قريبة من مكان الجريمة، أصابنا الهلع، فببارة النجار، لا تبعد كثيراً عن الكرم، وأنه في الساعات التي كنا فيها هناك، كان البوليس والإسعاف ينقلون القتلى إلى القرية. أما من ذا الذي أبلغ عن الحادث، فهو جمال مرّ مصادفةً بمحاذاة بيارتهم، حين رأى جنثهم الملقاة على الرمال، ومن حولها بركة من الدماء، فانطلق مرتاعاً ليبلغ أهل القرية بما رأى. ولكن هؤلاء لم يصدقوا النبأ، أول الأمر، لغرابته و هوله. من ثم اقتادوه إلى المكان المزعوم، بعد أن أعلموا نقطة بوليس المحطة بالأمر .

آلت أمي على نفسها، ذلك اليوم ألا نذهب إلى الكرم، أو إلى أرضنا وحدنا بعد ذلك. حمدت الله على نجاتنا، فيما هي تلوم نفسها على ما أقدمت عليه، وكان ممكناً أن يجلب لنا الأذى. كما أنها قررت أيضاً أن (تضمّن) الكرم في الموسم القادم لأي ضامن يتقدم إليها، كما كانت تفعل في السنوات الماضية. لم تستقر القرية بعد ذلك على حال. فالتوجس والحذر والريبة تنتاب الجميع. يفكرون حيناً في اليهود، وحيناً في دار أبو سالم. قال قائل منهم :

.. اليهود إذن بدأوا يتجهون إلينا من جديد، بعد الانكليز.. وهذه جريمة لا يقدم عليها إلا اليهود قساة القلوب .

.. هم لا يتورعون عن قتل أبناء جلدتهم، إذا ما رأوا في ذلك مصلحة لهم، في سبيل تحقيق أهدافهم. أم تراكم نسيتم بواخر المهاجرين التي نسفوها، كالبخرة (باتريا) في خليج حيفا، التي فجرها أحد إرهابيهم ويدعى (مناحيم بيغن). لقد ضحوا بكل من على متنها بجريمة بشعة، فقط لكي يلصقوا بالانكليز تهمة إعاقة الهجرة ..! بل إن قيادات منهم، كما يتردد ويقال، ضالعة مع النازيين أنفسهم، من أجل تهجير المزيد منهم لبيلانا، عن طريق إرهابهم وتخويفهم بما يثيرونه ويشيعونه، وهو صحيح حيناً وباطل حيناً، عن أعمال إبادة وتعذيب يوقعها بهم أولئك. الغاية من وراء ذلك أن يدفعهم الذعر إلى الفرار. ومن ثم الهجرة إلى فلسطين. وما داموا يقترفون جرائم بهذا الحجم ومن هذا القبيل حيال شعبهم نفسه، فأين وجه الغرابة في قيامهم بقتل عدد من العرب هنا

أو هناك...؟

من جديد شرعوا في البحث لتأليف لجان تتولى أمور التسليح، وتحصين القرية، وتنظيم حراسات ليلية عند مداخلها. ولأن المال اللازم غير متوفر، فقد رأوا تأجيل مشروع تمديد المياه إلى البيوت، ومشروع بناء المدرسة في الحراز الجنوبي، حتى بعد أن قطعوا شوطاً لا بأس به في هذين المشروعين .

منذ زمن بعيد لم تشهد القرية مأتماً كهذا.. الناس عن بكرة أبيهم في حداد. شارك الجميع في العزاء، كما في تقديم الواجب.

وفي السراشق الكبير، الذي أقيم في الساحة العامة، تجمع المعزّون على مدى ليال ثلاث. بل استمروا بعد ذلك بسهرات لأكثر من أسبوع آخر. حيث يعقدون اجتماعاتهم ويتخذون قراراتهم .

آل أبو سالم، وفي طليعتهم محمد اليوسف، شاركوا في العزاء، وقدموا لذوي الضحايا ما تقتضيه المناسبة، سواء على صعيد المواد العينية أو إبداء المشاركة في المشاعر. عندئذٍ لام بعض الناس أنفسهم، إذ ذهبت بهم الظنون حد اتهام هؤلاء الأبرياء من دم آل النجار، مرددين ألا (إن بعض الظن إثم) أيها الناس ..! فيما استرسل آخرون في شكوكهم قائلين بأن محمد اليوسف (هذا الداهية) لن يدع الشكوك تحوم حوله، وتمسك بتلابيبه، دون أن يصنع شيئاً. ألا إن هذا الرجل (يقتل القتل ويمشي في جنازته) دون أن يرف له جفن ..!

قبل أن يلم الكرى بجفني تلك الليلة، ألفت نفسي في ظل شجرة التين العتيقة.. وأمنية مضطربة خافقة الصدر.. متوردة الوجنتين.. تلوذ بي فيوشك صدرها أن يلامس صدري.. أنفاسها تلفح وجهي.. أغمض عيني.. ومعا نمضي بعيداً ...

قبل أن ينتهي العام تصاعدت أنباء هجمات اليهود على الانكليز. قيل إنهم قتلوا في القاهرة شخصية بريطانية هامة.. وزير خطير يدعى (اللورد موين). أثار ذلك غضب الحكومة البريطانية، التي رأت أن اليهود يمرغون كرامتها في الوحل، ليس في فلسطين وحدها، وإنما في خارجها أيضاً. شرعت تهدد بالانتقام لكرامتها، مذكرة إياهم، بجميلها ومكرماتها التي أغدقتها عليهم، على مر السنين، وفي كل الظروف، والتي لولاها لما قامت لهم قائمة في هذه الديار. بل إنها - فوق ذلك كله - هي التي أنقذت الكثير منهم من بطش النازية.. ثم جاءت بهم إلى فلسطين، وفرضت على أهلها الأصليين والشرعيين وجوداً لهم فيها .

يفرح العرب و يشمتون بهؤلاء البريطانيين، الذين يلقون اليوم (جزاء سنمار) من أصفيائهم وأوليائهم. ولكن الفرحة لا تطول، فتطورات الحرب المحتدمة في أوروبا لا تسر. وهي تسير كل يوم من سيء إلى أسوأ. هذه الحرب التي يتوقف الكثير، بالنسبة لهم، على نتائجها. وحين تفيض بهم المرارة يرددون (... يا جماعة المتعوس متعوس.. لو علقوا على راسه فانوس ..) (اللي ماله حظ لا يتعب ولا يشقى..)، (الألمان يا شايف الزول يا خايب الرجا...)

وما أن يدخل العام الجديد، وتمضي ليالي الاحتفالات بالميلاد ورأس السنة حتى تأخذ الأمور في التفاقم أكثر فأكثر. فالألمان بعد انسحابهم من بلاد كثيرة، سبقت لهم السيطرة عليها في سنوات الحرب الأولى، يتراجعون الآن عنها، ويلوذون بالأراضي الألمانية ذاتها، أمام زحف قوات الحلفاء بقيادة الجنرال الأمريكي (أيزنهاور) والمارشال البريطاني (مونتجمري). تقول الجرائد والاذاعات يوماً أن الألمان خسروا مائة وعشرين ألف رجل.. وستمئة طائرة وسبعمائة دبابة.. و.. ويوماً تقول ذبح من الألمان تسعون ألفاً من أصل ما يقارب الثلاثمائة ألف، الذين أسرتهم القوات الروسية الزاحفة، وأن هؤلاء اقتيدوا إلى سيبيريا، لكي يلقي آلاف منهم حتفهم في أصقاعها الجليدية الرهيبة برداً وجوعاً وإعياءً قيل أن (ستالين) يتمنى لو استطاع إبادة الألمان حتى آخر

رجل.

وما أن يحل ربيع هذا العام، حتى تتوارد الأنباء معلنة عن هزائم جديدة مني بها الألمان، وعن تقدم جديد لقوات الحلفاء في الأراضي الألمانية ذاتها. يصاب الناس بالأحباط ويعتريهم القنوط. على المقاهي يتحلقون ويلصقون آذانهم بالراديو. كما أنهم يتخاطفون الجرائد الواردة من يافا (فلسطين) و(الدفاع). وفي البيوت، وعلى المصاطب في المساء، حيث يتناولون القهوة والشاي على ما جرت عليه عادتهم، في الظلمة، أو في ضوء القمر، لا حديث لهم غير هذه التطورات العجيبة، التي لم تخطر لهم على بال. واعتقد الناس أنه ليس سوى حظهم السيئ هو سبب هذه الكوارث !! و لا بد أنهم في مقبل الأيام، سوف يلقون من العنت وسوء المعاملة الكثير من قبل الانكليز. أما اليهود فالأقتتال معهم محتم، دونما ريب. وعندما تلتقط آذانهم، ذات يوم، نبأ ساراً هو موت (روزفلت) رئيس أمريكا، فبالكاد يصدقونه، لأنهم تعودوا الاستماع إلى الأنباء السيئة وحدها في الآونة الأخيرة. غير أنهم حين تأكدوا من النبأ فرحوا واستبشروا خيراً، ظناً منهم بأن هذا سوف يؤثر على مجريات الحرب.. وبالتالي ربما تحل المعجزة المنتظرة !!

.. مات روزفلت يا شباب.. من هو هذا روزفلت ؟.. حليف الانكليز وصديق اليهود ..مبروك.. اللهم ألحق به تشرشل !!

يتبادلون التهاني في المقاهي والطرقات والبيوت. أبو داوود يقدم الشاي والقهوة لكل رواد مقهاه مجاناً. رشيد الجمل ينذر أنه سيضحي بقطيع من الغنم.. أصحاب الدكاكين يوزعون الملابس والحلوى. لكنهم وقبل أن يتمادوا في أفراحهم، تأتيهم أنباء تراجع الألمان وانكفائهم، حتى برلين ذاتها، ثم إحاطة القوات الروسية (بالرايخستاغ) مقر هتلر ذاته.. ثم.. ثم.. النبأ العظيم الذي غطي على كل الأنباء وأتى على البقية الباقية من أي أمل ما زال يتردد بين جوانحهم.. كان النبأ العظيم الذي دوى ضجيجيه، وتردد صداه في أرجاء العالم قاطبة، وتقرر به وعلى أثره الكثير مما له علاقة بمستقبل البشرية كافة، على ظهر هذه الأرض لحقب طويلة قادمة هو :

-نهاية هتلر.. مات هتلر منتحراً !!

هل ينتهي هذا الرجل الذي دوّخ العالم بأسره هكذا؟ الرجل الذي كان اسمه وحده يلقي الرعب والرهبة في النفوس ؟.. الرجل الذي ينسبون إليه مسؤولية

موت عشرات الملايين من البشر.. ودمار قارة أوروبا ..؟

قالوا إن قذائف المدفعية الروسية دمرت ما يسمونه بمستشارية الرايخ، مقر قيادته، فقتل ومن معه من القيادة الألمانية العليا، ومشاهير القادة الذين يعرفهم العالم باسمائهم.. وقالوا إن هتلر انتحر بالسم، ومعه (إيفابراون) عشيقته، التي تزوجها قبل موته بساعات فقط ..! بل كان انتحاره بإطلاق الرصاص على نفسه.. كما انتحر معهما أيضاً وزيره الأثير غوبلز، ومعه زوجته وأطفاله الستة، الذين تجرعوا السم جميعاً.. وقالوا إن هتلر اختفى ولا أحد يعلم مصيره.. ولسوف يظهر فيما بعد، على نحو أو آخر، ليقود الألمان إلى النصر المؤزر ..! علق الكثيرون آمالهم على القول الأخير. استساغوه فرجحوا كفته، ربما لأنه يتفق مع تمنياتهم وأمانيتهم.. نعم مثل هتلر لا يموت بسهولة هكذا.. أو لا بد أن هناك سراً.. لكن ألمانيا نفسها، ها هي ذي تستسلم أيضاً لقوات الحلفاء.. ألمانيا بجبروتها، وعظمتها، وجيوشها الهائلة، التي ما حسب أحد يوماً أنها يمكن أن تقهر.. ألمانيا بأسلحتها المعروفة والسرية.. ألمانيا هذه تستسلم.. فيا لشؤم الطالع وبؤس المصير ..! كانت عيونهم تنطق بهذا قبل ألسنتهم، وفي يقينهم أن الغيب يخبي لهم في ثناياه ما هو أدهى وأمر، مما يبحث منذ الآن على الرهبة والروع .

.. ترى ما الذي تخبئه الأقدار أيها الأخوة ..؟

.. علم ذلك عند علام الغيوب ..

لكن بارقة من الأمل لاحت في الأفق، في خضم ذلك الطوفان من عوامل الإحباط والخوف والتشاؤم، فتشبثوا بها تشبث الغريق بالقشة، رغم أن أهميتها لم تكن من وزن الأحداث الجارية، إلا أنها من شأنها أن تمنحهم شيئاً من الطمأنينة. بارقة الأمل هذه تمثلت في الإعلان عما أسموه بميثاق الجامعة العربية. هذه الجامعة لن تسمح باستفراد اليهود بهم. ولسوف يكون لها شأن وأي شأن، لاسيما وأن الانكليز باركوها وأقروا قيامها كما يقولون. فلتهدأ النفوس، وتطمئن القلوب إلى حين..

لعل ضمائر هؤلاء الانكليز قد صحت أخيراً وأرادوا التكفير، في نهاية الأمر عما اقترفته أيديهم بحق الأمة العربية..! من يدري..؟ كل شيء جائز في هذا العالم الغريب..!

أفراح المعسكر ومن فيه تفوق الوصف. ما كنا نشهده في المناسبات التي مضت لم يكن شيئاً مذكوراً، إذا ما قورن بما يجري الآن.

انتهت الحرب العالمية. ولن يطول بهم الوقت قبل أن يعودوا إلى بلادهم. الأغاني والموسيقى تصدح بها مكبرات الصوت، في كل مكان. كأن النظام الصارم المعهود قد انقلب إلى فوضى جارفة. أو كأن المسؤولين يتساهلون اليوم للمناسبة السعيدة. أفواج من اليهود - أغلبهن نساء - تنقلهم الحافلات، قادمة من المستعمرات القريبة. الرقص، الشراب، تبادل العناق والقبلات.. أفواج من البولونيات ببزات عسكرية، قدمن أيضاً، فأضفين على الحفلات الصاخبة، مزيداً من الألق.

وحدنا، العدد القليل من العمال العرب، نرنو إلى ما يجري، وكأننا في عالم من خيال. وحين تقع الأعين علينا، تطل منها الريبة والتوجس. الطاهي اليهودي (سمحون) يقول لنا والشماتة بادية في عينيه :

- أرايتم (يا زملائي الأعزاء) كم كنتم مخطئين أنتم وبقية العرب في انحيازكم للألمان؟ ها هو (هتلركم) انتهى.. ألمانيا.. النازية.. كله راح في داهية..!

بلوّح السفرجي محمود عنان بيده وكأنه غير مبال بكل ما يجري.. وهو يقول (أكثر من القرد الله ما سخط).. يدير ظهره منصرفاً وهو يغني (ايمتي حتعرف ايمتي.. إني بحبك إنت ..!) سنرى فيلم غرام وانتقام في سينما فاروق هذين اليومين يا أولاد ..! الشاويش (هنري) في لحظة يبدو مرحاً ومبتهجاً، وفي اللحظة التي تليها ينطلق صوته مدوياً. شاتماً، لاعناً، ثم منادياً :

- أمين.. قل لهؤلاء الأوغاد من زملائك بأن يكفوا عن ضجيجهم، وإلا ألقيت بهم في واحد من هذه الأفران...!

وحين يجدني قد لبثت صامتاً، ومندهشاً أيضاً، يصرخ من جديد (لماذا لا تترجم لهم ما أقول يا أمين.. قل لهم هذا ..). ثم ينصرف قبل أن يتأكد من أنني

نفذت تعليماته. نعرف عندئذ أنه في حالة من السكر الشديد، كد أبه في كل الأوقات. بدأت تساورنا الشكوك في أمر بقائنا في العمل، نحن العمال العرب. ما حاجتهم لنا بعد أن انتهت الحرب؟ أحمد المصري أيضاً يبتئ مخاوفه، إذ هو لا يدري ماذا يصنع، وإلى أين يذهب لو حدث ذلك. وحين سألته عما إذا كان لا يرغب في العودة إلى بلاده.. وأنه ينبغي أن يكون أكثرنا فرحاً بعودته إلى وطنه وأهله، قال وهو يشرد ببصره إلى بعيد :

-ليست المسألة ما إذا كنت أحب مصر.. بل كيف لا أحبها يا مجنون؟ ظروف معينة جاءت بي إلى بلادكم، ولو لاهما لما رأيتني هنا.. ما من أحد يهجر بلده بمحض اختياره يا أولاد. وحين قلت له بأن بلادنا هي بلاده، وأنا تعلمنا أن بلاد العرب جميعاً أوطان لنا جميعاً.. حتى ذلك المقطع الخاص بمصر رددته على مسمعه ضاحكاً..(ومن نجد إلى يمن.. إلى مصر فتطوان ..)، لم يعقب وكأنه يغير موضوع الحديث فيقول :

-ما رأيكم لو نذهب الآن معاً إلى رخبوت، وترى صديقك سارة أيضاً ، أو مأت برأسي على الفور.. بلا.. فيما لبث نعيم صامتاً. فمضى عنا أحمد المصري وهو يلوح بيده .

-اذهب وحدي.. (طول عمري عايش لوحدي).. سوف أسلم لك على سارتك ..!

وحين سألتني نعيم لماذا لم نذهب مع أحمد، أبدت له تخوفي من اليهود، وكل ما له صلة بهم. فهل نذهب إليهم بأنفسنا تحملنا أقدامنا، مخاطرين بأرواحنا؟ ثم ألم تر إلى سارة وأحاديثها المريبة؟ أكد لي نعيم بأن مخاوفي هذه مبالغ فيها، وأنه من الواضح أن سارة تحاول أن (تبلفنا) بأن تدخل في أفكارنا أموراً تهماً، ولكن بما أننا نعرف هذه الحقيقة فيمكننا أن نتظاهر بموافقتها على آرائها، نستمتع معها، وفي نفس الوقت نلتزم جانب الحذر. أكدت له أيضاً: أنه من الخير لنا أن (نبعد عن الشر ونغني له) كما تقول أُمي دائماً .

مضينا إلى حيث تقلنا سيارة الجيش إلى بيّنا، فأدركناها في اللحظة الأخيرة قبل انطلاقها .

ترد الأنباء من سوريا بما يقض المضاجع. الفرنسيون يقصفون أحياء دمشق، ومدناً أخرى. كما أنهم يهاجمون المجلس النيابي السوري، فيقتلون الحامية التي دافعت عن مبنى البرلمان ببطولة نادرة، حتى لحظة استشهادهما. قامت المظاهرات، في كافة أرجاء فلسطين، معلنة الاحتجاج والاستنكار، أعلنت الجماهير استعدادها للتطوع، والذهاب إلى سوريا لتشارك الأخوة هناك قتالهم، ضد الاستعماريين الفرنسيين. أحس الفلسطينيون أن إخوتهم في سوريا بتعرضون لمثل الذي يقع لهم. وهم يذكرون للشعب السوري نصرته لهم على الدوام، وفي كل الظروف. وما استشهد القسام عنهم ببعيد. قيل إن الشهداء بالآلاف وأن أحياء برمتها أحرقت بل إن حياً بأكمله يقع بمحاذاة سوق الحميدية الشهير وغربي الجامع الأموي قد احترق تماماً.. والثورة تعم الآن كافة أرجاء الشقيقة سوريا. أخذ الناس يتساءلون في دهشة واستنكار : هل هذا أول بوادر انتصارات الحلفاء؟ التذكر لنا نحن العرب في جميع أوطاننا ؟.. صورة أخرى عما حدث في أعقاب الحرب العالمية الأولى فيما سلف. نعم فهم ينظرون إلينا على أننا أمة واحدة، على الرغم من تقسيمهم لبلادنا إلى عديد من الدول والأوطان، تحت أسماء مختلفة ... هم هكذا.. أطماعهم القديمة هي هي.. عداؤهم القائم منذ الحروب الصليبية هو هو لم يتغير.. وفلسطيننا هذه أليست هي سوريا الجنوبية قبل التجزئة ..؟ سايكس بيكو.. وبلفور.. والخianat ..؟

لبث الناس في غليان.. ويبلغ حماسهم عنفوانه حين يسمعون أصوات الحاكي في كل مكان : سلام من صبا بردى أرق / ودمع لا يكفكف يا دمشق.. و.. دم الثوار تعرفه فرنسا/ وتعرف أنه نور وحق.. و.. للحرية الحمراء باب / بكل يد مضرجة يدق ...

وتتصدى قوات البوليس البريطاني للتظاهرات. لقد ساءهم أن ينتصر عربي لعربي.. وأن يروا وحدة المشاعر تتجلى في الأوقات العصيبة، في أقوى مظاهرها، رغم عوامل التجزئة ومحاولات التفرقة. ولم تتوقف المظاهرات إلا حين جاءت الأنباء عن توقف الأعمال الاجرامية الفرنسية في سوريا، وتدخل

جهات دولية، لصالح الأخوة في سوريا .

قبل أن تتعمق قريتنا بشيء من الهدوء إثر الأحداث الأليمة الأخيرة في الشقيقة سوريا، فوجئوا بنسف جسر السكة الحديد شرقي يينا. اليهود هم الذين قاموا بذلك، هذه المرة. لقد لجأوا مؤخراً إلى أسلوب جديد مكرر. فهم يعتمدون أن تقع عملياتهم على مقربة من القرى والمدن العربية، لكي يسهل عليهم إلصاق التهمة بأهلها، عندما يرون ذلك ضرورياً. وتتطلي الحيلة على الإنكليز، فيعمدون إلى التكتيل بالأهالي العرب. وهذا تماماً ما حدث، فلقد هرعت قوات بريطانية إلى القرية، فطوّقتها من كافة جهاتها. ثم قامت بتفتيش المنازل، وتوقيف الشباب، والتحقيق مع الكثيرين، عن طريق الاستجواب واستخدام الكلاب البوليسية. استمر ذلك طوال اليوم، ولم تنته الحملة لولا أن أعلنت عصابة (إيتسل وليحي اليهوديتان) مسؤوليتهما عن العملية، وأنها تمت رداً على الإنكليز لإعدامهم منذ شهور قاتلي (اللورد موين) في القاهرة .

ذات صباح من شهر آب، صحا العالم على نبأ لحادث لم يسمع بمثله من قبل، في تاريخ البشرية. فاكتمت الدنيا بأسرها موجة من الفزع والهلع، وعدم التصديق غرابة ودهشة. ذلك أن قنبلة واحدة ألقيت فوق مدينة يابانية اسمها (هيروشيما) دمرت المدينة تماماً، وأفنت كافة الأحياء فيها من إنسان وحيوان ونبات. ما يربو على مائة ألف من البشر، قضوا نحبهم في لحظة واحدة..! عقدت الدهشة ألسنة البشر، وشلّت عقولهم، وأجبت أحاسيس الخوف الغريزي لديهم على مصلّتهم، من ذلك الهول الذي يمكن أن يحل بهم .

هل يمكن أن تفعل قنبلة واحدة مثل هذا؟ ومن أين للأمريكيين قنبلة كهذه؟ ولماذا يلقون بمثل هذه القنبلة على مدينة كهذه، فيقتلون أهلها بمن فيهم أطفال ونساء وأناس عاديون؟ وأي قلب متحجر هذا الذي يأمر بجريمة على هذا القدر من الهول والجسامة؟ تساؤلات ما فتئ الناس يرددونها في سائر أرجاء البلاد، والرعب والأسى يأخذان منهم كل مأخذ، ليس في بلادنا وحدها، بل في شتى أقطار الأرض. فلا حديث للأذاعات والصحف غير هذه القنبلة، وآثارها الناجمة عنها، حاضراً ومستقبلاً. والتبرير الذي عمد إليه أصحاب الفعلة الشنعاء، هو أنهم أرادوا إنهاء الحرب مرة واحدة. لكن آخرين قالوا أنهم قاموا بذلك انتقاماً من اليابانيين لغاراتهم من قبل على ميناء (بيرل هاربر). وكان ذلك بتوصية لرئيس أمريكا (ترومان) من قائد الجيوش الأمريكية في الشرق الأقصى، وهو الجنرال (ماك آرثر). انتهت الحرب في ذلك الركن القصي من هذا العالم

المتعب، باستسلام اليابان دونما قيد أو شرط. بعد أن ألقوا قبلة مماثلة على مدينة أخرى اسمها نجازاكي. شلت الحياة في بينا الأيام، فالناس جميعاً يهيمن عليهم الذهول والقنوط لهول ماسمعوا.

حملت لوحة التعليمات المعلقة عند بوابة المعسكر إعلاناً للعمال العرب بعلمهم بأمر الاستغناء عن عديد منهم في الحال، بينما يحتفظ ببعضهم حتى إشعار آخر. وما هي إلا أيام قليلة حتى كنا نقبع في قريتنا دون عمل. لم يدعوا لنا وقتاً نتدبر فيه أمرنا. نتلفت عند مغادرتنا بوابة المعسكر، للمرة الأخيرة في أسي وحسرة، على الأيام التي أمضيها من أعمارنا هناك، نقدم لهم خدماتنا في وقت حاجتهم إلينا.. وخدمة لمجهودهم الحربي .

في بينا عند العصر، نتمشى على الطريق بين المقاهي والدكاكين. أجهزة الراديو ترسل خليطها المعتاد من الأصوات، إذ يبت كل منها إذاعة مختلفة. الصبايا يحملن الجرار غاديات رائحات، ويسرق النظر إليهن خلسة رواد المقاهي من الشبان، يناديني الحلاق أحمد الجمل، يعرض عليّ العمل في دكانه حيث أنال الحسنيين معا - كما قال - الأجر ومواصلة تعلم الحلاقة...! أما الأجر فمبلغ يتفق عليه، وكمية من الحبوب، التي هي أجور عمله، التي يتقاضاها سنوياً عن حلاقة الرأس والذقون...!

اجتمع شملنا (رفاق المدرسة)، بعد أن تعطل معظمنا عن عمله. والآخرين عادوا من مدارس يافا والقدس، لقضاء العطلة. نتحدث عن المستقبل الذي ينتظرنا، فلا نرى في الأفق بادرة تضيء لنا طريقاً، أو تمهد لنا سبيلاً. على أية حال، وما دامت الحرب قد انتهت فلسوف تتغير أشياء كثيرة .

نتناول عشاءنا في المساء، في صمت مطبق. أمني مستغرفة كل الوقت في تفكيرها حول أخي الغائب. أمينة كعادتها تسارقني النظرات، محاولة ألا يلحظ أحد ذلك، فيما يمعن والدها في صمته الأزلي. وهو قلما ينطق إلا إذا رأى ضرورة قصوى لذلك تستدعيها الحاجة. أمينة هي التي تقوم أيضاً بإعداد الطعام، في هذه الأيام .

حلم رأته أمني الليلة الفائتة. رجل يقرع الباب.. تفتحه للطارق، فيبشرها بأن كيساً من الدقيق في طريقه إليها، غداة ذلك اليوم. أيقنت أمني بأن (سعيد) عائد اليوم إليها، فأحلامها تتحقق بحذافيرها دائماً. ولن يكون كيس الدقيق سوى أخي سعيد..! لم يحدث مرة واحدة أن كانت أحلامها مجرد أصغاث. حتى يوم مقتل

زوج خالتي نعمة الأول، (أبو فوزي) رأت ذلك في منامها - كما حدثتنا فيما بعد وأمنت الخالة على أقوالها - رأتها في ثياب سوداء تبكي وتلطم خديها. وفي عصر ذلك اليوم، قتل الانكليز زوجها أمام دكانه. وحين ذهبت أُمي إليها، إثر سماعها النبأ المفجع، وعقب انصراف الجناة، لم تفاجأ بما رأت.. كانت خالتي، تماماً كما شهدتها في حلمها.

عند العصر من ذلك النهار، طرق الباب، وكان أمامها سعيد ..! لم تفاجأ بقدومه. كانت في انتظاره، واثقة وعلى يقين. بدا سعيد أكبر بكثير من مدى شهور غيابه. كما بدا أكثر اتزاناً وهدوءاً، لكن الغربة تركت فيه آثارها. نسيت كلمات التأنيب التي كان تعدها له، كل الوقت، في غمرة فرحها. احتضنته، فيما تساقطت الدموع على وجنتيها، وهي تقول بصوت مبحوح :

-الحمد لله على سلامتك يمه.. برضاي عليك لا تعيدها ...

غمغم سعيد بكلمات يعدها فيها بما طلبت إليه، فيما أرنو إليه منتظراً دوري كي أعانقه. قلبي يخفق بهجة وحبوراً، فيما تندت عيناوي بدموع الفرح بعودة الغائب .

على الرغم من كل شيء، أحس الناس بشيء من الأمن والأمان، ما دامت الحرب قد انتهت، فلا تحسب لغارات جوية على الموانئ والشواطئ، ولا أضواء زرقاء ولا تعتيم. كبت الرغائب والأهواء، على مدى سنوات الحرب الماضية، بحاجة الآن إلى ضرب من الأنفراج. تذكروا المواسم التي طالما تاقوا إليها.. النبي صالح في الرملة. ولكن هذا الموسم فات أوانه الآن.. النبي روبين شمالي بينا وجنوبي يافا. تلك البقعة من أرض فلسطين، كانت في يوم من الأيام، قبل الحرب موسما للاصطياف وقضاء أجمل الأيام. لماذا لا يحيونه الآن؟ وهذا هو أوانه المعتاد على مر السنين، وما بين منتصف شهر تموز ونهاية شهر آب. على سلسلة من التلال الرملية، يتوسطها مسجد له مآذنة، شاهقة الارتفاع، تبدو وحيدة فريدة في المكان. في صحن المسجد بناء متواضع، هو مقام النبي روبين. لا تتجاوز مساحته بضعة كيلومترات من الرمال، تحتضنها من الشرق والجنوب بيارات البرتقال والليمون، ومن الشمال نهر روبين، يحاذي بمروره بداية التلال الرملية. ومن الجهة الغربية البحر، تضرب أمواجه رمال الشاطئ في رفق حيناً، وفي صخب أكثر الأحيان. لوحة نادرة في جمالها وتناسق ألوانها. هنا تقام احتفالات تمتد طوال زمن الموسم، يقضيها على رماله أبناء البلدان المجاورة، الذين يتقاطرون من كل صوب، فتقلب هذه الرقعة إلى جنة صغيرة وارفة. حيث ينطلق رواد المكان على سجاياهم في حياة مواراة حافلة بالبهجة والفرح. يفنون من يافا والد الرملة، والقرى التابعة لها، يا زور وبيت دجن وصرفند وبيننا والقبية، على ظهور الجمال. تستأجر العائلة ثلاثة جمال أو أربعة. يمتطيها أفرادها ويحملون على ظهورها ما يحتاجونه من أدوات الرحلة. والمأكّل والمشرب، فضلاً عن الخيام، إذ لا يوجد في أرض روبين أيّ بناء، بل هي أرض خلاء. وتسير القافلة على رنين الأجراس المعلقة، في سلاسل تحيط برقاب الجمال. لكل من الأجراس نغم مختلف، فتصدر عنها، من ثم، موسيقى ذات إيقاع رائع. حتى ركوب الجمال له تقاليد مرعية، منها (الهودج) الذي تجلس فيه فتاة أو فتيات الأسرة اليافعات. وفي مقدمة القافلة غلام يركب حماراً

يشد لجامه إلى عنق الجمل الأول. يمضي الركب (على بركة الله) بين الأغاني والأهازيج ورنين الأجراس. وغالباً ما يكون المسير عند المساء، في الليالي المقمرة، تداعب وجوههم وأجسادهم أنسام الصيف الرخية، قادمة فوق مياه البحر من الغرب. طريقهم عبر بيارات البرتقال، وأشجار الكينا والزيتون والكروم، يعطر الأجواء شذى أوراقها وأشجارها ..

تتخذ القافلة لنفسها موقفاً على الرمال، تحط عليه رحالها. يأخذ الرجال والغلمان في بناء الخيام، وإعداد أدوات المعيشة. ويهب الجوار، الذين سبقوهم إلى المكان، لمزيد العون لهم متطوعين، من تلقاء أنفسهم. ولا يرتدي أحد ما ألف ارتداهه. فلا قمصان ولا رباط عنق لأهل المدن.. لا كوفية ولا عقاب لأهل القرى. الثياب الطويلة والجلابيب وحدها. يمشون حفاة بلا أحذية ولا نعال، فالرمال هشة ناعمة صافية كنزات الذهب، وفي نعومة الحرير. ينسون همومهم أو يتناسونها إلى حين، على مدى شهر أو يزيد. أكبر همهم ما يأكلون وما يشربون.. أين يسمرون.. وإلى متى يسهرون.. بل إن بعضهم يمضي الليل حتى مطلع الفجر، ساهراً مع الرفاق، فوق الرمال، والبحر عن كثب يرسل أنسامه الحانية .

عند العصر تجلس النساء، لاسيما القادمات من المدن على السفح، ومن تحت أقدامهن، على مبعدة أمتار ينساب النهر، متجهاً إلى مصبه، ومن ورائه تنبسط موجات من بيارات البرتقال الخضراء على مدى البصر. الرجال ينتشرون على المقاهي، أو في مجموعات متفرقة، أمام الخيام أو بعيداً عنها. وغالباً لا بسط ولا كرسي أو مقاعد. على الرمال يجلسون.. ناعمة رقيقة كحرير دمشق .

أوغل الليل، حتى أوشك على الانتصاف، عند بلوغنا مشارف روبين. يسطع ضوء القمر على الرمال، التي بدت كأنها تستحم ضاحكة في نوره الملائكي. هذه تجمعات الخيام.. نمر بينها.. هذا مخيم (أهل يافا)، كما بدا من مظهر النساء ولهجة ساكنيه. وهذا مخيم (أهل اللد أو أهل الرملة). وهذا مخيم (البيانوة).. هنا نحت الرحال. حلقات من الرجال هنا.. حلقات من النساء هناك.. بعض الحلقات تنهمك في أحاديث، وبعضها تتطلق منها أغنيات. أو عزف على العود أو الربابة.. وطبول تضبط إيقاع راقص من الشباب.. وأرغول.. وشبابة. في مكان غير بعيد إحداهن ترقص داخل خيمة، ونساء يغنين. ذكريات طفولتي تتجسد أمامي نابضة بالحياة.. أعيشها ها أنذا من جديد..

كما لو كانت بالأمس. كنا مع أبي، ولي من العمر ما لا يزيد عن ست سنين.. أجري وراء سعيد مثبثاً بجلابيته.. وقدماي تغوصان في الرمال حتى تكاد أن تبلغ ركبتَي. يشتري لي (كلاجاً أو عوامة) من قروشه القليلة، التي نقده إياها أبي، موصياً إياه بي رغم أنه لا يركن إليه، فهو لا يكبرني بأكثر من خمس سنين. والآن أمي توصيني بأحمد وعلياء...فاه يا أبي...!

أقمنا خيمتنا. ثم انطلقت نحو السوق، تغوص في الرمال قدماي. متعة الجسد والقلب والروح السابحة في خيال حالم ساحر.. غير مصدق ما أرى. أضواء المصابيح والفوانيس أمام الدكاكين ترسل فحيحاً و أضواء وظلالاً. باعة الفلفل.. العوامة.. التمرية.. الكلاج.. تجمع الشبان أمامهم.. بعض يتناول قرطاساً في يده.. وبعض ينتظر دوره. رائحة الزيت، والحلوى ثقلى، تثير الشهية.. أتقدم بدوري، وإذا بي وجهاً لوجه أمام محمد يوسف النجار، وفي يده (صحن) عوامة، تتلألأ حباتها العائمة في القطر. أهتف به :

-أنت هنا يا محمد..؟

ينقض عليّ وهو يهتف :

-وأنت يا أمين.. متى جئتم ؟

-قبل قليل ...

-أين خيمتم ..؟

-عند البيانة طبعاً.. عندكم ..

- أراك وحدك .

- قلت لك وصلنا للتو. وأخي سعيد انطلق يبحث عن رفاقه هو الآخر. ألم تر أحداً من الشياطين هنا ؟

- نعيم واسماعيل رأيتهما عصر اليوم .

نمضي معاً في جولة بين الدكاكين والخيام، وحلقات السمر، تحت ضوء القمر، الذي بدأ يضمحل وهو ينحدر نحو المغيب.. إلى أن نبْلغ مخيمنا (بينا). وعند خيمتنا أودع محمد، وبنفق على لقاء في الغداة .

مع نهاية العام وبدايات العام الجديد، أخذت الصحف وإذاعة الشرق الأدنى تتحدث عن عمليات الإرهاب اليهودية ضد البريطانيين. عن عصابات (البالماخ) التي نسفت محطة للرادار في حيفا. (الأرغون وشتيرن) تهاجم المطارات في (بتاح هاتكفاه). وتضرم النار في مبان حكومية، في أماكن عديدة من البلاد. وتستولي على الناس الدهشة إذ يسمعون بأن البريطانيين يردون بإطلاق النار في شوارع تل أبيب، فيقتلون ويجرحون عددا منهم، ثم يعلنون منع التجول الذي يتحدها اليهود، فيقتل آخرون نتيجة لذلك. أكثر من ذلك أصبح اليهود يهاجمون السجون، بغية إطلاق سراح معتقليهم. كما يهاجمون البنوك من أجل السرقة. حتى المطارات تعرضت لهجماتهم، فدمروا أعداداً من طائرات (سبتيافير) و(هاليفاكس)، كما تقول جريدة الدفاع. التي نتاولها فيما بيننا نعيم وسليمان وأنا وفوزي. وفي كل يوم يجيء دور أخذنا لدفع ثمنها.

يبتهج الناس لهذه الأنباء، ويرددون فيما بينهم: لعل الانكليز يدركون الآن حقيقة اليهود، ومن ثم ينصفون العرب، بعد الظلم الطويل الذي أوقعته فيهم بريطانيا لصالح اليهود. كما أنهم لا يخفون سعادتهم لخلاف يقع بين الانكليز واليهود وإذا ما تفاقم ذلك الخلاف، لا بد أنه سيكون في مصلحة العرب.. حتى أن الشيخ محمد أبو العينين راح يدعو (اللهم أوقع العداوة والبغضاء بينهم) (اللهم خذ بنواصيهم فإنهم لا يعجزونك ..) سواء في خطبة الجمعة أو غيرها..!

كان لدينا نصيب أيضاً من هذه الهجمات. ففي ربيع هذا العام نسفت إحدى عصاباتهم محطة القطار فيها. سمعنا صوت الانفجارات عند الفجر. وقيل إنه في نفس الوقت والساعة نسفت محطة اسدود. جمهور غفير جله من الغلمان واليافعين، ننطلق إلى المحطة، لنرى بأم أعيننا كيف دمر نصف المبنى القائم بين أشجار الكينا الكثيفة. كما صعد البريطانيون حملتهم على العصابات اليهودية. بصورة خاصة، عندما خطف اليهود عدداً من الانكليز، ولدى عمليات البحث عنهم، وجد شاویشان قد علقا على جذوع الأشجار، فقاموا بعمليات انتقامية، أسفرت عن مقتل العديد من اليهود، في أماكن متفرقة من البلاد. كما

أن الحكومة لم تحجم هذه المرة عن إصدار أحكام بالإعدام، على قيادات تلك العصابات لأسماء ذكرتها الصحف نحفظ بعضها وننسى بعضها، لغرابتها وصعوبة النطق بها يدعى أحدهم (اسحاق شامير) الذي يتزعم عصابة (ليحي). وآخر يدعى (مناحيم بيغن) زعيم عصابة (الأرغون) لنفسه فندق الملك داود في القدس، مودياً بحياة نحو مائة من نزلائه. ولفترة ما انتشرت عمليات إرسال الطرود البريدية، لكبار القادة الإنكليز، من مدنيين وعسكريين، لاسيما بعد مقتل أكبر زعيم لعصاباتهم، ويدعى (جابوتنسكي). أسماؤهم غريبة لكن الناس يتناقلونها لكثرة ما ترددت على أسماعهم .

في الجانب العربي، وإبان هذه الأحداث تألفت الهيئة العربية العليا، بقرار من جامعة الدول العربية، في اجتماع عقد في بلودان، على أن يرأسها المفتي الحاج أمين الحسيني .

أثارت هذه الأحداث أيضاً، المخاوف في نفوس الفلسطينيين في سائر أرجاء البلاد. إذ ما دام اليهود ينشطون ضد أولياء نعمتهم أنفسهم، على هذا النحو الأجرامي الحاقق، فماذا عساه يصنعون غداً معنا نحن أعداءهم؟

وتفاقم الخوف أكثر، حينما سمحت الحكومة البريطانية - على الرغم من كل ما يجري حتى ضدها هي - بالهجرة إلى البلاد بأعداد كبيرة. الخطر إذن يقترب. فتوقفت معظم الأعمال ترقباً وانتظاراً لما تسفر عنه الأحداث الجارية. من بيني بيتاً كف عن إنجازهِ. البيارات التي نشطوا مؤخراً - إثر انتهاء الحرب - في العناية بأمرها لإعادتها إلى سابق عهدها توقفوا الآن عن الاهتمام بها. المزمع على زواج عمى إلى تأجيله. ما يجري يثير القلق. بيد أن الإجماع منعقد على أن اليهود لن يفلحوا في أكثر من إيقاع الأذى، في حدود لا يمكنهم تجاوزها بحال من الأحوال. فهم أقل عدداً.. وهم طارئون دخلاء. وإذا كان هناك من يقف وراءهم من أمريكيان وإنكليز، فنحن العرب أيضاً وراعنا أمة عربية، (طويلة عريضة) لن نتوانى عن دعمنا، وخوض الصراع إلى جانبنا عند الاقتضاء. من الأقوال التي تتردد :

-الواهمون اليهود هؤلاء يظنون أنه في وسعهم الاستقلال في المستعمرات التي أنشأوها ...

- عند رحيل الإنكليز سوف يرحلون معهم ..
ونتساءل دوماً :

- هؤلاء المجانين نحن لا نرضى، حتى عن مجرد وجودهم في بلادنا. ومادامت الحرب انتهت، والمظالم التي ادعوا أنها كانت السبب في لجوئهم إلى هذه البلاد توقفت الآن، فلماذا لا يعودون من حيث أتوا ؟!.. بل لماذا يواصلون الهجرة بعد أن هزمت ألمانيا، وانتهى هتلر، وعادت الحياة إلى طبيعتها هناك؟!.. أما نصيبنا نحن في هذه الظروف المتفاقمة، فقد ازدادت أوضاعنا سوءاً. فلا عمل لي أو لأخي سعيد. ولولا حصتنا من غلة الأرض، التي زرعت قمحاً هذا العام، ونزر يسير من النقود، هو حصيلة ما باعه العم عبد الغني من محصول الأرض، ولولا الكرم نحصل منه على تين وعنب، لولا هذا ما كان لنا أن نتدبر أمرنا. فالعم أبو صافية أيضاً تحكمه الظروف السيئة ذاتها. وهو منذ البداية تنصّل من أية مسؤولية نحونا .

هذه الأحداث جميعاً، وعلى الرغم من خطورتها، بحيث ينبغي لها أن تشغلهم عن أي أمر محلي آخر في قريتهم، لم يتوقف الخوض، سرا وعلانية، في قضية قتلى آل النجار الثلاثة. بل إن أقوالاً أخذت تتردد في العلن - ولا يدري أحد مصدرها - عن دور لمحمد اليوسف (وجماعته) في الجريمة. أحس المخاتير ووجهاء القرية خطورة الأمر، في هذا الوقت، فجمعوا كبار رجال العائلتين، لكي ينفوا هذه الظنون، وينصرف الجميع إلى التفكير في الشأن العام، والاستعداد لمواجهة الأخطار التي تلوح في الأفق. وقد أكد بعضهم أن في الأمر سرّاً خفياً، ومن الخير التريث إلى أن تتجلي الحقيقة، وعندها سيكون لكل حادث حديث. لماذا لا يكون اليهود أو الانكليز هم الجناة، من أجل خلق البلبلة في صفوفنا، في هذا الوقت بالذات؟ وهم قد عودونا القيام بمثل هذا في شتى أرجاء البلاد. من المستفيد (يا جماعة) من مثل هذا الأمر.. أفلا تعقلون ؟!..

العبارة الأثيرة هذه، التي يطلقها الشيخ محمد عند نهاية اجتماع من هذا القبيل ..!

جاءني نعيم عصر ذلك اليوم القائظ من شهر آب. رحبت به أُمّي. استفسرت منه عن والدته وجدّته وأخواته. كما أبدت عتبتها عليهن حيث انقطعن عنها زمناً. ثم مضت لتعدّ لنا شايّاً .

ضحك نعيم، وهو يضرب بكفه الثقيلة على كتفي قائلاً :

- والله كبرنا يا ولد وأصبحنا (نتضيف). قل لها لا أريد شايّاً بل قهوة مثل الكبار ..!

دفعته في صدره مردداً :

- كثر الله خيرها عملت لك واجب..!

ثم لم يلبث أن فاجأني بسبب زيارته المباغتة هذه، حين أخبرني عن مجيء رفيقنا أحمد المصري إلى قريتنا، لكي يقيم فيها، صحت به :

- ماذا تقول؟ أنت تمزح كعادتك.. أحمد المصري يقيم هنا ؟

- بل هو أيضاً قد استأجر الدكان الملاصق لدكان (معلمك) أحمد الجمل. وهو ينوي أن يجعل منه مكتبة لبيع الكتب والمجلات والجرائد. هل لديك مانع..؟! .

هرعنا معاً إلى أحمد المصري. وبقدر ماكانت المفاجأة، كان سروري لمجيء أحمد المصري لل إقامة بين ظهرانينا. ما إن رأنا أحمد حتى انقض علينا معانقاً، واحداً إثر الآخر، وفي عينيه ترقرت دموع الود والمحبة. شرع يحدثنا عن مشروعه العتيد. لاسيما وأنه الأول والوحيد في بلدتنا .

لم تمض سوى أيام قليلة حتى كانت مكتبة المصري - هكذا أسماها - حافلة بالمجلات والجرائد التي نعرف بعضها ولا نعرف البعض الآخر. أخذنا نتفحصها. بل نلتهمها التهام جائع نهم .

روز اليوسف.. الهلال.. مسامرات الجيب.. الاثنين.. المصور.. تحمل كل منها على غلافها وبين صفحاتها صوراً ورسوماً مبهرة.. رائحة الحبر النفاذة تفوح منها فتثير فينا البهجة. تمنيت لو أفتنيها جميعاً، ولكن (العين البصيرة واليد قصيرة) كما تقول والدتي. وحين تنبه أحمد إلى شرودي وحيرتي، أدرك ما بي. اقترب مني. وضع يداً حانية على كتفي، وهو يقول بصوت ودود :

- أنت يا صديقي أمين تستطيع أن تستعير ما شئت من مكتبة (المصري). امتنعت بادئ الأمر معتذراً، بيد أنه أصرّ علي ألا أغادر مكتبته إلا وقد حملت ما أردت من محتوياتها. كان اختياري عشوائياً، إذ لم أستطع التمييز جيداً بينها. ومن ثم اقتصر ما أخذته على مجلات مسامرات الجيب، والاثنين، والمصور، بسبب الصور التي تحتويها، وجريدة الدفاع. ومن بين الكتب القليلة لديه اختار لي هو (رحلات جليفر). أما نعيم فقد حمل معه مجلة روز اليوسف وجريدة فلسطين وكتاب (روبنسن كروزو) .

ابتهج أهل القرية بالمكتبة الجديدة. ولأن أحمد المصري يتحلى بالدماثة وخفة الظل، والقدرة على اكتساب الأصدقاء، فقد أخذ أهل القرية يؤمّن مكتبته،

ليس فقط من أجل ابتياع الصحف والمجلات، بل أيضاً لتكليفه بأداء خدمات صغيرة لهم، كقراءة (مكتوب) أو كتابة رسالة لأحدهم، أو توصيته بجلب بعض مايفتقرون إليه في بلدهم من يافا أو الرملة .

أضحت مكتبة المصري مكان لقاءاتنا رفاق الأمل. كان يرشدنا الى كتب، ومجلات، أو كتابات بعينها، أو يسمعا على الحاكي ذي البوق الضخم، أسطوانة لمحمد عبد الوهاب، أو لم كلثوم، أو أسمهان أو فريد الأطرش، دون غيرهم. أو يفسر لنا مضمون قصة أو مقالة، أو يبدي رأياً في الأحداث الجارية بين العرب والانكليز واليهود. كنا، وكذلك كان أهل القرية، ندهش لمهاراته المتعددة، وسعة اطلاعه. بل إن الكثير منهم كانوا يدعونه الى غداء أو عشاء في منازلهم، ويحيطونه بالحدب والرعاية. كان هذا دأبهم نحو (الغريب)، فيحظى بعطفهم وعونهم. وهم لا يرونه غريباً إلا بمعنى غربته عن بلده وأهله، ولكنه مثلهم ينتمي الى أمتهم ذاتها، من مشرقها الى مغربها. وقد تحمل الظروف أياً منهم على أن يصبح غريباً مثله، من يدري ؟..

وقد آثار دهشتنا ايضاً ما طرأ على أحمد المصري من تغيير. فما أن نذكر (سارة)، أو رخبوت، أو تل أبيب، حتى ينبري للهجوم على اليهود وتحذيرنا منهم. قال لنا ذات يوم عندما مرت بالقرب مجموعة من الفتيان والفتيات اليهود على دراجاتهم، في واحدة من رحلاتهم التي كانوا يقومون بها من حين لآخر، قال لنا هؤلاء هم اليهود. كل ما فيهم يدل على أنهم غرباء عن هذه البلاد. ألوانهم.. أزياءهم.. عريهم الفاضح.. رطانتهم. وحين قال أحد الواقفين وهو ينظر إليهم بأن هؤلاء صغار، لأنب لهم، فهم ربما جاءوا مع آبائهم من المهاجرين. قال محتثاً :

- ولكن أياً من هؤلاء (الصغار) قد يكون قاتلك أو قاتلي في يوم من الأيام.

ذكره نعيم مازحاً، ذات مرة، برحلتنا معاً إلى رخبوت، فضلاً عن مغامراته هناك. فقال في أسف :

- تلك أيام طيش أندم عليها الآن. ثم هبّ صائحاً في واحدة من بدواته القديمة المعهودة :

- أنتم (حاتحاسبوني)؟ كفاية ربنا (حيحاسبني) بكرة.. !

العمل في معسكر (ساكية)، (تلفنسكي) حسب تسمية أصحابه. من هو هذا التلفزيونسكي، ما من أحد منا يعلم لعل جابوتنسكي آخر..!. حتى وقع الاسم كان ثقيلًا وغريبًا على أسماعنا. حصلنا على عمل في المطبخ هنا أيضًا، بفضل تلك الشهادات، التي نلناها من معسكر عاقر، مؤكدة حسن سلوكنا من جهة، وبأننا، من جهة أخرى، عملنا فيه (طباخين) على مستوى مُرضٍ (Satisfactory). تلك الكلمة التقليدية المتحفظة التي يتداولها الإنكليز في أقوالهم وكتاباتهم.

كان شكلي مضحكاً لشدة نحولي، في رداء الطباخين الأبيض، والقبعة البيضاء على رأسي. كان نظام المعسكر، أن نمضي فيه أربعاً وعشرين ساعة، ومثلها خارجه للراحة. تحمّلنا إليه سيارة عسكرية، قادمة من اسدود، نقل عمّالاً، وهي تتوقف في بينا من أجلنا، ثم تمضي بنا إلى يافا، لتتجه بعد ذلك شرقاً إلى قرية (سلمة)، مروراً بمستعمرة يسمونها (بتاح هاتكفاه). اليهود يتجولون في طرقاتها، مشاة أو على دراجات، أو في سيارات صغيرة، بقبعاتهم وثيابهم الغريبة. يغيظنا مراءهم. يبدو واضحاً أنهم غرباء عن هذه الأرض التي يمشون عليها. لكنهم يطأون صدري فأوشك أن أختنق. هل مبعث إحساسي هذا وصايا أمي؟ أم هي (رييا) تلك التي أخرجتني من معسكر قطرة بمكرها وحقدتها معاً، بعد أن ألّبت عليّ أسيادها؟ أم هو ما قرأت عنهم، وما علمنا إياه الأساتذة عبد الخالق، وشاكر، وأبو العينين، وشفيق موسى؟ أم هو مقتل أبي على أيدي الإنكليز، الذين لم يوجدوا هنا إلا من أجلهم؟

الرفاق في معسكر ساكية يفكرون في اليهوديات بطريقة أخرى. وهم لا يعدمون القدرة على خلق المبررات والمسوغات. لقد جئن من بولونيا وروسيا و ألمانيا وبريطانيا، وأرجاء العالم كافة.. (كل واحدة من بلد ..!). كل ما فيهن يشير إلى غربتهن.. نبت شيطاني غريب في غير مكانه.. كالأعشاب والحشائش الطفيلية..! هذه التربة لا تصلح لهذا الزرع..!

في طريق العودة في ذلك المساء، مرت بنا السيارة في شارع يافا - تل أبيب. عند نهايته، وبداية شارع المنشية، فيما كنت أنظر إلى واجهات المحال

المبهرة، واللافتات التي تعلوها، لمحت اسماً على إحداها، هو اسم عائلتنا خليل (أبوجابر). أدهشني مرأى ذلك الاسم بقدر ما أثار سروري أيضاً.

وبعد أن مضت بنا السيارة، تنهب الطريق إلى يينا، ساورتني أفكار شتى. أهؤلاء أقارب لنا..؟ أم هي مسألة تشابه أسماء، ليس أكثر؟ لقد حدثتنا والدتي، ذات مرة، نقلاً عن المرحوم أبي، بأن لنا أقارب في يافا أيضاً، عدا أولئك الذين في (بيت دراس) و(الفالوجة). هؤلاء الذين في يافا يقطنون حي العجمي وسكنة أبو كبير. بيد أن القدر لم يمهلهم، كي يوضح لها الأمر أكثر. وهي من جانبها، لم تبذل جهداً للبحث عن أولئك الأقارب. كان (ما فيها يكفيها)، وما يشغلها من شأن الأولاد ينسبها كل ما عداه. وإذ حدثتها بما رأيته، أكدت لي أن هؤلاء هم أقاربنا حقاً. كما أن علينا الآن أن نسعى للاتصال بهم والتعرف إليهم .

في يوم عطلة أسبوعية، مضيت وأمي إلى يافا. الرجل الجالس وراء منصدة عتيقة، عند باب ذلك المخزن الكبير، والذي يضع على عينيهِ نظارتين كبيرتين، يحرق في أوراق أمامه، دلنا على منزل عميد تلك العائلة في يافا، واسمه (عبد المجيد أبو جابر)، الرجل يقطن حي العجمي قرب محطة إذاعة الشرق الأدنى. ينادونه (أبو محمد).

وما هي إلا ساعة حتى اهتدينا إلى منزل أقاربنا، الذين استقبلونا بكثير من الترحاب والتكريم، ولأسيما الخالة (أم محمد). لم يكن (العم أبو محمد) ساعته في المنزل. أما محمد الذي هو في مثل سني، فقد أبدى كثيراً من المودة نحوي. وحين أعلمني بأنه في السنة الدراسية الأخيرة في الثانوية العامرية، وأنه يعرف سعيد الجمل (البيناوي)، إذ هما في الفصل الدراسي ذاته، أثار في نفسي غير قليل من الأسى. "ابن عمي هذا في مثل سني.. ولأن له أباً.. كما أنه يعيش ظروفًا مختلفة، ها هو ذا يكمل تعليمه. لا شك أنه لن يشقى في البحث عن عمل. لن يدأب على التنقل من معسكر إلى معسكر.. إلى سقي البيارات في يينا.. إلى جد الزيتون في كروم الرملة.. إلى.. إلى.. بل هو لن يعمل لدى الحلاق أحمد الجمل.. كما لن يحرق زيت الفلافل يده..!".

قبل أن ننصرف، وعدتنا الخالة بنقل خبر زيارتنا إلى زوجها، لكي يتصرف، بما يقتضيه الواجب. أضافت بأنه هو أيضاً كان يحدثها عن أقارب له في أماكن كثيرة من البلاد، ومنهم أناس في يينا (الذين لا شك أنهم أنتم. وما عليك إلا أن تتوكلني على الله، يا حبيبتي يا عايشة.. وتطمئني بأن عمهم لن

يتأخر عن الحضور إليكم هناك في أقرب وقت ..!)

يبدو أن الخالة أم محمد لم تخلف وعدها. فما هي إلا أيام حتى كان رجل يطرق بابنا، هو العم أبو محمد نفسه. مهيب الطلعة، ضخمة الجثة عرضاً وطولاً. عليه سيما باشوات الأفلام المصرية، القليلة التي شهدناها. بزته البيضاء، وربطة العنق الحمراء، وطربوش قاني اللون، وسلسلة ذهبية لساعة جيب، تتدلى عند وسطه. ضمنا الرجل إليه واحداً واحداً. صافح والدتي مؤكداً لها أنه كان ينتظر هذه الساعة منذ زمن بعيد، ولكنها ظروف العمل والانشغال في أمور هذه الحياة الدنيا، التي لا تدع للمرء وقتاً يحقق فيه أياً من رغباته، حتى لقاء أحبائه وأعزائه. عرفنا الرجل بمنشأ أسرتنا الواحدة، التي جاءت في الأصل من مصر، ومن بلدة اسمها (أبو كبير) تحديداً. ولأنها قطنت تلك المنطقة التي نقطنها الآن من يافا، فقد أطلق عليها اسم (سكنة أبو كبير)، المعروفة به اليوم، وإن تعداد أفراد العائلة أمسى كبيراً جداً.. فاللهم زد وبارك ..!

انصرف العم أبو محمد. أحست أمي بشيء من الطمأنينة على (الأولاد)، ما دام لهم عم من هذا النوع. بيد أنها، على الرغم من ذلك لم ترتح إليه كثيراً في قرارة نفسها. الرجل من النوع المتباهي بشخصيته، بذاته وبمظهره. أي أنه ربما يكون مدعياً أكثر منه رجلاً واقعياً، يركن إليه عند الاقتضاء. يدل على ذلك كلامه الكثير، غير المترابط، وتركيزه على العائلة ومفاخرها.. قدراته الخاصة في التجارة والعمل. وحين جاء على ذكر العمل، توسمت خيراً، فالمحت إلى سعيد وأمين، عله يجد لهما عملاً لديه، لكنه سرعان ما انسحب بمهارة، متذرعاً بأن عمله من نوع لا يصلحان له..! (على أية حال لماذا لا ننتظر؟ وكل آت قريب. المهم أننا وجدنا أن للأولاد عما مرموقاً في يافا.. إن هو لم ينفع فهو لن يضر ..و.. اللهم يسر لهم أمورهم.. وسخر لهم من خلقك من يعينهم.. ويقف إلى جانبهم في قادم أيامهم ..)

التقيت ابن الخالة فوزي واسماعيل العطار أمام دكان (أبو حسنين) أنبأني دون أي مقدمات بأن أستاذنا شفيق موسى توفي البارحة في مشفى الدجاني بيافا. أصابني الذهول. أجل لم اصدق أن مثله يموت وهو في أوج قوته وعنفوان شبابه الذي نعرف. لقد كان ذلك مدهشاً ومفاجئاً بأكثر من قدرتي على التصور

سرى النبأ في القرية سريعاً، فأتار الحزن والألم لدى أهلها قاطبة. رويت حكايات عديدة عن كيفية موته، والأسباب التي أودت بحياته. تذكرنا أيامنا الخالية معه.. المدرسة.. درس الانشاء.. كرة القدم.. المباريات مع القرى المجاورة.. رحلة البحر والحادث المشؤم.. هو ذا صبحي السيلاوي مسجى أمام أنظارنا على الرمال.. الموكب الصامت في رحلة العودة للقرية إلا من صوت هدير البحر وأسمامه تعبث بأشجار الكروم المترامية من حولنا.. جسده منطوياً خلف السنام على جانبي ظهر الجمل الذي مضى يطوي الأرض ويبدأ فوق الرمال ..

هل كان موته عاقبة أحداث ذلك اليوم الأليم ؟

بدا في مشيته المتثاقلة يومئذ متحاملاً على نفسه، بعض شفتيه ليكتم ألماً لا يرغب أن يظهر عليه أحد. لم ندرك معنى ذلك حينذاك. وإن كنا سمعنا أساتذتنا فيما بعد يلغظون بهذا. يقولون الآن أن تلك الصدمة أورثته مرضاً في القلب، تفاقم مع الأيام الى أن أمسى عضالاً لا شفاء منه. ثم ها هو ذا يودي بحياته في النهاية .

يا إلهي. هل بات أولاده موسى وفيصل وأسمهان أيتاماً مثلنا؟ حسبت أن مثلهم في منجاة من اليتيم والفقر، ولهم مثله أبا. آه إن الموت ليأتي إذن عن غير طريق الانكليز واليهود أيضاً ..!

ودّ العديد من أهل القرية أن يشاركوا في مأتم الرجل الذي كان له الفضل في تعليم أبنائهم ذات يوم ليس ببعيد.. وفدت الى بيانا ثلاث حافلات من يافا

صبيحة اليوم التالي. تدافع جمع غفير للصعود إليها في مقدمة هؤلاء المعلمون والمخاتير ووجهاء القرية. لا أدري كيف تسنى لي وبعض رفاقي أن نتسلل داخل واحدة منها .

ما إن ابتعد الموكب عن القرية موغلاً بين بياراتها في طريقه إلى قرية (العباسية)، مسقط رأسه، حتى انهمك الكبار في الحديث عنه، ذاكرين مناقبه وسجاياه. ثم تفرعت أحاديثهم حول شؤون شتى كالمعتاد، حتى انني حسبت أنهم نسوا ماجاءوا من أجله .

ضباب الدخان يخنق الأنفاس، ويوشك أن يحجب الرؤية عبر زجاج الحافلة. بيد أنهم يخلدون جميعاً إلى الصمت مرة واحدة. كان ذلك عندما أصبحت الحافلة على مشارف رخبوت. ثم مضت تخترق الشارع الرئيسي فيها كما يبدو. ثم مالبثوا أن شرعوا في إطلاق تعليقاتهم ونعوتهم على ماتشهد أعينهم من معالمها وقاطنيها :

.. أرايتم، هؤلاء هم اليهود.. قاتلهم الله أنى يؤفكون.. !

.. ألم نقل أن الدنيا آخر زمن ..؟

.. ألا ترون النساء كاسيات عاريات، بلا حياء، أليس هذا من علامات الساعة..؟

قال الشيخ علي العطار معقّباً :

.. بل هن بياهين بما يعرضن كمن تأخذه العزة بالأثم..! والرجال بلا نخوة أو غيرة عليهن .. خنازير هؤلاء اليهود ..!

ثم مضوا، بعد أن خلفت الحافلة رخبوت وراءها يتحدثون في كل أمر خلا الأستاذ شفيق نفسه، إلى أن بلغنا مشارف العباسية .

في ساحة واسعة الأرجاء، حيث مدرسة البلدة، تحيط بها البيارات، تحت أشجار الكينا السامقة، أقاموا مأتمهم المهيّب. الذي غدا فيما بعد حديث أهل قريتنا. حتى أن بعضهم راح يبتهل إلى العلي القدير بأن يمنّ عليه بمثله يوم يلقي وجهه.. !

غصت الساحة بالرجال. خيم صمت حزين، إلا من صوت المقرئ وحركة من يقدمون القهوة. رهبة الموت والمكان وشجن الذكريات ...طفرت من عيني الدموع، أثارها صوت المقرئ مثيراً الحزن والخشوع وصورة الاستاذ شفيق

تترأى لي، كما صورة أبي مسجى، وقد أكتبت أمي على جثمانه تبيكه. توقف
المقرئ بغيته عن التلاوة، حين انطلق صوت أجش لرجل يصدح بموال. كان
الصوت قوياً جهورياً، بيد أنه كان مبحوحاً متحسراً. بدا جلياً أن الحزن قد هدأ
صاحبه هداً..

أوف.. أوف.. أوف

ياحسرتي على مين راح ومضى

وعلى اللي ودّع احبابه ومضى

أوف.. أوف

شفيق زين الشباب راح ومضى

بس ياريت مايطول الغياب ..

لم يلتفت نحو صاحب الصوت سوانا (القادمون من بينا). الآخرون يعرفونه،
إنه الحاج موسى أبو شفيق. أحنوا رؤسهم مطرقين، خاشعة أبصارهم. نشيج
خافت يعلو هنا وهناك.. تأوهات تندد عن ألم دفين، وهمهمات لا تكاد تبين :

.. أنا لله وإنا إليه راجعون

.. هذا هو حال الدنيا ..

... الله يلهمك الصبر يا أبو شفيق .

ارتفع صوت المقرئ من جديد يثلو آيات كريمة تحضُّ على الصبر
والإيمان بقضاء الله وقدره، وتنبئ بأن هذه هي نهاية كل كائن حي على ظهر
هذه الأرض. والبقاء لله وحده. هي سنته في هذا الخلق. ألا إن (كل نفس ذائقة
الموت..) ألا إن (كل شيء هالك إلا وجهه..) (وما الحياة الدنيا إلا متاع
الغرور..) .

عقب صلاة العصر، توجهنا إلى حيث تقف الحافلات بعد أن قام الرجال
بتقديم العزاء لذوي الفقيد الذين وقفوا صفاً عند طرف الساحة مرددين واحداً إثر
الأخر :

عظم الله أجركم ..

يسلم راسكم ..

العوض بالله يا جماعة ..

خلفنا وراءنا الجمع الحاشد، وحافلات كثيرة، متنوعة الأحجام والألوان جاءت من القرى المجاورة. ما برحت واقفة هناك، وغلمان يتقاذفون الكرة وحبّات البرتقال، أو يتعلّقون بأذيال الحافلات المنطلقة، متهاذية ويبدأ قبل أن تزيد من سرعتها، مخلفة وراءها سحباً من الغبار، تلونها خيوط من أشعة الشمس الغاربة. يختفي المشهد رويداً رويداً إلى أن يتلاشى في البعيد .

بلغنا القرية نحو العشاء. ما برحت الدكاكين والمقاهي مشرعة أبوابها. أضواء المصابيح تشع فيها ومن حولها، مرسلّة نشيب أصواتها المبحوحة. أحمد المصري يتلقانا بالوجوم أول الأمر. لكنه لا يلبث أن يشرع في إلقاء طرائفه، كعادته، لأضحاكنا وإن رأنا لا نستجيب له كما ينبغي، أو كما عودناه، صاح في وجوهنا : (الله.. أنتم حتقلبوها حزايني يا أولاد..؟ ماكلنا حنموت.. !)

قبل أن ننصرف من لدن أحمد المصري، أعارني كتاب (عودة الروح) لمؤلفه توفيق الحكيم. أما نعيم فقد حمل معه مجلة المصور، وكتاباً من تأليف ابراهيم المازني .

حدثت أمي و(سعيد) عن أحداث ذلك اليوم مما أثار شجونها. بكت والدتي بكاءً مرّاً وكأنما هو (أبي) قد مات بالأمس .

تمت بصوت هامس، تخنقه العبرات :

- الله يعين زوجته وأولاده.. لكن الموت حق على كل حي يا بني.. الله يحرسكم ويرضى عليكم.. يارب مالي غيرك.. أنت أدري بحالنا يا عليم يارحيم

أقنع (كامل دعسان) أخي سعيد بالالتحاق بسلك (البوليس الإضافي)، الذي سبق له أن التحق به هو. البرزة الكاكي الأنيقة، ذات الأزرار اللامعة، والقبعة ذات الشعار اللامع في مقدمتها، كل ذلك كان مدعاة لأغرائه، إضافة إلى الجنيهاات السبعة التي سوف يتقاضاها عند نهاية كل شهر.

(.. هذه الجنيهاات يا أمي لن آخذ لنفسي منها شيئاً.. والله العظيم.. وهي كافية لتسديد مصاريفنا.. ثم هي وظيفة حكومية جيدة.. انظري إلى كامل دعسان.. الكل يهابه أيضاً.. بوليس يمّه.. بوليس .. ! يعني أهم من محمد يوسف..!)

لم يثنها ذلك عن عزمها. أصرت على موقفها الرافض، لأن الناس وإن هم أظهروا شيئاً من المهابة لكامل وأمثاله، لكنهم لا يحترمونه، فيما بينهم وبين أنفسهم. إنهم يعتقدون بأن هذا أيضاً تعاون مع الإنكليز. وهؤلاء ربما يأتي يوم يدفعونهم فيه إلى محاربة إخوانهم من الثوار أيضاً، وليس الألمان وحدهم .

عبثاً حاول سعيد، بل كامل دعسان نفسه، إقناعها بأن الحرب مع الألمان انتهت، وأنه لا ثورة في البلاد الآن أيضاً. قالت له وقد نفذ صبرها :

(.. يا ابني الله يرضى عليك، ما حيلتي غير هالولدين ثلاثة.. انت عاجبك البوليس الإضافي.. ولا غراب البين.. انت حر في نفسك.. الله يسهل عليك.. وخلينا في حالنا..!)

مضت شهور على زيارة عمنا أبو محمد لنا. أوعزت إلي والدتي بأن أزورهم، في طريق عودتي من المعسكر، كيلا (نقطع حبل المودة) بيننا وبينهم. وإذا فعلت رغبوا بي جميعاً، بل أصرّوا على أن أبيت لديهم تلك الليلة .

أخذت أتردد عليهم من حين لحين. وفي الأمسيات أنفرد بمحمد لنتحدث عن الدراسة.. العمل في المعسكر.. البنات مريم ومي وأمينة. يحدثني هو عن ابنة الجيران (عطاف الشامية). تحبه هي، وتختلق شتى المعاذير لكي تأتي إلى دارهم، ولا سيما أن بين أخواته من ثماثلها سنا. فوداد وسهام في الرابعة

والخامسة عشرة. أمها لا تمانع في ذلك، فهي أيضاً صديقة حميمة للخالة أم محمد. ينادونها (أم عطاف) إذ هي لا أبناء ذكور لها. وهي تجد فيها أختاً، تأنس إليها في غربتها عن ديار الشام. لزوجها بقالية في (العجمي)، وليس لها سوى عطاف وهدايت.

نمضي أحياناً إلى ساحة المدينة. دوّار الساعة، ثم شارع اسكندر عوض. نقف أمام الواجهات، نتأمل معروضاتها، من ملابس وأحذية وعلطور. وقد نتابع إلى المنشية، أو نعود إلى الساحة، حيث تنتشر دكاكين الحلوى أيضاً : المهلبية بالجوز والقرفة والمازهر ترش على سطحها .. والتمرية الناصعة البياض، تثير الشهية وقد غمر سطحها بالسكر .. العوامة.. تغرينا براعة صانعها، وهو يقطع العجين ثم يلقي به في المقلاة. وجمع غفير من الشبان يتناولون العوامة أو ينتظرون.. فالمشهد جميل مؤنس. ثم العودة إلى المنزل.. نسير صعداً إلى العجمي، مروراً بالمستشفى (الطلياني).

كانت عطاف في منزل العم أبو محمد عند وصولنا تجلس إلى شقيقاته، كفت الفتيات عن الحديث. تضاحكن بصوت خافت، قبل أن تسرع عطاف نحو باب الدار، متحاشية النظر إلينا، وهي تحقق إلى موقع قدميها.

قالت أم محمد، وهي تضحك، بلهجة تنم عن معرفة وثيقة بما يجري بين محمد وعطاف:

- (متى نزوجكم يا أولاد ؟!.. والله كبرتوا يا حبايبي !..)

أصابتنا الدهشة والخوف معاً، فلم نحر جواباً. بل تجاهلنا ما قالت تماماً. بيد أنها أردفت :

- (انت يا محمد نأخذ لك عطاف.. وأمين نأخذ له فتحية بنت خالتك أم ابراهيم!..)

مرّت تلك الأمسية على خير. مضيت من جانبي أفكر في الأيام التالية فيما قالتها العمة، متسائلاً عما إذا كنا قد بلغنا من العمر حقاً ما يؤهلنا للزواج، دون أن ندري !.. وزاد الأمر غرابة أن أمي أيضاً، راحت في الأيام التالية تحثني على أن (أتشاطر لكي تجدلي ابنة الحلال ..)، بل ان ابنة الحلال هذه موجودة، لا يفصلنا عنها سوى الجدار.. زكية بنت أبو عامر .. (وإذا لم تعجبك زكية فلتكن وفيقة بنت خالتك الحاجة خضرة.. ولكن لماذا لا تعجبك زكية ؟.. بنت حلوة وشاطرة.. تطبخ وتعجن وتغسل، مثل أمها تمام. وفيقة لا تقل عنها شطارة

أيضاً.. ما عليك إلا أن تشد حيلك يا حبيبي، والباقي عليّ وعلى الله سبحانه وتعالى !..)

إن لم يكن عبثاً تلميح الخالة أم محمد. بل هي كانت تعني ما تقول. أتزوج..؟ كيف ولماذا وأنا لم أبلغ سن الزواج.. وإذا كان هناك زواج لأحد فلماذا لا يكون أخي سعيد..؟

من جديد شاع في القرية أن قتلى آل النجار الثلاثة إنما قتلوا على أيدي (جماعة) محمد اليوسف. حاول هؤلاء نفي ما نسب إليهم أول الأمر. لكن محمد يوسف ما لبث أن أقرّ بأنه قتل واحداً فقط من هؤلاء، أخذاً بثأر أخيه عبد المجيد. أما الآخران فقد قتلتهما (حسن بهلول)، الذي سبق أن تلقى تهديداً منهما بالقتل، بسبب ما تناقلته الأكسن عن علاقة له بشقيقة أحدهما. اعترافه هذا أثار عاصفة هوجاء من الأقاويل والتكهنات في القرية. أجل فال النجار لن يسكتوا، ولن يدعوا دم أبنائهم يضيع هدرًا. ناهيك عما في ذلك من مهانة لهم، لو أنهم لم يلجأوا، بدورهم إلى الأخذ بثأرهم من الجناة، حتى لو كانوا.. بل لأنهم كانوا محمد اليوسف وحاشيته. لا سيما ذلك (البهلول) المستظل بحمايته وشريكه في الجريمة .

انتشرت هذه الأنباء سريعاً في سائر أنحاء القرى المجاورة. ولأن أهل تلك القرى، كما هو حال أهل بينا أنفسهم، ودّوا لو يقف خلاف العائلتين عند هذا الحد. ذلك أن ظروف البلاد، لا تسمح بمزيد من الخلاف و الاقتتال بين أبناء البلدة الواحدة، من أجل قضايا خاصة، ونعرات عائلية، في هذا الوقت الذي يتطلب تضافر القوى، لمناهضة الانكليز واليهود. ذلك أن الأمور آخذة في التفاقم، يوماً بعد يوم. والهجرة اليهودية قائمة على قدم وساق، مما كشف حقيقة النوايا المبيتة بعد أن وضعت الحرب أوزارها. أهذا وقت التناحر والاقتتال بين الأخوة، ورئيس أمريكا (ترومان) يعلن عن هجرة مائة ألف يهودي إلى فلسطين على الفور؟ والانكليز من جانبهم يعلنون إحالة القضية برمتها إلى تلك الهيئة التي أسموها (هيئة الأمم المتحدة)؟ أليس حرباً بنا أن نوفر قوانا وجهودنا لمواجهة الأخطار المحدقة..؟ أم تراه ليس كافياً ما يحل بنا على أيدي الأعداء؟ تساؤلات دفعت عقلاء القرية وما جاورها للسعي من أجل إصلاح ذات البين. وعلى الرغم من صعوبة المهمة، إلا أن هؤلاء نجحوا، في نهاية الأمر، من تحقيق مصالحة جديدة بين العائلتين، مما أراح النفوس، وأثلج الصدور .



الحيرة تأخذ بالباب الناس جميعاً. تصرفات الانكليز هؤلاء مامن أحد يعرف مراميها. يقولون أن حزب العمال البريطاني، بزعامة وزير خارجية بريطانيا، المسمى (أرنست بيفن)، أثار انقساماً في الرأي بين أوساط الشعب الفلسطيني، في كافة أرجاء البلاد. حدث ذلك عند نقله القضية إلى هيئة الأمم المتحدة. فريق منهم يرى أن هذا الاجراء لصالح العرب، حتى لو لم يقصد الانكليز ذلك. ومنهم من يرى خلاف هذا. الأوائل يرون أن هذه الهيئة سوف تنصف الفلسطينيين، فهي إنما وجدت أصلاً من أجل إنصاف الشعوب، وإزالة الظلم، وتحقيق العدالة. ولا بد لها، إذن أن تنصفنا وتقرّ حقوقنا ومطالبنا العادلة. بل يكفينا أنها سوف ترفع عنا تسلط الانكليز على البلاد، وسعيهم الحثيث لإقامة الوطن اليهودي على أرضنا. أجل إن خروج الانكليز، في حد ذاته مكسب عظيم. أما الآخرون فيرون أن انسحابهم، على هذا النحو، ما هو الا مؤامرة جديدة على الشعب الفلسطيني. بريطانيا تتخلى الآن عن مسؤولياتها، بعد أن مكنت لليهود في الأرض، وأنجزت ما وعدهم به بلفور. لقد نفذت الشق المحقق لليهود أطماعهم، في حين تجاهلت الشق الآخر القائل (بألا يتعارض وعد بلفور بإنشاء الوطن القومي اليهودي مع مصالح سكان البلاد الأصليين، وألا يؤثر على أوضاعهم). ويبدو الآن جلياً أن هذا النص لم يكن إلا ذراً للرماد في العيون .

الانكليز راحلون عن البلاد على أية حال أيها الناس، ولكن متى سيحدث ذلك؟ ما من أحد يدري.. فمتى كان هؤلاء يفصحون عن نواياهم؟ أما على صعيد العمل فلن يبقى أحد من العمال العرب، فيما يبدو، في معسكراتهم. ونحن مرغمون الآن على البحث عن عمل من جديد. وماذا عساه أن يكون بعد أن استمرنا العمل لديهم في تلك المعسكرات. أعمارنا - أنا ورفاقي - لا تؤهلنا لأي عمل نظامي. حتى (معلمين وكلاء) في مدرسة بينا أو قريباً منها ليس متاحاً لنا، الأمر الذي تحقق لبعض من هم أكبر منا سناً بعامين أو ثلاثة، لقاء أربعة جنيهات، راتباً شهرياً لواحد منهم. تلك الوظيفة (عامل إشارة) في السكة الحديد، حبذا لو قبلوني لها. وهي آخر ما تقدمت إليه من بين عديد من الوظائف

المحتملة، كساعي بريد، أو مفتش تذاكر في خطوط المواصلات أُمي تشجعني بل تطمئنني بقولها :

- لا تخف يا بني، الرزق على الله. سبحانه وتعالى يقول (وفي السماء زركم وما تواعدون).

ولكن سعيداً يقترح على أُمي قائلاً :

- لماذا لانعمل لنا بسطة في سوق الثلاثاء يعمل معي فيها أمين ؟

- بسطة ماذا ياسعيد ؟

- حلويات تأتي بها من معمل معلمي (أبو درويش). أهالي القرى المجاورة القبية وزرنوفة والمغار وحتى اسدود.. كلهم يحبون حلويات أبو درويش التي أصبحت مشهورة عندهم .

- وبقية الأيام ؟

- نقيم بسطة خضار تحت الجميزة .

تمتت وكأن الأمر كله لايعجبها، نعرف ذلك من نبرة صوتها :

- قوموا ناموا.. وللصباح رباح..!

مضيت برفقة نعيم أبو جلاله، إلى مكتب الدائرة في اللد. قابلنا المسؤولين (الخواجه ليفي) و(منيب افندي الدرهلي). ملأنا ورقتين، حسب الارشادات المعلقة على لوحة في بهو مبنى الدائرة. أجرى لنا السيد الدرهلي فحصاً خطياً، للتأكد من أننا (نقرأ ونكتب)، إضافة إلى بضعة سطور، قراءة وكتابة بالانكليزية. ثم طلب إلينا العودة بعد أسبوع لمعرفة النتيجة، مصطحبين شهادة ميلاد لكل منا. أسقط عندئذ في يدي. ذلك أن شرط السن يشكل، مرة أخرى، عقبة أمامي. أما فيما يتعلق بصديقي نعيم فالأمر مختلف وسنه مناسبة. أيقنت أن هذا الباب مغلق دوني أيضاً. سمعت أم عدنان تتحدث إلى أُمي بصوت خفيض، في ذلك العصر، حينما كنت خارج الغرفة مع أُمينة، التي سرها أنني لن أقبل في هذا العمل، الذي سوف يبعدني عن المنزل لفترات طويلة. أم عدنان تقول :

-الولد صغير يا حبيبتي.. حرام تحميله كل هذه الهموم ..!

ولكن أُمي تقول لها وفي صوتها نبرة الحيرة والألم، والرد على ما بدا وكأنه انتقاد لها :

-وهل أنا راضية يا أم عدنان عن تحميله هذه الهموم. هو، الله يرضى

عليه (محمل حاله لباله.. وأنا ما بيدي أعمل شي ..!)

قالت أمينة وقد انفرجت أساريرها، وعلى شفيتها ابتسامتها العذبة الحانية :

-سامع يا ابن خالتي؟ انت قد السكة والشغل في المحطات ؟

كنت أفكر في أمور أخرى، منها ما تناهى إليّ من حديث أمي وأم عدنان، ومنها احتمال التحاق سعيد بالبوليس الإضافي، ومنها إحساسي المتنامي بأن كل ما يجري في هذا العالم ليس صحيحاً.. وأن الدنيا تسير مقلوبة على رأسها .. ! لا شيء فيها منتظم أو منطقي أو مريح.. لكنها مع ذلك.. جميلة.. فيها مريم ومي وأمينة. حتى وإن بعدت الشقة بالأولين، وفيها نعيم واسماعيل وسليمان.. ومحمد ابن العم في يافا ..هؤلاء الأشقياء.. !

إلى المجدل نذهب أنا وسعيد، للحصول علي شهادة ميلاد من الدائرة هناك. الطريق إلى المجدل في (باص بامية) مروراً بقرية اسدود.. وقرى أخرى كثيرة. بيارات وحقول وأراض شاسعة، وبيوت تناثرت هنا وهناك بين المزارع والحقول.. أبقار، وأغنام، ورعاة، وقوافل جمال، تحمل البضائع بين قرية وقرية، تحدها مواويل الرعاة وأصحاب القوافل، في هدأة السهول المترامية الاطراف بلا نهاية حتى الأفق..

عدنا عصرًا، والشهادة التي حصلنا عليها، بعد الجهد، وخسارة أجرة الباص، والطوابع على الطلب، لم تقدم لنا حلاً. بل نحن لا نستطيع إيرادها، فهي لا تثبت شيئاً سوى صغر سني عن المطلوب. لجأت أمي، من ثم، إلى خالها المختار فحصلت منه على ورقة حملها خاتمه - إذ هو لا يحسن الكتابة ولا القراءة - تؤكد على أنني قد بلغت الثامنة عشرة.. والله على ما يقول شهيد ..!

في مكتب اللد كان طلبي هو الذي حظي بالقبول، في حين لم يقبل طلب نعيم.. لماذا؟ لم يفسر لنا أحد سبب ذلك.

في البداية اعترض (الخواجه ليفي) على شهادة المختار، مصرًا على ضرورة تقديم شهادة ميلاد. لكن السيد الدرهي أخذ على عاتقه مراجعة المدير الانكليزي، في غرفة تقع عند نهاية ذلك الممر الطويل. بدا لي وكأن الرجل أدرك حاجتي للعمل، أو أن شيئاً ما في مذهبي أو وجهي أثار لديه مشاعر عطف دفعته إلى مساعدتي.. بدا لي ذلك لطول تحديقه في وجهي، بين الفينة والأخرى، فيما هو يتصفح أوراقاً بين يديه، كما في أسئلته التي لا يفتأ يطرحها

حول بلدي.. نشأتني.. أسرتني.. وقد عرف من إحدى إجاباتي قصة يتمي ومصرع أبي في ذلك الزمن البعيد.

محطة (كفر جنس) للسكة الحديد.. شمالي مدينة اللد.. يا إلهي أذهب بعيداً إلى الشمال كل هذا المدى ؟! و وحدي أيضاً، بلا صديق ولا رفيق ؟! كيف أصل إلى المكان؟ وكيف أمضي أسبوعاً بطوله هناك، أعود في نهايته يوماً واحداً للإجازة؟ هذا هو نظام العمل لديهم.

قالت في وجل :

-وأين تنام يا ولدي ؟..

-هناك أسرتان مصريتان يا أمي : ناظر المحطة، وعامل التلفون مع أسرتيهما. وقد علمت أن غرفة خصّصت لي بينهم .

قالت وفي عينيها، وعلى محياها تضطرب شتى الانفعالات والتساؤلات :

-أكلك وشربك.. وغسيلك يمّه ؟! وبعدين كيف تروح لكفر جنس في آخر الدنيا .. لا لا.. إن الله الغني.. صدق من قال (اللي ماله بخت لا يتعب ولا يشقى)!!

-ولكن دعيني أجرب يا أمي لأسبوع أو اثنين ..

كنت حريصاً على ألا أفعل شيئاً ليست راضية عنه، أو مقتتعة به. من ثم كان عليّ الاستجداء بمن يعينني على إقناعها. كيلا أضيف إلى همومها جديداً. في أعماقي دائماً مثال سعيد. لا أريد أن أصنع شيئاً يمكن أن يخيب آمالها فيّ أنا الآخر. بل إنني لأذكر تلك الحادثة التي جرت منذ زمن، حين أفنعتها الحاجة (أم سايحة) بضرورة إعطائها لسعيد (شربة زيت خروع) إثر إصابته بنوبة برد. اشتريت شربة الخروع بناء على طلبها من بقالية أبو العبد الرملوي، وعدت فرحاً لأن (سعيد) هو الذي سوف يتجرعها، ولكنه أبي. دعت له بالنجاح والفلاح، رجته، توسلت إليه.. لكن ذلك كله لم يثن سعيداً عن موقفه الرافض. لم تجد بداً من تهديده.. بل ضربه كي يفعل، ولكن دون جدوى أيضاً، وكنت إبان ذلك، طوال الوقت أحته على تجرع (الشربة) لأنها سوف تشفيه ..! بل أعلنت في غمرة حماسي بأنني لو كنت مريضاً وطلبت إليّ والدتي أن أشرب (الخروع) أو غيره فلن أتوانى عن ذلك. تقول له أمي عندئذ، منددة :

-أرأيت ؟! أخوك الصغير مستعد لشرب الزيت.. أياكون أشجع منك ؟!

الله يرضى عليك يمّه يا أمين ويحبّب فيك جميع خلقه ..!

وكلما ازداد سعيد تشبثاً بالرفض، ازدادت أنا مماحكة وادعاء باستعدادي لتناول (الشربة) بدلاً منه. أثناء ذلك كان يختلس النظر إليّ، وفي نظراته تهديد ووعد. ولكنني أوصل ادعائي غير آبه..! وإذا بأمي وقد أصابها اليأس من فرض الأمر على سعيد.. تلتفت إليّ قائلة بتودد واضح :

-خذ يمه اشربها انت الله يرضى عليك يا أمين.. أصلاً خسارة فيه يشربها هو.. ماله في (الكويس) نصيب ..!

دارت بي الأرض دورتين.. أشرب زيت الخروج؟ هذا آخر ما كنت أتوقع ..؟ أرفض طلب أمي ؟.. هذا أيضاً لا يصدر عني أبداً، أنا الحريص على مرضاتها على الدوام .

تلكأت قليلاً. اكفهر وجهها.. مدت إليّ الكوب الكريه بيدها قائلة بحزم :

-أمين ..؟ اشرب ..!

وهكذا كان.. تجرعت كأس (الخروج)، ورحت ألوم نفسي على ادعائي الذي جرّ عليّ هذا الوبال. أما سعيد فقد رمقني بنظرة مأكرة.. كتم ضحكه وهزول بعيداً إلي خارج الدار..!

في (كفر جنس) الغربة حقيقية. المسافة بعيدة.. الوحدة الموحشة.. لا سعيد ولا أحمد أو علياء.. لا نعيم ولا أمانة.. وأسبوع أمضيه بأكمله بعيداً عنهم. كيف تراه يمضي هذا الأسبوع. بيني وبين نهايته أيام ستة بلياليها. بل بساعاتها ودقائقها.. وما من أحد حولي سوى هذه الأشجار والخط الحديدي والمبنى العتيق.. بحجارته السوداء.. والقطارات العابرة من حين لحين. يعم بعد إقلاعها السكون، تزيده النسمات الباردة وحشة وكآبة .

الناظر (عبد المنعم البديوي) اعتاد الدقة والصرامة بحكم عمله ناظراً، على مدى سنين طويلة. حركة القطارات، ومواعيدها التي يفضي الاخلال بها إلى كوارث محققة. وهو على الرغم من تقدمه في العمر، الذي بدا واضحاً في لون شعره، وغضون جبينه، وتجاعيد وجهه شديد السمرة، إلا أنه كان يملك قواماً ممشوقاً يسعفه في الحركة السريعة الدؤوب، في أرجاء المحطة كشاب في مقتبل العمر. يعيش هنا منذ عديد من السنين، مع زوجته وابنته الوحيدة (فريدة) .

أما (عبد الله إمام) عامل التلفونات فشاب لم يتجاوز الثلاثينات من عمره. ذو عينين نفاذتين، وأنف دقيق، وبشرة سمراء، له زوجة وولدان. تلتقي العائلتان في الأمسيات، في البهو الواقع أمام المبنى، خلف المحطة، ذي الواجهة

الزجاجية المغلفة انقاء البرد في الشتاء. إلا أنها لا تخفي مشهداً بديعاً أمامها، يمتد على مدى البصر، حيث السهول والبيارات، وأشجار الكينا القريبة، والورود ذات الألوان البهيجة، يتضوع أريجها عطراً في ذلك الخلاء الساحر. صحنبة إجبارية أو اختيارية بين الأسرتين.. تشابه الظروف، والعيش معاً في ذات المكان .

انطويت على نفسي، في الأيام الأولى، لا سيما في أعقاب انتهاء فترة عملي. أمكث في غرفتي وحيداً، أتأمل سقفا المرتفع، وجدرانها العالية، ذات اللون الرمادي، أنظر إلى الأفق البعيد، أو أقرأ في كتاب (العبرات) أو (الأيام)، اللذين أعارني إياهما عبد الله إمام، أو أتصفح مجلة (المصور) أو مجلة (الاثنين)، وفيهما من الصور والأخبار والقصص والنوادر، ما يشغل بعض وقتي. وإذا ما أصابني الملل، خرجت للتمشي على خط السكة الحديد عصراً، ربما حتى يعم الظلام. أضيق بنفسي حيناً، وأحس بالانطلاق حيناً، ويظل بعد ذلك، وقت كثير لا أعرف كيف أنفقه. أعود إلى غرفتي ذات الباب الخشبي العتيق، بصريه الحاد المثير كلما فتح أو أغلق.

حاول الرجلان، وزوجتاهما - والحق يقال - منذ اليوم الأول إخراجي من عزلتي، وضمي إلى أمسياتهما. عزوا امتناعي إلى خجل ينتابني، أو تهيب للرجلين اللذين يكبرانني عمراً ووظيفة. تقدم لي إحداهما شيئاً، وتقدم الأخرى شيئاً آخر، كوباً من الشاي أو عصير الليمون، فطيرة مما صنعت ذلك اليوم، فنجاناً من القهوة ممزوجاً بالحليب. أحصل على طعامي من المقصف (الكانتين) الملحق بالمحطة، علبة سردين، أو قطعة من جبن (القشقوان). أما الأشياء الكثيرة الأخرى والمغرية المعروضة في واجهته، والمرصوفة على الرفوف، فلا قبل لي بشرائها، ومن ثم لا يعينني التفكير فيها .

(الست عطيات) زوجة الناظر، مرحة، ذات شخصية جذابة، وإن بدا أنها متعسفة. تحسن الحديث.. صاحبة سطوة من نوع محبب إلى النفس، تقدم لي كعكاً، وهي تقول بلهجة أمرة، ترافقها ضحكة رنانة، صادرة من قلبها :

-تفضل كل يا سي أمين.. يقول لك كل أحسن لك !..

ولدى بادرة تردد أو تمنع من جانبي تصيح بي :

-قلت لك إيه ؟.. يا لله اسمع كلامي.. أنا زي أمك !..

أبتهج لحديثها، وأحس حقاً بأن لي أمّاً عطوفاً هنا أيضاً. أبتسم لها. قائلاً

بين الأحجام والإقدام:

-حاضر يا ستي.. حاضر ..

-أيوه قول كده ..!

-وهل يستطيع أحد أن يعصي لك أمراً يا ست عطيات..؟

-تقصد أيه يا افندي ..؟

-أبدأ.. والله ..

(الست فريال) امرأة في العشرينات، سمراء واسعة العينين، ذات وجه مستدير دقيق الملامح، شعرها الفاحم الناعم يتراعى على كتفيها وحتى منتصف ظهرها. تتأود في مشيتها لامتلاء في جسدها. صوت (قبقابها) يرن موقعا على الأرض الحجرية الظليلة، مع حركتها الدائبة معظم الوقت .

كانت أكثر حرصاً في حديثها إليّ من السيدة عطيات. ربما كان مرثاً ذلك إلى توصية أو تنبيه من قبل زوجها عبد الله.. أو أن التحفظ سمة من سماتها.. من يدريني ..؟

ما إن حلّ اليوم الأخير من الأسبوع الأول، الذي طال واستطال حتى حسبته شهوراً، أو قل عاماً، بفصوله الأربعة، حتى هرعت إلى القطار المتوجه إلى الجنوب، في طريقه إلى رفح، مروراً بيننا نحو العصر. بدا لي الطريق طويلاً، لاسيما وإن القطار يتوقف، من حين لحين، عند واحدة من المحطات في طريقه. أنظر من النافذة إلى السهول والقرى والمزارع والحقول المترامية على مدى البصر حتى الأفق في كل اتجاه. أعمدة البرق والهاتف المنصوبة على امتداد السكة.. وأشجار الكينا الكثيفة، تكرر سريعاً إلى الوراء. بيبطئ القطار فتببطئ معه، وتزداد سرعتها كلما زادت سرعته. أتلهي بها، أحاول عدّها.. أخطئ فأعود من جديد.. تلك هي محطة بينا الحبيبة تلوح من بعيد.. تقترب.. جرس المحطة.. يدق.. الإشارة (السمافور) الحمراء تهبط، لتحل محلها الإشارة الخضراء، فيعبرها القطار متهادياً، وقد تغيرت نغمة نفثه للبخار، واحتكاك عجلاته بالسكة الحديد.. ها هو ذا يتوقف أخيراً لاهئاً مرسلأً فحيحاً متعباً ..!

أقفز سريعاً خشية استئناف سيره وأنا على منته.. أتأمل المكان لحظات من حولي.. كأنما أتأكد من أنني حقاً في أرض بيناي، وأن هذه هي محطتي.. بغتة أجدني أعدو، ملوحاً بالحقيبة الصغيرة في يدي.. أختصر المسافة والزمن معاً للوصول إليها ..



فوجئت لدى عودتي من (كفرجنس) بأن أمينة قد خطبت لابن عمتها خالد. ألم بي الضيق، واعتراني إحساس غريب، كما لو كنت أفقد عزيزاً. ذلك على الرغم من أنني لم أفكر يوماً، على محمل الجد، بما كان يردده أهلنا على مسمع منا، حول مسألة الزواج السخيفة هذه. حتى الاسم كان موضع تنذر ودعابة (أمينة لأمين وأمين لأمينة)، حتى أوشك الأمر أن يبدو حقيقة لمن حولنا. والآن ها هي ذي أمينة ليست لأمين ..! حين نظرت إليها، كي أبارك لها خطبتها إلى ابن عمتها، أشاحت بوجهها عني، دون أن تقول شيئاً.. ولكن حزناً دفيناً بدا في عينيها الذابلتين :

- ما بك يا أمينة ..؟ ألا يفرح الإنسان في مثل هذه المناسبة؟ مبروك يا أمينة ..!

لم تحر جواباً، أطرقت برأسها، و ترقررت دموع في عينيها، ثم أجهشت باكياً، بصوت خافت. حاولت إخفاء دموعها وكبت انفعالها، لكن نشيجها انفجر بغتة رغماً عنها. راعني ذلك بقدر ما أثار في نفسي من الحيرة والحزن معاً. ماذا أستطيع أن أصنع كي أوقف دموعها. كان واضحاً أنها لا تريد هذا الزواج.. لكنه من السخف بمكان أيضاً أن يخطر لي أولها أن زواجاً يمكن أن يتم بيننا. بل إنه الجنون بعينه أن يفكر من هو في مثل سني في شأن كهذا. صحيح أن زيجات تمت في القرية لمن هم دون سن الزواج بكثير، لاسيما بين أبناء العائلة الواحدة المنزورين منذ الولادة.. فلان لفلانة.. وما أن يبلغا السادسة عشرة، دونها أو فوقها، حتى يبادر الأهل إلى إتمام ذلك الزواج القسري المبكر..! حدث مثل هذا لعدد من رفاقي فور مغادرتهم المدرسة أبناء أبو عون والجمال والهمص. ولكن حالتي مختلفة.. ظروفنا المعيشية أيضاً.. الأمر مستحيل تماماً، فلم أمينة حزينة وباكياً؟ ولماذا أنا منقبض النفس؟ ولأعترف بأنني حزين أيضاً.. لماذا ؟

بيد أن هذا يحدث دائماً. رعى الله أياماً خلت.. أين أنت الآن يا (مريم)؟ في

أي ركن من الحارة الشرقية أنت الساعة، وماذا تصنعين؟ هل كبرت حقاً وأمسيت امرأة لها زوج وأبناء؟ أتراك نسيت تلك الأيام.. عذوبتها.. براءتها.. أم تراك تذكرين؟ (مي) في أي الديار أنت الآن؟ هل غدوت شابة يؤم بيتها خطاب وطلاب؟ أم تراك أنت أيضاً أمسيت امرأة في بيت هناك، رهينة الواجبات المنزلية.. والعم والحماة؟ إشراقة محياك، والبسمة الطروب على شفئك، والنظرة الساحرة للعبوب في زرقة عينيك.. وشعرك الذي لا يهدأ، كشلال من حرير، تحركه لفتات جيدك الناصع الجميل، الذي لا يستقر على حال أبداً.. أو لست يا مي فوق ذلك العادي المألوف..؟ آه يا مي.. يا حبيبة الطفولة.. وأليفة الأيام الخالية..! لماذا يحدث هذا، نفقد أحباءنا لهذا السبب أو ذاك. ولكننا نفقدهم دائماً.. موتاً أو فراقاً، أو حتى زواجاً..!

تتقضي الاجازة القصيرة. أعود إلى (كفر جنس) حاملاً أحزاني.. أمسيت الغربية.. وصحبة الجدران.. وأشجار الكينا.. والرياح العاصفة.. ضجيج القطارات.. وأجراس المحطة.. الاشارات الخضراء والحمراء.. ومصباح الاشارة.. الرفاق وأخوتي.. وأمي والحاجة خضرة.. وروبين في موسمه الأخير الذي مضى.. لم تقم فيه الأعراس كسابقه، ولم تتدفق على شلالات رماله الأفراح والحكايا.. لكانهم في العالم الذي سبق، قد ودّعوه وداعاً أخيراً.. يا تلك الرمال.. يا تلالاً من ذهب يتلألأ في ضوء القمر.. يا ضحكات الصبايا في العشيات.. وفي السحر.. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

لأمضين في أول إجازة قادمة إلى يافا. أرى محمد، لأسمع مزيداً من حكايته مع عطاف..! سوف أبيت عندهم تلك الليلة. لقد دعاني مراراً إلى ذلك فلماذا لا أفعل؟

المطر المتدفق غزيراً يغسل الشوارع والأرصفة والأشجار. يهتف (العم أبو محمد):

اللهم استر.. المطر يكاد يغرق الدنيا.. الرعد والبرق لا يكفان.. سنة خير ان شاء الله ..

ثم موجهاً حديثه إليّ بين الجد والدعابة :

... يا ولد يا أمين.. لقينا لك عروسة بنت حلال.. تعالى يا أم محمد.. تعالى احكي له على بنت أم ابراهيم ..!

ترد أم محمد بأنها تعد العشاء. بدا من صوتها أيضاً أن لديها شيئاً سوف

تقضي به. قدمت أم محمد العشاء، الذي لم نكد نفرغ منه إلا وكانا قد أقنعاني بأن نذهب لزيارة أقارب لهم في المنشية، لكي أرى ابنتهم التي (لم يخلق مثلها في البلاد ..!). قالت أم محمد بصوتها الرقيق :

.. ماذا نخسر يا خالتي ؟! نسهر عندهم، نتعرف على ناس محترمين، وعلى البنات أيضاً، ثم نعود. إن شئت خطبناها لك وإن شئت سكنتنا، وكان الله بالسر عليماً..!

قلت في نفسي: حقاً ماذا سأخسر؟ بل دعني (أضحك عليهم) أيضاً، ما داموا مصرين على ذلك ..! أما محمد فكأنه أدرك ما يدور في خلدي. ضرب بكفه الثقيلة على ظهري، ليؤكد لي بأنه فهم بأني (أخذهم على قَدِّ عقلم) فيما نحن نسير خلف أبويه، لنستقل باص العجمي، ومنها نستقل (حنطوراً). يأمر العم أبو محمد سائقه بالتوجه إلى (شارع العالم) في المنشية .

المنزل غير بعيد عن الشاطئ، مبني على الطراز العربي، جدرانه الحجرية وبوابته من الخشب القديم المتآكل، بسبب رطوبة البحر على الأغلب. هدير الأمواج يصخب عالياً بعد أن كف المطر. أضواء الشارع الواهنة تتراقص على المياه، التي تجمعت فغطته حتى بلغت الأرصفة. قطط تموء.. وكلاب شاردة، خرجت بعد أن حبستها الأمطار تبحث عن رزق ساقه الله إليها .

غاصت أقدامنا في مياه الأمطار التي غمرت باحة الدار، قبل أن نجد أنفسنا في غرفة واسعة، عالية السقف والجدران تكاد تتفجر دفقاً. طفق الرجل (العم أبو ابراهيم) يرحب بنا، وهو يفرك يديه ثم يبسطهما فوق جمر الموقد. يصر عينيهِ الضيقتي الحذقتين إلى حد كبير. وجهه الطافح بشراً وعافية، وابسامته الودود تدخل الطمأنينة إلى القلب. قدمت بعد لحظات سيدة البيت (أم ابراهيم). تدفقت كالسيل عبارات ترحيبها الرقيقة، فأضفت على المكان جواً حانياً رؤوماً. أم ابراهيم في عقدها الرابع، نحيلة القوام سمراء، عيناها واسعتان تشعان بريفاً ينبئ عن ذكاء حاد. لحظتني فقط عرفت أن أم محمد تدعى (رشيدة). حين اختصتها صاحبة البيت بالمزيد من الترحيب، وهي تتأديها باسمها.

محمد إلى جانبي لايني عن تحذيري بحركة من يده، أو مرفقه أو قدمه، كي أظل صامتاً ودونما حركة أمام الجمع المهيّب، لا سيما حين أقبلت من الغرفة المجاورة فتاة في نحو الخامسة عشرة من عمرها. ما إن لمحتها حتى تعلقت نظراتي إليها، كانت أقل سمرة من والدتها، حنطية اللون، استدارة وجهها

الرائعة، عيناها كعيني أمها، لكنهما تشعان طيبة وبراءة، شعرها الكستنائي الغزير مرسل على كتفيها وظهرها. ممثلة الجسم قليلاً، وإن كانت نحيلة الخصر. فستانها الأحمر المنقط بدوائر بيضاء صغيرة، يموج مع حركتها، فيما هي تقدم القهوة. وإذ أحثق في وجهها مبهوراً، فيما يدي تمتد إلى فنجان القهوة، دون أن أنظر إلى حيث امتدت يدي، فاندلق فنجان القهوة. ذعرت الفتاة للحظة، إلا أنها ابتسمت، كما فعل أبواها وهما يرددان : (خير ان شا الله.. انكب الشر..)، في حين مال عليّ محمد ليهمس في أذني، إثر هدوء الجلبة التي كنت سببا لها (فضحتنا يا شيخ..!). العم أبو محمد، والخالة رشيدة أيضاً لم يقصراً في التخفيف من وقع (الحادث) بغمغات غير مفهومة.

جلست الفتاة بجوار الخالة رشيدة التي ما فتئت ترحب بها، مطرية جمالها و(حلاوتها)، ناظرة إليّ بين الفينة والأخرى، كأنها تقول لي (.. انظر إليها أيها الأبله.. ما أجملها ..!). يبدو أن أصحاب المنزل أدركوا الغاية من وراء مجيئنا، في هذه الليلة الممطرة. لا أنكر أنني سعدت بهذه الزيارة كثيراً. الدفء يشع من الجمر المتقد في (المنقل) النحاسي اللامع، وعلى ناره يغلي إبريق الشاي النحاسي، يتصاعد بخاره ينشر رائحة القرفة والزنجبيل. الكنبات الوردية النظيفة، والسائر خمري اللون على النافذة المواجهة. الدفء في الوجوه والعيون.. وفتحية، هذه الفتاة الرائعة، ذات النظرة الوديدة الساحرة، والبسمة الثابتة على الشفتين، لا تفارقهما أبداً. عيناها تضحكان قبل شفتيها، بعفوية إلیفة تلامس شغاف القلب، وتستقر في أحناؤه (آه.. لعلهم يقصدون هذه الفتاة.. ما أظنهم كذلك.. فهذه لن يستطيع "قروي" مثلي أن ينالها ..). أهل يافا عرفوا بتعاليمهم على القرويين، وكأن هؤلاء أدنى منهم درجة. بل هم يعيرون على من يزوج ابنته إلى (فلاح) ...! إن هم لم يعيروه بذلك أيضاً. لا بد أنهم يتحدثون عن غيرها. المسألة إذن محض مصادفة ليس إلا. قلت في نفسي (اسكت يا ولد.. وخليك على قدك.. والزم حدودك.. فما أنت إلا فلاح وابن فلاح أيضاً ..!).

ما فتئت (فتحية) غادية رائحة. تغيب قليلاً في الغرفة المجاورة، لتعود حاملة حينا أطباق الفاكهة، من يرتقال وتفاح وموز، وحينا كعكاً ومعمولاً، وحينا ثالثاً صحون المهلبية، وقد رش على سطحها مالا أعرف من مشهيات، ذات رائحة زكية. تسمرت عيناها على حركاتها الرشيقة، لا سيما (فستانها) الهفاهف، المتموج عند أطرافه، وصدرها الناهد بكبرياء، فيما كان القوم منهمكين بوصف

مزايا البرتقال اليافاوي والموز الريحاوي ..! أو تبادل الهمسات بين أبو ابراهيم والعم أبو محمد، من جهة، وأم ابراهيم والعمة رشيدة من جهة ثانية. بدا لي أن محمد شاركني الاعجاب بالفتاة، حين انتهز فرصة انشغال (الكبار) بأحاديثهم الهامسة، لكي يهمس بدوره في أذني قائلاً :

-هاه.. ما رأيك ؟

-رأيي في ماذا يا محمد ؟

كانت ضربته أشد في خاصرتي هذه المرة وهو يقول بغيط :

-علينا؟ قل لي أعجبتك يا ملعون ...!

لم يخل حديثهم من التطرق إلى الأوضاع العامة القائمة في البلاد. أذهلني من بين ما سمعت أن البيوت المواجهة لبنت (أبو ابراهيم) هذا، وعلى الرصيف المقابل تماماً يقطنها يهود. وأن الشارع في ذلك الطرف له اسم يهودي (شارع شابزي).. وعلى مبعدة عشرات من الأمطار، (الكرمل) اليافاوي، وبعده مباشرة نهايات أو بدايات مدينة تل أبيب من هذا الاتجاه .

غادرنا منزل العم أبو ابراهيم، مودعين بحفاوة تفوق ما استقبلنا به منها. وقفنا على الرصيف ننتظر (حنطوراً) نقلنا إلى حي العجمي، أو إلى وسط البلد على الأقل. كان المطر قد توقف. هدير الأمواج في ذلك الوقت من الليل يوحى بالرهبة. نستقل الحنطور.. بخفت صوت الأمواج المتكسرة على الصخور، وجدران المنازل المحاذية للماء كلما أوغلنا بعيداً، إلى أن تخفيها طرقات حوافر الخيل، على حجارة شارع المنشية المبتلة بماء المطر، الذي كف للتو عن انهماره، وأصوات الحاكي والراديو تتبعث وانية ضعيفة من المقاهي المغلقة الأبواب، أو الدور المقفلة النوافذ، وقد بدت أنوارها الشاحبة من وراء الستائر التي تخفي وراءها أصحابها المتحلقين حول المواقد .

لم تبرح خيالي صورة فتحة، وأهلها، ومنزلها في شارع العالم. حتى إبان انهماكي في عملي بفتح الاشارات وإغلاقها أمام القطارات. لم تغب عني ابتسامتها العذبة، ونظرتها الساحرة. تذكرت تفاصيل الدقائق والثواني، التي مرت في تلك السهرة. حتى الأشياء الصغيرة، والكلمات العابرة، التي ربما لم تكن تعني شيئاً رحلت أخلق لها تفسيرات شتى : لماذا تسألني عن المدرسة وأي صف أنهيت ؟.. عما إذا كان لي إخوة وأخوات ؟.. عن عملي ويوم عطلتي الاسبوعية.. أمي.. أبي ..

تساءلت عما إذا كان لديها انطباع ما عني؟ ما هو؟ هل ارتاحت إليّ، على الأقل؟ يكفيني هذا.. والقناعة كنز لا يفنى، كما تردد أمي دوماً. هل تذكرني الآن كما أذكرها وأفكر فيها، أم أنها كانت سهرة عابرة وحسب بالنسبة إليها ؟.. نجم اهتمامي بفتحية على هذا النحو، بعد أن أنبأني العم أبو محمد وحرمه، بأن فتحية هي الفتاة ذاتها موضوع حديثهما لي قبل أن نقوم بزيارتهم تلك الليلة. وهما الآن بانتظار رأي والدتي، قيل رأيي، وقبل أن يفتحوا (الجماعة) في الأمر. وما أنذا أعود إلى (كفر جنس) من لدنهم مباشرة، وليس إلى والدتي لانقضاء يوم إجازتي. والدتي تريد لزواجي واحدة من بنات جيراننا اللواتي حدثتني عنهن. ولاشك أن لها رأياً، هي الأخرى، في بنات يافا. ألم أسمعها وصديقاتها أكثر من مرة، يتحدثن عن اليافاويات والشاميات اللواتي تزوجن في بينا.. وأنه خير للشباب أن يتزوج ابنة بلده التي (تصبر معاه على الحلوه والمرّة).

السيدتان عطيات وفريال، لحظتنا شرودي، في الأيام الأخيرة. تغامزنا فيما بينهما، قبل أن تسألني الست عطيات عما بي. وحين أجبت بما لا يقنعها، قالت وهي تضع كلتا يديها على خاصرتها، وتهز رأسها يمينا وشمالاً، محدقة في وجهي بنظرة عابثة، وبصوت منغم :

- (تكونش بتحب يا شاطر ؟!..)

أطلقت فريال الواقعة عن كذب ضحكة رنانة، وهي تقصع ظهرها إلى الوراء، ثم تعتدل، لنقول وهي تسند ذقنها بين سبابتها وإبهامها :

- (وفيها إيه لما يحب يا ست عطيات ؟.. بس يا ترى مين هي صاحبة الحظ دي اللي بيحبها سي أمين ؟!..)

فضلاً عما أصابني من الغيظ، أعتراني ارتباك شديد فلم أستطع أن أحرى جواباً، مما حدا بهما إلى أن تؤكدوا أحدهما للآخرى صحة استنتاجها، لأنها (تفهمها وهي طائفة ..!). نقادياً لمزيد من سخريتهما لم أفصح بشيء عما حدث. كما أنني لم أنبئ أمي بشيء في عطلتي الأسبوعية التالية، خشية أن أفتح أمامها باباً للحديث عن واحدة من بنات الجيران .. زكية.. هدى.. جميلة !..

أخذت أتردد على منزل العم أبو إبراهيم من حين لآخر، بصحبة العم أبو محمد وحرمة حيناً، وبرفقة ابن العم محمد حيناً، فأيقنوا جميعاً - دون أن يقول لي أحد ذلك - بأنني شغفت حباً بفتحية. وأن الأمور تسير في الاتجاه الذي رسموا منذ البداية. إلا أنني كنت، في كل مرة، أخلق المعاذير لأقاربي، سعياً للتريث بعض الوقت، ريثما أتمكن من مفاتحة والدتي بالأمر. إيان ذلك تخطر لي أفكار مثبطة للعزيمة، منها : كيف أفاتحها؟ ماذا أقول لها وهي التي عودتنا عدم الخوض في مثل هذه الشؤون ذات الحساسية البالغة؟ وأخي سعيد، كيف أفكر في الزواج قبله وهو الأكبر، رغم ما قالته أمي آنفاً؟ ثم من أين لنا - المهر وتكاليف العرس، لا سيما وأن العروس (يافاوية)، فعرسها لن يكون عادياً، كذلك مهرها سوف يكون عالياً. صحيح أن والدتي (وفرت)، كما نقول، مبلغاً من حصيلة عملي هنا وهناك، لمثل هذا اليوم الأبيض، دون أن يتناقض هذا مع شعارها (القرش الأبيض لليوم الأسود). إلا أن هذا المبلغ لن يكون كافياً أبداً. نجزئ المشكلة إذن.. الخطبة أولاً، تعقبها شهور.. سنة.. سنتان.. إلى أن يتوفر المبلغ المطلوب. ونحن أيضاً ما زلنا صغيرين على الزواج فلماذا العجلة !..

تجرات ذات يوم، فزرتهم بمفردي، زاعماً لهم أنني كنت قريباً من المكان، ومن ثم لا يليق بي (المرور) دون زيارتهم. أدركت أم إبراهيم، على الفور، الباعث الحقيقي لزيارتي. تبدى ذلك في ابتسامتها ذات المعنى الواضح، فيما هي تحذق إلى وجهي. لكنني حمدت لها أن أتاحت لي أكثر من فرصة للتحدث على انفراد - وإن يكن لمأماً - مع فتحية. كان واضحاً تماماً أن فتحية مهتمة بي أيضاً، إن لم أقل إنها مثلهفة على رؤيتي، وأنها استطالت غيبتتي، وهي لهذا

عائبة عليّ. نظراتها، وكلماتها المقتضبة تشي بما في قلبها. لا شك أن هذه النظرات المدققة، تعني أكثر من مجرد استلطاف.

ولكن هل هذا معقول يا أمين؟ أن تحبك بنات بينا القرويات مثلك.. ربما.. أما هذه (الفتحية) اليافاوية فأمر بعيد الاحتمال.. من قال أن الحياة ليست جميلة رغم كل ما فيها من ويلات؟!..

هذا الرداء الكحلي ذو الياقة البيضاء.. أمصادفة كانت ترتديه؟! والشعر المرسل على الكتفين. هذه السمرة الصافية، مشربة بحمرة وردية شفيفة.. جميلة دائماً.. بل فائنة.. أود لو أضمتها إلى صدري.. لو أحتضنها إلى الأبد.. أقبل هذا النغر الباسم.. كيف تراودني هذه الأحاسيس منذ الآن، إنها أسمى من أن تمس..!

- فيم تفكر يا أمين ..؟

- من غيرك يا فتحية ..؟

عضت شفتها السفلى، وهي تبسم، ثم تطرق خجلاً. تضرّج وجهها بالحمرة القانية، فيما هي تشدّ طرف ثوبها، أو تعيث بأزراره، تداري ارتياكها. أدركت أيضاً أن ردي كان مباشراً يفتقر إلى التمهيد. انفجرنا بغتة معاً في ضحكة عالية. أسرعنا إلى كبتها قبل أن يسمعها الآخرون. غير أن والدتها سرعان ما أقبلت، وقد بدا عليها أنها لا تريد للقائنا المنفرد أن يمتد أكثر، فقالت بلهجة حانية، لكنها حازمة :

-إمي.. قومي ساعديني في المطبخ.. يرضى عليكى ..

نهضت فتحية.. ومعها قلبي الذي ازداد خفقاناً حتى أوشكت أن أسمع وجيبه بأذنيّ. تبعثها نظراتي المتلهفة إلى أن أخفت .

عقب الغداء، صارحتني العمة أم ابراهيم بأن أناساً تقدموا لطلب يد ابنتها مؤخراً. ثم صمتت، كأنها تنتظر مني تعقيباً على قولها. وجدتني أقول، عندئذ، مرتبكاً و دون تدبر :

-خالتي أم ابراهيم، سوف أخبر عمي أبو محمد ووالدتي بالأمر. وسوف نزروركم قريباً، إن شاء الله .

بدا عليها الارتياح، ولم تضيف شيئاً. أما فتحية فقد نألق وجهها، ولاح بريق في عينيها، مما أدخل مزيداً من السعادة إلى قلبي. ودّعنتي، مع والدتها عند باب

الدار. نظرت إليها ملياً، والأسى يلمُّ بي لفراقها.. وفرحة غامرة، لذلك الوعد في عينيها تسري في كياني .

في شارع جمال باشا، أسير مثلكاً، أستعرض ما مرَّ بي قبل قليل صوت فتحية وصورتها لاتبرحان خيالي. أتوقف أمام سينما فاروق. صور ساحرة مثيرة للممثلين في فيلم (رصاصه في القلب).. سينما الحمراء صور أخرى لفيلم اسمه (سلامة القس).. على الرصيف المقابل سينما نبيل.. سينما الرشيد.. مكتبة الطاهر ذات الواجهة العريضة حافلة بالكتب والمجلات. على امتداد الشارع الطويل، تتوسطه أشجار النخيل العالية، على جانبيه قامت الفنادق والدكاكين ذات الواجهات الزجاجية الجميلة، حافلة بما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.. آه يا(بينا).. نحن هناك نعاني الأمرين.. وأنتم هنا يا (أهل يافا) ترتعون في هذا النعيم المقيم.. أقسم لأقيم هنا معها في مقبل الأيام !.. .

تتحرك الحافلة في بطء، في طريق الرحلة عبر الشوارع المكتظة بالسابلة والباعة والسيارات. انقباض يتدفق إلى صدري كنسمات خريفية كثيفة وحزن يغشى قلبي، فتوشك أن تترقرق في عيني الدموع.. لا.. لا أريد أن أمضي بعيداً عنها .

ألفت، مداعبات السيدتين عطيات وفريال. كما غدوت أقضي سهرة المساء حين لا يكون لدينا عمل، مع الأسرتين. يتحدثون عن بلادهم وغربتهم وذكرياتهم. الحنين إلى مصر يطغى على أحاديثهم، فأحس بأنني، على الرغم من غربتي هنا في كفر جنس، إلا أنني أحسن حالاً من أصحابي هؤلاء. بل إنني أكاد أحسد نفسي على هذه النعمة، إذ أنا في رحاب وطني، على أية حال. وبينما لم تبعد بي الشقة عنها بمقدار ابتعادهم عن أوطانهم. وذات يوم ستكون لي فتحية، كما هي الآن عطيات لعبد المنعم افندي، وفريال لعبد الله إمام. ولكن في دارنا هناك، أو في يافا.. أجل لن نغادر وطننا بحال، وأياً كانت الأسباب. تجربة هؤلاء الذين أمامي تؤلمني حقاً. الحزن في أعينهم، والأسى يظل وجوههم. أرثي لهم.. أحزن من أجلهم. أتساءل : لماذا هم هنا إذن؟ ما الذي يجبرهم على ذلك؟ إذا كان العمل هو السبب، أفلا يجدون عملاً كهذا، أو غير هذا هناك؟

يتحدثون أيضاً، عن اليهود والانكليز في فلسطين. إلا أن معلوماتهم في هذا الشأن ضئيلة. يبدون مشاعرهم وعواطفهم نحو إخوتهم عرب فلسطين. يعرفون أن هناك مشكلة. ما هي هذه المشكلة ؟.. أصلها ؟.. خباياها ؟.. هذا كله لا يعرفون عنه إلا القليل. لهذا سرعان ما كانوا يستأنفون حديث الذكريات، بعيداً عن هذه العقدة الشائكة، أو حديث الفن كالسينما والمسرح. حينئذ تطول السهرة وتطول. يمضي واحد منهم في التحدث عن فيلم شاهده، أو مسرحية حضر عرضها، ساعة أوزهاءها، فيروي الحكاية من ألفها إلى يائها.. وربما مع إضافات من عنده، كالشرح والتفسير والتعقيب. أستمع إليهم بشغف، إذ إن ذلك جديد عليّ تماماً. و إذا ما فرغوا من هذه تحدثوا عن أدباء مصر وكتابتها الأثيرين لديهم. وقد تحدثم معركة فيما بينهم، إذ لكل منهم كاتبه المفضل، فهذا يطري طه حسين، وذاك يمجّد محمود تيمور. والسيدة عطيات تهوى كتابات توفيق الحكيم.. وقبل هؤلاء جميعاً يؤثر الناظر البديوي كتابات المنفلوطي.. ومجدولين بصورة خاصة ..!

يتخلل ذلك تناول الطعام، والشاي، والمكسرات، والكعك الذي تتفنن السيدة عطيات في صنعه، وتباهي بمهاراتها المختلفة في هذا المضممار. يضيف على السهرة سحراً حضور السيدتين عطيات وفريال، وقد تزينت كل منهما وارتدت ثياباً هفافة جميلة، تضيف إليها قفشات السيدة عطيات جواً أليفاً من المرح. لا تخفي السيدتان عطفهما وحنانهما عليّ، لبعدي عن ذويّ في مثل سني هذه. لكنها - عطيات - لا تتفك عن تشجيعي والتخفيف عني بأقوال من قبيل :

..(حتى تكون راجل يا أمين الغربة هي اللي تعلمك !..) يؤمن الحضور على قولها. بيد أنهم يعودون إلى صبّ جام غضبهم على الغربة و(يوم الغربة)، معلنين بأنها غير مستساعة في كل الأحوال، رغم ما يزعم من حسنات لها.. إن كان ثمة لها أية حسنات !..

ذات ليلة، وكانت ورديتي فيها تمتد حتى منتصف الليل، اتجهت إلى غرفة الإشارة، البعيدة زهاء تسعمائة متر عن المحطة، يضيء لي ظلمة الطريق ضوء المصباح الأحمر الذي أحمله. جلست على المقعد الخشبي فيها، أحصي الدقائق الباقية على وصول القطار من الشمال. أفكر في الوقت ذاته، في فتحية، متمنياً لو كنت الآن إلى جوارها، بدلاً من هذا المكان الموحش. أشرد بعيداً، إخالني أتحدث إليها، لكني لا ألبث أن أعود إلى حيث أنا، أتذكر الساعة والقطار والدقائق الباقية على وصوله .

في ذلك الدغل الواقع شرقي غرفة الإشارة، يتناهى إلى صوت غير مألوف. لم يكن ذلك حفيف الأشجار، ولا هي تموجات الأغصان التي أعدها. لكان أحداً يمشي وسط الدغل الكثيف، مثيراً هسيساً رتيباً، بطيئاً أول الأمر، ثم لا يلبث أن يتسارع شيئاً فشيئاً، إلى أن يصبح عنواً. أصبح السمع للتيقن من أن سمعي لم يخني.. حقيقي هذا الذي أسمع وليس وهماً. الحركة تأتي من الجنوب، وحين تصبح قبالة الغرفة تتوقف قليلاً.. يسود صمت أعلق معه أنفاسي.. قبل أن تتابع إلى الشمال. لكنها لا تلبث أن تعيد الكرة عليّ نحو مماثل. عندما سكنت الحركة، للمرة الأخيرة في مواجهة النافذة، سمعت لهاثاً خافتاً متسارعاً.. صحت لحظتئذ مرتاعاً (من هناك ؟..). وفي تلك اللحظة تماماً، وقبل أن أسمع جديداً كانت أضواء القطار القادم من الشمال تطل عن كئيب. وحين خرجت من الغرفة أحمل مصباح الإشارة، سمعت الصوت، من جديد، ولكن عنواً، هذه المرة، في

اتجاه الجنوب. أدت الزجاجة الخضراء، لأرفع المصباح في مواجهة القطار القادم، ملوحاً بحركات الإشارة المعينة. وقفت قريباً من الخط انتظاراً لوصوله. وحين مرّت بي العربات بضجيجها فوق السكة الحديد، قفزت إلى واحدة منها كما كنت أفعل في كل مرة.

في المحطة رويت ما حدث لعبد الله إمام، الذي أكد لي، بغير اكتراث، أن ذلك لم يكن إلا ضبعاً ..! لم تبد عليه علامات الدهشة التي كنت أتوقعها لمثل هذا الاستنتاج. لكن الرجل أكد لي أنه لا غرابة في الأمر. مضيفاً أيضاً بأن ضبعاً تتواجد في أدغال الأشجار في تلك المنطقة، وأنها كثيراً ما تحاول اقتراس من تجده في طريقها. لكنها لم تلتهم أحداً .. بعد ..!

كان ذلك مثار ضحك ودعابة إيان السهرة في الليلة التالية. الست عطيات وحدها، ظلت واجمة، معظم الوقت، لا تشارك في الحديث إلا لماماً. لكنها هبت بغتة لتقول، موجهة كلامها للرجلين معاً، بلهجة لا تخلو من اللوم :
..(حرام عليكم.. قولوا للولد على اللي حصل.. ابن الناس أمانة في رقابنا.. على الأقل يدبر باله من نفسه ..!).

أطبق الصمت، وساد الوجوم. لكن أحداً لم يحر جواباً. أخذت مني الدهشة مأخذها، وبانت أمامهم في عيني التساؤلات.. والرعب معاً.. عندئذ بادرت (الست عطيات) إلى القول، مصوبة نظراتها إليّ:

-(.. اسمع يا أمين يا ابني.. الله الله عالجِد، والجد الله الله عليه.. من مدة الضبع ده هاجم عامل إشارة زيك كده.. لحقوه في آخر لحظة.. خدوه المستشفى.. صحيح أنقذوه من الموت، لكن المسكين فقد عقله.. يعني اتجنن ..! لازم أقول لك الكلام ده حتى تاخذ بالك.. ورزقي على الله ..!)

تصادف أن كان اليوم التالي، يوم إجازتي الأسبوعية، حيث مضيت إلى بينا، في قطار الظهر، فبلغتها عند الأصيل. أفكر في الطريق فيما كان يمكن أن يقع لي .(لو أن القطار تأخر قليلاً؟ أو لو أنني بكرت أكثر قليلاً في ذهابي إلى غرفة الإشارة ..؟ وهؤلاء الأصدقاء لماذا أخفوا عني هذه الحقيقة ..؟ لأنهم لا يريدون إثارة الخوف لدى من يقومون بهذا العمل؟ هكذا تقضي التعليمات (من الجهات العليا) ..؟ أم هي الاستهانة بأرواح أمثالنا من الكادحين ..؟ تأكلهم الضباع، تلدغهم الثعابين .. لا يهم ..!)

نقلت الحكاية إلى والدتي طار صوابها، حتى قبل أن تستمع إلى بقيتها.

دقت على صدرها.. لطمت خدها.. أقسمت (بالله العظيم.. بالأنبياء جميعاً لا نبياً واحداً.. والأولياء كافة.. في كل زمان ومكان، ألا أعود إلى كفر جنس أبداً..! حتى لو أصبحنا على الحميد المجيد يا ابني.. إن الله هو الغني.. ما كل مرة تسلم الجرّة..!).

أبلغتهم عزمي على ترك العمل. وإذا لم أوافق على إتمام المدة القانونية - طبقاً لتعليمات والدتي الصارمة - أنذرت بأنني سأفقد راتب ذلك الشهر. عدت أدراجي إلى بيّنا، متوكلاً على الله، حامداً إياه على النجاة من موت محقق بين أنياب ضبع كاسر..!

أحزنني فراق السيدتين، عطيات وفريال وزوجيهما، على الرغم من عذاب الغربة، والأخطار المحدقة بعملتي هناك، سواء كانت الضبايح أو القطارات ذاتها. بل إنني سرعان ما انتابني الحنين إلى (كفر جنس) من أجلهم. هم أيضاً لم يخفوا تأثيرهم في يومي الأخير هناك. بكت السيدتان، لاسيما عطيات التي قبلتني في جبيني، وهي تدعو لي بالنجاح والفلاح، في مقلب أيامي. ثم محملة إياي (الأمانة) بألا أنقطع عنهم، وألا أتوانى عن زيارتهم في المحطة، كلما أتاحت لي الظروف ذلك .

كانت كفر جنس محطتي الملائمة. إلى يافا. فمن حين إلى آخر، اقتنص ساعات من وقت الفراغ أو الراحة في المحطة، أقصد الأحباب فيها. أصبح ذلك جزءاً من حياتي. ورغم عناء الرحلة، لتتقلي بين وسائل المواصلات المختلفة، خلال القرى العربية والمستعمرات اليهودية، الواقعة بين كفر جنس ويافا، إلا أن ذلك لم يثنني عن مواصلة زياراتي لهم هناك، فأنسى عند اللقاء، مشقة الطريق وعناء الرحلة. أما الآن فقد بعدت الشقة بيني وبينها، رغم أن المسافة أضحت أقصر إليها، غير أنني لن أتمكن من التوجه إليها، بتلك السهولة، وكلما شئت كما كنت أفعل من قبل. بلى إنني لنأدم على ذلك اليوم، الذي قصصت فيه على والدتي حكاية الضبع، الذي تربص بي في كفر جنس، مما أسفر عن التطورات اللاحقة التي أفضت بي إلى ماأنا فيه الآن، سواء كان ذلك بطالة عن العمل، أو كان حرمانني من يافا ومن فيها .. (هل كان الضبع سيأكلني فعلاً؟.. ألم أكن متسرعاً وغيباً أيضاً إذ فعلت، فجنييت على نفسي بحماقتي ؟.. وحين قصصت عليها ذلك، هل كان الخوف هو دافعي، أم كانت المباهاة بشجاعتي في مواجهة الضبايح ؟!.. الأمر سيان على أية حال، والنتيجة واحدة). كان في وسعي أن أحتاط للأمر، عن طريق الضوء، بمصباح أكثر سطوعاً، أو حتى علبة ثقاب. ألا يقولون أن الضبايح تولي هاربة أمام الأضواء، تماماً كالخفافيش ؟!.. أما وقد حدث هذا، فلا بد من وسيلة أو حيلة. أجل لماذا لا أحتال على الوالدة بطريقة ما للذهاب إلى يافا؟ بعد تدبر وإعمال للفكر، وجدتني أزعج لها بأن هناك من أنبأني

بأن ابن العم محمد طريح الفراش. لكنها فاجأتني بسؤال أدخل الفرع إلى نفسي، حين تساءلت: (من أنبأك هذا؟). بادرت إلى الرد بأنه سعيد الجمل القادم للتو من يافا هو من أنبأني، (أفلا ترين يا أمي أن الواجب يقضي أن أعوده؟..).
كبرت فيّ والدتي، هذه الأريحية، بل أضافت بأنها هي أيضاً سوف ترافقني إلى يافا قاتلة:

-الواجب واجب يا بني..(اللي يشوفك بعين شوفه بعينتين !..)

لأبأس من ذهابها معي. أما محمد فليسوف أتدبر الأمر معه فور وصولي، لتغطية (كذبتني البيضاء)، التي لم يكن دافعي إليها سوى رغبتني الجارفة، لرؤيتها. أجل لم أعد أطيق البعد عنها زمناً كهذا، أنا الذي يحلم برؤيتها كل يوم. وحتى هذه الزيارة - التي لا بد أنها ستكون سريعة خاطفة - لن تطفئ ضرام الشوق إليها. وإذا كنت في هذه المرة استطعت أن أحقق رغبتني بأكذوبة اختلقتها، وصدقتها أمي لحسن نيتها، ولتقتها بي التي لا تشوبها شائبة، فمن لي برؤيتها بعد ذلك كلما اجتاحني الحنين إليها ؟..

.. هل أحدث أمي في أمر خطبتها؟ خطبة وحسب. هناك من هم أصغر مني سناً يفعلون ذلك، والأمثلة أكثر من أن تحصى في قريتنا هذه. أم تراني نسيت بأن (خطاباً) تقدموا إليها، كما أخبرتني العمّة أم ابراهيم ؟.. هل أظن صامتاً إلى أن (تطير) من يدي ؟.. سأفنعها بأنها سوف تكون (كنة يافاوية) جميلة تفاخر بها نساء بينا عن بكرة أبيهن !..

بعد أن توصلت إلى هذا القرار، تذكرت أن الظروف التي نعيش، غير ملائمة للخوض في شأن كهذا. الأجواء التي توترت أخيراً في سائر أرجاء البلاد، قميئة بأن تصرف الناس عن كل ما عداها. هل أضرب عرض الحائط بكل ما يقال ويذاع، لكي أتحدث في خطبة فتحية ؟!.. إنهم يتحدثون، وكذلك الصحف والأذاعات جميعاً، عن تطورات لم تكن في الحسبان. فبعد أن تخلت بريطانيا عن مسؤولياتها تجاه القضية، وألقت بها على عاتق تلك الهيئة، التي أنشئت في أعقاب الحرب العالمية الأخيرة، بات واضحاً أن الأمور سوف تأخذ منحى مختلفاً. ولا يدري أحد ماذا تخفي الأيام القادمة، وإن كانوا واثقين من قدرتهم على التصدي لليهود، إذا ما خلى بيننا وبينهم، بعد رحيل حماهم الانكليز عن البلاد. فضلاً عن تدفق أمواج الهجرة اليهودية، من جديد، بتمويل ودعم من أمريكا وبريطانيا معاً، هناك لجان وافدة على البلاد، تحت أسماء وعناوين

مختلفة، منها ما هو (لنقصي الحقائق)، وما هو (للتوفيق). هذه اللجان يؤلفونها هم، ويوجهونها هم. غاياتها جميعاً واحدة، ومحددة سلفاً. يتساءلون : أي (حقائق) هذه التي يتقصونها؟ و(التوفيق) بين من ومن؟ هل يجهل هؤلاء ما هي (الحقيقة) وهي حقيقة واحدة، واضحة، ساطعة كنور الشمس في رابعة النهار؟ يتساءلون :

ما شأن هذه الدول الاحدى عشرة، التي تتألف منها لجنة (أنسكوب) هذه بنا؟ وهل لأحد غيرنا الحق في أن يقرر مصيرنا نحن؟ أليست هذه دولاً غربية عنا وعن القضية؟ وهي أيضاً ضالعة مع اليهود متواطئة مع الانكليز، منذ البداية. ألا يكون هذا كله تمثيلاً ورياء و(ضحكا على الذقون)، من أجل تمرير مخططاتهم وحيلهم؟ لا بد أن الأمر كذلك، وإلا فلماذا تقاطعها الهيئة العربية العليا ؟

لا تنفك الصحف عن نشر الأنباء حول اللجان، والمؤتمرات.. عن المقترحات والردود.. حول الغضب العربي، والتعنت اليهودي في المطالبة بما ليس لهم. بل والجرأة على إبداء المطامع والتصورات بما لا يقبله عقل ولا عدل، ولا تقره شريعة في الأرض ولا في السماء .

... من الحكمة ألا أثير أمر الخطوبة معها كي لا أضع العوائق في طريق الرحلة الموعودة ..!

الطريق إلى يافا، طويل هذه المرة. (أبو دياب النمروطي) يبطئ السير أكثر مما ينبغي.. يثرثر كعادته.. يصف المستعمرات ويلعن اليهود.. يبشرنا بالخلاص منهم طال الزمن أو قصر. يعلن ذلك بصوت مرتفع، ولهجة تحفل بالتفاؤل. ثم ينسأه عند المنعطف التالي، أو ما بين ريشون ورخبوت (عيون قارة ووادي حنين)، ليعلن النقيض تماماً، فكل ما يجري يدعو إلى الخوف والتوجس. الركاب يوافقون على كل ما يقول، في كل الأحوال ..! أمي لا تفتأ تدعو الله أن يهيئ لنا (ما فيه الخير). تسألني أحياناً عن مضمون أقوال النمروطي، وماذا فهمت منها. أعيد عليها أقواله مزيدة أو منقوصة، حيث اني لم أعرها اهتماماً منذ البداية. وحين يفوتني الكثير، أختلق لها من لدني ما يشبع فضولها. عقلي وقلبي معاً هناك، في ذلك المنزل.. في تلك الغرفة الأليفة.. فتحية هناك تغدو وتروح بين هذه الغرفة وتلك.. يموج فستانها الأحمر ذي الدوائر البيضاء.. أو هي تستلقي على الكنبه الوردية.. تشرّد بعيداً.. ربما كنت موضوع شرودها.. تتخيلني قادماً إليها.. سوف يصدق حدسها، عندئذ. قد يفاجئها مجيئي غير

المتوقع في هذا الوقت. تدهشهم جميعاً صحبة أمي أيضاً، هكذا بغير مقدمات.

ليافا نكهتها الخاصة، وسحرها الفريد، تأخذ بمجامع القلب. شوارعها ومبانيها تثير في النفس الشوق. تناغم أمواج بحرهما.. أصوات الباعة في أسواقها.. ناسها الذين يعمرّون طرقاتها ومقاهيها. صوت مؤذن ينطلق من هناك.. أغاني وموسيقى تصدر عن الحوانيت والمقاهي. في كل مرة أرى فيها سحراً جديداً، وفتنة أسرة. يكفي أنها تضمها بين جوانحها.. فتحية تستنشق عبير أجوائها ونسيم بحرهما!..

سنمضي إلى منزل العم أبو محمد أولاً، ولن يعدم الرجل وزوجته وسيلة للذهاب بنا إلى دار العم أبو ابراهيم. قد أحتاج إلى معونة محمد، ولو أنه سوف يردد على مسمعي تلك الجملة التي أصبحت تلازمه مؤخراً (ما أنا عارف أنت جاي لمين يا أستاذ!..)

لم يكن المبيت ممكناً في يافا، فأمي لا بد أن تعود إلى بيتها، وليس مألوفاً أيضاً أن تتزاور العائلات في النهار، وأنا لا أستطيع أن أقترح شيئاً.. لكن العمّة أم محمد كانت على قدر من الكياسة والمقدرة على التصرف، وحل العقد الشائكة. لقد استطاعت دعوة أم ابراهيم وفتحية إلى دارها لمشاركة ضيوفها الغداء. بل هي أيضاً استطاعت أن تجعل الأمر يبدو طبيعياً، وكأنه محض مصادفة.

إبان تناول الغداء، الذي أعدته أم محمد على عجل، تبادلن أحاديث شتى كالطهي، والغسيل، وتنظيف المنزل، والطريق ما بين بيتنا ويافا. أحسست في لحظة صمت أطبقت أن هناك أموراً يرغبن الحديث فيها، لكنهن يحجمن عن ذلك لوجودنا أنا ومحمد بينهما. تَحِينَا جانباً، لننصرف نحن أيضاً إلى حكاياتنا. قال لي محمد، وهو يغمز بعينه مبتسماً :

-يبدو أن المسألة دخلت الجدّ يا ولد!..

-من ناحيتي لم أحدث أمي بشيء. وما أظنها توافق على خطبة فتحية لي بسهولة. بنات بيتنا، يا سيدي، يعجبها أكثر .

-لكن أمي شاطرة.. وأم ابراهيم أشطر!.. ولا تنس تأثير فتحية عليها أيضاً.. بنت حلوة ومؤدبة.. المهم سنعرف كل شيء بعد قليل.. لو كان أبي هنا لاختلف الأمر.. قال محمد.

أسفت فعلاً لغياب العم أبو محمد، في هذا الوقت بالذات.. لا شك أن

لوجوده أبلغ الأثر على والدتي.. حبذا لو كان حاضراً ذلك العم.. وإلا فما جدوى أن يكون (عماً)؟! ربما نحتاج إذن إلى جولة أخرى.. يا إلهي.. ومتى يكون ذلك..؟

حين خلعت فتحية (الكاب) الأسود، لدى دخولها - أسوة بما فعلت أمها - ورفعت المنديل الشفيف عن وجهها، بانّت فاتنة إلى حدّ لم أتصوره من قبل. لم تكن في أي يوم مضى أجمل مما هي اليوم. كل ما فيها ساحر مبهّر. سمرتها الصافية.. وحمرة وجهها الخفيفة تزيد نضارة وإشراقاً.. بسمتها إياها التي لا تفارق شفّتها.. ذلك البريق الساحر يطل من عينيها. هذا الثوب البرتقالي الذي بدا فاتناً بعد أن خلعت (الملاءة)، وهذه الأشياء المضافة إليه هنا وهناك..!

لم تكن حساباتنا صحيحة، أنا ومحمد، إذ سرعان ما تبين لنا أنهم قد توصّلن بسهولة وبسر، بل وبسرعة غير عادية، إلى ما كنا نحسبه عسيراً بعيد المنال. بل إن والدتي هي التي كانت صاحبة المبادرة. لقد أبدت لهن إعجابها بفتحية، وأنها تتمنى على الله أن يمنّ عليها (بكنة) مثلاً. بل حبذا لو تكون هي..! شاركتها العمة رشيدة أمنيّتها، وتقدّمت إلى أم إبراهيم تطلب مباركتها، أو (إعطاءها كلمة) على الأقل، ريثما تفتح زوجها. عندئذ (نتقدم لطلب يدها حسب الأصول..). أما الزواج فلا بأس من إرجائه بعض الوقت.. (عندما يأتي أبو محمد أخبره بما جرى ونرتب الأمور معه.. والباقي على الله.. شفّتي يا أم إبراهيم.. كل صدفة خير من ألف ميعاد..! حضوركم مع حضور أختي أم سعيد من بلدها.. مصادفة عجيبة.. لكنها القسمة والنصيب..!)

(.. أمي حبيبتني تفرّئين ما في قلبي.. تصنعين دوماً ما أتمناه حتى دون أن أفصح عنه.. تحسّين بي.. تعرفين تماماً ما أريد.. أيّ أم أنت..؟ لم أحلم من قبل بأن يتم الأمر هكذا بهذه السهولة، وعلى هذا النحو.. تصورت أن أممي شوطاً بعيداً، بل طريقاً شائكاً، قبل أن أستطيع حتى مجرد مفاتحتك بشأن فتحية، وإذا بك تصنعين ما بدا لي مستحيلاً.. ألا إنك لتدركين مني ما أدرك وما لا أدرك..!)

لم أتمكن من الانفراد بفتحية، لأستمتع برؤيتها والاستماع إليها، ومعرفة ردة فعلها. لا ريب أنها سعدت أيضاً بما أسفرت عنه هذه الزيارة الميمونة. لعلها تحسب الآن أنني أنا الذي سعيت إلى ذلك. وما اصطحابي لوالدتي إلى يافا

إلا من أجل مفاتحة أهلها بشأنها حسناً، وليكن ذلك .
طريق يافا إلى بينا أيضاً لم يكن في يوم من الأيام أكثر جمالاً مما هو عليه
اليوم. الشمس توشك على المغيب بعد أن تجاوزنا (رخبوت)، وشرعنا نقترّب
من محطة بينا. ظلال الأشجار طويلة جداً.. أشجار الكينا تطاول السماء..
بيارات البرتقال خضراء نضرة تبهج القلب والعين، تغرق في صمت مهيب، إلا
من حفيف الأوراق والأغصان، تحركها نسائم خريفية باردة.. وأبو دياب
يطلق العنان، بصوت أجش لكنه دافق بالحنان والشجن مغنياً :
أحبابنا يا عين كانوا معانا..
رحنا وراحوا عنا.. ما حد منا اتتهنى..
عيني يا عيني ...

لا حديث لأمي في المنزل و مع الجارات إلا عن فتحية وذويها. حاول سعيد أن يصرفها عن الفكرة، في هذا الوقت، وفي هذه السن المبكرة لأخيه، لأنه هو يريد الزواج، ولكن لأن هذه العجلة لا داعي لها، والدنيا (قائمة قاعدة). بل هو يرى أن يستأنف أخوه تعليمه في يافا ما دام لديها المال الذي تريد إنفاقه على زواجه. أبو صافية أيضاً كان له رأي مماثل، مع تأكده بأنه لا يعارض، وإنما هو يبدي رأياً وحسب. أحمد وعلياء، فرحا عندما علما أن هذا يعني عرساً يقام في دارنا. أمينة تصمت وتشرد بعيداً، والحزن باد على محياها وفي عينيها. وهي سوف تزف إلى ابن عمتها وشيكا. الجارات اللواتي يتدخلن في كل شيء، أبدين آراء مختلفة، وإن كان اعتراض بعضهن ينصب على فكرة الزواج من (يافاوية)، فهذه (إن يعجبها العجب ولا الصيام في رجب)..! حياتنا الخشنة لا تلائمها. وأخذن يضربن الأمثال بالذين تزوجوا من (غريبات) عن القرية .

حمدت العلي القدير على أن ذلك كله لم يثن أمي عن عزمها، فلقد ملكت عليها تلك الزيارة لبها. من ثم فقد شرعت تعد لما هو قادم. لا بد من طلاء المنزل أولاً. وما هي إلا أيام قليلة حتى كنا أنا وسعيد وفوزي منهمكين في طلاء الجدران باللون الأزرق، والأبواب والنوافذ باللونين الأصفر والأخضر. رائحة الدهان المنعشة عمت البيت، والرفاق سليمان ومحمد النجار ونعيم يمدون يد العون لساعة أو اثنتين قبل أن ينصرفوا وقد تلوّنت ثيابهم بالدهان المختلف الألوان.

تؤكد والدتي لمن يسألها بأنها لا تنوي إتمام الزواج قبل مضي سنة أو اثنتين، لكنها لا بد لها من الأعداد لذلك منذ الآن، لاسيما وأن الأنساء والأقارب في يافا قد يقومون بزيارة مفاجئة لنا في أي وقت، وعلينا من ثم أن نبدو في أعينهم بالمظهر اللائق .

بدا المنزل مضيئاً مشرقاً، وجميلاً أيضاً كما لم نره من قبل. حتى الحاكورة زرعت ونسقت، والكهف (الكفري) طلي من خارجه بالجير.. آه لو ينشق هذا الكهف عن ذلك الكنز المرصود بداخله..!

أمهات الفتيات اللواتي رشحتهن أمي سابقاً ممتعضات. الحاجة أم سايحة وابنتها الحاجة خضرة تتحINAN الفرصة، لعل أمي توافق، هذه المرة، على بيع الحاكورة، لاسيما وأنها سوف تحتاج الآن إلى المال. خالتي نعمة تسأل أمي عما إذا كان لدى أنسبائها هؤلاء ابنة تناسب ولدها فوزي، ما داموا على الصورة التي تصفها. جدي وخالي رمضان أبديا عدم الرضى لأسباب أسهبا في شرحها، لكن أمي لم تأخذ برأيهما، بل دفعها ذلك إلى مزيد من التثبت بما عزمت عليه. وقفت إلى جانبها زوجة جدي (سني رقية) .

في هذه الأثناء حظي كل من نعيم أبو جلالة ومحمد النجار بوظيفة (معلم وكيل) في مدرسة القرية، براتب شهري جيد قدره خمسة جنيهات.

أيام قليلة انقضت قبل أن نقوم بزيارة أخرى إلى يافا، رافقنا فيها أخي سعيد والحاج مصطفى أبو عون، وخالتي نعمة وزوجها، وخالي رمضان. توجهنا إلى منزل العم أبو محمد الذي قادننا، من ثم والخالة أم محمد إلى دار العم أبو ابراهيم. بعد مفاوضات عسيرة حول المهر والشروط الأخرى التي ينبغي توفرها، تمت الخطوبة وقرئت الفاتحة. مائة جنيه مقدم المهر، ومثلها مؤخر الصداق.. غرفة نوم وكنبات.. وو.. فلم أكن من ناحيتي أعير انتباهاً، في تلك الأثناء، لمداولاتهم. كنت أفكر في فتحة وحدها. كأني غير مصدق أن هذا يحدث حقاً، وأن الأمور تسير بهذا اليسر، على الرغم من تشدد ذويها في حكاية المهر والشروط. وقد أجمعت الأطراف المعنية على أن العروسين ما برحا أصغر من سن الزواج.

وحين سألت أمي، إثر عودتنا إلى القرية :

- كيف لنا أن نتدبر نفقات العرس الذي سوف يكلف الكثير .. ؟

ردت في ثقة :

- الله يدبرنا يا ابني ..

ثم أردفت بعد لحظة صمت :

- مع أن اليافاوية مطالبهم كثيرة. أثاث جديد، وثياب، كسوة، وزينة..

- إذن ماذا نصنع ؟

رمقتني بتلك النظرة التي أعرفها جيداً، تتدفق حناناً وتنم عن أسى من عينيها العسلين الذابلتين، ومسحة الحزن لاتفارق محياها. لكنها مالبتت أن

انفرجت أساريها وهي تقول باسمه :
- ألا تعرف أني وفرت لك مبعاً من أجور عملك يكفينا لنفقات العرس إن شاء الله..؟ وكلها لله يا ولدي .. ومن توكل على الله كفاه .
ولكني عدت أسألها، من قبيل الفضول رغم الاحساس بالارتياح الذي اعتراني :

- وهل عملت أنا بما يكفي لهذا كله ؟
أومأت برأسها أن نعم .
- ولكن لماذا لم نعد إلى تزويج أخي سعيد الأكبر مني؟
أجابت :
- هذه نقودك أنت الذي تعبت في جنيها .
قطع علينا حديثنا دخول أم مريم والحاجة خضرة إلى دارنا فانصرفت
أبحث عن الرفاق لأزف لهم البشري .
في منزل العم أبو إبراهيم أقيم الاحتفال الذي قيل انه سوف يكون بسيطاً،
قاصرا على الأهل والأقارب. ولكن ما حدث لم يكن كذلك. فقد غصّ المنزل
بالنساء اللواتي شرعن، منذ عصر ذلك النهار، يتدفقن تباعاً، اسراباً اسراباً.
رافلات بالحلى والثياب، ذات الألوان البهيجة التي تخطف البصر كلما انحسرت
الملاءة السوداء بفعل الهواء العاصف من ذلك اليوم الخريفي. كما بدت نضارة
الوجوه في أبهى زينة، وذؤابات الشعر هفهافة تحت المناديل الشفيفة التي
يرفعنها إلى أعلى الجبين، فور دخولهن فناء الدار. أصوات الغناء وإيقاعات
الطبل والدفوف ترقص على نغماتها واحدة أو أكثر، تنتاهي إلى مسامعنا (نحن
الرجال) حيث احتوتنا غرفة الضيوف الفسيحة. إحداهن تقلد أسمهان :

(يا للي هواك شاغل بالي
في غرامك أنا ياما قاسيت ..
ضحيت لك حبي الغالي
وفي حبك يوم ماتتهيت ..)
وأخرى تصدح بأغنية ليلي مراد :
(ياما أرق النسيم.. لما يهب عليل..)

وثالثة تردد بصوت أعلى من سابقتها يعلو ويشد معه إيقاع الطبل والدفوف:

(يام العبايا.. حلوه عباتك ..

جمالك آيه.. زينة صفاتك..)

أمي هناك معهن. لاشك أنها مأخوذة الآن بكل ماترى وتسمع. لسوف تبهرها زينة (اليافاويات) وبهرجتين. بل إن ذلك سوف يخيفها أيضا. جراتهن هذه التي لاتعرفها مثيرة حقا. لابد أنها ترهب الموقف، على الرغم من سعادتها. ولاريب أن الخاليتين ظريفة ورشيدة تحيطانها بالرعاية، ولا تقصران أيضا بمرافقات والدتي : خالتي نعمة وبناتها فاطمة وفوزية وندى، وخالتي بديعة، وعدد من بنات جيراننا. هنّ لابد حانقات، كدأب نساء بينا كلما تزوج أحد أبنائها من يافاوية أو شامية أو مصرية..! أعرف هذا مذ كنت أرافق أمي إلى المصاطب أمام الدور في الأمسيات الغابرة .

يقطع عليّ شرودي وتصوراتي أصوات من حولي، أقارب العم أبو ابراهيم والعم أبو محمد، ومن رافقنا من بينا، حيث انهمك هؤلاء في أحاديث شتى لم أتابعها معظم الوقت، إلى أن قال أحدهم :

- هل رأيتم عروض النجادة في (البصّة) اليوم؟

ردّ آخر :

- كان عرضاً جميلاً يرفع الرؤوس. (الهوّاري) قائد النجادة هذا أتى بعمل عظيم .

يعقب على ذلك العم أبو محمد قائلاً :

- إن شاء الله سيكون هؤلاء الشباب جيش فلسطين في المستقبل ..

قال العم أبو ابراهيم :

- الله يكتب لنا مافيه الخير يا جماعة ..

قال يافاوي آخر :

- آمين آمين يا أبو ابراهيم. سمعتم أيضاً.. (يوسف بك هيكل) نجح في انتخابات بلدية يافا.. هذا رجل وطني ومتعلم في أوروبا..!

العم أبو محمد أكثر الحضور استنثاراً بالحديث. أما العم أبو ابراهيم فلا ينفك عن ترديد عبارات الترحيب، التي تكررت هي ذاتها مئات المرات، فيما

هو يوالي تقديم القهوة، يصبها من إبريق (بكرج) نحاسي عتيق، ثم يعيده ليستقر فوق الجمر المتوقد:

.. عقبى الجميع ..

.. يجعل دياركم عامرة وافراحكم دائمة ..

يرد أحدهم

.. عقبال الاستقلال وراحة البال ..

غمغمات تأتي من هنا وهناك.. أو ما يشبه الهتاف أحياناً يطلقه أحدهم معبراً عن مشاركته القلبية، فيما هو يصحح وضع الطربوش على رأسه، أو يشدّ (الشملة) على خصره. أما العم أبو محمد فلا يني عن إخراج ساعة الجيب المعلقة بسلسلة ذهبية من جيب بنطاله الأبيض الفضفاض. يحدق فيها بإمعان قبل أن يعيدها بتؤدة ومهابة إلى مكانها، تتراقص مع حركته حزمة الخيوط السوداء المتدلّية على الجانب الأيمن لطربوشه القاني الحمر .

انخل قلبي رعباً حين احتوت قبضة العم أبو ابراهيم الضخمة يدي النحيلّة. راح يضغط بقوة كأنما يخشى أن تفلت من يده، لكي يردد واحدنا إثر الآخر وراء المأذون، الذي بدا مهيباً بعمامته الناصعة البيضاء، وجبّته السوداء. ذلك بعد أن قرأ آيات من القرآن الكريم. قال الله تعالى { وخلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها.. } صدق الله العظيم : قل يا أبا ابراهيم :

- زوجتك ابنتي فتحية على سنة الله ورسوله بمهر معجّله عشرون جنيهاً ومؤجّله مائة جنيه فلسطيني ..

قل أيها العريس المبارك :

- قبلت منك زواج ابنتك فتحية موكلتك على المهر الذي ذكر وعلى سنة الله ورسوله..

ها هي ذي أمامي.. سمحة المحيا.. تضيء وجهها الصبوح بسمتها الأسرة، تطلّ من عينيها بسوادهما وبريقهما الساحر.. يتراقص ثوبها الأحمر ذي الدوائر البيضاء.. شلالات شعرها الكستنائي اللامع تتماوج على كتفيها .

تنبهت على صمت يطبق، أدركت أنهم ينتظرون أن أقول شيئاً.. نظراتهم تحدق في وجهي، لاسيما الخال رمضان وابن العم محمد، مما زادني ارتباكاً :
يعلن الشيخ المأذون :

.. الفاتحة يا إخوان.. وعلى بركة الله ..

بسط الرجال أكفهم يقرؤون الفاتحة بصوت خفيض، وإن بدت همهماتهم
كدوي خلية نحل. مسحوا براحتهم أكفهم على وجوههم :

.. آمين.. اللهم آمين

.. مبروك.. مبروك للجميع..

وإذ هممنا بالانصراف عقب صلاة المغرب، دعا للجميع الحاج مصطفى
أبو عون بتمام الأفراح على خير، ضارعاً إلى المولى عز وجل بأن يديم علينا
(هدوء الأحوال وراحة البال بعد دحر اليهود ونيل الاستقلال).. !

أيام قليلة انقضت قبل أن نقيم عرسنا في بينا. تجمع الرجال في دارنا،
والنساء في دار الحاجة (أم سايحة)، التي تطوعت من تلقاء نفسها بإعداده لهذه
المناسبة. معلنة أن هذا ما ينبغي أن تفعله لمن كان لها الفضل في إخراجها إلى
هذه الدنيا. وهي اليوم -كما تقول - أسعد خلق الله، إذ تراه فتى يافعا وعريسا
أيضا.. (يا صلاة النبي.. وعين الحسود فيها عود.. ومن خلف ما مات يا اختي
يا عايشة رحمة الله عليك يا أبو سعيد ..) .

رفاقي يملأون الدار حركة وصخباً. يقومون على خدمة المهنئين
والمشاركين. يقدمون الشاي والقهوة، وينثرون السكاكر على الحصر والبسط
الممدودة. سعيد كان بادي الفرح، كذلك كان ابن الخالة فوزي، والخال شعبان .
إحدى غرف الدار تكتظ بأكياس السكر والأرز والقهوة. أما الحاكورة
وحول الكهف (الكفري) فقد تجمع هناك عدد من الخراف تملأ المكان نغاء
وروثاً وحركة..!

تكاثر الرجال والغلمان الذين تقاطروا من شتى أرجاء القرية. قام جمع
منهم عقب العشاء، فعدوا حلقات الدبكة والسامر، على إيقاع الطبل والأرغول.
تم الميجنا والدلعونا، وظريف الطول.. والعتابا ...

وحين انطلق صوت شاب يردد أغنية لأُم كلثوم :

غني لي شوي شوي...

غني لي وخذ عيني ..

انطلق الجميع يرددون وراءه، يصفقون ويرقصون وقد أخذ منهم الحماس

والطرب مأخذه .

يمور المكان بحياة زاخرة. تغطي فناء الدار سحب الدخان، تتصاعد من
المواقد، والسجائر، يختلط معها عطر القرفة وشذى الزنجبيل، تنتشره قدور
الشاي الكبيرة والأقداح، التي يطوف بها عليهم غلمان وشبان من الأقارب
والرفاق. الزغاريد وأصوات النساء يتضاحكن أو يغنين تتناهى إلينا من الدار
المجاورة ... وآه ... يا حبيبتي ... فتحية ... أين أنت الآن.. حبذا لو كنت بيننا
ترين وتسمعين ..

ويمضي السمار في سمرهم، مفعمين بهجة وحبوراً، تحت أضواء
المصابيح التي ترسل نسيشاً خافتاً لا ينقطع. وعند الأفق يطل القمر، سابحاً في
سماء صافية الأديم. يرافقهم حتى مطلع الفجر، ينشر ضياءه صافياً رفاقاً،
كأنما يشاركهم أفراحهم، إلى أن يتفرقوا في طرقات القرية، وخلال حاراتها
وأزقتها الحجرية، منصرفين إلى دورهم، كي يخلدوا إلى الراحة بعد عناء ليلة
عامرة.. عرس أمين على (البنت اليافاوية) .. !

عندما أمسينا وحدنا تذكرت أبي.. أمي أيضاً تصورته ماثلاً بيننا يشاركنا
افراحنا المشوبة بالحزن والأسى.. خيم علينا وجوم صامت قبل أن نمضي إلى
النوم ..

تتراقص ذبالة السراج ... والهواء يرسل فحيحاً بين أغصان الأشجار
المتماوجة في الخارج.

الدّيكَة تبدأ صياحها.. وحي على الصلاح.. حي على الفلاح تحملها الريح
من الأعالي.. وأمضي إلى حيث لا أدري.. بعيداً.. بعيداً..

تتفاقم الأحداث يوماً بعد يوم، وينصرف الناس إلى الاهتمام بما يجري في تلك الهيئة التي أسموها (الأمم المتحدة). لاسيما تلك التوصيات التي قدمتها إليها اللجنة الأخيرة، فما أكثر اللجان والمؤتمرات منذ بداية الانتداب البريطاني على البلاد. لا حديث للناس إلا هذا. أما تقرير هذه اللجنة (انسكوب) ذات الأسم الغريب، فقد وضع الزيت على النار، فزاد المسألة تعقيداً، وأثار لدى أهل فلسطين السخط والغضب. فلقد جاء مجحفاً، بل جائراً عليهم، ولكنه كان ممالئاً ومنحازاً لليهود على نحو سافر. حتى لقد بدا وكأن اليهود أنفسهم هم واضعوه. فبمقتضاه وعلى هديه تصدر هيئة الأمم هذه قرارها، الذي لاسابقة له ولا مثيل في تاريخ الأمم الشعوب، إذ هي تقرر تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ..!

أصيب الناس بالذهول في كل مكان. لم تصدق عقولهم ما يجري. تساءلوا غاضبين مستكرين: ما شأن هذه الهيئة بنا وبلادنا. ومن أعطاها الحق في تقسيم بلادنا ومنحها لليهود الدخلاء...؟ أم تراها قامت (هذه الهيئة) من أجل تثبيت المظالم، وضياح الحقوق، بل ومحو الشعوب والأوطان بجرة قلم، ضاربة عرض الحائط برأي أصحابها ومصائر أهلها...؟ أم لعل هذه الأمم (اتحدت) علينا من أجل سلب أوطاننا الموروثة عن أجدادنا الأولين منذ آلاف السنين...؟ أي جدوى إذن كانت لتلك الحرب الضروس، التي طحنت العالم.. ولم ينج من ويلاتها أحد...؟ وهل انتظر أهل فلسطين، وغيرهم من العرب، سنوات الحرب، بعد أن هادنوا الإنكليز، وأوقفوا ثورتهم بناء على تلك العهود التي قطعها أولئك على أنفسهم لكي يكون هذا جزاؤهم...؟

تساؤلات وتساؤلات نسمعها في المقاهي، وعند أبواب الدكاكين، في مضافات المخاتير وتجمعات الوجهاء في دار الجمل وأبو عون والعتار، على المصاطب وفي الطرقات والبيوت. بعضهم أيضاً رأى أن الأمر على قدر من السخف والتفاهة بحيث لا يستحق عناء التفكير فيه.. (قال تقسيم قال..!)

استجاب الناس لدعوة الهيئة العربية العليا للأضراب العام لثلاثة أيام، في

أرجاء البلاد كافة، احتجاجاً واستنكاراً. تجتمعوا هنا وهناك يتسقطون الأخبار من الراديو والصحف، وسؤال السيارات العابرة، قادمة من يافا إلى قرى الجنوب ومدنه أو قادمة من غزة في طريقها إلى مدن الشمال وقراه. وسرعان ما تجمعت مظاهرة غصت بها الطرقات المفضية إلى ساحة السوق والجميزة. شرعوا يهتفون ضد التقسيم وصانعيه، وينددون بالانكليز واليهود معاً، وأمريكا (رأس الحية)، بل والعالم الضالع المتواطىء على الظلم والباطل ..

تعم الاضطرابات الدموية سائر البلاد. لكنها الآن بين العرب واليهود. (ما العمل الآن أيها الناس؟ ولمن نلجأ بعد أن تواطأ الجميع علينا. الانكليز يطعنونا في الظهر من جديد. كدأبهم على الدوام، فهاهم يعودون سيرتهم الأولى. الأمريكان أيضاً لم يقصروا في إيقاع الأذى بنا. ترومان رئيسهم هذا اليهودي أكثر من اليهود، هاهو ذا يعلن اعتراف بلاده بالتقسيم فور صدوره، ومفاخرًا بأن أمريكا، بنفوذها وسطوتها معاً كانت وراءه. بل مضيفاً بأن دولته سوف تمول هجرة الآلاف المؤلفة من اليهود من شتى أقطار الأرض (للعودة) إلى (دولتهم) الجديدة.. أرض الميعاد..! ولكن أليس ترومان هذا هو الذي أمر بالقاء تلك القنبلة الذرية على اليابان لكي تفني مائة ألف من البشر في لحظات ..؟ هل نلجأ إلى الاتحاد السوفياتي! ولكنه ضالع أيضاً مع الضالعين فيما حدث، وقد كان العرب يحسبونه نصيراً لقضاياهم..! وهو قد سار على منوال الولايات المتحدة فبادر للاعتراف بتقسيم فلسطين، وبدولة لليهود تقوم فيها أسموها (اسرائيل)..!)

في غمرة هذه الثورة التي انتشرت في سائر أرجاء البلاد، رأوا أنه لاسبيل أمامهم سوى حمل السلاح، دفاعاً عن الأرض والنفوس، وحماية للحقوق (أما إخواننا العرب فلا ريب أنهم، والمسلمون أيضاً في كل مكان، سوف يهتفون لنصرتنا، والقتال إلى جانبنا. أجل لن يدعونا وحدنا، فالأرض الفلسطينية المقدسة، والمسجد الأقصى ثالث الحرمين، والبراق، ومهد عيسى بن مريم، ليست للفلسطينيين وحدهم بل هي تراث العرب والمسلمين معاً ..)

وها هي ذي أوليات بشائر الخير. (اللجنة العربية العليا) تنشئ جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي. (الهيئة العربية العليا) أيضاً تشكل قوات (الجهاد المقدس) بقيادة عبد القادر الحسيني. بل إن هناك ما هو أعظم - أيها الناس - أريتم؟ فهذه الجامعة العربية تعلن عن قرار خطير عظيم، هو دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فور جلاء الانكليز عنها في التاريخ الذي حدده لانسحابهم الخامس عشر من أيار من العام القادم. وتسمي الملك عبد الله بن الحسين قائداً

لنتلك الجيوش .

يندلع القتال في كل مكان من فلسطين. تحركات محمومة، وأحداث جسام تتوالى بغزارة الأمطار. صدامات ومعارك مع اليهود في سائر أنحاء البلاد. والانكليز يتظاهرون بالحياد، لكنهم يسارعون إلى إنقاذهم في أي موقع يوشك أن تحقيق بهم فيه الهزيمة. (على أية حال سنرفض أن تكون لهم ذرة واحدة في تراب هذا الوطن. أي تقسيم هذا الذي يتحدثون عنه؟ وأي (أمم وممتدة) هذه التي تريد فرضه علينا؟ أرضنا هذه يقسمونها بيننا وبين الدخلاء؟ كيف؟ هل سمع أحد قبل الآن عن بلاد قسّمت بين أصحابها وأفاقين قدموا إليها من مجاهل الأرض؟

عمد كثير من الناس إلى بيع حلي نسائهم، حين عجزوا عن توفير المال من سبيل آخر، من أجل شراء بنقوية وبخيرة. شرعوا يحفرون الخنادق، ويقيمون المتاريس، ونقاط المراقبة. توزعوا نوبات الحراسة على مدار اليوم. تألفت لجان في القرى والمدن للأشراف على الإعداد والمتابعة والدفاع.

ترد الأنباء تباعاً عن معارك في صفد وسمخ وحيفا، واللطرون وباب الواد واللد والرملة، يافا وبيت دجن، رامات جان وبتاح هاتكفاه، اسدود وعافر والمغار، القدس ورام الله وماحولها. لم يبق مكان لم ينشب فيه قتال. النجيدات النلقائية تهب منطلقاً من هذه القرية إلى شقيقتها المجاورة حين تتعرض لهجوم. يستشهد شبان في الطرق على أيدي عناصر الكمائن اليهودية.. يستشهد آخرون ممن يصلون إلى مواقع القتال. كما أن الهجمات العربية على المستعمرات اليهودية وقوافل التموين العاملة بينها، لا تتوقف. أعداد قتلاهم والجرحى تتصاعد، فيزداد الناس حماساً .

أنباء من جهة ما تبعث على التفاؤل، وأخرى ترد من جبهة غيرها تثير القلق. يتجمع الناس في الطرقات، يتسقطون الأخبار. يبعث بعضهم الحماس في بعضهم الآخر .

في غمرة هذا الفيض الزاخر من الأنباء المتضاربة، والأحداث المفجعة تأتي البشائر بدخول قوات جيش الإنقاذ القادمة من الشقيقة العربية سوريا. فوج منها يتوجه لحماية صفد في الجليل الأعلى. وفوج يتجه نحو نابلس. فوجان بقيادة القاوقجي نفسه يعسكران في جنين. متطوعون من مصر وسوريا ولبنان والعراق والسودان، يتوافدون على مناطق القتال بداعي الجهاد، يتوزعون

المواقع في سائر ربوع فلسطين .

من هذه الشائتر أيضاً أن قوات الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني أوشكت أن ترغم العدو على الاستسلام في القدس .

الأهالي في كافة الأماكن التي وصلتها هذه القوات أو جماعات المتطوعين ينحرون الخراف، ويقيمون الأفراح - هكذا تنقل الأنباء - يستقبلونها بالهتاف والزغاريد. يحلون في قلوبهم فضلاً عن أرضهم (إخوة لنا هؤلاء جاءوا من أجل فلسطيننا جميعاً مخلفين وراءهم أهلهم وذويهم) بل راح الناس يحملون اليهم في مواقعهم الطعام، تحمله النساء على رؤسهن، والمؤمن على ظهور الدواب والسيارات العابرة ينقلها اليهم الرجال. غمر الفرح النفوس واكتست الوجوه بتباشير الأمل بالحفاظ على أرض الوطن .

رفع من معنوياتهم كذلك قدوم أعداد كبيرة من المتطوعين من بلدان إسلامية شتى، غير عربية، معلنين بأنهم لا يبتغون سوى مرضاة ربهم. نيل إحدى الحسينين، بنصرة أشقائهم والدفاع عن الديار المقدسة، أو الشهادة في سبيل الله .

غير أن هذه الأنباء السعيدة لم تدم طويلاً، فلقد حاقت ببعض المناطق انتكاسات غير منتظرة. ووقع الكثير من الضحايا في أماكن عديدة من البلاد، فيما كان الإنكليز يتفرجون أو يدعمون اليهود يمدونهم بالسلاح والعتاد .

نبأ منها قصف الظهور، فوقع عليهم وقع الصاعقة .

ففي الثامن من شهر نيسان أعلن عن استشهاد القائد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل. كان هذا أخطر الأنباء في مواقع القتال حتى الآن، مما كان له أكبر الأثر على المعنويات، في سائر أرجاء البلاد. عمّ الحزن وأعلن الحداد في كل مكان. أحسّ الناس بأنه نذير شؤم، وبداية لاتبشر بالخير لما يمكن وقوعه في قادم الأيام. ولأن ذلك حدث بعد عمليات ناجحة قامت بها قواته في القدس وما حولها، فقد جاءت الصدمة مروعة. إذ سبق لقوات الجهاد المقدس بقيادته أن دمرت مقر الوكالة اليهودية، وشارع هاسوليل وهو من أهم شوارع القدس. كما قامت بعمليات تدميرية وقتالية في داخل الأحياء اليهودية، بعد أن قطعت الطرق على النجيدات المتجهة إليها من عصابات البالماخ والأرجون وشيترن حتى تهاوى القسم اليهودي في المدينة وأوشك على الاستسلام، لولا أن هذه العصابات فتحت جبهات عديدة في القسطل وفي دير ياسين، لفك الحصار

عن القدس. مشاعر الأحباط والأسى هذه تعم البلاد، كسحابة سوداء تجثم فوق الصدور منذرة بشرٍ مستطير. يتخاطفون جريدة الدفاع أو جريدة فلسطين ليقرأوا التفاصيل. يتحلقون في المقاهي جماعات جماعات يتحدثون، ويعقبون، ويدبرون، ومأن يعلن عن نشرة الأخبار حتى يهرعوا إليه. يكفون عما كانوا فيه. يطبق الصمت وتصبح الأسماع.

قبل أن يستعيد الناس شيئاً من الطمأنينة، وردت أنباء مفزعة عن سقوط قرية (دير ياسين) في أيدي العصابات اليهودية. ليس سقوطها وحسب، بل عن مجزرة وقعت فيها على أشنع صورة سمع بها بشر. لم يصدقوا أول الأمر، لكن الأذاعات من مصر والقدس والشرق الأدنى مضت في وصف ما حدث، بتفاصيله الرهيبة على نحو مفزع، وغير مسبوق في مراحل الصراع كلها. كذلك صحف الدفاع وفلسطين تتحدث عن المجزرة، وقد صدرت مكالمة بالسواد وبعناوين مثيرة ومخيفة. أثار ذلك موجة من الهلع مصحوبة بضرام من الغضب والثورة على الجناة .

(.. دير ياسين.. ذبح اليهود أهلها.. النساء قبل الرجال.. الأطفال قبل الشيوخ.. نسفوا البيوت فوق أصحابها.. بقروا بطون الحوامل.. ذبحوا الأجنة والأطفال في حجور أمهاتهم.. ألقوا بالجرحى أحياء في آبار القرية.. عرضوا النساء عرايا في الطرقات قبل أن يجهزوا عليهن.. ربطوا الشبان بمصفحاتهم يجرّونهم على الأرض جرّاً حتى تتحطم أجسادهم ويلقوا نحبيهم.. ثلاثمائة أو أربعمائة أفنوا عن بكرة أبيهم، بعد أن نكلوا بهم تكتيلاً يعزّ على الوصف، ويفوق احتمال البشر.. .

عززت حادثة دير ياسين، وقبلها استشهاد الحسيني، الأحساس بأن الأخطار التي لم تكن سوى تكهنات واحتمالات واهية حتى أمس القريب أمست اليوم حقيقة واقعة، لامفر من الإقرار بها. من ثم شرعوا في البحث عن الوسائل الكفيلة بحمايتهم من مثل هذا الغدر، فقد أمسى الأمر جدّاً لا هوادة فيه. أخذوا يعملون للحصول على السلاح بأي وسيلة. كذلك تعزيز الحماية والحراسة لقراهم، بحفر الخنادق حولها، وحراسة مداخلها ومشارفها ليلاً ونهاراً، آملي أن تتحقق لهم القدرة على الصمود إلى أن يحين موعد دخول الجيوش العربية الموعودة في الوقت المحدد .

لكن المقاتلين انتقموا لدير ياسين بكمان نصبوها لقوافل التموين في باب

الواد وأماكن أخرى. وفي الهجوم على المستعمرات اليهودية في منطقة القدس وحول يافا وتل أبيب. كادوا أن يسيطروا على الموقف في أماكن كثيرة من البلاد. ولكن الانكليز كانوا يهتفون لنجدة اليهود، والتصدي للهجمات العربية عليهم، كلما أوشك هؤلاء تحقيق نصر حاسم أو النجاح في احتلال مستعمرة .

تتألت بعد ذلك الأنباء السيئة. فهذه مدينة طبريا تسقط بعد دير ياسين. يقتل خلق كثير من أهلها، ويشرد الباقون، فيهيمنون على وجوههم في الأودية والبراري، باحثين عن ملاذ يؤويهم يأمنون فيه على أطفالهم وأعراضهم، نقادياً لأن يصيبهم ما أصاب أهل دير ياسين. ثم تتلوها حيفا عروس شمال فلسطين. تصف الأنباء ما حدث في حيفا. غصّ البحر بالقوارب المحمّلة بالراجلين. قصف مدافع (الهاون) و(المورتر) والرشاشات (البرن جن) و (الستن جن) يقصف فوق الرؤوس، تصيب من تصيب وينجو من ينجو. قوارب تغرق في لجة البحر وتنتشر الجثث فوق الأمواج التي باتت حمراء قانية. القوارب الناجية تتجه شمالاً إلى السواحل اللبنانية ..

يتساءل المتسائلون في كل مكان : (من أين جاء اليهود بكل هذه الأسلحة..؟) بل كيف وانتهم الجراءة دون أن يخشوا عواقب إجرامهم، وهم المعروفون بجنبهم، يخشون المواجهة يرهبون الموت ويحرصون على الحياة ..؟ ألم نقل أن الانكليز كانوا على الدوام وراء المصائب التي تحيق بنا على الدوام..؟)

في الأمسيات تنتشر دوريات للحراسة حول القرية. والناس يسهرون في قلق وتوجس أثناء الليل وأطراف النهار. أمي وجاراتها في دار إحداهن. الرجال يتجمعون من داخل الدور وخارجها يتناقشون ما يصل إلى أسماعهم. ويتبادلون الخوف حياءً والثورة على ما يجري حيناً. يسهر لدينا الخالان رمضان وشعبان مع العم أبو صفية. أمي تقدم لنا الشاي تلو الشاي تلو القهوة، فيما هي لا تكف عن التضرع الى الله العليّ القدير بأن يحمي البلاد والعباد من غدر الانكليز واليهود الغادرين الأوغاد...!

هذا الذي يجري لم يكن في الحسبان قط. حتى الذين توقعوا أسوأ ما يمكن أن يحدث، لم يبلغ بهم الشُّطط أن يتصوروا أموراً تقع كالتى وقعت فعلاً. استغل اليهود نتائج جرائمهم المروعة فعمدوا للترويج لها، كي ينشروا مزيداً من الهلع والذعر في صفوف الشعب الفلسطيني. ومن ثم دفعه إلى الهجرة والنزوح عن البلاد. القتل والتمثيل بالضحايا كانت وسيلتهم لحمل الناس على الرحيل عن ديارهم .

أخذ أهالي القرى الصغيرة يرحلون بالفعل، ملتجئين إلى القرى الأكبر المجاورة لهم مثل قريتنا، يلتمسون الأمن فيها، حيث القدرة على الدفاع أكبر بتجمع القوى وتكاثر العدد، عتادا وبشراً .

قدمت إلى يينا جموع من قرى زرنوقة والقببية والمغار. قوافل الراحلين أرتالا أرتالا على الطرقات، تنثر الغبار حتى يكاد يحجب المرئيات. على ظهور الدواب وفوق السيارات المتعبة يأتون من كل صوب. تكتسي وجوههم بمعالم الحزن والألم والدهشة معاً. كأنهم في حلم، غير مصدقين ما حل بهم. غصت القرية بالناس. ازدحمت طرقاتها بمشاهد الضنك والبؤس والرحيل، والوجوه الحزينة الواجمة. تقاسم أهلها بيوتهم وعيشتهم مع الوافدين. حتى أن بعضهم ذكر البعض الآخر بقصة المهاجرين والأنصار في صدر الأسلام .

أمام دكان أبو العبد الرملاوي تجمع جمهور غفير في ظل السدرة العتيقة. راحوا يستمعون الى حكاية قريبه الراحل عن مدينة الرملة مع أسرته إثر احتلالها وشقيقتها اللد منذ فترة وجيزة .

خيم الصمت على الرؤوس. ألجم الفزع ألسنتهم، ولاح القلق في عيونهم. كادوا ألا يصدقوا ما يسمعون. أجل فلربما كان الرجل مبالغاً في روايته. بل لعله يبرر هجرته ومن معه إليهم عوضاً عن بقائهم في ديارهم حتى النهاية. بيد أنه مضى يروي ما شهدته عيناه من الفظائع والويلات التي حاقت بأهالي المدينتين. يصمت بين الفينة والأخرى ليبلغ ريقه، ويمسح عرقه أو يتناول جرعة ماء من

إبريق الفخار القرميدي الذي يقدمه له أبو العبد الرمالوي. ولكنه سرعان ما يأتني على محتوياته :

(.. صدقوني يا إخواني

(.. عندما دخلت الدبابات رافعة فوقها الأعلام العربية، وعلى هامات الجنود خوذة الجيش العربي الأردني، ذات الحربة المعدنية تبدو في أعلاها.. أنتم تعرفونها.. والحطاط والعقال على رؤوس جنود آخرين.. وحتى شارات الصدور والأكتاف.. نعم إنه الجيش الأردني يا شباب جاء لنصرتنا.. هرع الناس إلى الساحات العامة، لأسما وسط المدينة، مهللين مكبرين.. مصفقين وهاتفين بحياة الجيش العربي، وسقوط بلفور وبن غوريون.. ووايزمن. وفيما الناس كذلك، في هرجهم ومرجهم وذروة حماسهم وبهجتهم، بغتة عصفت الرشاشات والبنادق، تحصد الجموع المحتشدة حصداً. تساقط العشرات والمئات في لحظات. ولّى الآخرون الأدبار في كل اتجاه، يدوسون فوق الجثث والجرحى، بل فوق الأحياء.. كان يوماً مشهوداً أيها الأخوة.. لم يكن أولئك سوى اليهود استطاعوا خداعنا فكان الثمن فادحاً .

صمت قليلاً، ثم أضاف:

(لم نلبث أن سمعنا أصوات المكبرات تطلب إلى أهل المدينة مغادرتها من ناحية الشرق تحديداً، خلال ساعات حذوها، متوعدين ومنذرين من يتوانى أو يتخلف، كائناً ما كانت الأسباب بأسوأ مصير. ولم ينسوا توجيه النصيحة بعدم حمل متاع، قل أو كثر ..!)

وعلى الرغم من مبادرة الناس للاستجابة لتعليماتهم، وإلى حمل أنفسهم ونسائهم وأطفالهم على الرحيل الفوري، طفق الرصاص يعصف في كل مكان في جنبات المدينة وبين بيوتها. حتى أن من تخلف بسبب مرض أو عجز حصده برشاشاتهم، بلا هوادة. يصمت الرجل لالتقاط أنفاسه. يسمح عرقه .. يتجرع مزيداً من الماء.. والجمع من حوله صامت، الى أن يستأنف روايته المروعة :

(آه يا إخواني.. لا أراكم الله مارأينا.. ولا أصابكم ما أصابنا.. اللهم امحق اليهود وأنصار اليهود يارب العالمين ..

عند أطراف المدينة. وقف جنودهم هناك، يفتشون الراحلين، رغم أنهم لا يحملون معهم شيئاً. ينقضون عليهم ضرباً بأعقاب البنادق والهرات. يحثونهم

على الاسراع في الرحيل.. كأن مدينتهم هذه لا تحتمل بقاءهم فيها ساعة أخرى. ينتزعون من الرجل ساعتَه، ومن المرأة حليها، حتى لو كانت مجرد خاتم خطوبة أو زواج. لا يدعون لأحد شيئاً. ورصاصة في الرأس أو الصدر أو حيثما اتفق لأي بادرة تندُّ عن أحدهم احتجاجاً أو تذمراً. حتى التنهيدة أو النظرة الغاضبة، يا أخواني، كلفت صاحبها حياته ..!

(انطلق الناس في الفلاة بين سفوح الجبال الوعرة، وجنابت الأودية السحيقة. بعضهم قضى نحيه عطشاً، وبعض إعياء وألماً وغيظاً. نساء أجهضن، وأخريات قتلن النزيف. أو جاءهن المخاض فلم يجدن المعونة وقضين نحبهن ومن أنجبن.

(هل تصدقون أن بين الناس من لجأ الى امتصاص الطين إذا رآه رطباً، أو قشور البطيخ الملقاة على قارعة الطريق، كيما يبقى على حياته دون الموت عطشاً ...

انصرف الناس أخيراً، واحداً إثر الآخر، عندما أو شك الرجل على السقوط إعياء .

قصص وحكايا تروى في كل مكان في القرية على السنة القادمين والمقيمين. وهم لا ينفكون يتساءلون : لماذا لا تدخل هذه الجيوش العربية الآن..؟ وماذا هي تنتظر بربكم ..؟ إلى أن يقضى علينا جميعاً أم ماذا؟ ألا يسمعون في البلاد العربية والاسلامية عما حل بأهلهم وأخوتهم، في الديار المقدسة..؟ وما الذي يمكن أن يحل بهم في انتظار حلول موعد دخولهم.. الخامس عشر من آيار ..؟ أهو مقدس هذا الموعد فلا يستطيعون استباقه رغم أن الانكليز راحلون..؟

قيل إن امرأة غادرت الرملة تحمل وليدها على صدرها.. خطفته من فوق سريره عندما سقطت قنبلة في باحة دارها واشعلت النيران في أرجائها. وبعد أن خلفت المدينة وراءها وأصبحت بعيدة في العراء، تبين لها أنها تحتضن وسادة..! ظل الطفل هناك ..! فقدت على الفور المرأة عقلها.. وهي تجوب الآن شوارع رام الله محتضنه وسادة إلى صدرها.. تهدهدها وتناغيها ..!

انطلق صوت من محطة إذاعة القدس، محذراً الأمة العربية بأنها أمام أندلس ثانية :

(أيها العرب مسيحيون ومسلمون. أيها المسلمون في كل مكان. لقد تفاقم الخطر على إخوانكم في فلسطين. وباتت مقدساتكم فيها مهددة على أيدي اليهود، أعداء الله والانسانية إن أنتم لم تبادروا إلى إنقاذها ...

(أيها العرب.. أيها المسلمون، إذا كنتم مؤمنين بوحدة أمتكم، ووحدة المصير المشترك، فإننا نعلنها صرخة مدوية من هنا، من أرض الرسل والأنبياء، من مهد عيسى عليه السلام، ورحاب الأقصى الذي بارك الله حوله، أرض فلسطين المقدسة، نعلنها صادقين مخلصين فنقول لكم أننا الآن على مفترق طرق فإما النفير إلى الجهاد وإما أندلس ثانية تنتظركم ..). تحدث إليكم أديب العامري مدير محطة الاذاعة هنا في القدس .

انفض المتجهرون من حول المذيع، في المقاهي والدكاكين، في حال لا توصف، هي مزيج من القنوط والحزن والغضب. بعض يضرب كفا بكف، منذراً (بالدمار وخراب الديار).. وبعض يتحوّل مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم بعض يهتف غاضباً معلناً أن الموت أهون من الهزيمة على أيدي اليهود، وأن (أندلس ثانية) في بلادنا لن تكون حتى لو فنيّا عن بكرة أبينا. أو لم تقرأوا قوله تعالى عن اليهود بأنهم { باعوا بغضب من الله.. } وقوله بأنهم : {ضربت عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة ..} فكيف يتفق النقيضان..؟ يعلن آخر (ماجدوى أن نبقى على قيد الحياة بعد ذلك ؟)

أما الخال أبو داوود فيحرك مؤشر الراديو إلى محطة الشرق الأدنى، وهو يردد لتهدئة روع من في مقهاه :

اسمعوا يا شباب لن يستطيع اليهود أن يحققوا شيئاً من هذا. بل من هم هؤلاء اليهود أولاد الميتة لكي يخرجونا من ديارنا ..؟ هل تصدقون هذه الخرافة..؟

المخاتير والوجهاء في مضافاتهم وتجمعاتهم في ذلك المساء، يعملون على تهدئة الخواطر، وبث الطمأنينة في النفوس المضطربة، مبشرين بدخول الجيوش العربية وشيكا (لإنقاذ البلاد والعباد...!). ولكن الشباب من الحضور يتساءلون في غضب عما إذا كان عليهم أن ينتظروا حتى تسقط البلاد، وتنتهك الأعراض، وتُداس الكرامات كما حدث في دير ياسين، وحيفا، والد ورملة قبل أن يحل هذا الموعد الرسمي المتمسم بالبرودة وعدم الاكتراث.. (إذا لم يتحركوا الآن فمتى يتحركون إذن..؟)

تواصل القرى الصغيرة رحيلها، بعض يأتي خالي الوفاض ليقينه بالعودة في غضون أيام قليلة، فور دخول الجيوش العربية، وبعض تحمله الدواب من حمير وبغال وجمال وعربات تجرّها الدواب. بل إن منهم من جاء بقطيع أغنامه. أناس يحضّون على الرحيل عن بيئنا أيضاً.. وآخرون يتصدّون لهم، يخوّنون من يفكر فيه ويدعو له. بل إن هؤلاء يتهمون من يظنون أن ينتصر اليهود، وتقوم لهم دولة في فلسطين، حتى على تلك الرقعة التي خصّهم بها مشروع التقسيم، هؤلاء يتهمون أولئك بسوء التقدير، وسفه الرأي، إن لم يكن الجنون المطلق..! زاد الطين بلة أن قريتهم (بينا) ذاتها تقع ضمن دولة اليهود المقترحة، حسب الخريطة التي نشرتها الأمم إياها. أي أن (بيناهم) لن تكون لهم عندئذ..!

(.. دورنا هذه.. كرومنا.. بياراتنا.. هذا البريقال لمن..؟ ثماره.. أزهاره.. بحرنا برماله الذهبية وأمواجه الصاخبة.. هذه الطرقات لن نمشي فيها إذا ماتحقق لهم ذلك.. أيمشي فيها الغرباء القادمون من بولونيا وبريطانيا وبلاد واق الواق..؟ وهذه المصاطب التي شهدت أمسياتنا وليالينا المقمرة تغدو مهجورة فقراء.. لن تمر الصبايا حواملات الجرار عصر كل يوم من أيامنا القادمة.. لمن يقرع جرس المدرسة غداً..؟ حتى المقبرة والمقام حيث يثوي آباؤنا.. أنتركهم وحدهم هنا.. وأي وحشة سوف يعانون..؟ هل نخون تراثهم ورفاتهم والتراب الذي يؤويهم..؟..)

أمي تتلمس الجدران والحزن يغشى محياها.. تتشمم رائحة الأبواب والفراش والطبيلة العتيقة.. تهمس محدثة نفسها.. رفضت بيع الحاكورة للحاجة خضرة طول الزمن، حفاظاً على عهدك يا أبا سعيد.. والآن نرحل عنها.. بل عن الدار.. بل عن البلد.. لا لا.. نموت هنا أحسن يا أولاد..!

نلتفت إليها أنا وإخوتي الواجمين جميعاً، فإذا الدموع تترقرق في مآقيها..
والشحوب الحزين يكسو وجهها.. مع ارتعاشة شفثيها.. ثم تتخرط في بكاء
صامت..

أياً كان الأمر فلقد بات هذا شأن الناس جميعاً، فأمسى الخوف سيد الموقف.
وغدت مشاعر القلق والحيرة عذاباً يومياً يقض المضاجع ويأخذ بالألباب .

كان محمد الشريف من بين أولئك الذين يحضنون على الرحيل ويحماس
واضح أيضاً، بدعوى الحفاظ على الأرواح والأعراض (فاليهود، كما ترون،
لايرحمون). الوجهاء والأثرياء، كآل الجمل والقطار وأبو سالم، ومع هؤلاء
محمد يوسف، يقولون نخرج اليوم ثم نعود غداً في ركاب الجيوش العربية
الزاحفة!! فلماذا نمكث ها هنا الأيام القليلة الباقية، معرضين أنفسنا لضروب
شتى من المخاطر، مادام هؤلاء قادمون في النهاية ؟..

(اللجنة الوطنية) للدفاع عن القرية، تقرر الصمود وعدم السماح لأحد
بالمغادرة. على الجميع أن يشارك في الدفاع عنها حتى النهاية. وإذا هم يبحثون
عن مصادر للسلاح، في كل مكان، يأتيهم محمد الشريف، بعد غياب يومين
اثنين بصناديق من الذخيرة للبنادق الانكليزية، زعم أنه حصل عليها من سيارة
للجيش البريطاني بثمان زهيد. يفرحون بها، إذ تدخل إلى قلوبهم الوجلة شيئاً من
الشعور بالثقة والأمن. وفي أول معركة تقع على أطراف بيضاء، بعد أن احتل
اليهود (زرنوقة) في الشرق و (القيبية) في الشمال، تبين أن تلك الذخيرة لا
تنتقل من البنادق، وإن فعلت فهي تفجر البندقية وتصيب حاملها. ولولا أن في
حوزتهم كميات من أنواع أخرى من الذخيرة للبنادق العثمانية والفرنسية
والألمانية لسقطت القرية في تلك الليلة .

أصيب عدد من المدافعين. من بينهم اسماعيل العطار. رصاصة اخترقت
كتفه الأيمن أصيب كذلك حسين أبو موافي وممدوح الجمل وحامد عوض الله.
ليس في القرية طبيب الآن، فقد سبق أن غادرها (الخواجه اسحاق) قبل بدء
الأحداث (لأبد أنه كان على علم مسبق بما يبيتون)، والطرق إلى الشمال
مقطوعة. من ثم كان على صبري الحكيم والممرض اليافاوي فيصل أن يقوموا
بعمل الطبيب فيستخرجوا الرصاص ويضمّدوا الجراح.

بينما هي المستهدفة الآن بعد أن غصّت بهذا الخلق الكثير، وبقيت وحدها
صامدة. فكروا في أمور كثيرة، من بينها أمر الذخيرة الفاسدة، التي لم يتنبهوا

إلى مصدرها في البداية، إلى أن جاء عبد الكريم الهندي، عصر ذلك اليوم، إلى حيث تجتمع اللجنة الوطنية، ليصيح في القوم :

- لماذا لا تسألون محمد الشريف عن هذه الذخيرة ؟..

نظر القوم بعضهم إلى بعض، وكأنهم نسوا أمراً من البداة بمكان، نعم لماذا لا يسألون الرجل الذي جاءهم بها ؟

اتجهت مجموعة من الرجال لاستدعاء محمد الشريف، كي يمثل أمام اللجنة لتقديم تفسير لما حدث. لكنهم فوجئوا بأن وجدوه قد رحل عن القرية سراً، مصطحباً ربيبته (وداد)، ابنة زوجته المتوفاة (حفيظة)، تاركاً لهم في دكانه رسالة تميط اللثام عن سرّه الدفين كله. يقول فيها :

(.. يا أهالي بينا الأعزاء. عشت بينكم زمناً. زعمت لكم أنني مسيحي من الناصرة، وأني اعتنقت الاسلام ولجأت إلى بلدكم، أنشد الاستقرار بينكم. رحبتم بي، واطمأننتم إليّ. أعترف بأني خدعتكم. أعتذر لكم عن ذلك. ولكن للضرورة أحكام، كما تقولون أنتم. وقد كلفت بالمهمة في قربتكم، بعد أن تعذر إيجاد موقع للماسونية عندكم، أو أعضاء يوظفون بها للقيام بالمهام المطلوبة. اسمي، أيها الأعزاء عليّ قلبي، شلومو مزاراحي. من ريشون. أما لماذا ادّعت المسيحية معتقداً سابقاً لي، فلكي تنقوا بي أكثر مما لو عرفتم أنني يهودي اعتنق الإسلام. كنتم في تلك الحالة ستأخذون جانب الحذر والحيطه، ولن تطمئنوا إليّ تماماً. نعم نعم استطعت أن أخدعكم كل الوقت. ولكن كاد أن يكشفني، ذات مرة ذلك الهندي اللحام. ولكنكم ضربتم عرض الحائط بشكوكه. كان هذا لحسن حظي وسوء حظكم. على أية حال لا يسعني إلا أن أشيد بحسن معاملتكم لي، وعطفكم عليّ، في الصورة التي كنت أمامكم فيها. أسدي لكم، أخيراً نصيحتي المخلصة، رداً لبعض جميلكم، هي عدم المقاومة لأن (العين لاتقاوم المخرز)، كما تقولون في واحد من أمثالكم أيضاً. ولأن الانكليز والأمريكان وغير هؤلاء، معنا ضدكم. فليس وراكم غير عرب لن يستطيعوا أن يصنعوا لكم شيئاً أكثر من الوعود والبيانات. أما أنتم.. المهم أنني أنصحكم بمغادرة (بينانا) العزيزة وستجدون بلاداً عربية واسعة جداً في انتظاركم.. تؤويكم عندما تلجأون إليها !..

ملحوظة : لا أنزع سراً الآن إذ أقول لكم أن الخواجة اسحاق الطبيب كان يقوم بدور مماثل، وإن يكن على نحو آخر ينسجم مع مهنته. فعندنا لا يدعون

فرداً دون أن يوظفوه في الشأن اليهودي العام سرّاً، وراء مهنته الخاصة التي
يُعرف بها في الظاهر والعلن..!!)

المخلص لكم

شلومو بن مزراحي



كان وقع الحادث، كما الرسالة، على أهل القرية كوقع الصاعقة. انتشر الخبر في ساعات بينهم جميعاً. اعتراهم الذهول بادية الأمر. ثم مالبتوا أن شرعوا في لوم أنفسهم. كيف لم يكتشفوا الرجل قبل أن يكشف لهم هو عن نفسه؟ بل كيف استطاع أن ينجح في خداعهم طوال هذا الزمن؟

مضوا يتذكرون تصرفاته، والمؤشرات التي كان يمكنهم، لو تنبهوا لها في حينها، وأولوها حقها من العناية، لبيّنت لهم حقيقة منذ حين. تذكروا رواية عبد الكريم الهندي عنه، حينما شاهده في شارع المنشية بيافا. كما تذكروا غيابه المنكر عن القرية من وقت لآخر. لكي يعود في كل مرة، وفي جعبته، أو في أعقابه شاحنة محملة بالبضائع. لم يتساءلوا، مرة واحدة، عن مصدرها، أو كيفية تمويلها. وزوجته حفيظة، وموتها الغامض بغير مقدمات، وهي التي كانت موفورة الصحة والعافية على الدوام. بل هم أوشكوا، في غمرة التفكير بهذا كله، أن ينسوا جريمته الجديدة النكراء نحو ربيته وداد التي اصطحبها معه. فهي محرمة عليه من أكثر من ناحية. أهمها يهوديته. ولكنه وقد تجاوز الحدود والمحرمات كافة، فما الذي سوف يردعه عن اقتراف هذه الجريمة أيضاً..؟

هؤلاء اليهود الذين ابتلينا بهم، من دون خلق الله جميعاً على ظهر البسيطة، واختصنا الله تحديداً لتكون بلادنا موضع أطماعهم ومحط أنظارهم.. هؤلاء الذين لا يقيمون وزناً لحق أو خلق، مذ وجدوا..! لا ريب أن الله سبحانه حكمه في ذلك. كان هذا الرأي الأخير للشيخ علي العطار .

بيد أن الرجل لم يعدم من يعجب به بين أولئك الناقمين عليه. كان مبعث إعجابهم الخفي، هو كيف يرضى إنسان ما، الانسلاخ عن قومه ومجتمعه وبيئته، ليعيش رداً من الزمن في وسط غريب عنه تماماً. عاملاً على التكيف مع الظروف الصعبة المحيطة به، مضحياً بالسنين الطويلة من عمره التي قد تمتد عقوداً، من أجل المصلحة العامة لشعبه وقضيته، على الرغم من أنها قضية باطلة، وأن شعبه معتد أثيم، مختصب لحقوق الآخرين، هذا فضلاً عن قدرته

الخارقة على التخفي والتتكر كل هذا الوقت .لكنه كان إعجاباً مشوباً بالمقت والاستهجان.

كان نصيبي، في تلك الليلة، السهر للحراسة على (الطابية) المقامة على خط السكة الحديدية، في منتصف المسافة بين شمالي بينا والمحطة، فوق الجسر المقام على أحد الأودية التي تتشكل واحداً من روافد نهر روبين. لم تكن هذه سوى واحدة من عشرات مثلها على طول الخط الحديدي، من أقصى شمال البلاد، إلى جنوبها. كان هذا خط دفاع الانكليز عن الطرق والسكك الحديدية، تحسباً لغزو الألمان للبلاد إبان الحرب، على غرار خط (ماجينو) بين فرنسا وألمانيا، وقد أسماه الانكليز خط (ايدن).

قررت اللجنة الوطنية أن تشمل الدوريات ونقاط الحراسة الشبان فوق سن السادسة عشرة. كنا ثلاثة : محمد يوسف النجار، وأنا، وعبد القادر موافي الذي يناهز الأربعين، وهو بمثابة القائد لنا. تسلمت بندقية انكليزية. أفرحتني كثيراً أنها جديدة، ليست كتلك العثمانية الصدئة التي تدربت عليها، في الأيام الأخيرة، مع الرفاق بإشراف كامل ديسان المتطوع سابقاً مع الانكليز .

في الساعات الأخيرة من الليل. عصفت الرشاشات فجأة، في أكثر من اتجاه. أيقنا أن هجوماً يقوم به اليهود الليلة من أجل احتلال بينا، هذه المرة. ننظر بين الكوى الضيقة في جدران الطابية، في كل اتجاه، نترقب قدومهم من إحدى ضفتي الوادي .يشد إطلاق النار من البنادق والرشاشات بغزارة لم نعرفها من قبل، إلا في تلك الأيام التي كان الانكليز يطوقون فيها القرية أيام الثورة. وحين لمحنا أشباحاً في الظلمة، أو هكذا تراءى لنا، شرعنا نحن في إطلاق نيران بنادقنا في اتجاهها. ثم لم تلبث أن خفت حدة إطلاق الرصاص، إلى أن خفتت أخيراً ثم تلاشت، وأطبق صمت يسوده الترقب والخوف. نفتح عيوننا على سعتها.. نحدق في الظلام، ولكننا لا نرى شيئاً فقد اختفت الأشباح .

في الصباح الباكر، خرج الناس متلهفين، يستطلعون ماجرى في الليلة الفائتة. لم يطل بهم الوقت قبل أن يعرفوا أن ثلاثة قد استشهدوا من بين الرجال الذين تصدّوا للقوة التي حاولت التسلل إلى القرية من ناحية الجنوب. صديقنا (أحمد المصري) كان واحداً منهم. كان الآخران (يوسف أبو لبده) و(عوني الجمال). كما أصيب آخرون بجراح، من بينهم الخال رمضان .رباه.. أحمد المصري بالذات..؟ أحمد المصري أيضاً..؟

لم يخفف من وقع النبأ المفجع مقتل سبعة من اليهود، رأوهم رأي العين وهم يسحبون جثثهم بالحبال، عدا جثة واحد منهم جيء بها إلى القرية. تجمهر الناس ينظرون إليها حيث وضعت في الساحة قرب الجميزة .

أحمد المصري ..؟ يا صديقنا الحبيب.. هل كنت تحسب أنك سوف تموت هنا في هذه الديار، في ريعان شبابك، بعيداً عن أهلك وذويك ..؟ نحن أهلك وذووك أيضاً يا أحمد، ولسوف تحتضنك أرضنا التي استشهدت دفاعاً عنها.. وسقيتها بدمك الطاهر . يحنو عليك تواها، كما على أبي وشهدائها الآخرين.

حزن الناس من أجل أحمد، مكبرين شجاعته وتضحيته. كحزنهم على الشهيدين الآخرين. ووري ثلاثتهم التراب عند العصر في صمت حزين مهيب. وقد شارك أهل القرية جميعاً في تشييعهم .

المكتبة مقفلة.. بدت حزينة هي الأخرى.. التقينا جميعاً أمامها، رفاقه ورواد المكتبة. تراءى لنا أحمد يقف عند بابها، يرنو إلينا وعلى شفثيه تلك الالبتسامه الوديعه التي نعرف. هذا قدرك يا أحمد.. من معسكر عاقر.. إلى حيرتك بين العودة لمصر والبقاء في بينا. واخترتها دون غيرها من بلاد الله ليكون بها مثواك .

الجمع مغرق في الصمت.. الوجوه متجهمة وحزينة.. العيون دامعة.. يتبدى فيها القلق وتغشاها الحيرة.. الغضب.. والألم.. الحنق والثورة .

نمضي بصحبة أمي إلى منزل جدي حسين، لكي نعود خالي رمضان. كانت هناك خالتي نعمة وزوجها الهندي وبناتها وفوزي. استقبلنا الأخوال جميعاً والجددة رقية والخالة بديعة. رغم تأثرهم لما أصابهم بدا عليهم الارتياح لنجاته.. الخال رمضان على فراشه، وقد علا وجهه الشحوب. حدثنا عن المعركة التي خاضها بالأمس عند المشارف الجنوبية للقرية. حيث جاءوا من قرية (بشيت) التي احتلوها منذ أيام .وعلى الرغم من جراحه يتحدث في حماسة واستبشار :

(أوقعنا بهم العديد من القتلى.. ودمرنا لهم ثلاث مصفحات، وغنمنا واحدة أحضرها الشباب إلى البلدة. جبناء هؤلاء اليهود ...

(والله لو كان معنا مثل سلاحهم لما أبقينا على أحد منهم .

(ولو أنهم لا يهتمون بالمصفحات التي وهبهم إياها الانكليز لما استطاعوا مواجهتنا في أي مكان. ولو أنهم يقاتلوننا مواجهة، حتى بسلاحنا البسيط لكان لنا معهم شأن آخر لكنهم لا يقاتلون إلا من وراء جدر.. مباني أو مصفحات...!.

رفيقك أحمد المصري.. رحمة الله عليه. كان إلى جانبي.. يطلق الرصاص..
يقفز من وراء هذه الشجرة.. إلى تلك التي تليها، من هذا المكان في الخندق..
إلى مكان آخر.. غير آبه بعصف (الهشكوس). وعندما رآهم يفرّون.. آه يا ابن
اختي. تهوّر أحمد عندئذ، أقول لك الحق.. قفز إلى خارج الخندق، يعدو مكشوفاً
في أثرهم، غير آبه لصيحات تحذيرنا له ..

.. يا أحمد.. يا أحمد.. عد يا أحمد ..

لكنه يصيح وهو يواصل إطلاق الرصاص .

.. الله أكبر.. الله أكبر.. وراكم يا أولاد الميتة.. يامفترين..! وبغثة..
رأيناه يتدحرج أرضاً على السفح.. آه يا أحمد.. أيضاً ابن ابو لبده وابن
الجمال.. سقطا أيضاً وهما يلاحقان اليهود عند فرارهم ..

قال جدي في تأثر :

.. هنيئاً لهم يابني.. هم شهداء أحياء عند ربهم يرزقون يحشرون مع
الصديقين يوم القيامة .

ثم يرفع يديه ضارعاً إلى السماء :

.. اللهم اكتب لنا الشهادة مثلهم ..

واست أمي والدها في مصاب أخيها. داعية له بالشفاء كذلك فعل سعيد. بل
محمود وعلياء أيضاً بكلمات خجولة. احتصن جدي علياء، قبلها في وجنتيها
وهو يقول :

- صرت عروسة يا علياء.. ماشاء الله ماشاء الله، وأنت يا أحمد في أي
صف أنت اليوم يا جدي..؟

ثم وهو ينظر إليّ وإلى سعيد :

- دبروا بالكم على أمكم يا أولاد.. الأيام القادمة صعبة، والله يستر ..

وحين أخبرته مباهاياً، بأننا أنا وسعيد شاركنا في معركة الليلة الماضية
..سرّه ذلك، ودعا لنا بالتوفيق والسلامة. ثم مضى يحدثنا عن أيامه في الجندية،
مع الأتراك في (السفر برلك)، فيما هو لا يفتأ ينقل عصاه من الجانب الأيمن إلى
الجانب الأيسر تباعاً لساقه الممدودة على الدوام، والتي بقيت شاهداً على ما
أصابه في تلك الحرب. ثم ترحم على تلك الأيام على الرغم من قسوتها، فهي
على كل حال خير مما وصلنا إليه على أيدي الإنكليز واليهود، وعصبة الأمم

التي جاءتنا بالانكيز واليهود وهيئة الأمم التي مكنت لهم في أرضنا. تفرّست في وجه جدي. لقد كبر كثيراً. لم تبق شعرة واحدة سوداء، على رأسه. غضبون كالأخاديد جفرتها على وجهه آلة الزمن و تعاقب الليل والنهار. لكنه لم يغير من عاداته شيئاً. يلف سيجارته (العربي) يبللها بلسانه قبل أن يدق أحد طرفيها على علبته القديمة ذات النقاط المرقطة الصدئة. مازالت رفيقته على مدى الأعوام الماضية .

جدتنا الحاجة رقية قدمت غداءً من (الببصارة) والزيتون وخبز الطابون ثم أتبعته ذلك بأكوام من الشاي، وهي لا تكف عن ترديد عبارات الترحيب، والدعاء لنا بالنجاح والفلاح.. موصية إيانا بأمننا (المسكينة) المكافحة.. التي أفنت عمرها من أجلنا، بعد وفاة أبينا إلى أن أصبحنا الآن على مانحن عليه، ماشاء الله. كما أنها لم تنس أن تخصّ عليا بالكثير من التدليل والملاطفة إذ هي الآن (عروس.. والشبان سوف يقفون بالدور لطلب يدها !...!). ثم أهدتها قلادة من الخرز .

تضرجت وجننا عليا بحمرة خفيفة محببة، فطأطأت رأسها وهي تعبت بطرف ثوبها. تبادلت أمي والجدّة رقية نظرات مشفوعة بالابتسام .

قبل انصرافنا سألني الخال رمضان عن أنسابنا في يافا :

- هل من أخبار عنهم يا خال.. ؟
 - والله ياخال لانتعلم عنهم شيئاً .
 - ربما رحلوا هنا أو هناك عن يافا قبل سقوطها .
- أحسست بقلبي يتمزق من أجلهم. ترى أين هم الآن؟ وماذا حلّ بهم؟ هل غادروا المدينة..؟ والى أين إن كانوا قد فعلوا؟ وفتحية ماذا اصابها، وكيف واجهت مع ذويها هذه الأيام العصيبة، والأهوال التي تعرّضوا لها ..؟

كم كان مفاجئاً لنا عند عودتنا إلى دارنا أن نجدهم هناك قد وصلوا لتوهم.
فتحية وأسرتها.. العم أبو محمد وأسرتة.. أم عطف وزوجها وابنتاها .
الدنيا لاتسعي فرحاً. ها هي ذي أمامي أخيراً. حمداً لك يا رب. سعادة
غامرة أملت بنا جميعاً، وإن شابها الأسى لما بدا عليهم من آثار ما مرّ بهم من
معاناة. وجوههم شاحبة، أعينهم يطل منها الألم والأسى والأعياء بدا الرجال
مهزومين تماماً، والنساء منكسرات.. وفتحية.. أهذه فتحية ..؟ نضارة الوجه
وإشراقه المحيا.. والبسمة الأسرة في عينيك.. كأنك لم تعرفي الابتسام في يوم
من الأيام.. لولا هؤلاء لضممتك إلى صدري يا حبيبتي الغالية.. عيناى
لاتدرفان دموعاً لكنه قلبي يتنزى دماً ..

قصّوا علينا حكاية رحيلهم عن يافا : لبثوا فيها أياماً بعد سقوطها إلى أن
استتب الأمر للغزاة. واطمأنوا لسيطرتهم على المدينة. تمكنوا عندئذ من التسلل
في جنح الظلام، متخذين طريقاً على الشاطئ بين البيارات والكروم، متحاشين
المستعمرات اليهودية ريشون ورخبوت والقرى العربية التي احتلت مؤخراً.
رحلوا عن يافا مخلفين وراءهم كل ممتلكاتهم في حياتهم. ديارهم ومرابع
طفولتهم.. حتى ثيابهم ومقتنياتهم العزيزة على قلوبهم، اثاثاً، رسوماً، ولوحات،
مرايا شاهدوا فيها وجوههم على مدى عمر طويل من حياتهم الخالية. لم تكن
لهم أمنية عندئذ أكثر من النجاة بأرواحهم وشرفهم. تحدثوا عن معاناتهم في
رحلتهم البائسة، والأخطار التي تعرضوا لها. كان ممكناً ألا يصلوا إلينا أبداً.
ولقد حدث هذا لكثيرين غيرهم على الطرق فيما كانوا يسعون للنجاة بأنفسهم.
تحدثوا عن معارك قوات المدافعين عن يافا مع الهاجاناه، والتي كان أهمها
قوات جيش الانقاذ بقيادة المقدم (ميشيل العيسى). إنهم يعرفون التفاصيل أيضاً
حول ماجرى في الأيام الأخيرة هناك. سبق للمقدم العيسى أن أوقع الهزيمة قبل
ذلك بقوات يهود الهاجاناه، التي حاولت الاستيلاء على قريتي (بتو وبيت
سوريك)، للسيطرة على طريق القدس - تل أبيب، فانسحبوا مخلفين وراءهم
ماينوف على مائة وعشرين قتيلاً، فضلاً عن مصفحات انكليزية، وأسلحة

ونذائتر. لكن اليهود بعد أن عزّزوا قواتهم بدعم من الانكليز، تمكنوا من الحصول على موطئ قدم في الأحياء الشمالية من المدينة، في المنشية حيث منزلهم. أما مستعمرة رامات غان جنوب المدينة، وبتاح ها تكفاه شرقيها، فقد أسهمتا في تطويق المدينة. سلّمهم الانكليز معسكر تلتنفسكي عند إخلائه، وبهذا إضافة إلى تل أبيب في الشمال تم إحكام الطوق على يافا، فاستطاعوا، من ثم، قطع الطرق جميعاً على النجذات القادمة إليها. ولم يستطع الشيخ حسن سلامة وقواته الوصول بقواته إليها أيضاً. لاسيما وأن سلاحه لا يكافئ سلاحهم.

أما حديثهم عن المدينة وأهلها، فقد كان أليماً ومفرعاً. القتل في الشوارع والبيوت لا يجدون من يقوم بدفنهم. الجرحى لا يتسنى إسعافهم فيقضون نحبهم نزفا وجوعا وعطشا، تحت وابل من النيران وبين الأنقاض. أقسمت أم ابراهيم أنها شاهدت رجلاً تشطره قذيفة سقطت في شارع الدرهي إلى نصفين !! أما ساحة الساعة ومنطقة السراي التي سبق لهم أن نسفوها قبل ذلك بزمان وجيز، فقد غصت بجثث القتلى، كما اشتعلت فيها الحرائق وعمّها الدمار .

يتحدث الناجون، بعد رحيلهم عن مدنهم وقراهم، عن جرائم اليهود وما تبدى من حقدهم على العرب، ووحشيتهم التي لانظير لها. لقد فاقت جرائمهم مايزعمون بأن النازية قامت به نحوهم عشية الحرب العالمية. إنهم لا يقتلون الناس وحسب، بل هم يتفنون في القتل والتعذيب والتمثيل، لكأنهم يستمتعون بذلك. ينتزعون الرجال والفتية انتزاعاً من بيوتهم وذويهم، من بين أمهاتهم وأخواتهم، زوجاتهم وأطفالهم.. وعلى مشهد منهم، بين صراخهم وعويلهم، وهلعهم الذي ألزهمهم الصمت فخنق الصرخة في حلقهم، يوقفونهم أمام أي جدار، ثم يحصدونهم بالرشاشات، حتى دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الطلب إليهم أن يديروا ظهورهم، حتى لا يشهدوا موتهم بأعينهم. يسقط العشرات.. بل المئات.. وتتكون بحيرة من الدماء تتخبط فيها الأجساد المحتضرة، ثم تحملهم الشاحنات أكداً بعضها فوق بعض. حتى الجرحى الذين لم يقض الرصاص عليهم للتو، لا يستثنون، فيما أنينهم وصرخات آلامهم تذيب الحجارة لا القلوب. وفي مقبرة جماعية، حفرت بأيدي رعيّل آخر منهم، قبل أن تحصدهم الرشاشات حصداً بعد قيامهم بتلك الهمة، يلقي بهم في جوفها. يهال التراب على الأحياء والأموات معاً، فيختفي الأنيّن وتكتم الأصوات إلى الأبد. ثم يمضي الجناة كأن شيئاً لم يكن .

وفي حالات أخرى، ينتفون الأفراد من بين التجمعات المحاصرة في ساحة

القرية، أو فناء مدرسة أو جامع، بالقرعة أو بالرقم. يعدون أربعة يستبعدونهم - ربما إلى حين - والخامس.. سوء حظه أنه كان الخامس يفرز على حدة، إلى أن يتجمع العدد (المناسب) ..!، عشرة في أغلب الأحيان. ثم، وعلى مرأى من أمهات وآباء وأبناء وأقارب وجيران لهؤلاء تعصف بهم الرشاشات عصفاً، ليأتي بعد ذلك دور مجموعة أخرى. بل هم لا يتورعون عن نسف بيوت على ساكنيها. لا يشفع لهم أن بينهم نساء وأطفال ورضع. وإذا حاول هؤلاء إخلاء منازلهم بالخروج منها أرغموهم على البقاء فيها ليقتضوا نحبهم تحت أنقاضها، أو بقروا بطونهم بالحراب فيما هم يحاولون النجاة. يبدو أنهم استمروا فعلتهم في دير ياسين. فكم من الناس أحرقوا أحياء. وهم ينظرون إليهم، يستعذبون مرأى النيران وهي تلتهم أجسادهم. وكم دفنوا من الشبان أحياء أيضاً بعد أن أجبروهم على حفر قبورهم بأيديهم. بل قيل إن عجوزاً في قرية (وادي حنين) سقطت أرضاً في غمرة ما أصابها من هلع. صاحت مستغيثة، خائفة غاضبة (الله يقطع اليهود ويوم اليهود). سمعها أحدهم الذي يبدو أنه فهم ما قالت. اقترب منها فحسبته يسعفها. مدت إليه يدها ليعينها على النهوض لكن هذا ركلها بقدمه، فانطرحت أرضاً بهدوء وأعصاب باردة تماماً، وضع حذاءه الضخم على عنقها ظل يضغط ويضغط حتى أسلمت الروح وهمدت حركتها نظر إلى الجنة. ركلها ثانية. أدار ظهره ومضى .

أختلس النظر إليها، ثم إليهم واحداً واحداً، فلا أرى إلا معالم الحزن والألم والأعياء، ولكني أكاد لا أصدق هذا الذي أرى. ابن العم محمد، أين مرحه وضحكته المججلة التي أعرفها. هوذا منكس الرأس في استكانة مريضة.. العم أبو محمد، الرجل الذي كان حضوره يضيف على المكان حيوية وهيبة، يبدو الآن كسيراً منهزماً.. أبو إبراهيم.. أم محمد.. أم إبراهيم.. أم عطا.. يطبق الصمت.. ويغشى الحزن الوجوه. وعيون قرّحها البكاء الطويل. السهر والأرق يتواصلان بلا انقطاع إزاء رعب قصف لايهادن، وأهوال انفجارات لا تتوقف. ثم التخفي أياماً بطول الدهر كله، مع شح في الطعام، يتقاسمونه بينهم في حرص وتقتير حتى لاح لهم شبح الجوع وشيك الحلول.

عندما وصلوا إلى بيئنا لم يصدقوا أنهم نجوا من الموت حقاً. لكن النجاة التي كتبت لهم أخيراً كانت معجزة من السماء أنعم الله بها عليهم. لكنهم وإذا استقر بهم المقام أحسوا بالحنين المضني إلى يافا وتمنوا العودة إليها، حتى لو تعرضوا للموت الذي سعوا للفرار منه .

عجزت أمي، بدورها، عن مواساتهم حين حاولت ذلك، ورغم كل ما بذلت من جهد للتخفيف عنهم لاسيما السيدات من بينهم. وإذ لم تجد الكلمات لزمّت الصمت ..

وإذ كانت دارنا لا تتسع لكل من قدموا إلينا، وفي نفس الوقت لامناص من تدبر الأمر على نحو أو آخر، كان الحرج بادياً على والدتي قبل أن تهتدي إلى فكرة خطرت لها. وسرعان ما أفضت بها لمن حولها. هبّ الرجال جميعاً، لكي يتجهوا إلى الحاكورة، ثم ينهضون جميعاً في تنظيفها من الحجارة والأعشاب الجافة أولاً، ثم لينشؤوا عريشاً من الخشب وجذوع الأشجار، ومن فوقه ألواح (الزينكو). ولم تتوان النساء أيضاً عن الإسهام في ورشة العمل هذه على مدى اليومين التاليين. كما أنهن شاركن جميعاً في إعداد ما تيسر من الطعام.. فمن بنقع الحمص والفول لصنع أقراص الفلافل.. البرغل.. الأرز.. البيصارة من الملوخية الجافة.. الرمانية مع العدس.. البيض المسلوق.. والبطاطا المشوية.. أما الشاي والقهوة فلم تنقطع طول الوقت. أنا وابن العم محمد وسعيد وأحمد أسهمنا بقسط وافر من العمل، كذلك بالذهاب، أحياناً أو الأخر، إلى دكاكين أبو العبد الرملوي أو عثمان أبو حسنين، لشراء المسامير والأسلاك وأدوات النجارة والحدادة. حتى علينا كانت تغدو وتروح بابرّيق الفخار مملوءاً بالماء أو فارغاً منه، فرحة مبهجة كأنها تشهد عرساً. أحاول معظم الوقت الاقتراب من فتحية.. وحين أفلح في اختلاس نظرة أو قول كلمة لها يخفف ذلك الكثير ممالي، بل ويدخل المسرة إلى نفسي الفلقة. حتى الجيران لم يتأخروا عن الدخول إلى دارنا، كالحاجة ووالدتها وأم مريم، وعدلة الشامية تطل من أعلى جدار منزلها الملاصق للحاكورة، مرددات دعواتهن بأن يصلح الله الأحوال، وأن تمر هذه المحن على خير ..!

تتفست والدتي الصعداء عندما أنجز العمل واستقر بالضيوف المقام .

أما كيف تدبرت والدتي أمر إطعام الوافدين الأعزاء فكان ذلك من مهاراتها الخاصة بها التي كانت تدهشنا على الدوام. منها الاستدانة ولأول مرة من دكان جارنا الرملوي.. ومنها ما كانت تحتفظ به مؤونة الشتاء. ولكن الجيران لم يقصروا أيضاً في تقديم العون، طعاماً حيناً، شاياً حيناً وفرشاً وألحفة ووسائد حيناً .

كأن الناس لا تكفيهم هذه الهموم والأخطار المحدقة بهم من كل جانب. النار تطلق ذات ليلة على (محمد اليوسف) مجدداً، فيقتل أحد الذين معه وينجو هو. يتهايمسون (أهذا وقته ياناس..؟) كان محمد اليوسف في الأيام الأخيرة أكثر المتحمسين، بل المروجين للرحيل عن البلدة، ثم العودة عند دخول القوات المصرية إليها. من ثم ذهب بعضهم إلى تفسير الحادث على أنه ردع لمن تسول له نفسه الرحيل، وتأديب لمن يحضون عليه .

في مقهى (أبو داوود) تشاجر كامل دعسان مع رفيقه عامر البهنساوي. الأول يريد الاستماع إلى أغنية عبد الوهاب الجديدة (انشودة الفن)، فيما يريد الآخر متابعة الأغنية التي كانت تذاع في تلك اللحظة (الكرنك). هذا يزيح المؤشر يمينا وهذا يعيده يساراً. غضب أحدهما.. ثار الآخر.. دفعه في صدره.. استل البهنساوي من حزامه خنجرأً أغمده في صدر كامل. أصابت الطعنة مقتللاً فخر هذا صريعاً على الفور. وإذا لم تكن هناك سلطة فقد فرّ الجاني. ففر من فوق سياج البيرة المواجهة للمقهى. ثم اختفى لا يعلم عنه بعد ذلك أحد شيئاً .

ضجّ الناس لما يجري في بلدتهم. بل أخذ الغضب منهم مأخذه، فلقد أصبحوا الآن موزعي النفوس والعقول بين مايقع عندهم، من يوم لآخر، وبين الأخطار المحدقة بهم من كل جانب. حتى اللجنة الوطنية لم تصنع شيئاً ازاء هذه الحوادث، متذرة بأنها تكرر وقتها وجهدها كله في الإعداد لمواجهة العدو المرتقبة. محمد اليوسف نفسه التزم الصمت. كما التزم داره، فالانكليز ليسوا هنا الآن. خسرت القرية كامل دعسان، مدرب شبانها النشط في وقت هي في أمس الحاجة اليه .

فاجعة أخرى حلت بالقرية، وعلى وجه التحديد بآل الجمل. لقد قتل (بشير) ابن يوسف الجمل على الشاطئ، وجرى بجثمانه عند الغروب. ذلك أن آل الجمل هؤلاء ارتأوا الرحيل خفية عن أعين الناس، على أن يتم ذلك على

مراحل تشمل كلاً منها عدداً من أفراد العائلة. كان بشير ضمن المجموعة الأولى التي اتجهت الى البحر. استقلت قارباً كي ينقلها إلى (اسدود) أولاً، ثم منها إلى (المجدل)، حيث يلتقون جميعاً، ويلتئم شمل العائلة في نهاية المطاف. لكن الذي حدث هو أن زورقاً يهودياً جوّالاً في المنطقة أهدق بهم قبل أن يوغلوا بعيداً. أطلق عليهم نيرانه، فانكفأوا على أعقابهم لكي يعودوا أدراجهم. لكن (بشير) أصيب فنزفت جراحه على طريق العودة، وفارق الحياة قبل بلوغهم القرية.

بقدر ما حزن الناس من أجل الفتى بشير، وبقدر ما ألهم مصاب ذويه. كان أسفهم على تصرف آل الجمل المثير للاستهجان والازدراء .

خطبة الجمعة هذا الاسبوع كانت حافلة. فقد أمّ الجامع في أعالي القرية خلق كثير من أهل بيّنا واللاجئون اليها. غصّ بهم الجامع، وحين لم يتسع لهم فناءه الواسع، اتخذوا من الطريق المترب خارجه مصلى. لكن حظي كان جيداً إذ كنت داخل المسجد، ومعى فوزي الذي التزم أداء الصلاة منذ أسابيع. فقد كان الجو ماطرًا، والسماء ملبدة بالغيوم، وريح باردة تهب من الشمال .

اعتلى المنبر العتيق الشيخ (محمد أبو العينين). حمد الله وأثنى على رسوله الكريم. ثم شرع يتحدث عن الأوضاع القائمة في البلاد، وعما ينتظر وقوعه في الأيام المقبلة. تحدث أيضاً عما يجري في بيّنا ذاتها وكانت لهجته تشي بالاستياء. كان منفعلاً، بل غاضباً، وهو يدعو المصلين بنبرة حادة عالية إلى التآلف والاتحاد والتكاتف في مواجهة الأعداء، وإلا فكيف يواجهونهم متفرقين متخاصمين، يضمر العداء بعضهم لبعض. ذكرهم بالأندلس وملوك الطوائف وأبي عبدالله الصغير، وما آلت إليه تلك البلاد نتيجة لتخاصم كبرائها وإلا لقيت الأندلس عربية صميمة حتى يوم الناس هذا. مصوراً لهم كيف يكون حال عالمنا الراهن لو أن هذا كان هو الواقع اليوم أي لو بقيت الأندلس عربية. ثم أخذ يحثهم على البقاء فوق أرضهم في ديارهم الموروثة، مهما كانت الظروف، متسائلاً :

إذا كانوا هم - هؤلاء الكفرة الفجرة - يصرون على قتالنا غزاة مبطلين ومعتدين، فهل نتعاس نحن عن القتال، ونحن أصحاب حق نبغى الحفاظ عليه. ونحن أيها الأخوة حتى في حال استشهائنا نرجو من الله مالا يرجون .
أيها الناس :

إن أولئك الذين يرجفون بأنهم سوف يضمنون لأنفسهم النجاة إذا ما خرجوا اليوم ليعودوا غداً، فإني أقول لهم : من أدراك أن الموت لا يترصد بكم في محاولتكم الخروج نفسها؟ والمثل شهدتموه بأنفسكم فيما حدث للفتى بشير، الذي دفعه ذروه إلى الرحيل، فإذا بهم دون أن يعلموا، إنما كانوا يدفعونه لملاقاة حتفه. هذا الذي تصنعون اسمه الصريح دون مواربة (الفرار)، وهو أمر مشين بغيظ وعاقبته وخيمة دنيا وآخرة، لا يرضى عنه الله ورسوله، ولا حتى القيم الأخلاقية. استمعوا إلى قوله تعالى :

{ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، وإذا لا تُمَتَّعُونَ إلا قليلاً }

ويقول سبحانه وتعالى :

{ قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملائكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فنبئكم بما كنتم تعملون }.

ويقول جلّ شأنه :

{ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو في بروج مشيدة }

كأنني بهذه الآيات تصف حالكم الراهنة تماماً، فانتقوا الله في أنفسكم وفي عيالكم وأرضكم الطاهرة المقدسة. وماذا في الموت أيها الناس إذا كان شهادة؟ أجل إنها لأحدى الحسينين، والعاقبة هي الجنة، حيث يحشر الشهداء مع الصديقين والأنبياء أحياء عند ربهم يرزقون .

أعلنها لكم أيضاً صريحة صادقة لكي تتبينوا أمركم :

إن هجرتكم هذه لن تقضي إلا لضياح البلاد والعباد .

ثم يرفع يديه إلى السماء قائلاً بصوت متهدج :

اللهم أشهد أنني قد بلغت.. اللهم أشهد أنني قد بلغت ...

عقب أداء الصلاة النف أناس حول الشيخ يتحدثون إليه ويسألونه. تجمع آخرون هنا وهناك في داخل المسجد وفي باحته غير أن ريحاً عاصفة هبت بغتة، وانهمر المطر غزيراً، ثم سرعان ما تحول إلى برد كحبات الأرز. عدوت مع فوزي نزولاً باتجاه دارنا، لكن البرد كبرت حباته حتى أصبحت كحبات البندق. انحرفنا تلقائياً في الزقاق عن يميننا المؤدي إلى منزل جدي حسين. صعدنا إلى أعلى الزقاق، عند قمة التلة. كان الباب مفتوحاً. دخلناه مهرولين.

التقتنا الجدة رقية على الشرفة بلهفة واضحة :

- (ادخلوا.. ادخلوا يا أولاد.. يا مساكين أغرقكم المطر ..) قرّبتنا من الموقد، حيث يجلس أمامه جدي ممسكاً (المحماص) بيده يقلّب حبات البن على الجمر. والجمر يتلألأ تحت طبقة رقيقة بيضاء من الرماد، يقلّبه بملقاط حديدي أسود. رائحة القهوة والهيل الفواحة لذيدة شهية. رحب جدي بنا، ولم يفته أن يندد بتعريضنا أنفسنا للبلل أما هو فكان قد تخلف عن صلاة الجمعة بسبب مرض المفاصل الذي ألمّ به مؤخراً. البرد يرشق باحة الدار، ويعزف على ألواح التوتياء التي تغطي الشرفة الأمامية، والرياح تعصف بالأشجار، وتصفق نافذة مفتوحة هنا وهناك للجوار. أخوالي كانوا خارج الدار، عدا خالتي بديعة التي شرعت في مناكفتي ومماحكتي كعادتها، ممارسة هوايتها الأثيرة هذه كلما لقيتها. وهي ما انفكت تصرّ على أن أبدي لها التوقير المطلوب للخالات، فيما أصر من ناحيتي على عدم الاعتراف لها بهذه المكانة، وهي التي تماثلني عمراً، وإن كانت تبدو الآن شابة مكتملة الصبا. قدمت لنا شايًا وفطيرة بالسمن والسكر قبل أن يكف المطر وننصرف .

كان المطر قد غسل حجارة الطريق التي كنا نحاذر الانزلاق عليها، فنلتصق بالجدران الطينية اللزجة، لاسيما وأن القناة المتعرجة التي حفرتها الأمطار على مرّ السنين، يتدفق فيها الماء بلون الطمي الأحمر، مرسلًا هديره الذي عهدنا كلما هطلت الأمطار في كل شتاء .

ألفينا في دارنا العم عبد الغني، يجلس إلى العم أبو صافية. هو الآخر احتفى بدارنا إثر خروجه من المسجد. أمي في الداخل تعدّ غداء. محمود وعلياء يقرآن ويكتبان، بعد أن أمضيا وقتاً مع البرد المنهمر من السماء. لاحت معالم الشيوخوخة على العم عبد الغني أيضاً. لاسيما وأنه أرخى للحية العنان فطال شعرها الأبيض، وضافت حدقتا عينيه. وبدت التجاعيد على جانبي فمه والعضون على جبينه. يتدثر بفروة سمكة ذات صوف خراف أبيض من باطنها. يتدفأ على المنقل، فيما هو يرشف فنجان القهوة بتريث. يتحدثان عن الأحوال.. الصيرورة والمآل.. الأخطار المحدقة.. الحوادث الأخيرة في القرية.. كان الأحساس بالخطر مشتركاً بينهما ومدار حديثهما.

أبدى العم عبد الغني عجبه من غدر الزمان، وإن هذه الدنيا لاتصفو لأحد أبداً. ففي هذا الوقت بالذات أو في هذا العام تحديداً غزرت الأمطار، وفاضت

الأودية، وتدفقت الأنهار، والمواسم خصبة على نحو لم يعهد من قبل. وأن الخير سوف يكون هذا العام وفيراً وعميماً. وها نحن لا ندري ماذا تخبىء لنا الأيام القادمة.

صمت الرجل. لم ينبس أبو صافية بكلمة. لبنا مطرقين زمناً، يرمقان الجمر المتقد والعم أبو صافية ينقلها بملقاط في يده، بتؤده وأناة، كأنه يرسم لوحة، أو يرصف حجارة بناء، ومع تموجات الريح يتناهى إلينا صوت الشيخ محمد رفعت يتلو آيات من القرآن الكريم تضيف على الجلسة حزناً يسري في النفس وخشوعاً. والرعد يقصف في أعقاب وميض البرق المتتابع في الأفق، والغيوم الداكنة الكثيفة تحجب عنا صفحة السماء.

أما وقد دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين في الموعد المضروب لدخولها، الخامس عشر من أيار، فقد اطمأنت القلوب الوجلة، وهجعت النفوس المضطربة. أقام الناس الأفراح، وطَّيَّروا التهتافات، فهاهم أولاء اخوتهم يقتحمون البلاد من كافة جهاتها، ولن تتحقق لليهود أحلامهم المريضة. أيام قليلة ويستتب الأمر للقوات الزاحفة، إذ لا قبل للعصابات اليهودية - بطبيعة الحال - بمواجهة هذه القوات المؤلفة من جيوش سبع دول عربية. بل إن مشروع التقسيم سوف يصبح في خبر كان، و(أثراً بعد عين) كما يقول الشيخ محمد ابو العينين مباحياً، في جمع غفير من الناس.. !

انقضت أيام، ولا شغل لهم سوى الالتصاق بأجهزة الراديو، في المقاهي والمضافات، وفي منازل (السعداء) ممن يملكونه من أهل القرية. أخبار القوات المصرية والسودانية تجذب انتباههم بصورة خاصة لأن قريتهم وهذه المنطقة ميدان عملياتهم. من ثم راحوا يتابعون أخبار الجبهة الجنوبية باهتمام أكبر وتركيز أشد. في الأيام الثلاثة الأولى استطاعت تلك القوات أن تبلغ مدينة غزة، ثم المجدل. تريت هناك لأن المستعمرات على التلال المشرفة على الطريق شمالاً كانت تقصف القوات الزاحفة، فكان عليها إذن تصفيتها أولاً بغية تأمين الطريق. وعندما أسيكت نيران المستعمرات في غضون أيام قليلة، تابعت القوات زحفها حتى وصلت قرية أسدود، انطلق الناس يهنئ بعضهم بعضاً. يتعانقون في الطرقات والساحات العامة والمقاهي والدكاكين ... موجة من الفرح الغامر عصفت بهم. هم يعيشون الآن حقيقة الحلم الذي راود عقولهم في صحوهم ومنامهم في الحقبة الأخيرة .

صاح قائل منهم للجمهور الغفير في الساحة :

إنهم في أسدود الآن باشباب. أسدود جارتنا الجنوبية. ولن يمضي يوم أو يومان حتى نراهم هنا بيننا بمصفحاتهم ودباباتهم ومدافعهم. أبشروا - أبشروا .

صاح آخر :

وهذه (البواريد) العتيقة لن نتفعنا بعد الآن. إخواننا القادمون سوف يبدلوننا
لنا برشاشات وبنادق انكليزية جديدة صالحة للقتال. أما الذخيرة فسوف تتوفر
لكم بل تنثر أمامكم كالأرز..!

أعلن ثان:

لأننا سوف نرفض أن نلبث متفرجين وهم يقاتلون. إن علينا أيضاً دوراً
نقوم به علينا أن نشاركهم القتال. ونحن الذين سوف نرشدكم إلى الطرق
والمداخل المؤدية إلى المستعمرات اليهودية، ثم نمضي معهم إلى تل أبيب بإذن
الله .

ثم يهتف ثالث :

ويلك يا تل أبيب.. جاءت أيامك.. (ثم بصوت منغم):

..يا تل أبيب جينا لك.. يا فلسطين هنيئاً لك ..

يرددون الأزوجة وراءه جميعاً فتشق أصواتهم أجواز الفضاء. ثم يعلو
الهناف والصياح، ويسود هرج ومرج. وتعلو الوجوه علائم البشر والبهجة. هم
الآن يأمنون على أرضهم وأرواحهم، وأعراضهم. وموسم الخير القادم
والاستثنائي هذا، سوف يكون لهم بعون الله. فلقد اقترب موسم الحصاد ..!
اللاجئون في القرية أيضاً سوف يعودون إلى بلدانهم .

لكن الأيام تمضي تباعاً ولا يصل الجيش المصري .

".. أين هم أيها الأخوة.. لماذا لا نرسل وفداً منا يستطلع الأمر. اليهود
أيضاً بدأوا من جديد تحرشاتهم من حولنا بالقصف، عن بعد حيناً، والهجمات
المباشرة على الأطراف والمشارف حيناً آخر .

تشكل وقد ضمّ عدداً من الوجهاء والمخاتير، من بينهم الشيخان أبو العيين
والعطار، لمقابلة القيادة المصرية في اسدود حملتهم إليها المصفحة التي كسبها
في آخر معركة مع اليهود .

قابل الوفد ضباطاً مصريين. تعرف إليهم بأسمائهم ورتبهم. تحدث أعضاء
الوفد إليهم مسهبين في الشرح والتوضيح. لكن هؤلاء أجابوا، بعد الرجوع إلى
قائدهم العام (اللواء المواوي) بأن الجيش يتقدم حسب خطة مرسومة، لا تتضمن
الزحف الآن إلى بينا. وأن خطة دخول بينا هذه سوف يتم تنفيذها في وقتها
المناسب والمحدد من القيادة العليا. وهذا سرٌّ عسكري لا ينبغي البوح به.

كانت هذه الاجابة مفاجئة وغير شافية، مما اضطرهم إلى إعادة شرح الموقف برمته. بين لهم هؤلاء أن الطريق مابين بينا واسدود شبه خالية من العقبات والعوائق، ليس هناك سوى مستعمرة (غان بينا) الصغيرة والتي لاتعني شيئاً أمام هذه القوات، وأن ليس عليهم سوى أن يتحركوا باتجاه الشمال، لكي يكسبوا موقعها المتميز، إذ هي تطل من ارتفاعها الشاهق على كافة السهول المحيطة بها. وعلى مرمى القذائف تقع رخبوت المستعمرة الكبيرة والخطيرة معاً. يكفي أن تسقط (رخبوت)، وبعدها (ريشون) ليصبح الطريق إلى يافا وتل أبيب مفتوحاً أمام القوات الزاحفة. هذا الموقع المسيطر على المنطقة يعينهم التمرکز فيه على إنجاز مهمتهم على نحو مثالي، بغير خسائر مادية أو بشرية. أبدى الضباط عواطفهم الأخوية الفياضة. بل هم أبدوا الكثير من الحماس، والرغبة في التحرك فوراً لو كان الأمر بأيديهم. لكنهم بعد أن رجعوا إلى قيادتهم، عادوا للقاء الوفد آسفين. ذلك أن القيادة العليا في القاهرة، المؤتمرة بأمر القائد الأعلى الملك فاروق لاتوافق على ذلك. كان تأثير الضباط واضحاً. عرف الوفد أسماء بعضهم. البكباشي جمال عبد الناصر، الصاغ صلاح سالم.. اليوزباشي أنور السادات. ولم يكن هؤلاء أقل استياءً لجواب القيادة من أعضاء الوفد أنفسهم. إذ هم يرون أنهم، على الرغم من قناعتهم بسلامة ما طرح عليهم وجدواه الفائقة عسكرياً، لا يستطيعون أن يصنعوا شيئاً حيال تلك التعليمات الحازمة الصارمة لقيادتهم، ورغم ضعف حججها وهزال ذرائعها.

أحس أعضاء الوفد بالاحباط. وبأن مهمتهم باءت بالفشل. عندئذ أعلنوا أمام إخوانهم المصريين، ربما لكي يبرئوا ذمتهم، أو تعبيراً عن غيظهم. "إن قريبتنا تسقط إذن. وحدنا لن نقدر على صد القوات اليهودية المدججة بالسلاح. نحن أيها الأخوة لاينقصنا الرجال ولاتعوزنا العزيمة.. السلاح وحده هو ما نفنقر اليه.. والسلاح تملكونه أنتم."

كان رد الضباط الأخير المتسم بالمرارة .

- تقول قيادتنا، أيها السادة، ليحتلها اليهود اليوم، لنخرجهم نحن منها غداً..!

دهش القوم.. بل صعقوا، فقال قائلهم :

- هل رأي القيادة هذا، أيها الأخوة، يتسم بالمسؤولية.. ؟

قال آخر :

- ولماذا يجب أن ندعم يحتلونها أولاً..؟

قال الشيخ محمد وهو يضرب كفاً بكف، وبصوت ملئاع :

- هل أدخلتم في حسابكم كم سوف يكلف ذلك من الضحايا، سواء جنودكم أو أهل القرية واللائذون بها. ماذا يحدث لهؤلاء؟ ولماذا تخسرون موقعاً هو في يدكم الآن مجاناً.. بل كأننا نقدمه هدية منا للعدو..؟ أجل لماذا يجب أن تخسروا الرجال والسلاح أولاً، في حين أنتم مدعوون لتسلمها بغير قتال ودونما تضحيات؟.. أليس عجباً هذا أيها الأخوة..؟

أضاف الشيخ علي العطار وهو يهز رأسه في أسف وألم :

- تصوروا أي ثمن سوف ندفعه نحن وتدفعونه أنتم إذا لم تستجب قيادتكم لندائنا .

أطبق صمت ثقيل. تتماهى عواطف الجانبين، كما يتماثل الاحساس بالعجز. يتشابه الموقف رغم اختلاف المواقع ..

وانتهت اللقاءات التي لم تسفر عن النتيجة المرجوة. ودّع الرجال الرجال في جوّ يتسم بالحرّج والكآبة .

عاد الوفد خائباً، كسيراً، مهموماً، لا يدري ماذا ينقل لتلك الآلاف المؤلفة المنتظرة هناك بقلوب مفعمة بالرجاء والأمل .

أصوات القذائف تهدر من بعيد. نصيحخ السمع علنا ننبين مصدر القصف. لكنه يتناهى إلينا من شتى الأنحاء. تسهر الأعين الذابلة.. يحرق الجميع في الجميع.. لا يدري أحد ماذا يحل بأحد الآن وفي الغد.. من يمضي ومن يبقى.. نمكث في ديارنا أم نهجرها إلى المنافي البعيدة.. نحيا أم نموت.. يوشك أن يتساوى كل أولئك.. !

فتحية ومن معها، وسائر من في دارنا اخلدوا للنوم رغم أصوات القصف التي لا تتوقف. أعياني الترقب، وأرهقني السهر.

أمضي بعيداً.. بعيداً إلى الماضي السحيق.. يلوح لي وجه أبي مشرق المحيا.. ممسكاً بيدي. وقبل أن نجتاز الطريق إلى طرفه الآخر. تتطلق رصاصات غادرة هوجاء. يتداعى.. يترنح.. يسقط مضرجاً بدمائه. أنكب على صدره باكياً، ضارعاً، مستجدياً أن يبقى.. أن يعود.. جرس المدرسة يدق من بعيد، رتينا حزينا.. والمرئيات ضباب رقيق.. ولكن.. ولكن هاهو ذا يعود.. إنه هناك على الضفة الأخرى للنهر. أشجار خضراء باسقة، تطاول السماء ارتفاعاً.. ظلالها مفروشة بلا نهاية فوق أرض حمراء كالحناء. نحن، جموع الناس هنا على الجانب الآخر، يفصل النهر العظيم بيننا بأمواجه المتدفقة.. حمراء اللون.. عجيبة هذه المياه بلونها القاني. عواصف هوجاء توشك أن تقتلعنا من فوق الأرض.. أعاصير عاتية تمزق الستائر وتطيح بالشرفات.. تحطم النوافذ والأبواب.. تقصف الأشجار وتبعثر الورود والأزهار.. تتطاير أوراقها في شتى الأنحاء فتحجب وجه الشمس، ويحل من بعد الظلام. أمطار قانية اللون تنهمر في غزارة وسخاء، لم يعهد مثلها من قبل، تحيل الأرض إلى بحيرات. وحوش كاسرة تنقض مشهورة أنيابها على حملان بيضاء وديعة. تحمل على ظهورها أطفالاً يرسلون ضحكات جذلى يتجاوب صداها ما بين الأرض

والسماء. أبي ما برح قائماً هناك على الضفة الأخرى من النهر. شاخصة
أبصارنا إليه. تظلل وجهه سحابة حزن، ويطل من عينيه أسى وغيظ كظيم.
الوَح له بيدي مناشداً إياه أن يمدّ لنا جسراً نعبره إليه. ولكنه يشير بيده إليّ
وللآخرين وقد امتدت سبّابته نحونا، حتى أوشكت أن تلج في أحداق عيوننا وهو
يقول بصوت ضخم هادر :

" ابقوا حيث أنتم. لا تبرحوا دياركم، فذلك خير لكم ولأجيالكم القادمة. لقد
صمدتم أحقاباً وأحقاباً على مرّ الزمن فما بالكم اليوم تتخاذلون.. إن تصبروا
فالنصر آتٍ لامحالة. أفلا تصبرون وأنتم الأعلو؟ أناشدكم ألا تبرحوا أرضكم
الغالية تحت أي ظروف. إن لم تفعلوا فأمامكم يا أحبتي أهوال وأهوال، مما
تعلمون ومما لا تعلمون، ومما لا يخطر لكم على بال. لعلمكم الآن لا تقدّرون قيمة
الأرض التي تربضون فوقها حق قدرها، ذلك أنها في متناولكم وتحت أقدامكم
ثابتة لا تميد، بيد أنكم ستعرفون معنى ذلك في قادم الأيام إذا ما قتر لكم أن
تفقدوها وإني لأرى ذلك رأي العين. وما أنا إلا ناصح لكم وأمين .

ثم اقترب مني وثيد الخطأ، وحزيناً أيضاً. ضمني إلى صدره. ربت على
ظهري، ومسح رأسي بيده التي بدت أضخم مما أعرفها. أمعن النظر في
وجهي.. قبلني.. ثم استدار ليمضي، فأصيح بصوت لا يبرح حنجرتي، ضارعاً
إليه أن يعود.. لكنه لا يعيرني التفاتاً.. يمضي بعيداً وثيد الخطأ كما جاء، يخنقي
بين أدغال كثيفة ذات أشجار خضراء.. شديدة الاخضرار ..

تتلفت حولي.. لم أر أحداً.. أين ذهبت تلك الجموع ..؟

يتوالى القصف، وتندلع الحرائق في كل مكان.. عصف الرشاشات الهادر
يرج الأرض رجا. زخات الرصاص مطر ينهمر كالسيل في يوم شتائي
عاصف.. شتاء الشظايا والقنابل ودوي الانفجارات يتدفق بلا هوادة ..

يهرع الناس أفواجاً أفواجاً يعتزمون الرحيل.. فأجدني بين الجموع أهيب
بهم أن يستمعوا إليّ لأنقل إليهم رسالة أبي..

بعضهم يصيح السمع، متظاهراً بالاستماع لما أقول.. وبعض يلقي إليّ
بنظرات ساخرة، مرددين بأصوات مختلفة، متباينة قوة وضعفاً علواً وخفوتاً :

.. لقد أصيب (المسكين) في عقله نتيجة للقصف بالجنون !..
.. ألا تسمعون : إنه يحدثنا عن أبيه الذي قضى نحبه منذ سنوات عديدة
خلت !..
.. لن نستمع إلى هذيانه .. لقد أصابه مسٌّ من الجنون.
.. إذا كنا نرحل اليوم فلنعود غداً مع القوات الزاحفة القادمة من
الجنوب..
ويضيع صوتي في الزحام بين زخات الرصاص وهدير المدافع.

(هناك جزء ثانٍ)

المؤلف

- مواليد : بينا - فلسطين
- دراسة : الادب الانكليزي -جامعة دمشق
- عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق
- عضو اتحاد الكتاب الفلسطينيين
- عضو رابطة الأدب الحديث بالقاهرة
- عضو رابطة الكتاب الاردنيين بعمان
- أمين سر جمعية القصة والرواية باتحاد الكتاب العرب حتى عام 1996
- رئيس تحرير مجلة صوت فلسطين 1970
- شارك في عديد من مؤتمرات الأدباء العرب والفلسطينيين
- أسهم بالعديد من الأعمال والنشاطات في الاذاعات العربية
- يكتب في الصحافة العربية منذ أواسط الخمسينات
- ترجمت بعض أعماله للانكليزية والفارسية.



315 _____ ■

صدر للمؤلف

- أشرققت الشمس
النافذة المغلقة
أضواء على المؤامرة الكبرى
المصير
سنلتقي ذات يوم -
قادم غداً
الطريق إليها
الأرض ترفض الجثث -
وأقبل الخريف
قبل الرحيل
المحاكمة
حتى وداعاً لم تقولي -
- قصص - دار ممفيس - القاهرة 1961
- قصص - دار طربين - دمشق 1965 طبعة أولى
دار الجليل - دمشق 1991 طبعة ثانية
- بحث سياسي - منظمة التحرير الفلسطينية - دمشق 1965
- مسرحية - دار أطلس - دمشق 1967 طبعة أولى
- دار الانجلو - القاهرة 1972 طبعة ثانية
- دار الطفولة والشباب - بيروت - 1983 طبعة ثالثة
قصص - وزارة الثقافة - القاهرة 1969
- قصص - اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين - دمشق 1980
- قصص - دار الجليل - دمشق 1990
قصص - دار الجليل - دمشق 1994
- قصص وزارة الثقافة - دمشق 1997
- رواية - اتحاد الكتاب العرب - دمشق 1997
- مسرحية (تصدر قريباً)
شعر (تصدر قريباً)



رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية :

قبل الرحيل : رواية / يوسف جاد الحق - دمشق : اتحاد الكتاب العرب ،
1997 - 311 ص؛ 25 سم.

2- 813.009564 ج ا د ق

4- جاد الحق

1- 813.03 ج ا د ق

3- العنوان

مكتبة الأسد

ع 1997/10/1622



هذا الكتاب

رواية تتناول الأحداث والوقائع التي سبقت النزوح الأول للشعب العربي الفلسطيني وعملية التسلل الصهيوني إلى فلسطين في ظل الانتداب البريطاني الداعم لعصابات القتل والتدمير والمساند لها، ويصور لنا الكاتب بأسلوب فني ولغة جميلة، نماذج حيّة من نضال أبناء فلسطين وقوافل الشهداء، ومنطلقاً من واقعية الحدث وأمانته للأبعاد والظروف التي سبقت ورافقت اغتصاب فلسطين بروح موضوعية وحسّ قومي أصيل.

